١
خريف ٢٠٢٤م
ربيع الآخر ١٤٤٦هـ

الاستعمار
COLONIALISM

مجلة فصلية تعنى بتحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد وما بعد الاستعمار
تصدر عن المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2767 لسنة 2024م

الافتتاحية
لماذا الاستعمار؟

حوارات

حوار حول الاستعمار — د. ادريس هاني

بحوث و دراسات

علماء الحَوزة العلميّة وصناعة التاريخ — د. محمد أمين الكوراني
الاستعمارالفرنسي لمصر في ظروفه الزمانية والمكانية — د. غيضان السيد علي
الأوضاع السياسية والاجتماعية في سورية قبيل الاحتلال الفرنسي — د. حسام النايف
كيف واجهت جامعة الزيتونة مناهج الاستعمار اللغوي الفرنسي — د. ناجي الحجلاوي

قراءات علمية

دور السَّيِّد محسن الأمين في مواجهة الاستِعمار الفرنسي — د.مرح رافع البرغش
الدبلوماسية الروحيّة والمخطّط الإبراهيميّ — د.هبة جمال الدين

ترجمات

ما الاستعمار؟ — كَايْ بارْفِيِّ

نصوص مستعادة

أهمية العراق الإستراتيجية للسياسة البريطانية — د. صباح كريم الفتلاوي

١

الاستعمار
colonialism

مجلة فصلية تعنى بتحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد وما بعد الاستعمار

تصدر عن المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2767 لسنة 2024م.

الآراء الواردة في هذه المجلة لا تُعبّر بالضرورة عن توجّهات المركز

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾

(سورة التوبة: ١٢٠)

الاستعمار
colonialism

مجلة فصلية تعنى بتحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد وما بعد الاستعمار

تصدر عن المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2767 لسنة 2024م.

رئيس التحرير

د.هـــاشم الميلاني

مدير التحرير

د. عمار عبد الرزاق الصغير

سكرتير التحرير

د. فرقان الحسيني

هيئة التحرير

أ. الشيخ جمال عمار	باحث في الفكر الإسلامي والفكر الغربي .
د. حسّان عبد الله حسّان	أستاذ العلوم التربوية والنفسية في جامعة مصر.
أ. الشيخ حسن الهادي	باحث في الفكر الاسلامي واستاذ في الحوزة العلمية في لبنان.
د. محمود حيدر	أستاذ الفلسفة والفكر المعاصر في جامعة لبنان.
د. ياسين شهاب البيجواني	أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة العراق.
د. يحيى أبوزكريا	أستاذ الحضارة الاسلامية فى جامعة الجزائر.

تدقيق اللغة العربية

د. فضاء ذياب

تدقيق اللغة الانكليزية

أ. فاضل شيحان

للتواصل

ـ موقع المركز: http://www.iicss.iq

ـ موقع المجلة: colonialism.iicss.iq

ـ إيميل المجلة: info@colonialism.iicss.iq

رسالة المجلة

دراسة حقبات الاستعمار الغربي القديم والجديد للدول والشعوب، وما بعد الاستعمار، وتعزيز ذلك بالوثائق. وبيان الدوافع والغايات الاستعماريّة من النواحي السياسيّة، والاقتصاديّة، والتربويّة، والثقافيّة، والفكريّة.

والكشف عن الطبيعة الهمجيّة والمتوحّشة للحروب الاستعماريّة العسكريّة، وآثارها التدميريّة، على البلاد المستعَمرة وقتل أهلها، وآثار الغزو الثقافيّ على الهوية الثقافيّة والدينيّة والاجتماعيّة والإضرار بالمواطنة، والتشكيك بالقيم، وتغريب الوعي، وتمزيق الوحدة بإيجاد الاختلافات وتنمية الانقسامات وبثّ الفرقة، وتعميق الاختلاف الطائفي والعنصري والقومي والديني وافتعال الأزمات، وآثار ذلك حتى الوقت الراهن؛ للخروج بصورة واضحة عن السياسة الاستعمارية، وما تُخلِّف من خراب مُستدام في واقع الشعوب؛ ممّا يسهم في فهم الآخر والواقع، وتكوين وعيٍ وطنيٍّ مستقلٍ للحاضر والمستقبل.

ولا تُغْفِل المجلةُ دورَ المقاومة الدينيّة والفكريّة والعلميّة والأدبيّة والميدانيّة والسياسيّة في مناهضة مشروع الاستعمار، وتأريخ نهضة الشعوب وجهادها في مواجهة المدّ الاستعماري الغربي.

ضوابط النّشر

تُرحّب مجلّة (الاستعمار) بنشر الأبحاث العلميّة الأصيلة، وفقًا للشروط والضوابط العلمية والمنهجية الآتية:

١.تنشر المجلّة الأبحاث العلميّة والدراسات الرصينة - ذات العلاقة بهوية المجلة - التي تلتزم بمنهجيّة البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالميًّا.

٢. العناية بنقد الاستعمار القديم والجديد ومابعد الاستعمار ، وبيان الصورة المظلمة التي خلّفها، وعدم الاكتفاء بالعرض والوصف.

٣.ألاّ يكون البحث قد نُشر سابقًا في مجلّةٍ أو كتابٍ أو موقعٍ الكتروني...، وليس مقدّمًا إلى أيّة وسيلة نشرٍ أخرى، وعلى الباحث تقديم تعهّدٍ مستقلٍّ بذلك. وعليه أنْ يُشير فيما إذا كان البحث قد قُدّم إلى مؤتمرٍ أو ندوة، وأنّه لم يُنشر ضمن أعمالهما.

٤.تعبّر جميع الأفكار المنشورة في المجلة عن آراء كاتبيها، ولا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر جهة الإصدار، ويخضع ترتيب الأبحاث المنشورة إلى موجبات فنيّة، ولا علاقة له بمكانة الكاتب وأهميّة البحث.

٥.أنْ يُكتب البحث باللّغة العربيّة، ويُرسل منه نسخة إلكترونيّة بصيغتي Word و pdf، بحدود (٥,٠٠٠-٧,٠٠٠) كلمة، بخط (Simpelied Arabic)، على أن تُرقّم الصفحات ترقيمًا متسلسلاً.

٦.تقديم ملخّصٍ للبحث باللّغة العربيّة، يُوضع في أوّل البحث، ولا يزيد على (٣٠٠) كلمة، على أنْ يتضمّن عنوان البحث، واسم المؤلّف، وتخصصه، وجهة العمل (باللغتين العربيّة والإنكليزيّة)، ورقم الهاتف، والبريد الإلكتروني.

٧.تكون هوامش كلّ صفحةٍ في أسفلها، والمصادر والمراجع في نهاية البحث. أما طريقة كتابة المصادر والمراجع فتكتب على وفق الصيغة العالميّة المعروفة بـ (chicago)، وهي على النحو الآتي: اللقب، اسم المؤلف، عنوان الكتاب، اسم المُحقِّق أو المُترجِم أو المُراجِع أو المُصحِّح -إنْ وجد- ، الطبعة ، المجلد أو الجزء، مكان الطبع، اسم المطبعة، سنة الطبع. وفي المقالات تكون على الترتيب الآتي: اسم المؤلف، عنوان المقال، اسم المجلّة العلميّة، جهة الصدور، رقم العدد، تأريخه، ورقم الصفحة.

٨.يُزوَّد البحث بقائمة المصادر منفصلةً عن الهوامش، وفي حالة وجود مصادر أجنبيّة يُفرد لها قائمةٌ مستقلّةٌ عن قائمة المصادر العربيّة، ويُراعى في إعدادها الترتيب الألفبائي لأسماء المؤلفين.

٩.يجب أنْ يُرفق الباحث تعهّدًا خطّيًّا ببحثه، هذه صيغته:

جانب مدير تحرير مجلة الاستعمار المحترم

أقرّ أنا الموقّع على هذا أدناه وأتعهّد .... (يذكر اسم الباحث) ....(الصفة العلمية للباحث) بأنّ هذه المادة وعنوانها :.....(العنوان الكامل للبحث)، هي من إنتاجي العلمي؛ ولهذا فهي تدخل في ملكيتي الفكريّة، ولم يسبق نشرها، وإنّي أُعطي مجلّتكم الكريمة حقّ الطبع والنّشر والتّرجمة، وإعادة النّشر والتوزيع الورقي أو الالكتروني.

١٠.لا يحقّ للباحث أنْ يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيأة التّحرير.

١١.تخضع الأبحاث المستلمة لبرنامج الاستلال العلمي Turnitin. وتخضع كذلك لتقويم سرّيّ لبيان صلاحيّتها للنشر، ولا تُعاد الأبحاث إلى أصحابها سواء أقُبِلت للنشر أم لم تُقبل.

١٢.الأبحاث التي يرى المقوِّمون وجوب إجراء تعديلاتٍ عليها قبل نشرها تُعاد إلى أصحابها، مع الملاحظات المحدّدة، كي يعملوا على إعدادها نهائيًّا للنشر.

المحتوى

الإفتتاحية ٨

الحوارات

حوار حول الاستعمار
د. ادريس هاني ١٢

بحوث ودراسات

علماء الحَوزة العلميّة وصناعة التاريخ
د. محمد أمين الكوراني ٢٠

الاستعمار الفرنسي لمصر في ظروفه الزمانية والمكانية
د. غيضان السيد علي ٤٤

الأوضاع السياسية والاجتماعية في سورية قبيل الاحتلال الفرنسي
د. حسام النايف ٧٦

جدل التعريب والتغريب في تونس
د. ناجي الحجلاوي ١٠٤

قراءات علمية

دور السَّيِّد محسن الأمين في مواجهة الاستِعمار الفرنسي
د.مرح رافع البرغش ١٢٤

الدبلوماسية الروحيّة والمخطّط الإبراهيميّ
د.هبة جمال الدين ١٤٤

ترجمات

ما الاستعمار ؟
كَايْ بارْفِيِّي ١٧٦

نصوص مستعادة

أهمية العراق الاستراتيجية للسياسة البريطانية
د. صباح كريم الفتلاوي ٢٤٤

ترجمة ملخصّات المحتوى بالإنكليزيّة ٢٨٤

الإفتتاحية

لماذا الاستعمار؟

رضخت مساحاتٌ واسعةٌ من العالم الإسلامي وغير الإسلامي لوطأة الاستعمار الغربيّ مّما أدّى إلى الهيمنة الغربيّة في العالم من جانب، والتخلّف الشامل للدول المُستعمَرة من جانبٍ آخر.

إنّ رصد ما أحدثه الاستعمار في مختلف الدول من آثارٍ سلبيّة: اجتماعيّة، وثقافيّة، وسياسيّة واقتصاديّة، بحاجةٍ إلى تدوين كتبٍ ودراساتٍ كثيرةٍ لا يسعفها أوراق الشجر دفاترَ، ومياه البحار مدادًا.

لقد تلوّن الاستعمار بألوانٍ مختلفة، وظهر بمظاهر متفاوتة، مازلنا نشهدها في عوالمنا، والاستعمار وإنْ انتهى بوجهٍ من وجوهه غير أنّه مستمرٌ في واقعنا المعاصر بوجوهٍ أخرى، ربما تكون أكثر بشاعةً وأنفذ سنانًا فينا؛ وذلك بفضل ما أتاحت له الثورة المعلوماتيّة والتقنيّة الحديثة والعولمة من فرصٍ كبيرةٍ لبسط هيمنته في جميع أرجاء المعمورة، فإذا كان الاستعمار القديم قد تمكّن من السيطرة على الأرض وعلى الموارد الطبيعيّة للشعوب المستعمَرة، فقد تمكّن اليوم الاستعمار الجديد من السيطرة على العقول والقلوب؛ ممّا أدّى الى مسخ الهويات الدينيّة والوطنيّة، وطمس الخصوصيّات القوميّة المختلفة، الأمر الذي لم يتمكّن الاستعمار من النفوذ إليه والاستحواذ عليه في نسخته القديمة. هذا وغيره دعانا الى إصدار مجلّة الاستعمار لتسليط الضوء على ما أحدثه الاستعمار في العالم من فوضى ودمار على جميع الأصعدة.

ولأجل بيان منهجيّة العمل لا بدّ من الإشارة إلى الأمور الآتية:

١. لا يمكن دراسة الاستعمار الغربي بمعزلٍ عن دراسة الأهداف، والأسباب التي دعته إلى بسط هيمنته على العالم؛ فمن دون ذلك تصبح قراءتنا ناقصة، وتوقعنا في مغالطاتٍ

عدّة. علمًا بأنّ أهداف الاستعمار كثيرة، ولكن يمكن الإشارة إلى أهمّها:

- التبشير.
- العثور على الموارد الطبيعية.
- العثور على الأسواق لاستهلاك البضائع المنتجة.
- بسط الهيمنة وتوسيع رقعة النفوذ.

٢.لا بدّ من دراسة الاستعمار وفق معطيات المنظومة الغربيّة والمنظومة الاستعماريّة بنحوٍ عام، لا وفق المفردات الجزئيّة وبعض الظواهر التي ربما تبدو في الوهلة الأولى إيجابية؛ إذ يُبتلى البعض بالنظرة التجزيئية، ويرى أن المستعمِر قد خدم البلاد المستعمَرة بما قدّم لها من خدمات اجتماعيّة وعسكريّة وتعليميّة وغيرها – وهي النظرة التي يدعمها ويروّج لها المستعمِر أيضًا – غير أنّ النظرة الشاملة المنبثقة من معرفة واقع المنظومة الغربيّة وحقيقتها، تكشف لنا زيف هذه الادّعاءات؛ إذ إنّ المستعمِر كان يخدم أهدافه ومصالحه من خلال تقديم بعض الخدمات لبسط نفوذه وهيمنته وتلميع صورته البشعة.

إنّ المنظومة الغربيّة تعتمد على الرؤية العرقية، وعلى البراغماتية والنفعية الماديّة لتوفير القدر الأكبر من المصالح والمكاسب السياسية والاقتصادية والأمنية والثقافية، مضافًا الى استخدام سياسة المكر والتفرّقة وضرب هذا بذاك.

٣.إنّ استقلال البلدان من الاستعمار نقطةٌ إيجابيةٌ في حدّ ذاتها، غير أنّه يلزم من فحص خيوط الاستعمار حتى في موضوع الاستقلال أيضًا كي لا يلتبس علينا الأمر، ولنرى الى أين اتّجهت الأمور، فكثيرًا ما نرى أنّ المستعمِر قد ركب موجة الاستقلال وساق البلاد من استعمارٍ قديم إلى استعمارٍ جديد بأيادٍ محلّيّة عميلة ساقت البلاد والعباد نحو التغريب، والدخولٍ في لونٍ استعماريٍّ آخر يلهث وراء الاستهلاك والموضة ونمط الحياة الغربية.

٤.إنّ إعادة قراءة ملّف الاستعمار حاجةٌ مضاعفةٌ في عصرنا الراهن، وذلك:

أ. لأنّنا ما زلنا دولاً مستعمَرةً تحكمنا عقلية المستعمِر، ويتحكّم فينا من خلال عولمته وتقنيته وامتداداته وأياديه.

ب. وللوقوف على مخطّطاته، وكشف تلبيساته، لا سيما أنّ كثيرًا من الوثائق قد سُمح لها بالنشر، وأمكن الاطلاع عليها، والاستفادة من معطياتها؛ للوقوف على كثيرٍ من الخفايا.

ج. ولأنّ الجيل الجديد والذي قبله لم يشهد الاستعمار، ولم يصطدم بوجه المستعمِر البشع، بل رأى منه التقنية والتنمية والملذّات الدنيوية، ممّا أدّى الى تكوين صورةٍ إيجابيةٍ عن المستعمِر في ذهنه، غافلاً عن حقيقته التي أخفاها تحت هذا البريق؛ فلا بدّ من كشف الأوراق وفتح الملفات من جديد، لقراءة الغرب وتاريخه بنظرةٍ شمولية.

د. ولأنّ نظريات ما بعد الاستعمار نشّطت السجال ضدّ الاستعمار، وسمحت للأقليّات والمهمّشين بالإدلاء بآرائهم، ورفع أصواتهم للدفاع عن هويتهم المطموسة، وثقافتهم المنهوبة.

ه. ولأنّنا نتطلّع الى انبثاقِ حضاريٍ جديدٍ، وتغيير الموازنات العالمية حيث بدأت إرهاصات ذلك، فلا بدّ من الاستفادة من التجارب السابقة لرسم طريق المستقبل.

و. ولأنّ ما نشهده اليوم من إراقة دماء الأبرياء، وتهديم البنى التحتية، والإبادة الشاملة الوحشيّة من قبل العدو الغاشم لم يكن إلّا سيئةً من سيئات الاستعمار؛ ممّا يدعونا الى قراءة الماضي بعينٍ بصيرةٍ، وعدم الانخداع ببريق الإعلام المزيّف الذي يسوّقه المستعمِر لتطهير صورته البشعة.

ز. ولأنّه مصداقٌ تطبيقيّ في واقعنا المعاصر لقوله تعالى: ﴿**وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ**﴾(التوبة: ١٢٠). فكشف مخطّطات العدو المستعمِر وفضحه خطوةٌ إيجابيّةٌ في إغاظته والنيل منه؛ يُكتب للمؤمن به الأجر الحسن، والعمل الصالح.

فهذه الأمور وغيرها تدعونا إلى فتح ملّف الاستعمار من جديد، وقراءته بعينٍ فاحصةٍ وبصيرة، وهو ما ترنو إليه هذه المجلة.

وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب.

رئاسة التحرير

الحوارات

يتناول هذا الباب حوارات هادفة حول الاستعمار القديم والجديد ونظريات ما بعد الاستعمار مع المختصين بهذا الشأن في الشرق والغرب

حوار مع الدكتور إدريس هاني حول الاستعمار

حاوره الدكتور عمّار عبد الرزّاق الصغير

حوار مع الدكتور إدريس هاني حول الاستعمار

حاوره

الدكتور عمّار عبد الرزّاق الصغير

الدكتور إدريس هاني السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
يرحّب المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية التابع للعتبة العبّاسيّة المقدّسة بكم أفضل ترحيب، ويتمنى لكم وافر السلامة. نتطلّع في هذا اللقاء أنْ نحقّق ثمرةً علميةً في تكوينٍ إجابات نافعة حول أبرز الأسئلة التي تتعلّق بشأن الاستعمار، ونبتدأ على بركة الله في الآتي:

س (١): هل ثمّة ضرورةٌ في رأيكم لفتح ملف الاستعمار من جديدٍ في وقتنا الراهن؟

ج: يتعين اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى، فتح ملف الاستعمار، بوصفه جوهر النزّاع اليوم بين الأمم. وإن كان هذا الاستعمار الراهن طوّر من أساليبه وأهدافه وأنماطه، إلاّ أنّ روح الهيمنة حاضرةٌ بقوة. ويُضاف إلى ذلك، أنّ المنطقة تشهد أخطر وآخر أنماط الاحتلال المركّب، الذي ما يزال من ناحية، وفيّا للنمط الكلاسيكي للاحتلال، ومن ناحيةٍ أخرى، هو منفتحٌ على الأنماط النيوكولونيالية التي تشكّل سندًا له بوسائل متطوّرة. لا يزال الاستعمار يهدد الأمم وأمّتنا وأقطارنا بأساليب شتّى؛ إذ ما من مشكلة شاغلة اليوم، في مجال الأمن والاستقرار السياسي، والتنمية، والسيادة، ونحو ذلك إلاّ وهي موصولة بالاستعمار وأساليبه في تقويض تقدّم الأمم.

س (٢): إذًا لدينا ثلاثة مصطلحات: الاستعمار، والاستعمار الجديد، وما بعد الاستعمار، فحبذا تتفضلون بتفسيرها.

ج: الاستعمار هو باختصار ممارسةٌ هيمنيّةٌ تهدف إلى السيطرة الجماعية على الجغرافيا السياسية لأمّةٍ من الأمم، وعلى مواردها الطبيعية والبشرية، وبموجب الاستعمار تفقد الأمم المستَعْمَرَة سيادتها. وبموازاة ذلك أُسّست منظمة الأمم المتّحدة عام ١٩٤٥م، ونظام الوصاية الدولي المنبثق عن ميثاق الأمم المتّحدة القاضي بتحميل الدول المهيمنة مسؤولية إدارة من يقع عليهم الاستعمار

وضمان حقوقهم في أفق مبدأ تقرير المصير. هذا من النّاحية القانونية، أمّا من النّاحية التّاريخية والسياسية، فلقد جاء هذا الموقف نتيجة الحرب العالمية الثانية التي انتهت بإقرار نظامٍ عالميّ جديد، بحساباتٍ وشروط مختلفة.

لكن هذا كلّه لم يوقف مسار الهيمنة؛ فلقد استمرّ الاستعمار في ثوبٍ جديد، واستمرت الهيمنة بأنماطٍ جديدةٍ تمنح الدّول العظمى فرصًا جديدةً للهيمنة على ثروات البلدان حتى من دون احتلالها جغرافيّا، فعزّزت من تقويض سيادتها وزاد من سياسة التّدخّل في شؤونها. فظهور الأمم المتّحدة رافقه أيضًا نظام بروتن وودز الذي أسس لمرحلةٍ جديدٍ، رهنت دول عالم الجنوب لضربٍ آخر من السيطرة، وهو ما أسفر عن نمطٍ جديدٍ للاستعمار، وهو الاستعمار الجديد الذي يقوم على الهيمنة الناعمة، من دون كلفة الاستيطان، فاستعمار يقوم على الهيمنة الثقافية والاقتصادية والسياسية.

وجاءت نظرية ما بعد الاستعمار (post colonial theory)، لتلقي الضوء على أشكال النفوذ الثقافي، وصورة الأهالي في ذهنية المُستعمِر، وهي نظرية نشأت في ثمانينيات القرن الماضي، وجاءت أيضًا في سياق بروز تيار ما بعد الحداثة. فهو شعبة برزت في أمريكا، ثم بعد ذلك في أوروبا. وقد ظهرت أعمالٌ مهمّةٌ تعدّ رائدةً، بل مؤسسة لنظرية ما بعد الاستعمار في طبيعة مقاربتها وأدوات تحليلها لآثار الاستعمار، أذكر من ذلك فرانز فانون (معذبو الأرض)، بل يمكن عدّ أشيل مبيمبي من خلال كتابه (ما بعد الاستعمار) من أهم الكتب التأسيسية على الرغم من أنّه ظهر بعد كتاب (معذبو الأرض) بأربعين سنة، كما يمكن عدّ كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد من الكتب المؤسّسة لما بعد الاستعمار، بل يعود له الفضل في جعل الاستشراق مبحثًا من مباحث ما بعد الاستعمار.

س (٣): بات ضروريًا أنْ نعيّن أوجه الاشتراك والافتراق بين الاستعمار القديم والاستعمار الجديد، وما هي الطرق الجديدة للاستعمار؟

ج: الجوهر واحد، هو الهيمنة، لكن الأساليب تعدّدت؛ إذ اقتضى عصر النفوذ تراجع نمط الاستعمار القديم، فبعد الحرب العالمية الثانية لم يعد بالإمكان مواصلة الاستعمار المباشر بالقوة، إذ القوى الاستعمارية التقليدية كفرنسا وبريطانيا ستواجه نفوذًا جديدًا تمثّله أمريكا؛ ولذا خضعت دولٌ كثيرةٌ للاستفتاء والتفاوض على مرحلة ما بعد الاستعمار المباشر، مُكرهةً لا مُخيّرة؛ ولذا أصبح الاستعمار بصورته القديمة مكلفًا، ولا يتوفّر على غطاءٍ مقنعٍ من القانون الدولي بعد أنْ مُنح الحق في تقرير المصير والحقّ في مقاومة الاستعمار. لقد أصبح الاستعمار الجديد استعمارًا مناورًا، يقوم على تأويلٍ فاسدٍ للقانون الدولي، واعتماد لعبة الأمم.

ويمكن عدّ أطروحة (صِدام الحضارات) لصامويل هنتنغتون دعوةً للكفّ عن الهيمنة المباشرة، وعجز الدول العظمى عن تحقيق حلمها بالاستعمار الجديد، والذي يعدّه تحضيرًا ودمقرطةً للأمم غير الغربية. هذا الفشل الذي سينتهي بضرباتٍ ارتداديةٍ تهدّد الغرب وقيمه وثقافته؛ لذا دعا إلى الانسحاب والكفّ عن التدخل والاهتمام بالداخل الغربي ضمن حدوده الطبيعية، من منطلق قناعته باستحالة فرض القيم الغربية على لها من امتياز عنها.

والواضح هو أنّ الاستعمار يطوّر في أساليبه، كما أنّ مقاومته تتطوّر هي الأخرى في أساليبها، وهذا جدلٌ مستمر بين الاستعمار وضحاياه، وهي معركةٌ طويلةٌ ومريرةٌ، لكنها مكلفةٌ أيضًا للاستعمار الجديد.

س (٤): مازلنا نضيّق دائرة السؤال لتحديد أبرز أنواع الاستعمار في الحاضر؟

ج: إذا أخذنا بعين الاعتبار مفهوم الاستعمار الجديد وما بعد الاستعمار، فإنّ عالم ما يسمّى الجنوب كلّها تحت طائلة الاستعمار الجديد. إنّ تقويض السيادة هو أكثر أشكال الاستعمار الجديد حضورًا. وحتى الأمم المتّحدة ما زالت عاجزةً عن ضمان السيادة الكاملة للدول؛ وذلك لسبب بسيط، وهو أنّ الهيمنة توجد داخل الأمم المتحدة نفسها من خلال احتكار حقّ النقض، ورهن الأمم لسياسة التّدخّل والعقوبات.

وما زال الاحتلال الصهيوني هو الشكل الأكثر تركيبًا للاستعمار، إذ هو احتلالٌ استيطانيّ، وهو نفسه أداةٌ لاحتلالٍ آخر؛ لأنّه يقدّم نفسه جبهةً متقدّمةً للدفاع عن مصالح الغرب تحت مسمّى الدفاع عن الحضارة الغربية.

س (٥): لكلّ مشروعٍ دوافع يسعى لتحقيقها وأسبابٌ أساسية، والاستعمار هو أحد المشاريع السياسيةً للقوى العالمية، فكيف تقرأ دوافعه وأسباب السيطرة على الشعوب وأهداف ذلك؟ وهل يتخطّى المشروع الاستعماري الهدف الاقتصادي والسياسي؟

ج: دوافع الإمبريالية الأساسية هي الرغبة في الهيمنة الاقتصادية، وهي لهذا السبب تدرك أنّ الطريق إلى ذلك هو الهيمنة السياسية، وتحقيق الهيمنة السياسية يتحقّق بالغلبة العسكرية. ويتم توظيف عناصر الجذب الثقافي اليوم لتحقيق هذه الهيمنة السياسية عبر الحرب الثقافية، وهي حربٌ ناعمة. وفي طيّات هذا التحدّي يتمّ استنفار كلّ عناصر التعبئة الرمزية الأخرى، وتتساوى

المستعمرات كلّها في أساليب الهيمنة، ولكن في هذا الإطار تبرز حساسياتٌ ونزعاتٌ عنصريةٌ ونزعاتٌ داروينيةٌ تمنح الشرعية للاستعمار في إكمال مشروع الهيمنة بوصفه حقّا طبيعيًّا وأخلاقيًّا، وبوصفه رسالةً تحضّر، وهنا تكمن مفارقة العالم المعاصر!

س (٦): بات ضروريًا قراءة تعامل الاستعمار الجديد مع ثقافات الشعوب ومؤسّساته الإعلامية والعلمية مثل التربية والتعليم ودور التراث العلمي؟ ولعلّ الباعث لهذه الضرورة فهم خطورة الآثار الناتجة عن ذلك، لوضع الكيفيّات الكفيلة للتخلّص من آثاره أو تقليله؟

ج: بالفعل، حاول المستعمر تغيير الثقافة والمزاج المحلّي قصد تحقيقَ نوعٍ من الإدماج القسريّ للأصلي ابن المستعمرات، ولكنها محاولةٌ تفرض شكلاً من القهر انتهى بجعل الأصلي يدخل مرحلة التقليد للمستعمر. وكان المستعمر قد سعى إلى تغيير أنظمة التربية والتعليم في المستعمرات؛ لمزيدٍ من الهيمنة على المجتمعات الخاضعة للاستعمار، في محاولةٍ لإحداث قطيعةٍ بين تلك المجتمعات وتراثها وقيمها، تحت طائلة التّحديث، غير أنّ الغاية كانت هي الضّمّ الثقافي وانتزاع الأمم من تاريخها الخاصّ. وما زالت آثار ذلك ماثلةً في عديد من الأيديولوجيات الهجينة، التي تدعو للإلحاق وإحداث القطيعة التّامة مع الميراث الثقافي للأمم المُسْتَعْمَرَة وهوياتها. وهذا ما يتطلّب خوض معركة وعيّ حقيقية، لتحقيق المطلب التاريخي لتلك الأمم في التّطوّر التّاريخي دون أنْ تفقد هويّتها وسيادتها، هذه معركة وعيٍّ مفتوحة.

س (٧): للمؤسّسات العسكرية والحقوقية والقضائية ثوابت في أنظمتها، ويعتقد الكثيرون بأنّ للاستعمار الجديد والهيمنة الإمبريالية يدًا في تحديد أعمال بعض أنظمتها وشكلها من خلال بعض المعاهدات، فهل لهذا واقعٌ في المنطقة العربية؟

ج: نعم، هذا واقعٌ لا غبار عليه، ليس فقط في البلاد العربية، بل هو حكاية علاقة السيطرة بين الشمال والجنوب، لا بل حتى في أوربا يشعرون بتأثير القانون والقضاء الأمريكي على أوربا.

إنّ الاستعمار الجديد يفرض من خلال ما يسميه بالقيم الكونية، كثيرًا من القوانين على المستعمرات القديمة، وذلك عبر الضغط المستمر والابتزاز للمصادقة على بعض المواثيق الدولية بالجملة ومن دون اشتراط أو استثناء، وربط ذلك بالمساعدات والحماية وما شابه. بل إنْ شئت ففي البلاد العربية أعراف إنْ لم نقل معاهدات تقوّض سيادتها. وهنا لا أتحدّث عن المعاهدات الظاهرة والموثّقة، بل

أتحدّث عن الاتفاقيات الخفيّة والتوافقات الموضوعية، إذ يمكن الوقوف عند تلك الظواهر من خلال نتائجها وغاياتها، فمعظم تلك الدول مرتهنةً لتوافقاتٍ واتفاقياتٍ مع الاستعمار الجديد، أقول معظمها. وكثير من الدول تكمل مشروع الاستعمار بطريقةٍ فيها من المخاتلة السياسية ما فيها!

س (٨): لقد كانت الثروات والصناعات الوطنية، الزراعية والتجارية، محلّ أطماع المستعمرين، وكذلك حرمان الشعوب من ثرواتها قديمًا وحديثًا، وهذا يوفّر للمستعمر الاطمئنان ببقاء الدول تحت هيمنته وقراره. فهل يمكن بيان بعض صوره، وهل من سبيل للتخلص من ذلك؟

ج: التحرّر من الاستعمار الجديد له كلفةٌ تفوق التحرّر من الاستعمار القديم، وكُلفته باهضة؛ لأنّها تجعلك في محور الشّر في النظام الدّولي، وتجعلك في مواجهة تأويل الغالب للقانون الدّولي. إنّ أساليب الاستعمار الجديد وأدواته في السيطرة والبروباغاندا، تجعل عملية التحرّر تحدّيًا للنظام الدّولي الخاضع بدوره للقوى الإمبريالية. ولا سبيل للتخلّص من ذلك إلاّ بالكفاح والمناورة، هذا هو قدر الأمم المستضعفة. إنّ ثروات الأمم المستعمرة قديمًا أو المستعمرة حديثًا عبر الاستعمار الجديد، لا تملك سيادتها على ثرواتها، بل إنّ أعظم أشكال ثروات الأمم تُضخّ سرّا أو علنًا في جعبة الاستعمار الجديد.

س (٩): عمل الاستعمار على تغريب أنظمة السلوك والأعراف والثقافات والعادات العامة بشتىّ الطرق والآليات. هل يمكن توصيف ذلك بالشواهد وتحديد أوجه المقاومة القيمية والتربوية؟

ج: إنّ أخطر أشكال التغريب، هي التفكير بأهداف المستعمرين نفسها، والاستلاب والتقليد لمشروعهم حدّ التماهي والاندماج، والخلط الفاحش بين سلوك المستعمرين ومطلب التحديث، والخلط بين القيم الغربية والقيم الكونية.

وكوننا حافظنا على قدرٍ من القيم الأصلية، فهذا ناتج عن مقاومة طويلة الأمد. إنّ مقاومة الاستعمار الجديد وهيمنته الثقافية والسياسية والاقتصادية هي في جوهرها مقاومةٌ تربويّة.

س (١٠): يُعدّ مشروع التقسيم والفتن الطائفية والعنصرية والعرقية أداةً فاعلةً للهيمنة على الشعوب، وهو ممّا عمل عليه الاستعمار، فبأيّ وجهٍ يمكن مقاومته؟

ج: لقد سعى الاستعمار إلى إذكاء الفتن الطائفية والعنصرية في العالم الإسلامي، ونبش في تراثه وقام بتفجيره وتحيين مقاتله، وكان ذلك مقصودًا جدًّا. ومع أنّ المستعمرين لهم طوائف وقوميات مختلفة استطاعوا احتوائها إلى حدّ ما، إلاّ أنّهم فجّروا الهويات والطوائف الأخرى وجعلوها بالفعل هوياتٍ قاتلةً كما عنون أمين معلوف إحدى أعماله.

كان الاستعمار واعيًا بأنّ أفضل طريقٍ لبسط الهيمنة هو إذكاء الفتنة الطائفية في العالم الإسلامي. إنّ خريطة برنار لويس التقسيميةً موصولةٌ بخريطة المذاهب والقوميات الصغرى في العالم الإسلامي، إنّهم يراهنون على الحروب الطائفية من أجل قيام شرق أوسط جديد تكون فيه هذه الحساسيّات محمية للاحتلال. إنّ الفتن الطائفية هي نتاجٌ للاستعمار الجديد؛ لأنّ الاختلاف موجودٌ في كلّ بلاد العالم، لكنّ تفجيره في مناطق أطماعه هو مخططٌ استعماري بامتياز.

وقد شهد العالم الإسلام والعربي تحديدًا انفجارًا طائفيًّا خطيرًا، وازداد خلال العشرية الأخيرة، وتحوّل إلى مشروعٍ استقتاليّ انتهى بتخريب الكيانات وإضعافها، وسهّل ذلك كلّه المأمورية على الاستعمار الجديد. إنّ الطائفية تحوّلت إلى حالة انتحار للعالم العربي والإسلامي، وتحوّلت إلى أداةٍ وظيفيةٍّ في يد الإمبريالية.

س (١١): حبّذا بيان بعض أوجه مناهضة الاستعمار في الأدب والفنون والثورات التي من شأنها تعزيز الوعي؟

ج: إنّ الوعي بمخاطر الاستعمار الجديد وبآليات سيطرته على الأمم والشعوب له تجلّياتٌ في شتّى حقول المعرفة والجمال، وطبيعيّ أنّ الفنّ هو أكثر تأثيرًا حتى من السياسات؛ ومن هنا قام الاستعمار الجديد والحرب الناعمة على عنصر الجذب، وتسخير الفنّ في معركة الإخضاع. ولقد أنتجت النخب التحررية في العالم العربي والإسلامي وكذا آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية العديد من الأعمال الأدبية والفنية في التشكيل والدراما مهمّة جدّا. ويبقى المطلوب هو توحيد مضمون وغايات هذه الأعمال؛ لأنّ الوعي بأخطار الاستعمار الجديد تقتضي توحيد الموقف السياسي، والذوق الفنّي الحامل لرسالة التحرر.

س (١٢): قاومت المؤسّسة الدينيّة الاستعمار بشتّى الوسائل وعملت على تكوين خطوط صدٍّ مانعةٍ من تحقيق مشروعٍ في المنطقة على أزمنةٍ متفرّقةٍ مع قلّة الوسائل والأدوات، ونجحت في مشاريعها، هل يمكن بيان سرّ النجاح في ذلك؟

ج: بطبيعة الحال، أدّت هذه المؤسّسة على امتداد العالمين العربي والإسلامي دورًا كبيرًا في مقاومة الاستعمار، ولا تزال تمانع بأشكالٍ مختلفةٍ ضدّ أساليبه الجديدة، فالمؤسسة الدينية بدءًا من جامعة القرويين بالمغرب مرورًا بجمعية العلماء المسلمين بالجزائر وجامعة الزيتونة بتونس والأزهر الشريف بالقاهرة والنجف الأشرف بالعراق، وهكذا سائر العالم العربي والإسلامي، كان لها دورٌ يضارع لاهوت التحرير بأمريكا اللاتينية. إنّ المؤسّسة الدينية رفدت الحركة الوطنية بزخمٍ روحيّ استطاع أنْ يعوّض النقص الحاصل في المعدّات ووسائل الكفاح، وعملت على تعبئة المجتمع ضدّ الاستعمار. فالمؤسسة الدينية بهذا المعنى كانت بمنزلة القوّة الرمزية، وكذا المادية من حيث إنّها أسهمت من خلال الموارد الشرعية في تمويل مشاريع التحرر الوطني.

س (١٣): أهمية مكافحة الاستعمار في العالم الإسلامي

ج: مبدئيًا، الكفاح ضرورة، فلا وجود لبلد تحرّر من الاستعمار القديم أو الجديد إلاّ بضربٍ من الكفاح مشهود. وهو من الناحية المبدئية موقفٌ إيجابيّ ومشروع. ومن الطبيعي وجود إخفاقاتٍ في شروطٍ معينةٍ ومؤقّتة، ولكن إخفاقات الاستعمار هي حتمية مهما بلغ ذروته. وفي حالة الاستعمار، وجب القول كما يقول البعض: لستَ مهزومًا ما دمت تقاوم. فالاستعمار يتطوّر في أساليبه وكذلك المقاومة من المفروض أنْ تتطوّر في أساليبها. إنّها معادلة الصراع الأزلي بين السادة والعبيد، بين المستكبرين في الأرض والمستضعفين، أنْ تكون مُسْتَعْمَرًا هذا يمنحك الشرعية لتقاوم، والباقي تفاصيل يغضّها سياق الكفاح الوطني وشروطه.

في الختام يتقدّم المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية بالشكر وخالص التقدير لشخصكم الكريم على ما تفضلّتم به من إجاباتٍ، ونأمل أنْ نلتقي في حوارٍ آخر.

بحوث ودراسات

يتناول هذا الباب البحوث والدراسات العربية المختلفة التي تسلط الضوء على تحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد ونظريات ما بعد الاستعمار بلغة علمية هادفة.

علماء الحَوزة العلميّة وصناعة التاريخ
فتاوى الجهاد تُسقط التآمر على العباد والبلاد

د. محمد أمين الكوراني

الاستعمارالفرنسي لمصر في ظروفه الزمانية والمكانية

د. غيضان السيد علي

الأوضاع السياسية والاجتماعية في سورية قبيل الاحتلال الفرنسي

د. حسام النايف

جدل التعريب والتغريب في تونس

د. ناجي الحجلاوي

علماء الحَوزة العلميّة وصناعة التاريخ
فتاوى الجهاد تُسقط التآمر على العباد والبلاد

د. محمد أمين الكوراني[1]

الملخص

للحَوزة العلميّة دورٌ كبيرٌ في الدفاع عن بيضة الإسلام، وفي قيادة مشروع حركة التغيير المعاصرة، وهي الأساس في تحريك السواكن في داخل المناخ الاجتماعيّ والسياسيّ، وتجسّد هذا الدور العظيم في كثيرٍ من المواقف وأهمها، تحشيد الحشود الجماهيريّة وتوفير السلاح لهم ضدّ الوهابية، وفتوى الجهاد لطرد الغزاة الإيطاليين عن ليبيا، والجهاد ضد القوات الروسية الغازية عند قصفهم حرم الإمام الرضا عليه السلام، وفتوى مقاومة الاحتلال الإنكليزي للعراق واشتراكهم ضدّه في ثورة النجف ١٩١٨م، وثورة العشرين ١٩٢٠م، ومطالبتهم في تشكيل دولةٍ وحكومةٍ عربيّةٍ، ووقوفهم بوجه المدّ الشيوعي، ورفضهم قتل الأكراد ، والإفتاء بحرمة مقاتلتهم.

وتناول هذا البحثُ العديدَ من القضايا المرتبطة بهذا الشأن، وأهمّها دور المؤسّسة الدينيّة في نهاية الحكم العثماني وبدايات الاحتلال الأجنبيّ، ورسمها معالم ثورة العشرين الكبرى في العراق، ودورها في عصرنا الحاضر في دعم العمل المقاوم للاحتلال الصهيوني في فلسطين.

الكلمات المفتاحية: الحوزة العلميّة، محمّد كاظم الخراساني، الجهاد، التنباك، مقاومة الاحتلال، ثورة العشرين.

---

١. متخصص في التاريخ الإسلامي / لبنان.

تعدّ الحَوزة العلميّة وريثة الرسالة المحمدية، وحلقة وصل بين أئمّة أهل البيت وعلومهم، والمؤمنين بهم وسائر المسلمين. وقد جرى التأصيل الشرعي لها في نصوص الأئمة عليهم السلام الموثوقة، وسيرتهم العلميّة، فامتدّ تأريخ عطائها من عصرهم إلى عصرنا الحاضر.

اختار الشيخ الطوسيّ مدينة النجف الأشرف دارًا لهجرته عندما خرج من بغداد إثر حوادث السلاجقة في تتبع الشيعة فيها بالتنكيل والتقتيل. فجاور مرقد الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام؛ ولأنّ الشيخ الطوسي كان مرجع الشيعة في بغداد بعد وفاة أستاذه الشريف المرتضى، فحين اضطر إلى هذه الهجرة القسريّة، انتقل مركز المرجعيّة معه، وحلَّ أرضَ النجف المقدسة طلاّبُه ومريدو فضله، والتفّ حوله مَن فيها من الفقهاء والطلاّب، ووفد إليها آخرون من حواليها وأطرافها، والبقاع القريبة منها والنائية عنها.

وغدت الجامعة الكبرى للشيعة الإمامية وعاصمة المذهب الجعفري، يتخرّج فيها المئات من المجتهدين والعلماء في كلّ جيلٍ طيلة الألف عام، ومرّت بظروفٍ مختلفة قوّةً وضعفًا؛ لكنّها حافظت على محوريّتها في الحركة الفقهية الحوزوية والجهادية عند الشيعة. غير أنّ الحوزة العلمية في النجف لم تتوقف عن العطاء حتى مع بزوغ نجم حوزة الحلّة، واستمرت في رفد الميدان العلمي عند الشيعة بالعديد من العلماء المرموقين.

من خلال قراءتنا للتاريخ السياسي للعراق والمنطقة، نجد أنّ المؤسّسة الدينية الشيعيّة وعلى رأسها المرجعيّة، هي الأساس في تحريك السواكن داخل المناخ السياسي والاجتماعي، بالشكل الذي يحقّق الاعتدال والإصلاح في المجتمع، وهذا ما نجده من خلال تتبعنا للدور المتميز لهذه المؤسّسة منذ نهايات الحكم العثماني، وبدايات الاحتلال الأجنبي وصولاً إلى دورها في رسم أحداث ثورة العشرين الكبرى كحلقة تتبعها حلقات أُخر، وإلى يومنا هذا في إصدار فتوى صادعة وتاريخيةٍ بمواجهة الفكر التكفيري وقوات الظلام التي هاجمت مدينة الموصل العراقية وما تبعها من تجاوزات على الأهالي الآمنين في مختلف مناطق العراق.

كانت السلطة العثمانيّة في بغداد تحسب للمرجعية في النجف الأشرف ألف حساب؛ كونها كانت تتمتع بمقامٍ دينيّ وسياسيّ كبير ذي قاعدةٍ جماهيريّةٍ واسعة، ويحظى بتأييد رموزٍ إسلاميةٍ عالميةٍ معروفة؛ ولذلك انتهجت حكومة الأتراك سياسة التّغاضي والتّجاهل بنحوٍ عامّ اتّجاه السياسة العامّة للسلطة الدينيّة في النجف الأشرف[1].

١. النفيسي، عبدالله. دور الشيعة السياسي في تطورالعراق الحديث. ترجمة دار النهار. بيروت ١٩٧٣. الكتاب هو رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة كمبردج ١٩٧٢.(الصفحات الأولى من الكتاب ـ بتصرّف-).

وقد عاش الشيعة في العراق في العصر العثماني حالةً من الاستقلال النّسبي، ناشئة من ارتباطهم بالمرجعية الدينية، بما تشكّله من استقطابٍ ثقافيّ وروحي وإدارةٍ ماليّةٍ مستقلّة، تؤدّي وظائفها على خلفية مفهوم صلب للشرعية. ومن جهةٍ أخرى كان تواجد القبائل العربية الشيعيّة على طول نهر الفرات، ضمن تنظيماتٍ عشائريةٍ تقليديّة، سندًا للقيادة الدينية بقوّة السلاح. ومن هنا كانت المدن المقدّسة وما يحيط بها من قبائل ترفض الخضوع للحكم العثماني.

ولا شك في أنّ الصّراع التاريخي على العراق بين العثمانيين والدولة الصّفويّة، ثم بين العثمانيين والدولة القاجارية في إيران، قد ركّز هذا الواقع الخاصّ للعراق. ولمّا بدأت المرجعيّة مسيرتها الجهادية في أوائل القرن التاسع عشر ضدّ الاحتلال العثماني للعراق، كانت قد ورثت إرثًا ثقيلاً من التخلّف والاستبداد. هذا الإرث دفع المرجعيّة إلى قيادة مشروع حركة التغيير المعاصرة بهدف اللّحاق بركب الحضارة الإنسانية المتوثّبة، وقد تحدّد شعار الحركة الإسلامية والوطنية في محاربة المحتل ونيل الاستقلال. ولا شك في أنّ هذه المقاومة ذات النهج الحسيني الأصيل كان لها الحق المشروع للدفاع عن الدين والوطن والنفس، وأنّها انطلقت ضد النهج القاسي للمحتل الهادف إلى تفكيك المجتمع العراقي طائفيًا وعنصريًا وتغريبه عن لغته وتراثه؛ ليتسنى له السيطرة الكاملة على مقدراته وثرواته بعد التحطيم الكامل لكيانه العتيد. ولا ينسى العراقيون مجزرة كربلاء في زمن الوالي العثماني المملوكي سليمان باشا عام ١٨٠٢ عندما هجم الوهابيون على المدينة بصورةٍ فجائيةٍ وقتلوا الناس في الشوارع وفي داخل البيوت، وخرّبوا قبة الإمام الحسين عليه السلام وسرقوا خزائن المرقد ومجوهراته، ولم يتركوا المدينة إلّا بعد أنْ عاثوا فيها الفساد والدمار[١].

وفي عام ١٨٠٨ شهدت الزيارة الأربعينية في كربلاء مظاهراتٍ جماهيريةً صاخبةً من عموم سكّان العراق، يتقدّمها رجال الدين الأجلاّء الذين قَدِموا من الحوزة العلميّة في النجف الأشرف؛ احتجاجًا على السلطات العثمانية لتقاعسها في صدّ الغزوات الوهابية المتكرّرة على مدن العراق. كما هزّت هذه الاعتداءات حماس الغيارى من أبناء الشعب العراقي، وأجّجت مشاعر الاستياء لأقطاب المرجعية الدينية الذين شدّوا العزم، وأرسلوا أعدادًا كبيرةً من الشباب خريجي المدارس الدينية إلى المناطق الوسطى والجنوبية من العراق بهدف تذكير أفراد العشائر بمعاناة الشعب من جور الاحتلال، وإثارة روح الحماس الوطني في نفوسهم وتحريضهم على التمرّد والعصيان[٢].

١. الساعدي، كريم محمد حاتم- الغزوات الوهابية على الأضرحة المقدسة في كربلاء والنجف خلال القرن التاسع عشر الميلادي . موقع موسسة النور للثقافة و الأعلام. ٢٠١٤/١٠/٢٩.

٢. الكركولي . دراسات في عشائر العراق. ١٩٩٥.

من جهةٍ أخرى، كان تواجد القبائل العربية الشيعية على طول نهر الفرات، ضمن تنظيمات عشائريةٍ تقليدية، سندًا للقيادة الدينية بقوة السّلاح. ومن هنا كانت المدن المقدّسة وما يحيط بها من قبائل ترفض الخضوع للحكم العثماني... ولا شك في أنّ الصراع التاريخي على العراق بين العثمانيين والدّولة الصّفويّة، ثم بينهم وبين الدولة القاجارية في إيران.. قد ركّز هذا الواقع للعراق... وإزاء التّغيرات التي حدثت في الحرب العالمية الأولى، اكتسحت المنطقة تلك الغزوة الاستعمارية العسكرية، حيث راح الإنكليز يخطّطون لتكوين إمبراطوريةٍ بريطانيةٍ تمتدّ من الهند إلى مصر إلى ممتلكاتهم في شرق أفريقيا. وكان العراق ضمن هذا المخطّط الإنكليزي[١].

إنّ الوعي السياسي الجديد في العراق أخذ يتجسّد عبر مواقف سياسيةٍ جريئةٍ تتواتر على رؤية واضحةٍ للموقف المتّخذ، وأصبحت محاربة الاستبداد مبدأً متكاملاً لدى علماء الدين في الحوزة العلميةٍ الشريفة في النجف الأشرف؛ الأمر الذي دفعهم للتعاون مع حزب (الاتحاد والترقي) التركي ضدّ استبداد السلطان عبد الحميد الثاني، واستمر علاقة التعاون بينهم لمدة ثلاث سنواتٍ «انهارت وانتهت مع بروز سياسة التتريك (الطورانية) التي شرع الاتّحاديون بانتهاجها»[٢].

إنّ البدايات الأولى في الوعي السياسي لهذه المؤسّسة ظهر في نهاية القرن التاسع عشر، إذ كان هناك سببٌ أساسٌ لهذا النمو متمثّلاً بالفتوى التي أصدرها السيّد محمد حسن الشيرازي في مدينة سامراء بتحريم منح امتياز زراعة التبغ وبيعه للشركة البريطانيّة في إيران عام (١٨٩١)، والتي جاءت لتمثّل تيارًا مضادًّا للنفوذ الأجنبي في إيران، إذ مثّل هذا التصدّي الدور الأساس في التخلّص من الأزمة وتحقيق النصر ضّد المطامح البريطانية[٣].

وبناءً على هذه السياسات البريطانية الهادفة إلى الإنقضاض على العراق، وانتزاعه من السيطرة العثمانية، حاول الإنكليز مرارًا التواصل مع الشيعة في العراق بوصفهم أقليّةً في الوسط العثماني السنّي بغية استغلال ضعفهم والظلم الواقع عليهم، لاستمالتهم ناحية مشروعهم الاستعماري. وإحدى هذه المحاولات كانت عام١٩٠٠، ففي أحد أزقّة سامرّاء أصيب الإمام محمد حسن الشيرازي بحجرٍ طائش ـ وهو صاحب فتوى تحريم التبغ ـ وعندما علم القنصل البريطاني ببغداد بالخبر توجّه إلى سامرّاء لمقابلة الإمام الشيرازي، فرفض مقابلته، وعندما أبلغه القنصل بأنّه مستعدٌ

١. كاظم، عباس محمد . ثورة العشرين: سلسلة نحو حضارة إسلامية ـ عدد ١٨/ ١٩٨٤ ص: ١٢٠.

٢. ماجد الغرباوي، الشيخ محمد حسين النائيني (منظّر الحركة الدستورية) ، ص: ٦٣.

٣. صاغية، حازم . صراع السلام والبترول في إيران، ص: ٨٥-٨٦.

للاقتصاص ممّن أساء له ولو أدّى ذلك إلى إرسال إنذارٍ للحكومة العثمانية، فرفض السيّد الشيرازي عرضه قائلاً: إنّه لا يعتقد بوجود عداء بينه وبين أهل سامرّاء، وإنّ ما حدث كان نتيجة الصّدفة، ولا يرى حاجةً لدسّ أنف بريطانيا في هذا الأمر الذي لا يعنيها، لأنّه والحكومة العثمانية على دينٍ واحدٍ وقبلةٍ واحدةٍ وقرآنٍ واحد. ولم يسمح الإمام الشيرازي لأزمة الشيعة في ظلّ الدّولة العثمانية أنْ تتحوّل إلى خنجرٍ بريطانيّ يشرخ الوحدة[1]. ولاحقًا وقف الشيعة إلى جانب العثمانيين في خندقٍ واحدٍ للدفاع عن البلاد عندما بدأ الاجتياح الإنكليزي خلال الحرب العالمية الأولى.

لقد أثبت التاريخ ومنذ قرنٍ من الزمن على الأقل وفي تاريخ العراق الحديث أنّ من أهم أولويات المرجعية الدينية، الدفاع عن الوطن، وهو تاريخٌ حافلٌ بهذه المسؤوليات، ومن خلال قراءتنا للتاريخ السياسي للعراق والمنطقة، لا تطالعنا أيّة شائبةٍ في أنّ المؤسسة الدينية الشيعيّة وعلى رأسها المرجعيّة، كانت الأساس دائمًا في تحريك السّواكن داخل المناخ السّياسي والاجتماعي بهدف الإصلاح في المجتمع منذ بدايات العهد العثماني إلى بدايات الاحتلال الأجنبي، مرورًا برسم أحداث ثورة العشرين كحلقةٍ أولى تبعتها حلقاتٌ أُخر، إلى يومنا هذا في إصدار فتوى صادعةٍ وتاريخيّةٍ لمواجهة الفكر التّكفيري وقوّات الظلام التي عبثت بسوريا والعراق وأقطارٍ أخرى.

وتقول المصادر التاريخية إنّه: لمّا بلغ أهل النجف نبأ توجّه الوهّابيين الغزاة عام ١٨٠٢ نحو مدينتهم أعدّ الزعيم الديني الشيخ جعفر كاشف الغطاء بمساعدة العلماء قوّةً جماهيريةً هيّأ لها السّلاح وما يحتاجون من عدّة الدّفاع عن الأرض، ودفع الغزاة عن النجف، فتمكّن الشيخ جعفر وثلّة من العلماء من دفع القوّة الغازية ودحرها[2]. وقد أصدر المراجع العظام فتوى الدّفاع عن ليبيا عندما غزاها الإيطاليون عام ١٩١١م، وفيها يشحذون الهمم، ويستنفرون المسلمين في كلّ البقاع وخصوصًا مسلمي العراق للدفاع والجهاد وردع المعتدي نقتطف منها ما يلي: «...عليكم أيّها المحامون والمدافعون عن الدين والحافظون لبيضة الإسلام ألا يخفى عليكم أنّ الجهاد لدفع هجوم الكفّار على بلاد الإسلام وثغوره ممّا قام إجماع المسلمين وضرورة الدين على وجوبه.... هذه كفرة إيطاليا قد هجموا على طرابلس الغرب التي هي من أعظم الممالك الإسلامية وأهمها، فخرّبوا عامرها وأبادوا أبنيتها، وقتلوا رجالها ونساءها وأطفالها. مالكم تبلغكم دعوة الإسلام فلا تجيبون؟! وتوافيكم صرخة المسلمين فلا تغيثون؟! أتنتظرون أنْ يزحف الكفّار إلى بيت الله

١. الرهيمي، عبد الحليم . تاريخ الحركة الإسلامية في العراق ـ ص: ١٢٨ عن علي البازركان . الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية.

٢. محبوبة، جعفر. ماضي النجف وحاضرها ،ج١، ص: ٣٢٦.

الحرام، وحرم النبيّ والأئمّة (عليهم السلام)، ويمحوا الديانة الإسلامية عن شرق الأرض وغربها، وتكونوا معشر المسلمين أذلّ من قوم سبأ.... فبادروا إلى ما افترضه الله عليكم من الجهاد في سبيله، واتّفقوا ولا تفرقوا، واجمعوا كلمتكم، وابذلوا أموالكم، وخذوا حذركم، وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم؛ لئلا يفوت وقت الدفاع وأنتم غافلون، وينقضي زمن الجهاد وأنتم متثاقلون. ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾».

وقد وقّعها من المراجع العظام والفضلاء والوجهاء في النجف كلٌّ من: محمد كاظم الخراساني، وعبدالله المازندراني، وشيخ الشريعة الأصفهاني، وعلي رفيش، ومحمد حسين القمشة، وخدّام الشريعة الغراء: حسن بن المرحوم صاحب الجواهر، والسيد علي التبريزي، ومصطفى الحسيني الكاشاني، ومحمد آل الشيخ صاحب الجواهر، ومحمد جواد الشيخ مشكور، وجعفر ابن المرحوم الشيخ عبد الحسن، ومحمد سعيد الحبوبي[١].

«... ومع بداية القرن العشرين بدأ علماء الشيعة يشعرون مدى حاجتهم إلى العديد من التصورات والأفكار التي تؤمّن تعاملهم مع مشاكل العصر، التي بدأت تواجه المجتمعات الإسلامية، وخاّصة دول الجوار، وحفزت النقاشات والسجالات حول طبيعة هذه الأحداث والتعامل معها»[٢].

وقد مثّل اندحار العثمانيين في العراق ودخول قوات الحلفاء تجدّدَ المشروع الشيعي بقصد استثمار هذه المرحلة، وبناء دولةٍ مستقلّة، وعلى هذا فقد كان الوعي الشيعي حاضرًا في صناعة الواقع العراقي، وصياغة مستقلة حتى تجلّى بظهور العديد من الندوات[٣].

كما أنّ موقف المؤسّسة الدينية لم يكن مقتصرًا على تحريك الأحداث السياسية العراقية الداخلية إبّان تلك المدة، بل تعدّى إلى المساندة الإقليمية في الأحداث التي تتعرّض لها المنطقة بأسرها، خصوصًا في عام ١٩١١م، عندما اجتاحت القوّات الروسية شمال إيران إثر الخلاف المائي الحاصل بينهما، وقيام القوات البريطانية باحتلال جنوب إيران، حين برّرت تلك الدولتان

١. (العدد/٢٢ مجلة كلية التربية الساسية للعلوم التربوية والإنسانية / جامعة بابل آب/٢٠١٥م، ص: ٥٢٧ (محمد سعيد الطريحي، المرجعية الدينية وقضايا العالم الإسلامي: الغزو الإيطالي للقطر الليبي وحرب طرابلس سنة ١٩١١ . مجلة الموسم. العدد السادس. بيروت. ١٩٩٠ ـ ص: ٣٨١ . ٣٨٢؛ مجلة العلم النجفيه. المجلد السابع. الجزء السادس. تشرين الثاني ١٩١١. ص: ٢٤٩.

٢. عودة، جهاد. تقدير الأزمة الاستراتيجية في العالم العربي، ص: ١٤٧.

٣. م. ن. ص: ١٤٨.

بأنّ الهجوم على إيران جاء استنادًا إلى اتفاقية عام ١٩٠٧م[١]، كما وعمدت القوات الروسية إلى قتل علماء الدين في تبريز وإشاعة الرعب في صفوف الناس[٢]، وعندها أعلن علماء الدين في العراق وخاصّةً في النجف الأشرف الجهادَ ضدّ القوات الروسية الغازية، ومنهم الأخوند الخرساني الذي أوعز بنصب الخيام خارج مدينة النجف لتعبئة الجماهير استعدادًا لمواصلة الجهاد ضد الغزاة.

وعندما قصفت القوات الروسية مرقد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام اجتمع علماء الدين في مدينة الكاظمية، وهم السيد مهدي الحيدري، والشيخ مهدي الخالصي، والسيد إسماعيل الصدر، والسيد عبد الله المازندراني، والشيخ فتح الله الأصفهاني، والشيخ محمد حسين النائيني، والسيد علي الداماد، والسيد مصطفى الكاشاني، والسيد محمد تقي الشيرازي المقيم في سامراء[٣].

هذه المواقف المشرّفة للمؤسّسة الدينية وخاصّةً المواقف السياسية لم تأتِ من فراغ، بل كانت بداياتها متمثلةً بنمو الحركة الإسلامية في المدن الشيعية المقدسة، إذ شكّلت هذه المدن الاتجاه الفكري السياسي والرئيس خلال المدة الممتدة بين أوائل القرن العشرين حتى الاحتلال الإنكليزي للعراق عام ١٩١٤م، حيث تمثّل ذلك النمو بعددٍ من المظاهر السياسية والفكرية للتيارات التي تولّدت عنها، وكانت النجف وكربلاء وعلى الرغم من أهميّة المدن الشيعية الأخرى قد شكّلتا المركز القيادي الأساسي للحركة الإسلامية ومظاهرها الفكرية وتياراتها.

وفي هذا الوقت قام كبار علماء المسلمين الشيعة بإصدار فتوى تدعو إلى الجهاد ومقاومة الاحتلال الإنكليزي، وتأييد العثمانيين في الحرب على الرغم من أنّهم كانوا على يقين بأنّ العثمانيين لا يمثّلون الوجه الإسلامي الصحيح إلّا أنّ شرّهم أهون عليهم من خطر الإنكليز الكفّار[٤]، حيث قاموا بتعبئة سكّان المدن والعشائر، وحثّهم على الجهاد، وتنظيم تطوّع المجاهدين وقيادتهم إلى جبهة الحرب[٥].

وعبر هذين التطوّرين المهمّين دخلت المؤسّسة الدينية حقبةً جديدةً ومفصليّةً من تطوّرها السياسي والفكري الذي امتدّ نحو عقدٍ من الزمن كانت المواجهة المسلّحة هي السمة البارزة لهذه الحقبة. وقد سجّل المؤرّخون مواقف علماء الشيعة، والمراجع العظام في الدفاع عن الدولة

١. الشيخ محمد حسين النّائيني (منظّر الحركة الدستوريّة). م. ن. ص: ٤٧.

٢. الوردي، علي . لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج٤ . ص: ٥٧ ـ ٥٩.

٣. الشيخ محمد حسين النّائيني (منظّر الحركةالدستوريّة)، م. ن، ص: ٦٥.

٤. الرهيمي، عبد الحليم . تاريخ الحركة الإسلامية في العراق (١٩٠٠ ـ ١٩٢٤)، ص: ١٦٣.

٥. م. ن. ص: ١٦٤.

العثمانية رغم قناعتهم بطائفيّتها الحمقاء، وعنجهيّتها القومية، لكنّهم أمام الغازي الأجنبي أعلنوا الجهاد المقدّس، وتوجّهت الجموع الزاحفة إلى البصرة للدفاع عن الوطن، وشاركت القيادة المرجعية في المسيرة، وكان في طليعتهم العلماء الأعلام من النجف.. وكان لهم موقفٌ مشرّفٌ في الدفاع عن الوطن[١].

كانت بريطانيا تدرك مسبقًا أنّها ستواجه مشكلةً كبيرةً في العراق، هي موقف علماء الشيعة من احتلال العراق؛ إذ إنّها كانت تدرك أنّ علماء الشيعة لا يمكن أنْ يتقبلوا الاحتلال البريطاني، وذلك من خلال المواقف التي تبنّوها إزاء الاحتلال الاستعماري للأقاليم الإسلامية، وتصدّيهم لأيّ محاولةٍ استعماريّةٍ تستهدف كيان المسلمين السياسي[٢].

كان للفتوى التي أصدرها السيّد الشيرازي في ١٩١٩/١/٢٣ الأثر العميق في نفوس الأوساط الشيعية وأوساط المعارضين للاحتلال الأجنبي، وقد تطابقت مع عددٍ من الآيات القرآنيّة التي نصتّ على أنْ يطيع المسلمون أولي الأمر منهم، وتعدُّ هذه الفتوى هي الأولى خلال السيطرة البريطانية الفعلية على العراق، إذ أعطى فيها السيّد الشيرازي رأيًا علنيًا ضدّ البريطانيين الأمر الذي أضفى على الحكم الوطني مباركةً دينية، وكان لهذه الفتوى انعكاسٌ ايجابيٌّ كبيرٌ في نفوس الناس، وبذلك توازن موقف العلاّمة الشيرازي في كربلاء مع مواقف رجال الدين في النجف[٣].

وكانت أولى المواجهات المسلّحة هي التي قادها واشترك فيها رجال الدين والعلماء الشيعة ضدّ الاحتلال، والتي شكّلت تجربةً مهمةً ومتقدّمةً لمواجهتينِ مسلّحتينِ هما ثورة النجف عام ١٩١٨م، وثورة العشرين عام ١٩٢٠م، وجدّد السيد اليزدي دعوته للجهاد في خطبة ألقاها في صحن الإمام علي عليه السلام حرّض فيها الناس على الدفاع عن البلاد الإسلامية، وأكّد وجوب ذلك حتى على الفتى العاجز بدنًا[٤].

لقد كانت مدينة كربلاء في مقدّمة المدن العراقية التي استجابت لحركة الجهاد التي قادها العلماء الأعلام حيث إنّ اجتماعًا كبيرا عُقد في المدينة حضره كبار رجال الدين، كان في مقدّمتهم السيّد إسماعيل الصدر الذي سار بالحاضرين إلى صحن الإمام الحسين عليه السلام.

١. لمحات من تاريخ العراق. م. ن-ج٤. ص: ١٤٧-١٤٨.

٢. الجبوري، كامل سلمان . النجف الأشرف وحركة الجهاد، ص ٨.

٣. الشريفي، أحمد باقر علوان. كربلاء بين الحربين العالميتين، ص ٤٨.

٤. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث . م. ن. ج٤. ص١٢٨-١٣١.

أمّا في مدينة الكاظمية فقد كان لها الموقف المشرّف بالوقفة الأصيلة في الدفاع عن بيضة الإسلام والمسلمين، إذ برز فيها مجتهدان كبيران هما السيّد مهدي الحيدري والشيخ مهدي الخالصي قادا الدعوة للجهاد، وأشرفا على تطوّع المجاهدين، فقد بادر الأول بعد احتلال الفاو إلى إرسال برقياتٍ إلى النجف وكربلاء وسامراء عبّر فيها عن رغبته في الاجتماع بهم، ويقصد رجال الدين لبحث أمر الاحتلال فضلاً عن مساهمته الفعّالة في حثّ الناس على الجهاد من خلال المنبر في الصحن الكاظمي الشريف[١].

أمّا الشيخ مهدي الخالصي فقد أصدر حكمًا شرعيًا أوجب فيه على المسلمين (صرف جميع أموالهم في الجهاد، حتى تزول غائلة الكفر، ومن امتنع عن بذله وجب أخذه كرها)[٢]. هذا فضلاً عن أنّه أصدر رسالةً عنوانها: (السيف البتّار في جهاد الكفّار)، تعرّض فيها إلى مسألة الجهاد في الإسلام وما يترتّب على الأمّة الإسلامية للقيام بشروطه وقواعده وأركانه[٣].

وقد لقت فتاوى العلماء استجابةً واضحةً وكبيرةً من قبل عامة الناس في العراق، حيث انضمّ العديد من الأهالي إلى صفوف المجاهدين، وهذا الأمر يدلّل على عمق الترابط بين الناس ومقلّديهم داخل المؤسّسة الدينية التي كانت الموجِّه الأوّل للأحداث والقائد الأوحد للعمليات الجهادية. هذا فضلاً عن أنّ الصرخة الجهادية لم تنطلق من كربلاء أو النجف وحدهما بوصفهما مركزًا للمؤسسة الدينية، بل إنّ الصرخة كانت في وقتٍ واحدٍ بجميع مدن العراق ذات النفَس الشيعي، وإنْ دلّ هذا الأمر على شيء فإنّه يدلّ على عمق الترابط الروحي والعقائدي بين رجال الدين والعلماء وطلبتهم، خاصةً أنهم أكثر الناس إدراكا لعظم المسألة التي تحيط بأفكارها وطموحاتها الاستعمارية في جسم العراق وأهله.

ولم تكن مدينة سامراء بعيدةً هي الأخرى عن الروح الجهادية التي اكتنفت مدن العراق من النجف وكربلاء والكاظمية إذ كان لها دورها المشارك والفعّال الذي جاء على لسان السيّد محمد تقي الشيرازي الذي أوجب محاربة الكفّار الإنكليز، وأرسل نيابةً عنه نجله محمد رضا إلى الكاظمية للانضمام إلى المجاهدين.

---

١. عبد الدراجي، عبد الرزاق. جعفر ابو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق. (بغداد ١٩٧٨)، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة بغداد. ص٤٠ـ٤٢.

٢. م. ن. ص ٤١.

٣. تاريخ الحركة الإسلامية في العراق (١٩٠٠ ـ ١٩٢٤). م. ن. ص ١٦٧.

وعلى أيّ حالٍ نجد أنّ مشاركة رجال الدين والعلماء تمثّل وجهين الأول المشاركة المباشرة في أغلب المعارك التي شنّها المجاهدون ضد الجيش البريطاني. أما الوجه الثاني تمثّل بالوجه الإرشادي والتوجيهي لزعماء العشائر الذين يقودون المجاهدين في عشائرهم[١].

ولبيان الدور الأساس لرجال الدين والمؤسسة الدينية إبّان ثورة النجف لا بدّ من الرجوع قليلاً للأسباب والدواعي التي أوجبت على المؤسّسة الدينية اعتناق ذلك الدور، إذ شكّلت النجف ومنذ بداية الاحتلال الأجنبي للعراق مركزًا أساسيًا لحركة الجهاد، حيث أقام زعماؤها المحلّيون إدارةً ذاتيةً لتسيير شؤون المدينة، وهي إدارةٌ كانت أشبه بحكومةٍ مؤقّتةٍ، وخلال تلك السنتين الأخيرتين التي تمتّعت بهما المدينة بوضعٍ مستقل[٢].

قام السيّد الشيرازي بتعزيز القيادة الدينية في معارضة المشاريع الإنكليزية ومقاومة الاحتلال، وحلّ بعض المشاكل التي تواجهها حركة المقاومة الإسلامية، وذلك قبل أنْ يتّخذ موقفًا حازمًا وحاسمًا للبدء بمواجهةٍ شاملةٍ ومسلّحةٍ ضدّ الاحتلال، حتى يتمكّن من تحقيق وإنجاح جميع السبل القادرة على تحقيق النجاح في الحالة الثورية، كما جعل بشكلٍ أكبر من المؤسسة الدينية عامل جذبٍ لجميع أنظار أبناء الشعب، وتمكّن من حلّ المسألة المهمّة الخاصّة بالتناحر والصراع بين العشائر، عن طريق خلق التآلف والتقارب في الوجهات المختلفة بالشكل الذي يمكّن من خلال ذلك الاستفادة منهم في مقاومة المحتل.

إنّ التحوّل في موازين التأثير الذي حدث كان من خلال علماء الشيعة ومؤيّديهم من رؤساء العشائر في العراق. وفي الوقت نفسه، ثمّة صلة لا انفكاك عنها مع العالم العربي المتّسع إلى ما وراء حدود العراق؛ جعلت هذه الصّلة ما يحدث في العراق أمرًا يهمّ العرب إلى حدٍّ كبير، وما يحدث للأقطار العربية مصدرًا لإلهام العراقيين[٣].

وعلى الطرف الآخر للعراق، وبالمقابل في لبنان وسوريا، كان هناك علاّمتان مجتهدان كبيران من أساطين العلم والاجتهاد خرجا من رحِم الحوزات العلمية في النجف وكربلاء وغيرهما: المجتهد العلاّمة الكبير السيّد عبد الحسين شرف الدين في جبل عامل بلبنان، والمجتهد العلاّمة الكبير السيّد محسن الأمين في سوريا. فقد أعلن السيّد شرف الدين يعلن الجهاد ضد الاحتلال

١. الحسني، عبد الرزاق. الثورة العراقية الكبرى، ص ٥٥.

٢. دور الشيعة السياسي في تطوّر العراق الحديث ـ م. ن. ص ٦٣ ـ ١٣٠.

٣. ثورة ١٩٢٠. م. ن، ص٤٩.

الفرنسي بقوله: «.. وكان استقبالنا للاحتلال الفرنسي استقبالاً صاخبًا محتجّا يواجهها بالرفض والمصارحة والميل عنها ميلاً لا هوادة فيه ولا لين»[١]. كان السيّد شرف الدين راسخ اليقين، دائب الحركة يدور مع المحتلين مدافعًا أو مطاردًا، وعندما أفتى بالجهاد ضدّهم حكموا عليه بالإعدام وطاردوه، ولم يتزحزح عن مواقفه المبدئية قيد شعرة. وكان يردّد دائمًا أينما حلّ: «الهاشمي لا تعصب سلماته ولا تقرع جنباته... فكيف يلين الهاشمي لحادث، أو يلبس لباس الخوف، حاشا حفّاظ بني الحسين»[٢]. تزامن انفجار الثورة في جبل عامل سنة ١٩٢٠م، ضدّ الاحتلال الفرنسي مع انفجار الثورة في العراق في العام نفسه ضدّ الإنكليز. وما أنْ اندلعت الثورة في جبل عامل حتى تزامن أيضًا إصدار الفتاوى في النجف الأشرف من المراجع الكبار بضرورة التصدّي للاستعمار الإنكليزي في العراق[٣]. ثم اندفع المستعمر الفرنسي بحقده، وحكم على السيد شرف الدين بالإعدام، ثم خفّفه إلى النفي وأحرق داريه ومكتبته العامرة بنفائس المخطوطات والكتب.

أمّا في سوريا فإنّ المجتهد الكبير السيّد محسن الأمين العاملي قد تصدّى في العام نفسه ١٩٢٠م. لقيادة الحركة السياسية الكبيرة في سوريا، التي كان لها الأثر البالغ في توطيد عرى الوحدة الوطنية في مقاومة الاحتلال الفرنسي، وقد استطاع من خلال ذلك أنْ يجسّد صورة القائد الإسلامي الذي يحمل هموم الأمة، ويدافع عن قضاياها، ويعيش مضحيًا من أجلها، فغدا رمزًا من رموز التحرير في العالم الإسلامي، كما اشتهر بمواقفه الوطنية والإسلامية المشرّفة، ودفاعه عن القضايا العربية في وجه الانتدابين الإنكليزي والفرنسي[٤].

وكما كافح في سبيل استقلال سوريا فإنّه لم ينسَ فلسطين حين أطلق فتواه الجهادية يستصرخ الأمة قائلاً: «...أيّها العرب، أيّها المسلمون: إنّ لكم في فلسطين تراثًا، وإنّ لكم في كلّ غورٍ وحزَنٍ دمًا عُجن به ترابها، واختلط به ماؤها ونباتها، وإنّ أربعة عشر قرنًا زاخرًا بالمفاخر والمآثر تحدقُ بكم اليوم، وأمجادًا من عليا معدٍّ ونِزار، ترفرف أرواحٌ في آفاقكم تستفزّ عزائمكم، وتستصرخ نجدتكم»[٥]. ومن فتاواه التي أصدرها في سنة ١٩٢٨ م، كتابًا تحت عنوان: (التنزيه لأعمال الشبيه)

١. شرف الدين، السيد عبد الحسين . بغية الراغبين المخطوط. ص٦٢.

٢. من مخطوطات السيد شرف الدين، ص٥ (نسخها ونقلها ولده المرحوم السيد جعفر شرف الدين).

٣. كوراني، محمد أمين(صاحب البحث)-الجذور التاريخية للمقاومة الإسلامية في جبل عامل، ص١٤٨.

٤. المصلح الإسلامي السيد محسن الأمين، ص١٦٧

٥. م. ن. ص١٧٠.

حول الممارسات العنيفة والدموية في أيام عاشوراء يستنكر فيه تلك الممارسات، وأيّده عددٌ من العلماء في النجف، ولكن الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء وقف في مواجهة قرار الحكومة العراقية بحظر الشعائر الحسينية، ودافع عنها قائلا: «إنّها أعظم رموز المذهب الشيعي، وإنّها ضروريةٌ لوجوده، وحذّر من أنْ تقييدها سيؤدّي إلى اختفاء التشيع كله»[١].

يبدو من خلال المطالعات للتأريخ السياسي وما تتناقله كتب المؤرّخين ومقالات الباحثين أهميّة ثورة العشرين التي قادها جهابذة العلماء في مدينتي النجف الأشرف وكربلاء حيث نزل إلى ميدان الجهاد معظم عشائر الجنوب، بقيادة العلماء، واستمرّ هذا العطاء بثوراتٍ وحركاتٍ لم يهدأ العراق معها حتى يومنا هذا.

فالدستور الإنكليزي الاستعماري لثورة ١٩٢٠م، وإبعاد الغالبية السكانية، لا يُبعد النجف الأشرف عن القيادة الثورية، ولا يُطفئ شعلتها الجهادية، وستبقى النجف قبلة المسلمين، ومحطّ المراجع العظام والعلماء، والشعب الثائر مهما جار عليها الزمن؛ لأنّ حمايتها بحاميها وهو سيّد الوصيين وإمام المتقين أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو حامي بيته ومَن يلوذ به والله المعين.

وحول مواقف النجف السياسية: فإنّ المرجع الأعلى الميرزا محمد حسن الشيرازي قاد الحركة الوطنية في إيران من مقرّه في سامراء ـ العراق، وأفتى تلك الفتوى المشهورة بتحريم استعمال التنباك.

وكذلك في بداية الحرب العالمية الأولى، رأى مجتهدو النجف الأشرف في هجوم الإنكليز على العراق تدخّلاً سافرًا على وطنهم، فأفتوا بالجهاد فانخرط الشعب في أثرهم بقيادة المجتهد العالم السيد محمّد سعيد الحبوبي ومعه كتائب العلماء وطلاّب النجف وساروا مدجّجين بالسلاح إلى ساحات القتال في معركة (الشعيبة) وغيرها، ملبيّن نداء الجهاد ضد البريطانيين.. وقد جاء النّداء بعد فترةٍ وجيزةٍ من اعتداء الأتراك على بيوت شيوخ بارزين كانوا يقبعون في سجون الأتراك.. لكن هؤلاء استُبقوا بفرض الجهاد ضدّ البريطانيين؛ لكونهم قواتٍ غير مسلمةٍ يقاتلون ضد العثمانيين المسلمين، وإنْ كانوا ظَلَمَة[٢].

وبعد الاحتلال الإنكليزي للعراق وإعلان الانتداب، دعا المرجع الأعلى الشيخ ميرزا محمد تقي الشيرازي ـ من مقرّه في كربلاء ـ الشعب العراقي لمقاومة الاحتلال والثورة على الانتداب، فهبّ الشعب حاملاً سلاحه، فكانت الثورة العراقية الكبرى التي أرغمت المحتلين الإنكليز على إعلان

١. كاشف الغطاء النجفي، الشيخ محمد الحسين . الآيات البينات في قمع البدع والضلالات، ص ١٠ . ١١.

٢. ثورة ١٩٢٠ . م. ن . ص١٦١.

الحكم الوطني، وقد أكّدت هذه الثورة على التلاحم الجماهيري الديني والعشائري (القبائل)، ممّا أوجد تفاعلاً قويًّا شدّ هذه الجبهة ضدّ الاستعمار، وتصميمًا صادقًا على محاربة العدو مهما كانت قوته، وقد أفتى السيد الشيرازي بأنّ «مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالبتهم رعاية الأمن والسلم، ويجوز لهم التوسّل بالقوة الدّفاعية إذا امتنع الإنكليز عن مطاليبهم». وطلب بتشكيل حكمٍ عربيّ إسلاميّ دستوريّ متحرّرٍ من الاستعمار في العراق، وأصبحت الثورة رمز البطولة الوطنية العراقية في سبيل الدفاع عن الأمة والأرض من أجل غزوٍ أجنبيّ محتل[١]. وتوفّي الشيخ الشيرازي فقاد الثورة خلفه الشيخ فتح الله النمازي المعروف. بشيخ الشريعة، وقد كانت العشائر في العراق تقف مع صوت المرجعية، وكان هذا العامل من جملة العوامل التي جعلت ثورة العشرين تنجح في دحر الاستعمار البريطاني حيث كان لفتوى المرجع الديني الميرزا محمد تقي الشيرازي أثرٌ كبيرٌ في ابن العشيرة وشيخها حيث يعدّها واجبًا مقدّسًا يلتزم به، وبهذا الترابط القوي بين الشعب والمرجع تفجّرت الثورة، وتألّقت تقدمًا، وأنزلت ضرباتها على المستعمر الذي حاول بمخططاته وضع كثيرٍ من الحواجز بينهما، وبذل الأموال لشراء ضمائر بعض ذوي النفوس الضعيفة واستدراجها إليه.

وأصبحت مدينة النجف الأشرف ـ حينذاك ـ غرفة عمليات الثورة، جهادًا ومصدرًا للبطولة والفداء حتى سرت الثورة إلى جميع محافظات العراق، والجنوبية بالذات.

وللدين الدّور الأساس في قيام الثورة؛ لأنّ بذور التشيّع في فكرة التحرّك الثوري مدعاةً لتكون الانطلاقة شيعية، وإنْ انضمّ إليها شخصياتٌ سياسيةٌ ودينيةٌ غير شيعيةٍ لما فيها من أصالة عقائدية، وصدقيّةٍ في المسيرة. وممّا يدلّل على ذلك صدقية الثورة، ونبل الأخلاق العالية واتّباع التعاليم الإسلامية وفتاوى المراجع والعلماء، حُسْن معاملة أسرى الحرب البريطانيين بفتوى من المجتهد البارز شيخ الشّريعة إلى حرّاسهم، مبيّنا أنّ المعاملة الحسنة للأسرى (واجب دينيّ ومدنيّ وإنسانيّ). وقد استُخدمت هذه الفتوى لدحض خطاب آرنولد ويلسون في ٣٠ آب ١٩٢٠م، إلى شيخ الشريعة[٢].

كان لدور العلماء ـ كما أشرنا ـ في تعبئة الجماهير للثورة أثره الكبير في الإستجابة لهم فالشيخ مهدي الخالصي والسيد هبة الدين الشهرستاني، كانا حلقة الوصل بين القيادة وبين علماء الدين

١. العلوي، حسن. الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤ ١٩٩٠،ص٩٧.

٢. ثورة ١٩٢٠ . م. ن. ص١٩٠.

في الكاظمية وجماهيرها، كما أنّ السيّد أبا القاسم الكاشاني كان حلقة الوصل بين القيادة وإيران، والميرزا أحمد الخراساني كان الحلقة بين القيادة وجماهير وعشائر النجف الأشرف، والأخيران كانا حلقة الوصل مع عشائر الفرات الأوسط.

إنّ منهج الإمام الشيرازي في القيادة كان يعتمد على الشورى، ومن هنا فقد شكّل في البداية مجلس شورى للعلماء، كما شكّل فيما بعد وعلى أثر فتواه بجواز حمل السلاح ضدّ الإنكليز مجلسًا لإدارة الحرب ضدّ القوات الإنكليزية، يتشكّل من رؤساء العشائر الثائرة، ومن الوجهاء وكبار زعماء الثورة[١]، كما كان منهج الإمام الشيرازي في الثورة قد تميّز بما تميّزت به الحركة الثورية الإسلامية في ذلك الوقت من المبادئ الثلاثة:

١. الرفض المطلق للاستعمار، ولمهادنته.

٢. الوحدة الإسلامية.

٣. الاعتماد على الفكر الإسلامي في الحركة.

كما كان الإمام الشيرازي منذ توليه الزعامة الدينية والسياسية، قد سعى عبر توجيهاته ووكلائه، ورسله، إلى تهيئة الأرضية الشعبية لتفجير الثورة بوجه الإنكليز، وقد أصدر عدة فتاوى حدّد فيها واجب الشعب في قضيّة الاستفتاء وفي حرمة التعاون مع السلطات المحتلة. ولم يكن الإمام الشيرازي تنقصه الشجاعة في إصدار فتوى يُلزم فيها الشعب بوجوب حمل السلاح، إنّما كانت حكمته تقتضي أنْ يجعل الفتوى كفّ مسلّط على رأس الإنكليز دون استخدامه. إلاّ في الحالات التي تُفقد فيها جميع الآمال والحلول[٢]. وانتشرت الفتوى على نطاقٍ واسعٍ في كلّ مكانٍ مع مبعوثين خصوصيين من علماء الدين لتحريض الجماهير على حمل السلاح ومقاومة القوات الإنكليزية بالقوة، وكان بعض العلماء والخطباء والشخصيات الدينيّة من أقدر الناس على تعبئة الجماهير من أمثال أبو القاسم الكاشاني، والسيد صالح الحلي، والسيّد محمد الصدر[٣].

ويلاحظ أنّه من الأمور المعروفة أنّ الزعامة الدينية الشيعية في العراق التي أدّت دورًا خطيرًا في تفجير وتأجيج ثورة ١٩٢٠م الوطنية، كانت تنطلق في تفكيرها السياسي من منطلقٍ دينيّ إسلاميّ

١. كمال الدين، محمد علي (تقديم علي الخاقاني). معلومات ومشاهدات من الثورة العراقية لسنة ١٩٢٠م، ص ١٠٠.

٢. م. ن. ص ٢٨٤.

٣. م. ن. ص ٢٨٧.

عامٍ لا يختصّ بطائفةٍ مذهبيةٍ معينة، شيعية أو سنية، ولا بفئةٍ إثنيةٍ دون أخرى، عربية أو كردية أو تركية أو غيرها.

لقد ذهب علماء الدين الشيعة، العرب منهم والإيرانيون على رأس قوافل المجاهدين إلى ساحات القتال في الشعيبة، وغيرها لمحاربة القوات البريطانية[١].

يقول الأستاذ عبد الحليم الرهيمي: «في مدينة النجف قام عددٌ كبيرٌ من العلماء بأدوارٍ مهمّةٍ في حركة الجهاد، وكان أبرزهم المجتهد محمد سعيد الحبوبي، وأنّ السيد الحبوبي قام بدور رئيسي في الثورة، حيث كان أول من بادر إلى قيادة مجموعات المجاهدين والتوجّه بهم إلى الجبهة، وقد التفّ حوله عددٌ من العلماء في النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية الذين قاموا بدورٍ فعّالٍ في تعبئة عشائر الفرات الأوسط وحثّها على الجهاد»[٢].

أمّا ما يخصّ موقف علماء الدين، فإنّ من أسباب الثورة واندلاع لهبِها في نظر الكثير من الباحثين والمؤرّخين هو مواقف رجال الدين. ولا يخفى أنّ المجتهدين من علماء الشيعة الإمامية، هم مرجع جميع أبناء هذه الطائفة في تلقّي الفتاوى والأحكام الدينية، وهم يعتقدون أنّ علماءهم نوّاب أئمتهم فلا يخالفون لهم أمرًا، ولا فتوى، ولا حكمًا من الأحكام الشرعية[٣].

والنجف أوّل مدينةٍ عراقيةٍ فكّرت بالتخلّص من الاستعمار البريطاني، بالنظر لما قد تشبّعت من روح الحرية والنزوع إلى الديمقراطية، بسبب ما كانت تتلقاه من دروسٍ متواصلةٍ عن فلسفة نهضة الإمام أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام، وبسبب كونها مهد العلماء ومركز الروحانية؛ ولذا فقد اهتمّ بها الحاكم الملكي العام اهتمامًا عظيمًا[٤]. ولثورة العشرين أهمية خاصّة، إذ إنّ ١٣٠م، ألف ثائرٍ من الفلّاحين والبدو وسكّان المدن، شهروا السلاح في وجه أقوى دولةٍ إمبرياليةٍ في ذلك الحين، وقاتلوا قواتها المتفوقة عددًا وعدّةً لأكثر من خمسة أشهرٍ بشجاعةٍ لم يسبق لها مثيل[٥].

بعد ثورة العشرين كانت من مطالب مراجع الدين وزعماء الثورة تأسيس دولةٍ عربيةٍ وحكومةٍ

---

١. م. ن. ص ٢٩٩.

٢. الرهيمي، عبد الرحيم. تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، ص ١٦٥.

٣. م. ن ص ١٦٥.

٤. م. ن . ص ٤٠.

٥. ل. ن كونلوف (ترجمة عبد الواحد كرم). ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق ، ص ٢٦٧.

عربية، لكن السياسة البريطانية حاولت أنْ تتلاعب بهذه الإرادة العراقية، عن طريق تمرير معاهدة انتدابٍ تُبقي العراق تحت الانتداب البريطاني... وتنبّه المجتهد الأكبر الشيخ مهدي الخالصي إلى هذه اللعبة الخطيرة؛ فأصدر فتواه الشهيرة بتحريم المشاركة في الانتخابات، وجاء فيها: (من دخل أو تداخل أو ساعد فيه فقد حادَّ الله ورسوله، ومن يحادَّ الله ورسوله فإنّ له نار جهنم خالدًا فيها، ذلك الخزي العظيم). وأيّد هذه الفتوى مرجعان دينيّان من مراجع الدين في النجف الأشرف، هما: السيّد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني، والشيخ ميرزا محمد حسين الغروي النائيني، وقد كان لهذا الموقف السلبي من الانتخابات أثره الكبير في إحجام الجماهير عن المشاركة، وكان ردّ الفعل البريطاني نفي العلماء المعارضين لسياستهم إلى خارج العراق[١].

إنّ الانتفاضات التي قام بها الشعب العراقي، كانت انطلاقتها من المدن المقدسة ابتداءً من النجف الأشرف. وللنجف دورٌ خاصٌّ في ثورة العشرين حيث دفعت بسريانها ضدّ الاستعمار البريطاني خلال ١٩٢٠ و١٩٢٤ و١٩٢٦ و١٩٢٧ و١٩٢٨م والانتفاضة الجبارة التي حدثت خلال الأعوام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٨م والتي سجّلت أحداثًا مجيدةً في تاريخ النضال التحرري للشعب العراقي[٢].

بعد أنْ أظهرت ثورة العشرين كوامن المجتمع العراقي، ارتأت الإدارة الاستعمارية البريطانية تشكيل حكومةٍ وطنية الشكل، يمكنها اكتساب بعض التأييد الشعبي لتخفيف حدّة المعارضة العراقية، وسحب البساط من تحت أقدام الوطنيين والاستقلاليين الشيعة. وإذا كانت ثورة العشرين مشروعًا سياسيًا بأدواتٍ عسكريةٍ غير منظّمةٍ وغير مدروسة لم تعطِ ثمارها، رغم الإنجازات التكتيكية الكبيرة والضربة القوية التي وجّهتها للوجود البريطاني، وفي العموم، كانت حركةً قصيرة الأجل لم تصل إلى حدّ الاستثمار السياسي بالنسبة للشيعة، رغم تأثيرها العميق في مستقبل العراق الموحّد[٣].

لم يختلف موقف علماء الدين من حركة مارس/ آذار عام ١٩٤١م التي قام بها رشيد عالي الكيلاني، ففي هذه الحركة أصدرت حكومة الثورة في عام ١٩٤١م كراسًا حوى صور فتاوى علماء النجف وكربلاء والكاظمية وبغداد ومعظمها بخطوطهم الشريفة، دعت أبناء العراق إلى نصرة حركة

١. بحر العلوم، السيد محمد. النجف الأشرف والمرجعية الدينية. مجموعة بحوث ومقالات، ص٩٠.

٢. ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق. مصد رسابق. ص ٢٧٠.

٣. م. ن ص ٢٧٠.

مارس/ آذار والرفض للنفوذ البريطاني[١]. ولاشك في أنّ الأحداث الجسام التي مرّت بها المرجعية منذ حرب الجهاد وحتى ثورة النجف وثورة العشرين، قد جعلها تركز على مهمتها الرئيسة، وهي المهمة العلمية والشرعية التي من أجلها قامت واستمرت عبر القرون، ولم يكن ذلك بسبب الضغط السياسي الذي مورس عليها من قبل الحكومات الحليفة لبريطانيا؛ لأنّنا نجد لها حضورًا سياسيًا في ثورة العشائر في الفرات وسوق الشيوخ سنة ١٩٣٥ وثورة مارس/ آذار سنة ١٩٤١[٢]م.

ولم تغفل الحوزة العلمية عن قضايا الأمة، وقد رافقت كلّ االقضايا والمحن التي مرّت بها الأمة الإسلامية فناصرتها بما يمليه الشرع والواجب كالقضية الفلسطينية، فمنذ عام ١٩٣١م، حينما حضر الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء مؤتمر القدس، وحتى نكبة ١٩٤٨م وما تلاها من حروب قامت مع الكيان الصهيوني الغاصب. واستمرّ العراق بعطائه حتى كانت اتفاقية بورتسموث ١٩٤٨م، التي أحبطها الشعب بثورته ومزّق اتفاقيتها[٣].

وامتدّت أعوام الجهاد حتى عام ١٩٥٦م، عندما قام العدوان الثلاثي البريطاني والفرنسي والإسرائيلي، على مصر، فكان الشعب العراقي يقف بالمرصاد لحكومة العراق فتظاهر مستنكرًا، وسقط الضحايا في رصاص نوري السعيد، وكان للنجف موقفٌ مشرّفٌ بشجب هذا الإعتداء، فخرجت تظاهرات في الشوارع والأسواق، واستمرّ الإضراب في النجف أسبوعًا كاملاً اتخذ العنف طابعًا له، فعمدت السلطة إلى القوة، وأطلقت النار على بعض المتظاهرين في مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فقُتل اثنان، ولم تتوقّف إلاّ بعد سقوط النظام الملكي في ١٤ تموز ١٩٥٨م، إضافةً لتأييدها لحركات التحرر العربية في ليبيا والجزائر والمغرب العربي وغيرها[٤].

وها هو طودٌ شامخٌ من رجالات الحوزة العلمية في الجانب الآخر، في لبنان، إنّه السيّد عبد الحسين شرف الدين يطلق صرخاته للجهاد والاستشهاد على أرض فلسطين للملوك وللرؤساء العرب. وها هو يهيب بملوك العرب المجتمعين في عمّان قبل النكبة بقليلٍ بنداء، بل بفتوى مدوية: «... الآن، وقد أسفر الصبح لكلّ ذي عين، وأعلن الطائرون إلى الظلّ والماء، تردّدهم في خوض

١. الشيعة والدولة القومية في العراق١٩١٤. ١٩٩٠. م. ن ص١٨٩-١٩٠.

٢. م. ن. ص ٢٠٣.

٣. موقع وكالة أنباء براثا. ثورة العشرين في العراق والمرجعية الدينية فيها.

٤. السراج، عدنان ابراهيم . الإمام محسن الحكيم، ص٢٠٣.

المحنة ودفع الكارثة، أروا الأمّة ما عودتموها عليه ـ بني هاشم ـ من هبوبكم للأخذ بكظمها كلّما ارجحنّت الخطوب، وابتسموا لها في ثنايا ليلها الفاجع على مفترق الدروب. وليس ذهاب فلسطين فاجعًا، لولا أنّه ذهابٌ لريح العرب وعزّ الإسلام، وكرامة الإنسان المُسترَقّ في غد هذا الشرق القريب»[١]. ثم أعقب النداء ببرقية إلى الملك عبد الله ملك الأردن في اليوم الذي أعلن اليهود فيه قيام دولة إسرائيل وذلك على أثر انعقاد مؤتمر عمّان لإنقاذ فلسطين: «كرامة العرب الجريحة تنظر إلى مؤتمركم من مأساةٍ لاموضع فيها للصبر. تَمَرُّ الصهاينة يتحدّى رسالة القرآن. انبعثوا على بركة الله بذات محمد. الشعب العربي يجيش بثورةٍ ضارية، فكونوا من وراء تضحيته، يكفكم الله عدوان شُذّاذ الآفاق»[٢].

ثم راح السيّد شرف الدين يطلق الفتوى تلوى الأخرى يحثّ الأمة على القتال والإستشهاد من أجل فلسطين: «أيّها العرب، أيّها المسلمون: هذا شهر المحرم الدّامي الذي انتصرت فيه عقيدةٌ وبُعث فيه مبدأ. ألا إنّ قتلة الحسين عليه السلام، بِكْر في القتلات، فلتكن قدوتنا فيه بِكرًا في القدوات. ولنكن نحن من فلسطين مكان سيّد الشهداء من قضيته. ليكون لنا ولفلسطين ما كان له ولقضيته من مجدٍ وخلود. أيّها العرب أيها المسلمون: لقد حُمَّ الأجل وموعدنا فلسطين. عليها نحيا وفيها نموت. والسلام عليكم يوم تموتون شهداء، ويوم تبعثون أحياء»[٣]. وفي أواخر أيامه كان السيّد شرف الدين قد شارف على التسعين من عمره وقد وقع العدوان الثلاثي على مصر فأطلق فتواه من إذاعة الشرق الأوسط في القاهرة مدوية، إلى علماء الدين في العالم الإسلامي، جاء فيها: «...أناشد إخواني في الله تعالى علماء الدين في كلّ مكانْ أنْ يقولوا كلمتهم، فتدوي صارخةً توقظ النائمين، وتدفع الواقفين إلى الدفاع عن معقلٍ هو أعزّ معاقلنا تحت راية الحق... وأهيب بالجميع... إلى الاشتراك في معركة المصير هذه، وإعلان الحرب على الاستعمار.... ألا وإنّ الاستعمار الغربي يغزونا في عقر دارنا، معتديًا غاشمًا. ألا ومن مات دون حفنةٍ من تراب وطنه مات شهيدًا»[٤].

مرت المنطقة والعراق بالذات بعد نكبة فلسطين بمتقلباتٍ كثيرةٍ سادتها انعطافاتٌ سياسيةٌ

١. السيد شرف الدين . بغية الراغبين، ص٤٦١.

٢. م. ن. ص٤٦١.

٣. السيد شرف الدين. مخطوطة بخط ولده السيد جعفر شرف الدين. ص٣١.

٤. بغية الراغبين. م. ن، ص٣٢٢.

واجتماعيةٌ عديدة، وما رافقه من موقف المرجعية في الدفاع عن الوطن وإبعاد يد الأجنبي عنها، كذلك حرمة الاقتتال الداخلي بين المسلمين وأبناء الوطن الواحد، كالفتوى التي أصدرها السيّد المرجع الحكيم في حرمة مقاتلة الأكراد، وحرمة غزو البلدان المجاورة مثل الكويت.

وفي عام ١٩٥٩م، وعندما كان المدّ الشيوعي في العراق قد تفاقمت تصرفاته، امتدت الهجمة الشيوعية لتطال التيار الديني والمرجعية في النجف، وبدأت حالةٌ من المواجهة في النجف بعد وضع علامة (لا) على دُور علماء الدين بغية مهاجمتها ليلاً[١].

إنّ هذه النماذج من المواقف التي وقفتها النجف الأشرف بمراجعها العظام وعلمائها الأعلام وشعبها المتفاني، جعلتها تكون غرفة عمليات للمجاهدين للانطلاقة الأولى للثورة ابتداءً من سنة ١٩١٧م، بِدء الحركة الجماهيرية ضدّ الاستعمار الإنكليزي، وامتدادًا إلى جميع الأحداث والانتفاضات والحركات التي مرّت على العراق الأبي حتى يومنا هذا.

وفي قمّة صعود المدّ (الماركسي) في العراق، وما شهده من انتهاكاتٍ فاضحةٍ للقيم الدينية والأخلاقية، انبرت المرجعية الدينية بفتوى شجاعة بأنّ «الشيوعية كفرٌ وإلحاد»، رافقتها مواقف في كربلاء المقدسة، من لدن المرجع الديني الراحل الميرزا السيد مهدي الشيرازي بمواجهة الإلحاد وتبيين معالم الرموز المقدسة والنماذج العظيمة، عبر إطلاق مشروع الاحتفال العالمي بذكرى مولد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الثالث عشر من شهر رجب، وتكرار البرنامج كلّ عام، ودعوة الأدباء والشعراء والشخصيات الدينية والسياسية لحضور هذا المهرجان الكبير في كربلاء المقدسة. وكانت أول تجربةٍ ناجحةٍ لهذا المهرجان عام ١٩٦٠[٢]م.

وفي مرحلة الستينيات من القرن الماضي، امتازت المرجعية بإرادتها القويّة؛ إذ وقفت ضدّ كلّ المؤامرات، فعمد آية الله السيّد محسن الحكيم المرجع الأعلى الشروع بزيارة العتبات المقدّسة، واستمرت زيارته شهرًا كاملاً، وقد شعرت دوائر الاستكبار، بمغزى هذه الزيارة وعرفت قوة تأثير المرجعية في أوساط المجتمع العراقي، وفي عام ١٩٦٤م عُقد مؤتمرٌ بدعوةٍ من عبد السلام عارف للحصول على فتوى شرعيةٍ تسوّغ مقاتلة الأكراد، وقد وجّهت دعوةٌ إلى علماء النجف للحضور فيه إلا أنّهم قاطعوه، وحضر المؤتمر من غير العراقيين شيخ الأزهر آن ذاك، وأصدروا فتاوى مفادها أنّ الأكراد بغاةٌ يجوز قتالهم، وردًّا على ذلك دعا السيّد الحكيم إلى عقد مؤتمرٍ في كربلاء، أعلن

١. الشيعة والدولة القومية في العراق١٩١٤. ١٩٩٠. م. ن . ص: ٢١٩.

٢. مجلة الهدى الشهرية،٢٠١٤/٩/١١.

فيه فتواه التي حرّم بها قتال الإخوة الأكراد، كان ذلك أواخر ١٩٦٤م، فقد زرعت هذه الفتوى حبًّا بين الأكراد والعرب لموقف المرجعية النبيل والشجاع الذي حفظ به دماء المسلمين دون النظر إلى نوعية المكوّن المذهبي، كما أصدر فتاوى تاريخيةً وسياسيةً منها حرمة الإنتماء إلى الحزب الشيوعي، وعند وصول البعثيين إلى السلطة عام ١٩٦٨م كانت هنالك مواجهاتٌ مع مرجعية السيّد الحكيم، وقد تجنّب حزب البعث الاحتكاك المباشر مع المرجعية، وخاصّة أنّ المرجعية كان لها تأثيرٌ واضحٌ وقويٌّ على إرادة الجماهير، فعمد الحزب لتشويهٍ في سيناريو مملوء بالكذب والأباطيل هو اتهامه أحد أولاد المرجع الكبير السيّد الحكيم وهو السيّد الشهيد يوسف الحكيم بالجاسوسية لزعزعة الثقة بين أوساط الجماهير وعزل المرجعية عنها[١]. وأصدر السيّد محسن الحكيم فتاوى بدعم العمل المقاوم لليهود في فلسطين والدفاع عن المقدّسات الإسلامية في القدس، وموقف الإمام الخميني في هذه القضية كان مبكّرًا منذ بدايات تحرّكه السياسي في الحوزة (١٩٦٣م)، وكان موقفًا مميزًا بين أقرانه المراجع والمجتهدين، وتجاوز التعاطف مع القضية ليصل إلى مساندة المجاهدين ماليًا من خلال الحقوق الشرعية.

وفي الختام: إنّ النجف الأشرف شارك بجامعته العلمية وحوزته الدينية، وبكلّ ثقله وإمكاناته الفكرية، شعوبنا العربية الإسلامية المحنَ التي مرّت بها، وسجّل في كلّ قضيةٍ مصيريةٍ لهذه الأمة، طوال العقود المنصرمة موقفًا مشرفًا أملاه عليه الواجب الأخوي، والغيرة العربية، بدايةً من القضية الفلسطينية، ومرورًا بالجزائرية، والتونسية، والمغربية، والسورية، والمصرية، وأخيرًا الكويتية. وسجّل ذلك كلّه ـ بكلّ فخرٍ واعتزاز ـ في صفحات تاريخ هذا البلد العربي العراقي جهادًا، وفكرًا.

إنّ الشيعة عندما ثاروا قبل ثورة العشرين واستمروا في ثورة العشرين وما بعدها، وطردوا المستعمر الانكليزي شرّ طردةٍ من بلاد الرافدين فاشترك الشعب مع قيادته العلمائية المتمثلة بالمرجعية الرشيدة... دفعوا ثمن ذلك العمل البطولي؛ حيث نفذ ما سنّه الإنكليز من دستورٍ طائفيّ بغيضٍ مدركين أنّ كلّ حاكمٍ يستلم زمام الحكم في العراق يسارع إلى تطبيق الدستور ليتجاهل الأغلبية السكانية في الوقت الذي يصرّح الملك فيصل الأول مؤسّس الدولة العراقية في مذكراته التي أصبحت وصيةً بعده بقوله: «إنّ الضرائب على الشيعي، والموت على الشيعي، والمناصب للسُنّي، ما الذي هو للشيعي؟»[٢].

١. الأسدي، صادق غانم -المشروع السياسي والجهادي للحوزة العلمية في العراق. ص٣.

٢. الأزري، عبد الكريم. مشكلة الحكم في العراق، ص ٤.

المرجعيّة العليا للشيعة في العالم، تلك المؤسّسة الدينية والعلمية المستمرة بالقرب من ضريح الامام علي عليه السلام منذ نحو ألف عام، والتي ارتبط حضورها بتاريخ العراق الحديث وبالتحديد منذ الحرب العالمية الأولى ارتباطًا وثيقًا حتى أنّه لا يمكن لأيّ باحثٍ في هذا التاريخ إلّا أنْ يجعلها قطب الرحى في كلّ ما عاشه العراق ودول عدة، وبالتحديد إيران، من أحداث وتطورات. والحديث عن دور النجف التاريخي وارتباط الشيعة الروحي والسياسي بها يحتاج بطبيعة الحال إلى أنْ يُفرد له فصلٌ خاصّ، ولكن لا بدّ من الإشارة ولو لِمامًا، إلى أنّ هذه المرجعية، التي أجبرت عام ١٨٩٦م شاه إيران على إلغاء امتياز التنباك مع الإنكليز بعد الفتوى الشهيرة للمرجع الميرزا حسن الشيرازي، والتي أيّدت نظام (المشروطة) في إيران عام ١٩٠٧م (أي اقامة ملكية دستورية)، وقادت عام ١٩١٥م الحرب ضد القوات البريطانية إلى جانب الأمبراطورية العثمانية، والتي فجّرت عام ١٩٢٠م الثورة المشهودة ضد الإحتلال البريطاني، هي اليوم في واقع لا يسمح له بالاضطلاع بأدوارٍ كبرى تضاهي أدوارها التاريخية هذه. والمعلوم أنّ المراجع أنفسهم هم الذين كانوا يرسمون أدوار مرجعية النجف ويمسكون بيد واحدة المرجعية الروحية والزعامة السياسية. ولعلّ آخر هذه المراجع التي توفّر لها أداء هذا الدور كان السيّد محسن الحكيم (توفي عام ١٩٧٠م)، فهو منذ أنْ ثُنيت له وسادة المرجعية أواخر عقد الخمسينات، بعد وفاة المرجع الشهروردي، دخل في سجالٍ حادٍّ مع العهود التي تعاقبت على حكم العراق، وآخرها عهد حكم البعث. وقد بلغت درجة صدامه معه أنْ أفتى في أواخر أيامه بتحريم الإنتساب إلى هذا الحزب، أو التعامل معه. وقد كان هذا العداء، الذي سبقته سلسلة صداماتٍ داميةٍ سببًا في اندفاع حزب البعث العراقي لاحقًا إلى محاصرة المرجعية الشيعية والقضاء على دورها وحضورها، والذي بلغ ذروته عام ١٩٨٠م بإعدام المرجع الشيعي السيّد محمد باقر الصدر وبعده مئات العلماء. وأيًّا كان الأمر، فبعد عام ١٩٨٠م تركّزت فاعلية المرجع السيّد الخوئي الذي خلف السيّد الحكيم، في سدّة المرجعية على الصمود لإبقاء ما تيسّر من الحوزة العلمية، على أساس أنّه خيرٌ من زوالها.

لائحة المراجع والمصادر

١. المصلح الإسلامي السيد محسن الأمين-الناشر: المستشارية الثقافية الإيرانية في دمشق١٩٩٢.

٢. الأسدي، صادق غانم -المشروع السياسي والجهادي للحوزة العلمية في العراق.

٣. الأزري، عبد الكريم- مشكلة الحكم في العراق، ط لندن ١٩٩١.

٤. بحر العلوم، السيد محمد- النجف الأشرف والمرجعية الدينية- مجموعة بحوث ومقالات.

٥. الجبوري،كامل سلمان - النجف الأشرف وحركة الجهاد- مؤسسة العارف للمطبوعات- بيروت- ط١-٢٠٠٢.

٦. الغرباوي، ماجد- الشيخ محمد حسين النائيني (منظّر الحركة الدستورية) - مؤسسة الأعراف للنشر- ط١- ١٩٩٩.

٧. الحسني، عبد الرزاق- الثورة العراقية الكبرى- بيروت- ١٩٧٨ - ط٤.

٨. الرهيمي، عبد الحليم - تاريخ الحركة الإسلامية في العراق (١٩٠٠ ـ ١٩٢٤)- ط١ _الدار العالمية للطباعة والنشر- بيروت، ١٩٨٥.

٩. الساعدي، كريم محمد حاتم- الغزوات الوهابية على الأضرحة المقدسة في كربلاء والنجف خلال القرن التاسع عشر الميلادي - موقع موسسة النور للثقافة و الأعلام- ٢٠١٤/١٠/٢٩.

١٠. السراج، عدنان ابراهيم - الإمام محسن الحكيم - دار الزهراء - بيروت ١٩٩٣.

١١. السيد شرف الدين،عبد الحسين- بغية الراغبين ـ الدارالإسلامية- بيروت ط١.

١٢. بغية الراغبين المخطوط.

١٣. الشريفي، أحمد باقر علوان- كربلاء بين الحربين العالميتين- رسالة ماجستير- معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا- بغداد٢٠٠٤

١٤. صاغية، حازم - صراع السلام والبترول في إيران- بيروت- دار الطليعة- ط١ -١٩٧٨.

١٥. الطريحي، محمد سعيد- المرجعية الدينية وقضايا العالم الإسلامي: الغزوالإيطالي للقطر الليبي وحرب طرابلس سنة ١٩١١

١٦. عودة، جهاد- تقدير الأزمة الاستراتيجية في العالم العربي- الناشر:المكتب العربي للمعارف.
١٧. العلوي، حسن- الشيعة والدولة القومية في العراق١٩١٤- ١٩٩٠- دار الثقافة للطباعة والنشر- قم، إيران. ٢٩.
١٨. عبد الدراجي، عبد الرزاق- جعفر ابو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق- (بغداد ١٩٧٨)، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة بغداد
١٩. الغرباوي،ماجد- الشيخ محمد حسين النّائيني(منظّر الحركةالدستوريّة)- ط١- مؤسسةالأعراف للنشر ١٩٩٩
٢٠. الكركولي - دراسات في عشائر العراق- ١٩٩٥.
٢١. كاظم، عباس محمد - ثورة ١٩٢٠- دار التنوير- ط١ بيروت.
٢٢. كوراني،محمدأمين - الجذور التاريخية للمقاومة الإسلامية في جبل عامل- دار الهادي- بيروت-ط٢ ـ ٢٠٠٥
٢٣. كاشف الغطاء النجفي، الشيخ محمد الحسين - الآيات البينات في قمع البدع والضلالات- دار المرتضى، بيروت ـ لبنان
٢٤. كمال الدين، محمد علي(تقديم علي الخاقاني)- معلومات ومشاهدات من الثورة العراقية لسنة١٩٢٠ - ط العراق ١٩٧١.
٢٥. ل. ن كونلوف(ترجمة عبد الواحد كرم)- ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق -دارالحرية للطباعة ـ بغداد-١٩٧١.
٢٦. الكاتب،أحمد- المرجعية الدينية الشيعية -.. آفاق وتطور- ط/٢العراق٢٠٠٧- ص١١-١٢.
٢٧. محبوبة،جعفر- ماضي النجف وحاضرها- دارالأضواء- ط٢- ١٩٨٦
٢٨. النفيسي،عبدالله- دور الشيعة السياسي في تطورالعراق الحديث- ترجمة دار النهار، بيروت ١٩٧٣.
٢٩. الوردي، علي- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث- قم- انتشارات الشريف الرضي- ١٤١٣هـ- ط١.
٣٠. موقع وكالة أنباء براثا- ثورة العشرين في العراق والمرجعية الدينية فيها.
٣١. مجلة كلية التربية الساسية للعلوم التربوية والإنسانية- العدد/٢٢ / جامعة بابل آب/٢٠١٥م ص ٥٢٧.

٣٢. مجلة الموسم- العدد السادس- بيروت- ١٩٩٠ - ص ٣٨١- ٣٨٢.

٣٣. مجلة العلم النجفيه-المجلد السابع- الجزء السادس- تشرين الثاني ١٩١١- ص٢٤٩.

٣٤. ثورة العشرين (عباس محمد كاظم):سلسلة نحو حضارة إسلامية- عدد١٨/١٩٨٤

٣٥. مجلة الهدى الشهرية،٢٠١٤/٩/١١. -٣٠-

الاستعمار الفرنسي لمصر في ظروفه الزمانيَّة والمكانيَّة

(الخلفيّات- الأسباب- الوقائع الميدانيّة- الآثار والنتائج)

د. غيضان السيّد علي[1]

الملخص

يدور هذا البحث حول الاستعمار الفرنسي لمصر ١٧٩٨-١٨٠١ م، في ظروفه الزمانيَّة والمكانيَّة؛ محاولاً الوقوف على الخلفيات التاريخيَّة والأهداف الاستراتيجيَّة وراء قدوم الحملة الفرنسيَّة إلى مصر، ومحاولاً الإحاطة بظروف مصر السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والعلميَّة وقت مجيء الحملة ومقارنتها بالظروف والأحوال نفسها في فرنسا، باحثًا عن الأسباب الحقيقيَّة وراء مجيء تلك الحملة لاحتلال مصر. ثم يحاول هذا البحث أنْ يرصد لأهم الآثار والنتائج التي ترتبت على وجود الحملة في مصر بوجهٍ عام، مؤكدًا على أنّ حقيقة الاستعمار تنعكس من خلال الوقوف على أغراضه وأطماعه وأهدافه الخبيثة التي تمثّلت في نهب ثروات مصر وخيراتها، واستغلال موقعها الجغرافي الممتاز لتحقيق أطماع فرنسا الاستعماريّة، هذا فضلاً عن رغبة الغرب المحمومة في وأد اليقظة الإسلامية التي كانت على وشك الظهور في مصر وبلاد الشام، وسرقة النفائس العلميَّة التي تعدّ أكبر مكاسب الحملة الفعلية؛ إذ كانت مصر حينذاك أغنى بلاد العالم بالكتب. والسعي لنشر البدع والمنكرات والخلاعة والمجون بين أبناء الأُمّة لتغييب هويتها الإسلامية حتى يسهل السيطرة عليها وإسلاس قيادتها.

الكلمات المفتاحية: الحملة الفرنسيّة، الصراع الاستعماري، سرقة النفائس العلميَّة، دواوين الحكم، الأطماع الاستعمارية.

---

١. متخصّص في الفكر الإسلامي - أُستاذ في جامعة بني سويف / مصر.

المقدّمة

شهدت نهاية القرن الثامن عشر الميلادي استئنافًا جديدًا للحملات الصليبية على الشرق الإسلامي بعد توقّفٍ دام ما يزيد على خمسة قرون؛ إذ امتدت الحملات الصليبية من أواخر القرن الحادي عشر حتى العقد الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي (١٠٩٦- ١٢٩١م). وقد تمثّل هذا الاستئناف في حملةٍ فرنسيَّةٍ على مصر بقصد الاستيلاء على خيراتها، ونهب ثرواتها، ثم احتلالها وجعلها نواةً لإمبراطوريّةٍ فرنسيّةٍ في الشرق تكون قاعدتها مصر. هذا فضلاً عن تحقيق جملةٍ من المآرب الاقتصاديّة والسياسيَّة والاستراتيجيّة فرضتها الظروف والأحوال في ذلك العصر.

لم تكن فكرة احتلال مصر وليدة اللحظة التي جاءت فيها الحملة إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، بل هي حلمٌ فرنسيٌّ قديمٌ يعود إلى القرن السابع عشر أيام حكم الملك لويس الرابع عشر (١٦٦٢-١٧١٤م)؛ حيث قدَّمَ له الفيلسوف الألماني ليبنتز مخطّطًا متكاملاً لغزو مصر تحت عنوان Aegyptiacum Consiluam، بهدف ضرب التجارة الهولندية في الهند التي تمر عن طريق مصر، لكن الملك رفض الخطة؛ لأنَّ الظروف السياسيَّة لم تكن مواتيةً لمثل هذا الغزو خاصّةً أنّ فشل الحملات الصليبيّة وهزائمها المنكرة لم تكن قد مُحيت تمامًا من ذاكرة الغربيين، وتحسبًا لعداوة الدولة العثمانيَّة التي كانت لا تزال مرهوبة الجانب، وخوفًا من أنْ يصطدم الجيش الفرنسي بالأسطول الإنجليزي وهو في طريقه إلى مصر فتفقد فرنسا جيشًا من خيرة جيوشها. ثم تكررت الدعوة مرةً أخرى لاحتلال مصر في عهد لويس الخامس عشر (١٧١٥-١٧٧٤م)، ثم لحقتها دعوةٌ مماثلةٌ في عهد الملك لويس السادس عشر (١٧٧٤-١٧٨٩م)، لكن كان مصير كلا الدعوتين كمصير أولاهما هو الرفض، بيد أنّ الأمر قد تغيّر تمامًا بعد الثورة الفرنسيَّة التي قامت في ١٤ يوليو ١٧٨٩م، باقتحام سجن الباستيل والقضاء على الحكم الملكي الإقطاعي وإعلان الجمهورية. وقد تزامن هذا مع بداية عصر انهيار الدولة العثمانيَّة المترامية الأطراف التي أدركتها الشيخوخة والهرم، وتفشت الثورات في أرجائها؛ فثار عليها على بك الكبير في مصر، وأحمد باشا الجزار في الشام، والوهابيّون في شبه الجزيرة العربية، وعلي باشا في ألبانيا، والشعوب المسيحيّة في البلقان حتى أصبحت السيادة العثمانيَّة سيادة اسمية فقط، وازدادت أطماع الدول الأوروبيَّة في ولاياتها، وما كانت الحملة الفرنسيَّة على مصر سوى فصلٍ من فصول أطماع الدول الأوربية في ولاياتها، وحلقةٍ من حلقات الصراع الأوروبي (الإنجليزي- الفرنسي).

فما هي الخلفيّات التاريخيَّة وراء قدوم الحملة الفرنسيَّة إلى مصر؟ وما هي أهدافها الاستراتيجيَّة؟ وكيف كانت ظروف مصر وقت مجيء الحملة؟ وكيف جرّت وقائعها الميدانيّة الرئيسة؟ وما هي أهمّ الآثار والنتائج التي ترتبت على مجيء هذه الحملة؟ وإلى أيّ مدى يصدق رأي المنبهرين بالغرب بأنّ الحملة الفرنسيَّة حدثٌ فريدٌ واستثنائي، وأنّها قد أيقظت مصر والعرب والمسلمين من سباتهم العميق؟ تلك هي أهم الأسئلة التي سيحاول هذا البحث الإجابة عنها.

وهنا تكمن أهميّة هذا البحث إذ يلقي الضوء على تاريخ الاستعمار الفرنسي لمصر في ظروفه الزمانيَّة والمكانيَّة (الخلفيات، الأهداف الاستراتيجية، الظروف المحيطة، الأسباب، الوقائع الميدانية، النتائج والآثار) من خلال وجهة نظرٍ موضوعيَّةٍ بعيدًا عن تلك الرؤى المنبهرة بالغرب في كلّ شيءٍ حتى في احتلاله لنا! كما يقف على حقيقة الاستعمار الفرنسي وأغراضه الحقيقيَّة الخبيثة التي تمثّلت في نهب خيرات وثروات مصر، واستغلال موقعها الجغرافي لإقامة امبراطوريّةٍ فرنسيّةٍ في الشرق، هذا فضلاً عن الرغبة المحمومة في وأد اليقظة الإسلاميّة التي بدأت تتبلور في المجتمع الإسلامي في مصر والشام والحجاز، وسرقة النفائس العلميَّة، والسعي لنشر البدع والمنكرات بين أبناء الأمة، ونشر السفور والخلاعة والمجون والمنكرات لتغييب هويّة المجتمع الإسلاميَّة.

وقد استخدم الباحث في انجاز بحثه مجموعةً من المناهج البحثية، لعلّ أهمها المنهج التاريخي الذي يتمّ من خلاله سرد الوقائع والأحداث مرتبةً زمنيًا. والمنهج التحليلي الذي يعمل على تحليل النصوص وعرض الأفكار ومناقشاتها، وكذلك المنهج الوصفي؛ إذ إنّه الأنسب في وصف مجريات الحملة الفرنسيَّة على مصر.

قسَّم الباحث بحثه إلى مقدمةٍ وخاتمةٍ وأربعة محاور أساسيّة؛ إذ تناولت المقدّمة أهميّة الموضوع وتساؤلاته ومناهجه. وتناول المحور الأول الخلفيّات التاريخيَّة للحملة الفرنسيَّة على مصر. واختصّ المحور الثاني بدراسة أسباب الحملة الفرنسيَّة على مصر، أمّا المحور الثالث فقد سلّط الضوء على الوقائع الميدانية للحملة الفرنسيَّة. ورصد المحور الرابع أهمّ الآثار والنتائج التي ترتبت على مجيء الحملة إلى مصر. ثم عرضت الخاتمة أهم نتائج البحث.

أولًا- الخلفيّات التاريخيَّة للحملة الفرنسيَّة على مصر

يمكننا الحديث عن الخلفيات التاريخيَّة للحملة الفرنسيَّة على صعيدين اثنين، الصعيد الأوّل يدور حول أحوال فرنسا في العقد الأخير من القرن الثامن عشر، والصعيد الثاني يدور حول أحوال المجتمع المصري قبيل مجيء الحملة الفرنسيَّة. وهو ما سنعرض له فيما يأتي:

الأحوال في فرنسا: كانت الثورة الفرنسيَّة التي قامت في ١٤ يوليه ١٧٨٩م، من أهم الأحداث التي شهدها تاريخ فرنسا الحديث؛ إذ قامت بتغييراتٍ راديكاليّةٍ داخل المجتمع الفرنسي، وجاءت بمفاهيم جديدة للعصر الحديث؛ أثَّرت في المبادئ والنظم السياسيَّة والاقتصاديَّة، وأجرت تحولاتٍ سياسيَّة واجتماعيَّة كبرى في التاريخ السياسي والثقافي لفرنسا بوجهٍ خاصّ، وأوروبا بوجهٍ عامّ. وقد قامت هذه الثورة بقيادة الطبقة الجديدة (البرجوازية - الوسطى) من أصحاب المصالح التجارية والصناعية الجديدة بالتحالف مع طبقة العامّة. كما عملت حكومات الثورة الفرنسيَّة على إلغاء الملكية المطلقة، والامتيازات الإقطاعية للطبقة الارستقراطية، ونفوذ رجال الدين. ودخلت فرنسا بعد الثورة في تجارب مختلفةٍ من أشكال السلطة التنفيذية والتشريعية؛ فقامت الجمعية التشريعية، ثم المؤتمر الوطني، ثم حكومة الإدارة التي جاءت في عهدها الحملة الفرنسيَّة على مصر [١]. وقد شهدت تلك الأحوال الجديدة في فرنسا بعد الثورة تغيراتٍ خارجيةً أيضًا لا تقلّ أهميّةً عن تلك التغيرات الداخلية. وسوف نعرض بإيجازٍ لأهم الظروف الداخلية والخارجية لأحوال فرنسا قبل مجيء الجملة الفرنسيَّة إلى مصر مع مراعاة التركيز على تلك الأحوال والظروف التي كانت من الأسباب المباشرة أو غير المباشرة لمجيء الحملة إلى مصر.

الصراع الفرنسي الإنجليزي: شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر ذروة الصراع بين انجلترا وفرنسا؛ إذ استطاعت إنجلترا تأسيس شركة الهند الشرقية، فتمكنت في زمنٍ قياسيّ من السيطرة على مقاليد التجارة العالمية، وهو الأمر الذي هدّد اقتصاد فرنسا بنسبةٍ كبيرة. في حين أنّ قيام الثورة في فرنسا والقضاء على الحكم الملكي وإعلان الجمهورية قد أصاب ملوك أوروبا بالرعب والخوف على عروشهم، ومن ثم بدأوا سياسة التحالف فيما بينهم للقضاء على الثورة في فرنسا وإعادة

١. عطية القوصي وآخرون، الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث، القاهرة، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، ٢٠١١-٢٠١٢، ص ٧٥.

الملكيَّة، أو على أقلّ تقديرٍ منع تسرب مبادئها خارج حدود فرنسا [١]؛ ولذلك لم يكن غريبًا أنْ تشن إنجلترا مع حلفائها أكثر من حربٍ ضد فرنسا، غير أنّ قوات الثورة بقيادة نابليون بونابرت أحرزت انتصاراتٍ كثيرة (خلال الفترة من ١٧٩٥-١٧٩٧م) على القوات المعادية لها، انتهت إجمالاً بتوسيع حدود فرنسا حتى بلجيكا ونهر الراين وربوع إيطاليا حتى البحر الأدرياتي والجزر الغربيَّة من مجموعة جزر أيونيا، حتى أصبحت فرنسا إحدى القوى العظمى في أوروبا. ومع كلّ انتصارات فرنسا على أعدائها إلاّ أنّ الانتصار المباشر على غريمتها التقليدية (إنجلترا) ظلّ أمرًا صعب المنال؛ نظرًا لموقعها الجغرافي المنعزل عن القارة الأوروبيَّة فقد كان من المتعذّر على الأسطول الفرنسي نقل الجيش عبر المانش أو بحر الشمال إلى إنجلترا بسبب وجود الأسطول البريطاني القوي في المانش [٢]. ومن هنا استوجب الصراع ضرب المصالح الإنجليزية خارج إنجلترا، ومن ثم كانت فكرة غزو مصر.

شكاوى التجار الفرنسيين من سوء معاملة المماليك: لا شكّ في أنَّ رموز الثورة الفرنسيَّة وقادتها كانوا من الطبقة البرجوازية من أصحاب المصالح التجارية الجديدة، وكانت تجارتهم تعبّر البحر المتوسّط إلى مصر، وكانت شؤون مصر الداخلية تقع تحت حكم المماليك. وقد توالت شكاوى التجّار الفرنسيين في مصر من سوء معاملة المماليك لهم، حتى استجابت الحكومة لشكاواهم، وعينت قنصلاً عامًّا لفرنسا في مصر هو المسيو (مجالونMagallon) عام ١٧٩٣م الذي كان من كبار التجار وعلى درايةٍ واسعةٍ بشؤون مصر؛ لذلك كان من أهمّ دعاة احتلال فرنسا لمصر؛ فلم يلبث أنْ حثّ حكومته على ذلك مبينًا المزايا السياسيَّة والاقتصادية التي ستعود عليها من استثمار مواردها ومدّ سلطانها إلى البحر الأحمر وتهديد مصالح إنجلترا في الهند. وبيّن القنصل لحكومة بلاده سهولة احتلال مصر، واستطاع إقناع (تاليرانTalleyrand) [٣] وزير الخارجية آنذاك برأيه، حيث التقى في هذه الفكرة مع بونابرت [٤].

---

١. م. ن، ص ٧٦.

٢. عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩، ص ٢٩٧.

٣. تاليران Talleyrand سياسيّ فرنسيّ كان أوّل أمره من رجال الإكليروس، التحق بالثورة عند قيامها، وخلع ثوبه الديني، ثم صار نائبًا في البرلمان، ثم وزيرًا للخارجية في عهد حكومة الإدارة.

٤. أحمد زكريا الشلق، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١)، فصل بكتاب: المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٩، ص٦٧-٦٨.

أحلام نابليون بتكوين إمبراطوريّةٍ فرنسيّةٍ في الشرق: مثَّلت انتصارات نابليون المتتالية في أوروبا إغراءً حقيقيًا لصاحبها، إذ بدأ يحلم بتكوين إمبراطوريّةٍ فرنسيّةٍ في الشرق تكون قاعدتها مصر. واكتمل الحلم في رأس نابليون بعد انتصاراته في إيطاليا وسكنه فيها، واحتلاله موطن يوليوس قيصر، وبالقرب من مقدونيا موطن الإسكندر الأكبر، وهو الأمر الذي أوحى إلى نابليون بتقليدهما في فتوحاته الكبيرة، فاختار مصر منجذبًا بعظمتها القديمة، وبات يحلم بتشييد إمبراطوريّةٍ على ضفاف النيل تحقّق ما كان يجيش بصدره من آمالٍ كبار، فيستطيع منها ضرب إنجلترا، وأنْ يجعل البحر المتوسّط (بحيرة فرنسية)، ومن هنا اختمرت الفكرة في ذهنه وهو مازال بإيطاليا، فجعل يفكر في مبررات ووسائل تحقيقها ليعرضها على حكومة الإدارة التي وافقت على طلبه [١]. كما أنّ الوضع السياسي المضطرب في باريس جعله يفضل البقاء بعيدًا عن بلاده، لفترةٍ طويلة، على أنْ يعود إليها كزعيمٍ منقذٍ حين يحين الوقت فيقلب الحكم ويستلم السلطة. وقد أدرك وزير الخارجية (تاليران) بذكائه النفاذ ووصوليته المتناهية أنّ الزمن يعمل لصالح بونابرت، فربط مصيره به، وتبنّى قضيته أمام حكومة الإدارة، وأقنع رجالها بآرائه، وجعلهم يوافقون على تجهيز الحملة على مصر [٢].

تعدّد المزايا التي تعود على فرنسا من غزو مصر: كانت فرنسا تدرك حجم المزايا التي ستعود عليها من الاستيلاء على مصر، فقد كان ملك فرنسا لويس الخامس عشر يطمع في أنْ تتنازل له الدولة العثمانيَّة عن مصر، وتكرّرت الفكرة أيام لويس السادس عشر، وكان ذلك لتسهيل اتّصال تجارة فرنسا في شرق آسيا عن طريق مصر بدلاً من الدوران حول إفريقيا. ولكن طلبهما قوبل بالرفض التام من السلطان العثماني. وتجدّد الحلم خاصّةً بعد الضعف النسبي الذي أصاب الدولة العثمانيَّة، وأصبح احتلال مصر لا يحتاج أكثر من بضعة أشهر بقوةٍ لا تزيد عن ثلاثين ألف جندي. وإنّ هذه التكلفة بسيطة جدًا في مقابل المزايا الكثيرة التي ستجنيها فرنسا، والتي يأتي على رأسها موقع مصر الجغرافي الممتاز بوصفها ملتقى التجارة بين القارات الثلاث، وأنّه بإنشاء قناة تصل بين البحرين الأحمر والمتوسط يمكن للسفن الفرنسيَّة أنْ تصل البحر الأحمر وتهاجم أملاك إنجلترا في الهند، فضلاً عن بسط سيادة فرنسا على البحر المتوسط. وقد أشاد بونابرت بعظمة مصر القديمة وذكر في مبرراته أنّها من أخصب بلاد العالم، وأنّ في الإمكان ترقية زراعتها وإعادة منزلتها القديمة،

١. م. ن، ص٦٨.

٢. عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر: أوروبا من الثورة الفرنسيَّة إلى الحرب العالمية الثانية، بيروت، دار النهضة العربية، د.ت، ص٨٠.

إذا وجدت بها حكومةٌ حديثةٌ وإدارةٌ صالحة [١]. ومن ثم كان غزو مصر على رأس مشاريع حكومة الثورة في فرنسا.

أحوال المجتمع المصري قبيل الحملة الفرنسيَّة

كانت الأحوال في مصر على النقيض تمامًا منها في فرنسا، حيث كانت فرنسا تتجه نحو التقدم والريادة وامتلاك أسباب القوة، أما أحوال مصر فقد كانت من سيء إلى أسوأ؛ لذلك كان من الضروري الوقوف على تلك الأحوال في مصر لكي نفهم تطوّر الحوادث، وأسباب الهزيمة، والفرق بين أوضاع المجتمع الفرنسي الأوروبي وأوضاع المجتمع المصري والعربي والإسلامي، ويمكن إيجاز الأحوال في مصر فيما يأتي:

انهيار الأوضاع الاقتصادية: اعتمدت دولة المماليك في بناء اقتصادها بنحوٍ رئيسٍ على عوائد سيطرتها على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب. فكان اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح نهاية القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر بمنزلة ضربةٍ قاصمةٍ للاقتصاد المصري المملوكي. وقد حاولت مصر – رغم المفاجأة - أنْ تدفع هذا الهجوم، وأنْ ترسل السفن إلى البحر الأحمر، والقوات العسكرية إلى اليمن لكي تمنع استيلاء البرتغاليين على عدن أو دخولهم البحر الأحمر وتهديدهم لموانى الحجاز، وقد بذل السلطان المملوكي قنصوه الغوري كلّ ما في وسعه، إلّا أنَّه لم يحقق نتائج حاسمة [٢]. فتقلّصت صلات مصر التجارية وتأثرت إلى حدٍّ كبير، هذا إلى جانب عوامل أخرى لا تقل أهمية أثَّرت بشكلٍ كبيرٍ في تدهور الاقتصاد المصري، كان من أهمَّها: الضريبة الباهظة المفروضة على مصر للسلطان العثماني، وعدم استقرار الأمن الداخلي، والنزاع بين الفرق العسكرية، والنزاع المملوكي العثماني، والإغارات المتلاحقة لبدو الصحراء، فضلاً عن عدم ثبات العملة المتبادلة واختلاف المكاييل والموازين من مكانٍ إلى آخر. ولقد ساعدت هذه الأحوال على انهيار الوضع الاقتصادي.

تدهور الزراعة: كانت الأرض الزراعية ملكًا للحاكم يوزعها على أتباعه أو يوزعها على الفلاحين يزرعونها نظير دفعهم ضرائب فيما عرف بحقّ الانتفاع، أي أنّ الفلاحين لا يمتلكون الأرض ملكيةً قانونيَّةً، وإنّما يزرعونها مقابل تسديد الضرائب عنها، وكان يتولّى جمع هذه الضرائب مجموعةٌ

١. أحمد زكريا الشلق، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١)، م. ن، ص٦٨.

٢. جاد طه، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت، ص١٣

من الملتزمين يحصل الواحد منهم على التزام (امتياز) جمع الضرائب الخاصّة بناحيةٍ معينةٍ من خلال مزادٍ عامٍّ تعرض فيه حصّة الالتزام، ويعطى الالتزام لمن يرسو عليه المزاد، وكان غالبًا ما يدفع الملتزم حصّة الالتزام مُقدمًا للخزينة[١]، ثم يتولّى هو جمعها أضعافًا مضاعفة من الفلاحين، إذ يحصل الملتزم على (الفائض)، أو فائض الالتزام[٢]؛ وهو الفرق بين ما يدفعه للخزانة وبين حصيلة ما يجبيه فعلاً من فلاحي القرية أو القرى الأخرى الواقعة في دائرة الالتزام. هذا فضلاً عن تخصيص قطعة أرضٍ كبيرةٍ من أجود الأرض الزراعية تسمّى «الوسِيَّة» (عُشر مساحة دائرة الالتزام) للملتزم معفاة من الضرائب تخصّصها الخزينة نظير جمعه للضرائب من الفلاحين الذين عانوا أشدّ أنواع المعاناة من استغلال وطمع وجشع الملتزمين وقسوتهم في التعامل مع الفلاحين؛ إذ يقول الجبرتي في كتابه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار): «وكان إذا تأخّر الفلاح في دفع الضريبة جرّوه من شنبه وبطحوه وضربوه بالنبابيت رجال الملتزم، هذا عدا ما كان يراه من عسف الصراف النصراني من مماطلة في استخراج ورقة الخلاص، وكذلك الشاهد والشاويش اللذين كانا يسومونه أنواع العذاب»[٣]؛ فقلت نتيجة لذلك المحاصيل، وارتفعت الأسعار، واجتاحت البلاد مجاعات عديدة[٤].

وقد كان الملتزمون من شرائح اجتماعيةٍ مختلفة؛ فمنهم المماليك، ورجال العسكر، ومشايخ العرب، والعلماء والتجار، بل النساء فيما بعد. وأصبح الملتزم مع الزمن يورث هذا الحقّ لأبنائه، ومع تدهور الأحوال أصبحت الدولة لا تهتم إلّا ببيع الالتزام لمن يتعهّد بدفع مبلغٍ معين للخزانة[٥]. ونتيجة لذلك عانى الفلاحون من سطوة الملتزم وتدهورت أوضاع الزراعة، وزحفت الرمال على الأرض الخضراء، وهجر الفلاحون قراهم[٦].

١. عطية القوصي وآخرون، الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث، ص ٧٨.

٢. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ مصر الحديث والمعاصر ١٥١٧-١٩١٩، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣، ص١٧٨

٣. عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٤، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريَّة، ١٩٩٨، ص ٣٢٦.

٤. جاد طه، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، م. ن، ص١٥

٥. م. ن، ص١٥

٦. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الريف المصري في القرن الثامن عشر، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٦، ص ٩٢-٩٣.

تأخّر الصناعة وانحطاطها: وصلت الصناعة في القرن الثامن عشر في مصر إلى مرحلةٍ يُرثى لها من الانحطاط [١]. حيث كانت في معظمها صناعاتٍ يدويةً بسيطةً لم تصل مرحلة الصناعة الآلية كما كان الحال في ذلك الوقت في أوروبا؛ حيث لم تهتم الدولة بالصناعة ولا بشؤون الصنّاع وتدريبهم. حيث كانت الدولة ممثّلةً في الوالي العثماني الذي كان يعيش حياةً منعزلةً تمامًا عن الواقع الحياتي المصري، بينما انشغل المماليك بصراعاتهم التي لا تنتهي، وكلّ ما كان يوجد هو طوائف حرفية، تسكن كلّ طائفةٍ مكانًا منعزلاً عن بقية المجتمع كان يُطلق عليه مسمّى (حارة)، فنشأت حارة الصناديق، والمغربلين، والصاغة والنحاسين...إلخ [٢]. وكان يرأس كلّ طائفةٍ شيخٌ منتخبٌ ينظّم العلاقة بين أبنائها وبين المجتمع. كما يتولّى مهمّة الفصل في المنازعات وإنهاء المشاكل التي قد تحدث بين أفراد الطائفة [٣]. لكن هذه الطوائف تضرّرت بشكلٍ كبيرٍ جرّاء إهمال الدولة لشؤونهم، هذا فضلاً عن قسوة الضرائب الباهظة التي كانت تُفرض عليها بمناسبةٍ ومن دون مناسبةٍ، حتى هجر كثيرٌ من الصنّاع والحرفيين المصانع، وتدهورت الصناعة بشكلٍ واضح.

الأحوال الاجتماعية وقسوة الانقسامات الطبقية: بلغ عدد سكان مصر في ذلك الحين ثلاثة ملايين، ينقسمون إلى حكّامٍ ومحكومين، وقد عانى المجتمع المصري تحت حكم المماليك والعثمانيين من الطبقيّة المقيتة؛ حيث انقسم المجتمع المصري إلى طبقتين متمايزتين أشدّ ما يكون التمايز، وهما طبقة الحكّام، وطبقة عامّة الشعب أو المحكومين. شملت الطبقة الأولى الأتراك والبكوات من المماليك اللذين كان لهما السلطة والنفوذ. وقد استبدّ المماليك بحكم البلاد، وكان عدد المقاتلة يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف مملوك، ما بين مقدّمين وأمراء وكشّاف وضبّاط وجاقات وأجناد وأتباع. وكان عددهم لا يزيد بالتناسل؛ لأنّهم كانوا قليلي النسل، فكانوا يتممون نقصهم ويحفظون عددهم وعصبيّتهم بالأرقّاء؛ يشترونهم فتيانًا وفتياتٍ من الشركس الذين كانوا يباعون في سوق الرقيق بالآستانة، فيعتنون بتربيتهم، وكثيرًا ما يعتقونهم فيصبحون أحرارًا، ولكنهم يحفظون عهد أسيادهم، ويكونون من حزبهم وعصبيّتهم. فمن هؤلاء المماليك أحرارًا وأرقّاءً كان يتكون جيش

١. جاد طه، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، م. ن، ص١٥

٢. عبد السلام عبد الحليم عامر، طوائف الحرف في مصر، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص١٤.

٣. عز الدين نجيب وآخرون، موسوعة الحرف التقليدية في مصر، ج١، القاهرة، جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة، يناير ٢٠٠٤، ص١٨.

مصر [١]. أما طبقة المحكومين فكانت تتألّف من شريحتين؛ أوّلهما تشمل المشايخ والعلماء وكبار المُلّاك والتجار والأفندية، وهؤلاء يمكن عدّهم شريحةً وسطى. وثانيهما يتكون منها الشطر الأكبر من الأمة، وتشمل الفلاحين وصغار الحرفيين وعامّة الناس، وهؤلاء يمثّلون الشريحة الدنيا من الطبقة الثانية. وكانوا في حالةٍ يرثى لها من الجهل والفاقة [٢].

الصراعات السياسيَّة: تحوّلت مصر بعد هزيمة المماليك بقيادة السلطان طومان باي في ١٥١٧م إلى ولايةٍ عثمانية، ولم يختلف الحكم العثماني في جوهره عن حكم المماليك السابق عليه إلّا في استحداث أساليب وأدوات التبعيَّة للسلطان العثماني. وقامت في مصر العثمانيَّة ثلاث إداراتٍ تحكم مصر، كلّ منها تراقب الأخرى، وهي: الوالي، وهو نائب السلطان ويُلقّب بالباشا ومقرّه القلعة. والديوان وسلطته مراقبة الوالي، بل عزله. والبكوات المماليك ومهمتهم إدارة شؤون البلاد. وقد حمل هذا النظام في طياته عوامل ضعفه بسبب قصر مدّة حكم الوالي التي كانت في الغالب سنةً واحدةً ما لم يتم التجديد له، وكان أقصاها ثلاث سنوات. كما أنّ زيادة سلطة الديوان والحامية العسكرية تسبب في صراعاتٍ كان منشاؤها أهواء رؤساء الجند والولاة. وانتهز المماليك فرصة استمرار النزاع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون على الانفراد بالحكم. فنظام الحكم السياسي في مصر قد تطوّر مع الزمن، وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلى تغليب سلطة البكوات المماليك فأصبح لزعيمهم الملّقب بـ(شيخ البلد)، نفوذًا لا يعارض وكلمة لا تُردّ، وصارت مشيخة البلد بمنزلة إمارة مصر. ممّا أدى إلى عبث المماليك بالولاة، وأخذوا يعزلون من لا يرضون عنه، كما عبثوا بالجزية فكانوا لا يدفعون منها إلّا ما يروق لهم دفعه، ويقتطعون منها ما يشاؤون بحجة الإنفاق على مصالح البلد [٣]. يضاف إلى ما سبق الأزمة الناتجة عن احتدام الصراع السياسي العسكري بين الأميرين المملوكين المسيطرين، إبراهيم بك ومراد بك، وتناحر أتباع كلٍّ منهما ممّا طوّق البلاد بأزماتٍ متواليةٍ زاد من حدّتها فوضى الضرائب والإتاوات وانتشار أعمال العنف التي تعاقبت بنحوٍ مريعٍ خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر [٤].

١. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٢١، ص ٥٩.

٢. م. ن، ص ٦٢.

٣. م. ن، ص ٣٥.

٤. أحمد زكريا الشلق، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١)، م. ن، ص٦٦.

نخلص ممّا تقدم أنّ أحوال المجتمع المصري كانت على النقيض تمامًا من أحوال المجتمع الفرنسي؛ إذ كان الأخير في تقدّمٍ مستمرٍ بالعمل والإنتاج، ووصل إلى مرحلةٍ من التنوير الديني والثقافي والسياسي من حيث الثورة على تسلّط رجال الدين المسيحي، ورفض الحكم الإلهي المطلق وإقامة الجمهورية وإعلان مبادئ الحرية والإخاء والمساواة للمواطنين كافة؛ فانطلق الفكر البشري من عقاله ليرتاد أفاقًا فسيحةً في جميع المجالات؛ فطوّر فنون الحرب والقتال وأدواته، وانطلق ليكتشف العوالم الجديدة في مجاهل البحار والمحيطات، وانفتحت شهيته للغزو والاستعمار وتكوين الإمبراطوريات. أمَّا المجتمع المصري فكان يعاني من تدهور على المستويات كافة؛ فالأوضاع الاقتصادية راكدة منهارة، والصناعة يدوية بسيطة تعاني من عدم وجود المواد الخام، وفرض ضرائب باهظة، والزراعة متدهورة لغياب الاهتمام التام بشؤونها من الدولة، والفلاحون مقهورون، والصراع السياسي محموم بين الولاة والمماليك، والمماليك وبعضهم... إلخ. وبالمقارنة بين المجتمعين نلاحظ أنَّ ميزان القوة المادية والتفوق الحضاري والعسكري كان في صالح المستعمِر الفرنسي.

ثانيًا- أسباب الحملة الفرنسيَّة على مصر

تنوّعت الأسباب الفرنسيَّة وراء غزو مصر بين أسبابٍ سياسيةٍ وأخرى اقتصاديةٍ وثالثةٍ استراتيجيّة. وبالطبع كانت هناك أسبابٌ معلنةٌ غير حقيقية، وأخرى غير معلنةٍ حقيقية، وسوف نقف عليها هنا بما يتناسب مع نطاق بحثنا.

١- **أسباب معلنة:** أعلن الفرنسيون مجموعةً من الأسباب ادّعوا أنَّها الأسباب الحقيقية لمجيء الحملة الفرنسيَّة إلى مصر، وكان أهم هذه الأسباب:

أ- **تأديب المماليك:** زعم الفرنسيون أنَّهم ما أتوا إلى مصر إلّا لتأديب المماليك وتحرير المصريين من ظلمهم واستبدادهم؛ إذ جاء في رسالة نابليون إلى المصريين تذكيرٌ بأنّهم ينتمون إلى إقليم هو أحسن بلد في العالم، وأنّهم أمةٌ لم تبدأ من فراغ، بل بدأت من مجدٍ عريض، وأنّها طاولت الزمان وجودًا، وصنعت الحضارات صنعًا [١]. وقال: «إنّ من زمانٍ مديدٍ الصناجق الذين يتسلّطون في البلاد المصريَّة يتعاملون بالذل والاحتقار في حقّ الملّة الفرنساوية، يظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدّي؛ فحضر الآن ساعة عقوبتهم، وأخّرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك

١. عبد العزيز محمد الشناوي، الأزهر جامعة وجامعة، ج٢، القاهرة، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ٢٠١٣، ص١٤.

المجلوبين من بلاد الأبازة (القوقاز) والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلّها، فأمّا ربّ العالمين القادر على كلّ شيء فإنَّه قد حكم على انقضاء دولتهم» [١].

ب- مساعدة المصريين في إدارة شؤون بلادهم: زعم نابليون أنَّه ما جاء لاحتلال البلاد، وإنَّما جاء من أجل الخير للشعب المصري، إذ إنَّ حكم الفرنسيين سيهيّئ للمصريين من أمرهم رشدًا، وسوف يتيح لهم حكم بلادهم بأنفسهم. إذ قال في منشوره إلى المصريين: "إنّ جميع الناس متساوون عند الله، وإنّ الشيء الذي يفرّقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب.. فماذا يميّزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أنْ يتملكوا مصر وحدهم، ويختصّوا بكلّ شيءٍ أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فإنْ كانت الأرض المصريَّة التزامًا للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم، ولكن ربّ العالمين رءوف وعادل وحليم.. ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدًا ألا ييأس أحدٌ من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبّرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها"[٢].

ج- الدفاع عن الإسلام والمسلمين: زعم نابليون في منشوره إلى المصريين أنَّ الفرنسيين مسلمون مخلصون، حاربوا حاكم رومية الذي كان يحثّ النصارى على محاربة الإسلام والمسلمين. إذ قال في منشوره: "إنَّ الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون؛ وإثبات ذلك أنّهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخرّبوا فيها كرسي الحاكم الذي كان دائمًا يحثّ النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية (فرسان القديس يوحنا) الذين كانوا يزعمون أنّ الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين. ومع ذلك الفرنساوية في كلّ وقتٍ من الأوقات صاروا محبّين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه"[٣].

د- أنْ يُعيدوا للمصريين حضارتهم القديمة: زعم نابليون أنَّه جاء إلى مصر من أجل أنْ يعيد للمصريين حضارتهم القديمة، تلك الحضارة التي تميّزت على الحضارات كلّها في العصور كافة.

١. النص رقم ١، رسالة نابليون إلى المصريين، ضمن كتاب: محمد حبيدة، أوروبا في القرن التاسع عشر (بونابرته). دروس ومحاضرات ٢٠٢٠-٢٠٢١، الرباط، ط١، ٢٠٢١، ص ١٠٧-١٠٨. (نلاحظ ركاكة اللغة في هذا النص، لكننا فضلنا نقله كما ورد دون تدخل من الكاتب).

٢. النص رقم ١، رسالة نابليون إلى المصريين، م. ن، ص ١٠٨.

٣. م. ن، ص ١٠٩.

فعمد إلى تذكير المصريين بأنّهم ينتمون إلى إقليم هو أحسن بلد في العالم، وأنّهم أمة لم تبدأ من فراغ، بل من مجدٍ عريض، وأنّ أمتهم طاولت الزمان وجودًا وصنعت الحضارات صنعًا. وأنّ المماليك هم الذين عصفوا بهذه الحضارة، وأنّهم السبب في فقر المصريين وشقائهم، وفي هذا القول إثارة لشعور الشعب على المماليك [١]. ولا شك في أنّ نابليون كان مؤمنًا بعظمة مصر إيمانًا كبيرًا. وهذا يبدو بصورةٍ لا تقبل الشكّ حينما قال لضبّاطه وجنوده قبل الوصول إلى مصر: "إنَّ أول المدن التي سوف نجتازها شيّدها الإسكندر، سيكون لنا في كلّ خطوةٍ ذكريات عظيمة، خليقة بإثارة فخر الفرنسيين"[٢].

٢- **أسباب حقيقية:** بالطبع كانت هناك أسبابٌ حقيقيةٌ غير تلك الأسباب التي أعلنها نابليون - والتي لا تنطلي على عقول الأطفال- كانت وراء مجيء الحملة الفرنسيَّة إلى مصر، نقف على هذه الأسباب فيما يأتي:

أ-تكوين إمبراطوريّةٍ فرنسيّةٍ في الشرق تكون قاعدتها مصر: إنّ انتصارات نابليون في إيطاليا قد مكّنت له في الأرض، وطيّرت ذكره في الخافقين، وجعلته يطمح في انتصاراتٍ أعظم، وفتوحاتٍ أكبر؛ فاتّجهت آماله إلى الشرق موطن الفتوحات العظيمة، ولعلّ مقامه في إيطاليا موطن يوليوس قيصر، وعلى مقربة من مقدونيا موطن الإسكندر قد أوحى إليه أنْ يقلّد قيصر الروماني والإسكندر المقدوني في فتوحاتهما الواسعة؛ فاختار مصر ليجعلها ميدانًا لانتصاراتٍ جديدة، واجتذبته عظمة مصر القديمة. فخيَّل له أنْ يشيد على ضفاف النيل دولةً شرقيةً عظيمةً تحقّق ما كان يجيش في صدره من الآمال الكبار. وأنْ يجعل من مصر قاعدةً لإمبراطوريّةٍ فرنسيّةٍ مترامية الأطراف، فيجعل من البحر المتوسط (بحيرة فرنسية)، كما قال في مذكراته [٣].

ب- قطع الطريق بين إنجلترا ومستعمراتها في الشرق: استطاعت فرنسا من تحقيق النصر على الحلفاء في القارة الأوروبيَّة، لكن إنجلترا التي كانت أقوى الحلفاء شكيمةً، وأشدّهم مراسًا بقيت بحكم موقعها الجغرافي وقوة أسطولها البحري بمأمنٍ من ضربات نابليون وانتصاراته؛ ففكّر

---

١. عبد العزيز محمد الشناوي، الأزهر جامعة وجامعة، ج٢، م. ن، ص١٦.

٢. جوزيف ماري مواريه، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسيَّة على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠، ص٢٧.

٣. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، م. ن، ص ٧٣.

الفرنسيون في ميدان حربٍ آخر يقهرون فيه إنجلترا، فوجدوا أنّ مصر هي أنسب ميدان؛ إذ إنّ احتلالها سيقطع الطريق بين إنجلترا ومستعمراتها في الشرق، ويمكّن الفرنسيين من الوصول إلى الأملاك الإنجليزية في الهند؛ وفي هذا أرسل نابليون إلى حكومة الإدارة خطابًا يقول فيه: "يمكننا أنْ نحرم إنجلترا من مزايا سيادتها في الأوقيانوس الأعظم، فإذا كانت تنازعتنا طريق رأس الرجاء الصالح في مفاوضات (ليل)، فلنتجاوز عنه ولنحتلّ مصر فسيكون لنا فيها الطريق المفضي إلى الهند، ويسهل علينا أنْ ننشئ بها مستعمرةً من أجمل مستعمرات العالم، وإذا أردنا أنْ نهاجم إنجلترا فلنهاجمها في مصر"[١].

ج- شقّ قناةٍ بحريّةٍ تصل البحرين الأبيض والأحمر: رأى نابليون أنّ طبيعة موقع مصر الجغرافي جعلها مركز الاتصال بين الشرق والغرب، وملتقى المتاجر التي تتبادلها القارات الثلاث أوروبا وآسيا وإفريقيا، وأنّه بإنشاء قناةٍ تصل مياه البحر الأحمر بالبحر الأبيض يمكن السفن الفرنسيَّة أنْ تصل إلى البحر الأحمر وتهاجم أملاك الإنجليز في الهند. وكان هذا مشروعًا قد بدأه السان سيمونيون الذين رأوا فيه "ضرورة دينيّة للربط بين القارات" [٢]. وعلى كلّ حال تستطيع فرنسا أنْ تنشئ في مصر مستعمرةً ترسل إليها متاجرها ومصنوعاتها، وتتحول إليها تجارة الهند والشرق، وتكون طريقًا لها إلى أوروبا بدلًا من طريق رأس الرجاء الصالح، فتصبح مصر مستودعًا لمتاجر العالم وتعوض فرنسا عمّا فقدته من المستعمرات، وتكون في الوقت نفسه قاعدةً لضرب إنجلترا في الهند، وبسط سيادة فرنسا في البحر المتوسط [٣].

د- الاتّجاه نحو السياسة الاستعمارية: ويعدّ هذا السبب من أهمّ الأسباب التي جاءت من أجلها الحملة إلى مصر؛ إذ إنّ كثيرًا من الساسة والمفكّرين الفرنسيين رأوا أنْ تتجه فرنسا إلى السياسة الاستعمارية، ولا تترك المجال مفتوحًا على مصراعيه أمام السياسة الاستعمارية الإنجليزية لتجتاح العالم وتسيطر على خيراته وحدها. وكان المسيو (تاليران)، وزير الخارجية الفرنسي آنذاك والمسيو (مجالون)، القنصل العام من أبرز هؤلاء المشجّعين على المضي في هذا الاتجاه؛ فقد كانا يعتقدان أنّ علاج العنف الموجود في المجتمع الفرنسي لا يكون إلّا بفتح ميادين أخرى؛ لكي يصرف فيها

١. م. ن.

٢. زينب عبد العزيز، مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٥، ص١٤.

٣. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، م. ن، ص ٨٠.

الشباب الفرنسي حماسهم ونشاطهم الذي بعثته الثورة في نفوسهم ولم يجدوا سبيلاً لتنفيسه؛ فإنّ ممارسة السياسة الاستعمارية إلى جانب أنّه سيعود بالخيرات السياسيَّة والاقتصادية على فرنسا سيخفّف من حوادث العنف التي كانت تعاني منها فرنسا [١]. كما رأى كلٌّ منهما أنّ احتلال مصر سيعوّض فرنسا عن مستعمراتها قبل الثورة في (الهند وكندا)، وأنّ وادي النيل سيكون خير تعويضٍ عمّا فقدته فرنسا خاصّة؛ لحاصلاته الاقتصادية المتنوّعة، وموقعه التجاري والاستراتيجي الهام [٢].

هـ- القضاء على اليقظة الإسلامية في الشرق: عمل المستشرقون الفرنسيون وعلى رأسهم (المسيو مجالون)، الذي أقام في مصر نيفًا وثلاثين سنة، وعينته حكومة الإدارة قنصلاً عامًّا لفرنسا في مصر سنة[٣]١٧٩٣، على لفت نظر (المسيحية الشمالية) إلى خطر (اليقظة الإسلامية) في مصر، محدّدًا إيّاها محذّرًا من سوء عواقبها، تلك اليقظة التي تمثّلت في يقظة اللغة على يد الشيخين الكبيرين البغدادي والزبيدي وتلامذتهما، ويقظة (علوم الحضارة) على يد الشيخ الجبرتي وتلاميذه [٤]. مدركًا أنّها (يقظة) تنطلق من أقدم بيتين من بيوت العلم والعبادة على ظهر الأرض المصريَّة، هما الجامع العتيق بالفسطاط والجامع الأزهر بالقاهرة. فاليقظة التي تأتي من قِبلهما سوف تؤدي إلى يقظة دار الإسلام كلّها، بما فيها اليقظة المتفجّرة المتحرّكة الجديدة في جزيرة العرب وبلاد الشام: فإذا تمّ اندماج اليقظتين فلا يعلم أحدٌ إلاّ الله كيف يكون المصير؟ [٥]. ومن ثم كان من أهمّ أهداف الحملة القضاء على تلك اليقظة التي إذا استمرت ستمثّل خطرًا كبيرًا على العالم الغربي، وهو الأمر الذي تحرص عليه كافة القوى الكبرى في العالم إلى يومنا هذا.

و- سرقة ثروات مصر الاقتصادية: نظر الفرنسيون إلى مصر بوصفها البقرة الحلوب التي لا يتوقّف درها، فكان من أهمّ أهداف الحملة استنزاف خيراتها بكلّ الوسائل، وإثقال كاهل شعبها بالضرائب الباهظة التي فرضوها عليه، بما لم يكن معهودًا من المماليك الذين ادّعى نابليون أنّه

---

١. عبد الله عبد الرازق إبراهيم، شوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان الحديث المعاصر، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧، ص ٧٣.

٢. م. ن، ص ٧٣.

٣. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، م. ن، ص ٧٩.

٤. فرج محمد الوصيف، مصر بين حملتي لويس ونابليون، المنصورة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨، ص٤٣. ٤٤.

٥. م. ن، ص ٤٤.

جاء ليخلص المصريين من استغلالهم [١]. وهو الأمر الذي أكّده عبد الرحمن الرافعي في حديثه عن أحوال مصر الاقتصادية والمالية في عهد الحملة الفرنسيَّة فيقول: «أما الحالة المالية والاقتصادية فقد ساءت عمّا كانت عليه قبل الحملة الفرنسيَّة. فإنّ توالي الضرائب والغرامات والمصادرات والنهب والتخريب والإحراق والتدمير قد أتلف الزراعة والتجارة والصناعة، وأفقر البلاد وزادها ضنكًا على ضنك» [٢]. ويخبرنا الجبرتي بحال مصر بعد مجيء الحملة الفرنسيَّة فيقول: «إنّه بداية اختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير وعموم الخراب»[٣].

ز- السطو على كنوز مصر ونفائسها العلميَّة: يحدّثنا الجبرتي حديثًا متناثرًا عن نيّة الفرنسيين المبيَّتة لسرقة نفائسنا العلميَّة، وأخذ ما وجدوه إلى بلادهم حيث أتوا بمترجمين لترجمة النفائس العلميَّة، وكان من أشهر هؤلاء المترجمين من رجال الحملة: المستشرق (فانتور)، و(براسرفيتش)، و(لوماكا)، و(حناروكه)، و(كليمان)، و(بوديف)، و(جوبير)، الذي ترجم كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، وعلّق عليه ونشره في جزأين، وكذلك المستشرق (جوزيف مارسيل)، و(مارتين)، و(وي ريبو)، وغيرهم من المستشرقين والمترجمين الذي جاؤوا من أجل السيطرة والاستيلاء على النفائس العلميَّة في مصر التي كانت تضمها مكتبات المساجد التي كانت تحتوي على آلاف الكتب المخطوطة التي كانت تنتظر في صبرٍ نافدٍ من يفتحها ليقرأها ويفيد البشرية من مضمونها، عن طريق الترجمة أو النشر، وكانت الحملة الفرنسيَّة قد أحضرت معها عِدة هذا النشر وآلته وهي (المطبعة العربية)، أو (مطبعة جيش الشرق)، أو (مطبعة الجيش البحري)، كما كانت تسمّى وهي في طريقها إلى مصر[٤].

بل لقد كان ولع الفرنسيين بجمع المخطوطات وإدراكهم لأهميّتها أقوى ممّا نتخيل جميعًا؛ إذ إنّ جان جوزيف مارسيل مسؤول مطبعة الحملة قد قام (بحركةٍ بطوليةٍ) في نظر جان ماري

---

١. م. ن، ص ٦٣.

٢. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج٢، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٢١، ص ١١٩.

٣عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣ تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريَّة، ١٩٩٨، ص ١.

٤. جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسيَّة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص٣٣.

كاريه الذي أورد ذلك في كتابه (رحالة وأدباء فرنسيين في مصر): "إنّه أثناء ثورة القاهرة، في أكتوبر ١٧٩٨، وبينما كانت مدافع (دومارتان) تدكّ الجامع الأزهر، مركز التمرد الشعبي، ألقى جان جوزيف مارسيل بنفسه وسط النيران لينتزع منها مخطوطاتٍ قرآنيةً نادرة". ولا شكّ في أنّه لم ينقذها حبًّا في الإسلام؛ وإنّما لتنضم إلى بقية المخطوطات بالمكتبة الملكية الفرنسية ومكتباتها الأخرى [١].

فقد سرق الفرنسيون كلّ نفيسٍ من الكتب والمخطوطات العلميَّة، وكانت القاهرة يومئذٍ من أغنى بلاد العالم بالكتب؛ إذ يقول الجبرتي متألمًا على ضياع تلك النفائس العلميَّة القيمة التي ضاعت هنا وهناك: "ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم"[٢]. وقد علّق محقّق كتاب الجبرتي على ذلك بقوله: "نقل الفرنسيون كثيرًا من المخطوطات التي وجدوها محفوظة في المساجد والمدارس وبيوت الأعيان من إمراء المماليك وكبار التجار والعلماء، ومنها عددٌ كبيرٌ ما يزال محفوظًا في المكتبة الأهلية بباريس"[٣].

ويمثّل هذا- في الواقع- دليل السرقة القائم بين أعيننا إلى هذا اليوم، يصيح شاهدًا على نفسه بالسطو على ذخائرنا التي يمنون علينا بعد ذلك، في حياتنا هذه: أنّهم حفظوها لنا، ونشروا لنا نفائسها. إنّ دليل السرقة قائمٌ في جميع مكتبات أوروبا، صغيرها وكبيرها، في فرنسا وإنجلترا وهولندا وروسيا وغيرها من البلدان، وفي الأديرة والكنائس، وفي جميع أرجاء العالم المتحضر! وكان همّهم الأكبر يومئذٍ هو السطو على كتب علوم (الحضارة) أولاً، ثم على كتب (التاريخ)، ثم على كتب (الآداب) كلّها بلا تمييز [٤]. بل إنّ الفرنسيين عدّوا سطوهم على هذه النفائس العلميّة الفوز الأكبر الذي حقّقته الحملة على مصر؛ لدرجة أنّه حينما تفاوض الفرنسيون مع الإنجليز للجلاء عن مصر، اشترط الإنجليز على الفرنسيين في ٣١ أغسطس ١٨٠١م، أنْ يسلّموا السفن التي معهم، وأنْ يرحل الجنود الفرنسيون بعشرة مدافع فقط بعد تسليمهم مدافعهم وذخائرهم، وأنْ يسلّم أعضاء المجمع العلمي جميع الآثار والخرائط والمخطوطات التي في حوزتهم. وبدأ الفرنسيون بالفعل في إجراءات التسليم في بداية سبتمبر ١٨٠١م، غير أنّ جماعة العلماء امتنعوا عن تسليم مقتنياتهم من كنوز علمية

١. زينب عبد العزيز، مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين، ص ٢١.

٢عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج١، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريَّة، ١٩٩٨، ص ١١.

٣. م. ن، الهامش، ص ١١.

٤. فرج محمد الوصيف، مصر بين حملتي لويس ونابليون، م. ن، ص ٤٨-٤٩.

للقائد الإنجليزي وهدّدوا بإحراقها وتحميله تبعة حرمان العلم منها، فاضطر القائد أنْ يتنازل عن تنفيذ هذا الشرط مكرهًا، وإنْ أصرّ على أنْ يسلّموا ما معهم من آثار وأهمها حجر رشيد بحجّة أنّها ملك مصر، واستولى عليها لينقلها بعد ذلك إلى إنجلترا! [١]. فلك أنْ تتخيل قيمة هذه المخطوطات والكتب والنفائس العلميَّة التي أبوا أنْ يتنازلوا عنها رغم تنازلهم عن سفنهم وأسلحتهم وذخائرهم!

هذا فضلاً عن تخريبهم الأزهر، ودخوله بخيولهم، والتنكيل بعلماء الأمة، والاستيلاء على كلّ ما وجدوه بالأزهر حينذاك من كتب ونفائس علمية، وقتل أبناء الشعب بوحشيةٍ لا مثيل لها. كما عمل الفرنسيون على تربية جيلٍ من بني جلدتنا يقوم بدور الفرنسيين في بلاد الإسلام، وتفتيت الوحدة الوطنية، والقضاء على المظاهر العمرانية الجميلة في القاهرة، والسعي لنشر البدع والمنكرات، ونشر السفور والخلاعة والمجون في المجتمع المصري لضمان عدم نهضته وقيامه من كبوته [٢].

ثالثًا- الوقائع الميدانية للحملة الفرنسيَّة

استطاع نابليون بونابرت أنْ يقنع حكومة الإدارة بغزو مصر، ومن ثم قررت الحكومة في ٥ مارس ١٧٩٨م، إنفاذ الحملة، وعندما تمت الاستعدادات أصدرت قرارها في ١٢ أبريل ١٧٩٨م، بتسمية الجيش الذي سيتولّى التنفيذ بـ(جيش الشرق)، وأسندت قيادته إلى الجنرال بونابرت [٣] الذي توجّه في ١٤ مايو سنة ١٧٩٨م، ناحية مصر في سِرّيةٍ تامةٍ حتى لا يتسرّب خبره إلى الحكومة الإنجليزية، حتى أنّ الجنود الذين ركبوا من ميناء طولون لم يكونوا يعرفون الجهة التي يقصدونها [٤]. وفي هذا الصدد يقول أحد ضباط الحملة: «وسرعان ما اتخذ قبطان كلّ سفينةٍ موضعه وأبحر. وقد خيبت الطرق التي سلكناها كافة تكهنات بحارتنا، وغيّبت عنهم الغاية التي نستهدفها. فإذا سرنا بمحاذاة الشاطئ قالوا إنّها جنوة، وإذا نأينا عنه فالذهاب إلى سردينيا. هكذا راحت المزاعم تختلف في كلّ لحظة»[٥]. وقد ظلّ الأمر مجهولاً لدى الجنود حتى ألقى نابليون بيانه الثاني من على

١. أحمد زكريا الشلق، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١)، م. ن، ص١١١.

٢. انظر: فرج محمد الوصيف، مصر بين حملتي لويس ونابليون، م. ن، ص ٤٣-٨٤.

٣. أحمد زكريا الشلق، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١)، م. ن، ص٦٨.

٤. روبير سولية، مصر ولع فرنسي، ترجمة لطيف فرج، القاهرة، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص٣٣.

٥. جوزيف ماري مواريه، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسيَّة على مصر، م. ن، ص٢٢.

متن السفينة (أوريون) في ٢ يوليو ١٧٩٨م[١]. أي قبل وصولهم الإسكندرية بساعاتٍ قليلة، وسوف نرصد فيما يأتي أهم الوقائع الميدانية التي تعرّضت لها الحملة الفرنسيَّة في مصر:

سقوط الإسكندرية والقاهرة

تمكّنت الحملة من إنزال جنودها على شواطئ الإسكندرية ودخول المدينة في ٣ يوليو؛ حيث فوجئ الحكّام المماليك الذين لم يأبهوا بتحذيرات الإنجليز قبل ذلك بأيامٍ، وظنّوا أنّها مكيدةٌ وجاوبوهم بكلامٍ خشن[٢]. وقد حاولت بعض القوى المملوكية التصدّي للقوات الغازية لكنّهم باءوا بالهزيمة؛ إذ كانت قوتهم قد اُستهلكت في النزاعات الداخلية فيما بينهم، ولم يوجهوا اهتماماتهم إلى تحصين البلاد وحفظ ثغورها لمواجهة أيّة أخطارٍ محتملة. وهنا قام أهالي الإسكندرية بزعامة السيد محمد كريم حاكم المدينة بمواجهة قوات الغزو، لكنّهم فشلوا في الدفاع عن مدينتهم، فسيطر الفرنسيون على الإسكندرية، واعتقلوا حاكمها الذين أعدموه رميًا بالرصاص فيما بعد.

ثم واصل الفرنسيون زحفهم نحو رشيد، كما يقول الجبرتي: «وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم فذهبوا إلى فوه ونواحيها، والبعض طلب الأمان وأقام ببلده، وهم العقلاء، وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالإسكندرية كتبوا مرسومًا وأرسلوا منه نسخًا إلى البلاد التي يقدمون عليها تطمينًا لهم»[٣]. ومع ذلك قاتل المصريون في دمنهور قتالا شديدًا تحت قيادة القائد المملوكي مراد بك عند شبراخيت والرحمانية في ١٣ يوليو سنة ١٧٩٨م. غير أنّ بونابرت استطاع هزيمته ممّا جعله يتقهقر بجنوده إلى القاهرة استعدادًا لمعركة فاصلة، فالتقى الجيشان عند (إمبابة)، وهناك على مقربةٍ من (الأهرام)، هُزِمَ جيش مراد بك في معركةٍ فاصلة، كان فيها القضاء على قوة البلاد الحربية وهي المعركة المعروفة عند المصريين بواقعة (إمبابة)، وعند الفرنسيين بواقعة الأهرام[٤].

أما القائد المملوكي الآخر إبراهيم بك، والذي كان مرابطًا بالبر الشرقي للنيل، فإنّه فور سماعه بالهزيمة التي حلّت بمراد، غادر القاهرة ومعه مماليكه وأتباعه، وأعداد من المصريين، مصطحبين معهم الوالي العثماني (أبو بكر باشا) متجهين صوب بلبيس في اتجاه الصحراء الشرقية، ممّا جعل

---

١. م. ن، ص٢٦.

٢عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣، مصدر سبق ذكره، ص ١.

٣. م. ن، ص ٤.

٤. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، م. ن، ص ٨٦.

القاهرة خاليةً من أيّة قوة دفاعٍ أمام الغزاة [١]. فدخل الغزاة القاهرة في ٢٤ يوليو ١٧٩٨م، وأرسل بونابرت الجنرال (ديزيه) لمطاردة مراد بك في الصعيد، كما أرسل الجنرال (رينيه)، لمطاردة إبراهيم بك في الشرقية.

المقاومة في الصعيد

على الرغم من الوعود التي بذلها نابليون للمصريين في بداية دخوله القاهرة وتطمينه لهم بأنّه ما جاء لقتالهم وإنّما جاء لتحريرهم من المماليك، وإشراكهم في حكم بلادهم، وبناءً على ذلك أظهر احترامًا مبالغًا فيه لعلماء الأزهر وحاول استمالتهم بكلّ الطرق، فعلى الرغم من ذلك كلّه فإنّه لم ينطلِ عليهم ذلك، وارتابوا في احترامه لدينهم وصداقته للسلطان.

وبعد أنْ سيطر نابليون على القاهرة والوجه البحري اعتزم على إخضاع الوجه القبلي؛ إذ رأى أنّ بقاء قوةٍ معاديةٍ في الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية، ويكون مثابةً للمقاومة الأهلية، ويعطّل الملاحة في النيل، ويحبس الغلال عن الوجه البحري، فيعرّض سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للمجاعة. ومن ثم قرّر نابليون احتلال الصعيد بعدما فشلت مفاوضاته مع مراد بك على أنْ يترك له مديرية جرجا وما يليها إلى الشلال، ويكون تابعًا للحكومة الفرنسيَّة فيؤدي الخراج الذي كان يخرج من هذه الجهات [٢].

وهذه المفاوضات في حدّ ذاتها أبلغ دليلٍ على كذب نابليون في أنّه جاء ليخلّص المصريين من ظلم المماليك. وأنّ كلّ ما كان يهمه هو إخضاع مصر، وجعلها مستعمرةً فرنسية. ومن ثم تفجّرت المقاومة في الصعيد بصورةٍ أقوى من الوجه البحري؛ لوجود اتصالاتٍ بين أهالي الصعيد وبين البقية الباقية من جيش المماليك. كما زاد من قوة المقاومة في الصعيد توافد مجموعاتٍ جاءت للمساعدة من شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر وانضمت للمقاومة. كما كان طول الوادي جنوبًا وبُعد الصعيد عن مركز الحكم من أهمّ الأسباب التي أرهقت الفرنسيين في السيطرة على المقاومة في الصعيد.

---

١. أحمد زكريا الشلق، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١)، م. ن، ص٧٤.

٢. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، م. ن، ص ٣٣٧

ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨)

على الرغم من أنّ منشور نابليون إلى المصريين قد حوى من الوعود والعبارات الجميلة؛ فإنّه حوى أيضًا التهديد والوعيد وإنذار المصريين في مادته الثانية «كلّ قريةٍ تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار» [١]. وعندها أدرك المصريون أنّه من الحماقة الاطمئنان لوعود نابليون.

وخلال معارك القوات الفرنسيَّة لإخضاع الصعيد اندلعت ثورةٌ في القاهرة ضد الحكم الفرنسي، كان أهمّ أسبابها: فرض ضرائب باهظة على التجار خلافًا لما وعد به نابليون بأنّه جاء لإنصاف المصريين من ظلم المماليك، وتفتيش البيوت واقتحام الدكاكين بحثًا عن الأموال، وهدم أبواب الحارات حتى يسهل مطاردة عناصر المقاومة، وهدم كثيرٍ من المساجد والمباني والآثار بحجّة تحصين القاهرة، ممّا أظهر وجه المحتل الفرنسي على حقيقته [٢]. وقاد الأزهر الثورة، ونظم قبول المتطوّعين بأسلحتهم، وكانت المقاومة شديدةً حتى لقد قُتل حاكم مدينة القاهرة الفرنسي القومندان (ديبوي Dupuy) ومعه نحو مائتين، وقُتل من المصريين نحو ألفين. وقد أخمدت الثورة بالقمع والإرهاب الشديد إذ دخلت القوات الفرنسيَّة الجامع الأزهر بالخيول؛ حيث تحصّن به حوالي ١٥ ألفًا من أشدّ الثوار حماسة، فهاجم الفرنسيين المسجد وحطّموا أبوابه وقتلوا معظم الثوار بنار البنادق والمدافع [٣]، ودنّسوا المسجد، وطرحوا المصاحف على الأرض، وداسوها بأرجلهم ونعالهم، وكسروا أوانيه ودمروا زينته، ومزّقوا المخطوطات ونهبوا الكتب [٤]. فأهاج هذا التصرّف الشعور الديني لدى المصريين، وامتدت ثورة القاهرة إلى الأقاليم المجاورة، حيث اشترك أهاليها بالرجال والعتاد عندما وصلتهم رسائل من قيادة الثورة. ممّا عرضهم للقهر والتنكيل والذبح وقطع الرؤوس، وكانت جثث القتلى توضع في ركائب وتلقى في النيل. وقد أسرف الفرنسيون في القتل، حتى أنّهم فقدوا الرحمة بالنساء فقتلوا كثيرًا منهن، وهذا أفظع ما سُمع في التنكيل وسفك الدماء [٥]. حتى تم إخماد الثورة، لكنّها بقيت مشتعلةً في قلوب وضمائر المصريين.

---

١. النص رقم ١، رسالة نابليون إلى المصريين، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠.

٢. انظر: عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، م. ن، ص ٢٦٠-٢٦٩.

٣. م. ن، ص ٢٧٥.

٤. محمد جلال كشك، ودخلت الخيول الأزهر، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي،١٩٩٠، ص ١٥

٥. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، ص ٢٨٤.

موقعة أبي قير البحرية (أول أغسطس ١٧٩٨)

بعد إنزال الجنود الفرنسيين قرب الإسكندرية أصرَّ نابليون على أنْ يبقى الأسطول الفرنسي في الشواطئ المصرية، فاضطر قائد الأسطول الجنرال برويس Brueys إلى أن يبحر بأسطوله إلى خليج أبي قير اعتقادًا منه أنّ الخليج سيكفل لسفنه مكانًا آمنًا أكثر من ميناء الإسكندرية. وهنا عاد نلسون قائد الأسطول الإنجليزي إلى الإسكندرية وحاصر الأسطول الفرنسي في خليج أبي قير ونجح في القضاء عليه فلم يترك منه سوى أربع سفن [١]. وترتّب على هذا فرض الحصار البحري على الحملة في مصر؛ فانقطع الاتصال بين الحملة في مصر وبين فرنسا ممّا اضطر الفرنسيين إلى أنْ يعتمدوا بشكلٍ كلّي على الموارد المصرية فازدادت الضرائب على المصريين، كما أحدثت هذه الموقعة تقاربًا بين السلطان العثماني والإنجليز، وقد كان هذا التقارب سببًا مهمًا من الأسباب التي أدّت إلى الضغط على الحملة الفرنسيَّة للخروج من مصر كما سنرى فيما بعد.

ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس – ٢١ أبريل ١٨٠٠)

لم يستسلم المصريون ولم تهن عزائمهم بعد السيطرة على الثورة الأولى؛ بل استغلوا الظروف الخارجية للثورة مرةً أخرى؛ حيث عقدت الدولة العثمانيَّة معاهدةً مع إنجلترا وروسيا للاشتراك معًا في إخراج الفرنسيين من مصر بالقوة العسكرية بوساطة حملتين، واحدة من جهة الشام والأخرى من جهة الإسكندرية؛ لذلك أرسل نابليون قواته إلى الشام ليستولي على عكا لكنّه فشل لقوّة تحصينها، ولاستبسال قائدها في الدفاع عنها خاصّة بعد الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون في يافا التي يشيب من هولها الولدان؛ لعلّ أفظعها قتل نابليون لثلاثة آلاف مقاتلٍ من حامية يافا آثروا التسليم مقابل حفظ أرواحهم، لكن نابليون تنكّر لوعده بحجة أنَّه كان عاجزًا عن إطعامهم وحراستهم في بلادٍ نائيةٍ لم يستتب له فيها الأمر، وهي حجةٌ واهيةٌ تنطوي على نقض العهود وتنكرها المبادئ الإنسانية وقواعد الحروب [٢].

كما بلغت بونابرت تلك المتاعب التي تواجهها حكومة الإدارة في فرنسا مع النمسا وحلفائها، فقرّر العودة سرًا إلى فرنسا وترك قيادة الحملة لنائبه كليبر في ١٨/٨/ ١٧٩٩م. وفي تلك الأثناء أرسلت الدولة العثمانيَّة حملةً أخرى إلى العريش ودمياط، وعاد المماليك للمقاومة مرةً أخرى،

١. عبد الله عبد الرازق إبراهيم، شوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان المعاصر، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧، ص٨٤.

٢. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج٢، ص ٣٨.

وتجدّدت الثورة في الشرقية وامتدت إلى وسط الدلتا وغربها. وعندئذٍ أدرك كليبر أنّ من مصلحة الحملة مغادرة مصر على أنْ يخرج بجنوده إلى فرنسا على نفقة الدولة العثمانيَّة، وقد اتّفق على ذلك فعلاً في معاهدة عُرفت بمعاهدة العريش يناير ١٨٠٠م. لكن إنجلترا اعترضت وطلبت أنْ يسلم الفرنسيون أسلحتهم، ويسلموا أنفسهم كأسرى حرب، وألاّ يُسمح لهم بالذهاب إلى فرنسا [١]. هنا رفض كليبر، ونقض اتّفاق العريش؛ فتأججت الثورة واندلعت نيرانها في ٢٠ مارس ١٨٠٠م، في نفوس المصريين وهاجموا معسكر الفرنسيين بكلّ قوةٍ وبسالةٍ، لكن كان كليبر دمويًا أكثر من سابقه فضرب القاهرة، فاحترقت أحياء برمتها، وتهدّمت بيوتٌ عامرة، ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها [٢]. وقتل خيرة شباب مصر ورجالها ولم يرحم كليبر وجنوده كبيرًا ولا صغيرًا حتى أُخمدت الثورة. ووقع على المصريين غرامات فادحة واعتقال واضطهاد لم يسبق له مثيل، حتى تم اغتيال كليبر على يد شابٍّ سوريّ كان يُدرس في الأزهر يُدعى سليمان الحلبي في ١٤ يونيو ١٨٠٠م[٣]، وقد عُذِّب أثناء إعدامه تعذيبًا شديدًا برفقة أربعة من أصدقائه، وتم إغلاق الجامع الأزهر.

جلاء الحملة عن مصر

لم تهدأ الأوضاع في مصر داخليًا أو خارجيًا، ولكن كانت أشبه بالنار تحت الرماد؛ إذ لم تتوقف إنجلترا عن فكرة إخراج الفرنسيين من مصر، فأرسلت أسطولاً جديدًا إلى أبي قير (فبراير ١٨٠١م) اشتبك مع الجيش الفرنسي واستطاع هزيمته في معركة كانوب (٢١ مارس سنة ١٨٠١م) [٤]، ثم هزمه مرةً أخرى في معركة الرحمانية (٩ مايو ١٨٠١) [٥]، متحالفًا مع الجيش العثماني. ثم استطاع الجيش العثماني القادم من سوريا بقيادة الصدر الأعظم (يوسف باشا ضيا) أنْ يُلحق الهزيمة لأوّل مرةٍ بالجيش الفرنسي الذي كان يقوده الجنرال بليار في معركة الزوامل (١٦ مايو ١٨٠١) [٦].

كما كان انتشار الطاعون بين جنود الحملة من أهمّ الأسباب التي أضعفت موقف الحملة

---

١. م. ن، ص ١٤٣.

٢. م. ن، ص ١٧٣.

٣. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، ص ١٨٥.

٤. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج٢، ص ٢٢٩.

٥. م. ن، ص ٢٣٦.

٦. م. ن، ص ٢٣٩.

الفرنسيَّة في مصر، والذي تسبب في موت أهم حلفاء الفرنسيين القائد المملوكي مراد بك، الذي رأى الجبرتي أنَّه كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري بما تجدّد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور، فلعلّ الهمّ يزول بزواله [١]. وقال عنه عبد الرحمن الرافعي: «كانت وفاته ضربةً كبيرةً أصابت آمال الفرنسيين؛ لأنّهم فقدوا بموته حليفًا قويًا كان يمكن أنْ يمدهم بما لديه من حولٍ وقوة، وحزنوا عليه حزنًا شديدًا»[٢]. كذلك كان انضمام أهل القاهرة إلى المقاومة وتحفّزهم للانقضاض على الجيش الفرنسي في أيّ مكانٍ وفي أيّ وقتٍ من أهم الأسباب التي ساعدت في اقتناع الفرنسيين بأنّ مصر لم تعد صالحةً للبقاء فيها.

وبينما كان الجيش الإنجليزي العثماني يتأهّب للهجوم على مواقع الفرنسيين في القاهرة هجومًا عامًا، جاء مندوبٌ من قبل الجنرال بليار إلى المعسكر الإنجليزي في يوم ٢٢ يونيو ١٨٠١م، يطلب وقف القتال وفتح باب المفاوضة على قاعدة الجلاء فقبل الجنرال الإنجليزي هتشنسون والصدر الأعظم هذا الطلب بارتياح [٣].

وبعد مفاوضاتٍ استمرت لأربعة أيامٍ انتهت باتفاق جلاء الجيش الفرنسي عن مصر، ووقع المندوبون على هذا الاتفاق، وتقتضي شروطه أنْ تجلو القوات الفرنسيَّة عن مصر جلاءً تامًا على أنْ يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم على نفقة الحلفاء [٤]. وهو الاتفاق الذي رفضه الإنجليز من قبل في معاهدة العريش، وقبلوه هو كما هو بعد أنْ سُفكت الدماء وخربت البلاد وعمَّ البلاء؛ لأنّ المستعمر لا يهمّه إلّا مصلحته هو فقط، ولا يهتم أدنى اهتمامٍ بمصير الشعوب المستعمَرة.

أمَّا الجدير بالذكر في حادث الجلاء أنَّه لما بدأ الفرنسيون يوم ٢ سبتمبر ١٨٠١م، يسلمون قلاع مدينة الإسكندرية واستحكاماتها ومدافعها والسفن الحربية التي كانت لهم في الثغر، جاء دور تسليم مقتنيات أعضاء المجلس العلمي، فاحتجّ أعضاء لجنة العلوم والفنون على حرمانهم من ثمرة أبحاثهم وجهودهم واكتشافاتهم، وأوفدوا ثلاثةً منهم لإقناع الجنرال هتشنسون بعدوله عن هذا

١عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣، ص ٢٧٣.

٢. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج٢، ص ٢٤٠.

٣. م. ن، ص ٢٤٥.

٤. م. ن، ص ٢٤٦.

الشرط، ولكن الجنرال الإنجليزي رفض طلبهم في البداية فأجمعوا رأيهم على الامتناع عن تسليم تلك الكنوز العلميَّة، وأنذروا القائد الإنجليزي بإحراقها بدلاً من التفريط فيها أو تسليمها، وأبلغوه أنّهم يلقون على عاتقه تبعة حرمان العلم من هذه النفائس في حالة إصراره على طلبه، فبُهت القائد الإنجليزي أمام هذا التهديد، وقبِلَ مكرَهًا أنْ يتنازل عن نفاذ هذا الشرط، وترك لهم مقتنياتهم، بيد أنّه منعهم من أخذ الآثار النفيسة والمقتنيات الفرعونية التي أرادوا تهريبها معهم، وحجزها بحجة أنّها ملك مصر، لكن مصر حُرمت منها وسرقها الإنجليز إلى بلادهم وزانوا بها متاحفهم، ومن هذه الآثار (حجر رشيد) المشهور الموجود إلى اليوم في المتحف البريطاني بلندن[١]. وهذا هو دأب المستعمر دائمًا السرقة والنهب والكذب والمراوغة والاستيلاء على خيرات وثروات الشعوب المستعمَرة. وغادر الفرنسيون مصر وعمّ البلاد فرحٌ عارمٌ بجلائهم، وكان آخر من أبحر منهم الجنرال (مينو) خليفة كليبر، وكان ذلك في يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١م [٢].

وأبلغ ما يمكننا الوقوف عليه من دراسة الوقائع الميدانية هو ذلك الموقف البطولي للمقاومة المصرية؛ إذ أبدى أبناء مصر في القاهرة والوجهين القبلي والبحري ضروبًا من البسالة في مقاومة المحتل الغازي وعدم الانخداع بوعوده البراقة الزائفة، وبذل النفوس رخيصةً من أجل تحرير الأرض والوطن، فأظهروا صورًا من البطولة والتضحية أبهرت المحتلين أنفسهم، وذلك بصورٍ وأشكالٍ يصعب حصرها.

رابعًا- النتائج والآثار المترتّبة على الحملة الفرنسيَّة

بقي الفرنسيون في مصر ثلاث سنواتٍ وثلاثة أشهرٍ تقريبًا (من يوليو ١٧٩٨ حتى سبتمبر ١٨٠١م)، تولى أمرهم خلالها نابليون وكليبر ثم مينو، ولم يتهيّأ لهم في أثناء إقامتهم القصيرة بالبلاد الاستقرار اللازم لتحقيق أهدافهم الاستراتيجية، وإنّما قضوها في حالة حربٍ ومعارك مستمرة [٣]. ومع ذلك لا يمكننا أنْ نتجاهل الآثار العميقة التي تركتها الحملة في مصر؛ إذ إنّ هذه الآثار شملت الجوانب السياسيَّة، والاجتماعية والمجالات الاقتصادية كالزراعة والصناعة والتجارة، فضلاً عن تلك الآثار الفكريَّة والعلميَّة. وسوف نعرض لهذه الآثار فيما يأتي فيما يتناسب مع نطاق بحثنا.

١. م. ن، ص ٢٥٤-٢٥٥.

٢. م. ن، ص ٢٥٥.

٣. أحمد زكريا الشلق، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١)، م. ن، ص١١٢.

الآثار السياسيَّة- دواوين الحكم: كان من أهم الآثار السياسيَّة التي أحدثها الفرنسيون فكرة دواوين الحكم لتنظيم أمور الإدارة والحكم في مصر على نمط ما حدث في فرنسا بعد الثورة من حيث نقل السلطة إلى الطبقة الوسطى وهم الأعيان في مصر، ولكنّه كان نقلاً شكليًّا بحتًا من دون أنْ تكون هناك فرصةٌ حقيقيّةٌ للممارسة الفعلية؛ إذ كان غرض بونابرت في النهاية التعرّف على ما يدور في أذهان صفوة المصريين؛ فأنشأ ديوان القاهرة للتداول في أحوال العاصمة، ودواوين الأقاليم للنظر في المصالح والشكاوي وجباية الأموال والضرائب المقررة على الأهالي. والديوان العام الذي يفترض فيه أنْ يمثّل السلطة التشريعية في البلاد وهو يتشكّل من ديوان القاهرة والمديريات بغرض تدريب النخب المصريَّة على نظام مجالس الشورى.

لكن من يتتبع نشاط ودور هذه الدواوين يدرك أنّ القصد من تشكيلها لم يكن تدريب المصريين على الحكم الذاتي – كما تدّعي بعض الكتابات - ذلك أنّ السلطة الفعلية كانت في أيدي الفرنسيين إلى أقصى حد، بنحو اتّضح أنّ إنشاء هذه الدواوين كان بهدف الاستعانة بأعضائها من علماء ومشايخ الأزهر اعتمادًا على مكانتهم في إخضاع البلاد وتهدئتها، والاستماع إلى مشوراتهم دون الالتزام بها، وتوفير وسيلةٍ محليّةٍ للربط بين الحكّام والمحكومين. وعلى الرغم من أنّ الهدف الأساسي من تشكيل هذه الدواوين هو خدمة مصالح المستعمرين، فإنّها أطلعت المصريين حقيقةً على نماذج جديدةٍ للهيئات السياسيَّة والمجالس الشورية وإنْ لم تكن لها سلطةٌ حقيقية [١].

الآثار الاجتماعية: كثيرًا ما يُخيّل للباحث في تاريخ الحملة الفرنسيَّة على مصر أنّها خلت من الآثار الاجتماعية، رغم أنّ آثارها الاجتماعية كانت خطيرةً للغاية؛ إذ نقلت الحملة الفرنسيَّة إلى مصر أنواعًا وصنوفًا شتّى من أنواع وأصناف الفساد الاجتماعي، إذ أتت إليها بالخمّارات، وألعاب القمار، والبيوت المشبوهة، وفتيات الليل، وإباحة بيع الخمر. فعملت- بصورةٍ مباشرة- على تغيير العادات والقيم الاجتماعية [٢]. فقد انتشرت مظاهر الانحلال الأخلاقي بما يشمله من إباحيةٍ وفوضى أخلاقيةٍ لا تنسجم مع التقاليد الإسلامية فيما حرص عليه الضبّاط الفرنسيّون منذ دخولهم القاهرة؛ إذ اصطحبوا عشيقاتهم إلى مصر. كما شجّعت القيادة العامّة للجيش الفرنسي السيّدات الأوروبيّات في القاهرة على حضور الحفلات الساهرة التي كان الفرنسيون

١. م. ن، ص١١٥.

٢. زينب عبد العزيز، مائتا عامٍ على حملة المنافقين الفرنسيين، م. ن، ص٢٢.

يقيمونها في دورهم أولاً، ثم في نادي تيفولي ثانيًا، كما لجأت قيادة الجيش إلى الاتفاق مع المغنّيات والراقصات المصريات المحترفات (العوالم) كي يشتركن في إحياء الحفلات التي كانت تقام في هذا النادي، وكانت تُمارس في هذه الحفلات على نطاقٍ واسعٍ أمورٌ تتنافي مع الآداب العامة. وانتشرت المراقص في شتّى أنحاء القاهرة، وفُتحت محالّ الدعارة بكثرة، وأقبل الجنود الفرنسيون عليها إقبالاً شديدًا [١]. وفي ذلك يقول (نقولا الترك) المؤرّخ اللبناني الذي عاصر الحملة هو الآخر وحضر إلى مصر لمتابعتها وسجّل ما شاهد، فقد قال: «وخرجت النساء خروجًا شنيعًا مع الفرنساوية، وبقيت مدينة مصر (يعني القاهرة) مثل باريس، وفي شرب الخمر والمسكرات، والأشياء التي لا ترضي رب السماوات»[٢].

الآثار في مجال الزراعة: قام علماء الحملة بدراسة مجرى نهر النيل وفحص القنوات والجسور، وتم تخصيص جزءٍ من الأراضي الزراعية العامّة لإنتاج الغلاّت التي تحتاجها فرنسا، وكان من أهمّ المحاصيل التي حرصت فرنسا على استزراعها في مصر ومن أجلها قامت بتعديلاتٍ جوهريةٍ في نظام الري: القمح، والحبوب، والأرز، وقصب السكر، والكتان، والنيلة، ومختلف الفواكه التي كانت تشتهر بها مصر، كما جلبوا أنواعًا من الفواكه التي لم تكن موجودةً في مصر من فرنسا مثل: الخوخ، والمشمش، والكمثرى، والتفاح. وكان الغرض الأوّل من هذه الإصلاحات هو مصلحة الفرنسيين وإمدادهم بكلّ ما يحتاجونه من الحبوب، والفواكه، والمواد اللازمة للصناعة. ومن ثم كان على الفرنسيين أنْ يعملوا على تنمية الزراعة بكلّ الطرق فقضوا على نظام الالتزام، وأدخلوا نظمًا جديدةً للري، وزراعات جديدة [٣].

الآثار في مجال الصناعة: عمل الفرنسيون على الاستفادة من الصناعات البسيطة كافة، كما عملوا على الاستفادة من الحرفيين المصريين المهرة والذين تميّزت بهم مصر دون إفادتهم بأسرار الصناعة الفرنسيَّة. فأصلحوا دار الصناعة (الترسانة) لتصنع المدافع والسفن والآلات الحربية التي كان مراد بك قد أنشأها بالجيزة. وأنشأ مينو مصنعًا للنسيج، وحرص على ألاّ يضم هذا المصنع عمالاً مصريين حتى لا تتسرّب أسرار الصناعة إليهم. وكانت القاعدة أنْ يستقدم عمالاً من فرنسا،

١. عبد العزيز محمد الشناوي، الأزهر جامعة وجامعة، ج٢، م. ن، ص٦٠-٦١.

٢. محمد عبد الكريم الوافي، يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسيَّة على مصر، طرابلس. ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ٢١٩.

٣. عبد الله عبد الرازق إبراهيم، شوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان المعاصر، م. ن، ص٨٩.

وقد حدث ذلك بالنسبة للنسيج والحدادة وصناعة الساعات والدباغة وصناعة حروف الطباعة والجوخ والبيرة[١]. فعن أيّ فائدةٍ يتحدّث المستعمر غير استفادته هو؟! إذ كان هم المستعمر الأول هو تعويض المصنوعات الأوروبيَّة التي فقدوا وسائل الاتصال بها.

الآثار في مجال التجارة: اهتمّ الفرنسيون بإحياء التجارة التي ركدت بسبب حصار الإنجليز للشواطئ المصريَّة ووجود الجيش العثماني في بلاد الشام، ومن ثمَّ عمل الفرنسيون على افتتاح أسواقٍ جديدةٍ لمصر في بلاد البحر الأحمر؛ فسارت المراكب بما نهبه الفرنسيون من خيرات مصر بين جدّه وينبع والسويس محملةً بالأنسجة القطنية والشيلان الصوفية والحرائر وكلّ ما يمكن بيعه أو شراؤه. وكان نابليون أوّل من بدأ سياسة التفاهم مع شريف مكة. وكان ضمن برنامج (مينو) إجراء علاقاتٍ مع سنار ودارفور في السودان، وبلاد الحبشة، وبلدان شمال إفريقيا [٢].

الآثار الفكريَّة والعلميَّة: وهي أبرز مؤثرات الحملة الفرنسيَّة؛ إذ كان مع الحملة طائفةٌ من علماء فرنسا النابغين في مختلف فروع علوم العصر، وطائفةٌ من رجال الفنون من المصوّرين والرسّامين والموسيقيين والمثَّالين، بلغوا جميعًا نحو ١٤٦ عالمًا، فأسّس نابليون بوساطة هؤلاء النخبة (المجمع العلمي المصري) الذي لم تكن مهمته يومًا تعليم وتثقيف المصريين، بل كانت مهمته الأولى هي الكشف عن إمكانيات مصر الطبيعيَّة والصناعيَّة وكيفية استغلالها بما يخدم أهداف الحملة في تأسيس مستعمرةٍ فرنسيةٍ على أساس علمي [٣].

وهكذا عكست آثار الحملة الفرنسيَّة الأهداف الاستعمارية بصفةٍ عامة، فالمستعمِر- في الغالب- كما يسعى إلى الغزو العسكري يسعى إلى الغزو الفكري والحضاري، أي أنّه كما يسلب خيرات البلد يسعى إلى طمس هويتها؛ لكي يسهل اقتيادها وتظلّ تابعةً له. فلا يمكن لحكومة مهما كانت سذاجتها أو عدم خبرتها السياسية أنْ تجازف بإرسال جيشٍ قوامه ستة وأربعون ألفًا بزعم تحرير شعب ليس على حدودها ولا من دينها أو ملتها، أو حتى بزعم تنويره أو تحديثه!! فما بالنا والحكومة المعنية هنا حكومة فرنسية محنكة تجيد رسم الخطط وتوارث المخططات وتمارس الاستعمار بالفعل من قبل تاريخ الحملة بعدة قرون [٤].

---

١. أحمد زكريا الشلق، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١)، م. ن، ص٨٨.

٢. عطية القوصي وآخرون، الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث، م. ن، ص ٨٦.

٣. أحمد زكريا الشلق، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-٨٠١١)، م. ن، ص١١٦.

٤. زينب عبد العزيز، مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين، م. ن، ص١٣.

خاتمة:

انتهى بحث موضوع (الاستعمار الفرنسي لمصر في ظروفه الزمانيَّة والمكانيَّة) إلى مجموعةٍ من النتائج، لعلّ أهمها ما يأتي:

أوّلًا- رغم أنّ الحملة الفرنسيَّة على مصر قد أخفقت عسكريًا، ولم تحقّق الأهداف التي جاءت من أجلها، إلّا أنّها نجحت في لفت أنظار القوى الاستعمارية إلى أهمية مركز مصر وموقعها الاستراتيجي بين قارات العالم القديم، حتى أصبحت مصر ميدانًا فسيحًا للتنافس الاستعماري الأوروبي للسيطرة عليها سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا. وهذا ما يفسّر قدوم الحملة الإنجليزية التي جاءت بعد جلاء الحملة الفرنسيَّة عن مصر بستة أعوامٍ فقط. فتعد الحملة الفرنسيَّة بذلك هي المسؤولة عن ظهور اصطلاح (المسألة المصريَّة) في عُرف السياسة الدولية بصورةٍ مبكرةٍ أو في بدايات القرن التاسع عشر والتي سيكون لها صدى كبيرٌ في النصف الثاني من القرن التاسع من خلال الصراع الاستعماري بين فرنسا وإنجلترا، ووقوع مصر تحت سيطرة الاحتلال الإنجليزي.

ثانيًا- ظهر الوجه الحقيقي للمحتلّ الفرنسي منذ منشور نابليون إلى المصريين، الذي بالرغم ممّا حواه من الوعود والعبارات الجميلة؛ حوى مبدأ التهديد والوعيد وإنذار المصريين في مادته الثانية (كلّ قريةٍ تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار). وهو أمرٌ لا يتّفق أبدًا والقواعد الإنسانية في معاملة الشعوب؛ خاصّة أنّهم قاموا بممارسة أبشع أساليب القتل والتنكيل والتعذيب والبربرية في كافة ربوع مصر في الوجه البحري والقاهرة والصعيد. كما أننا لم نرَ في منشورات نابليون للإيطاليين أثناء حروب إيطاليا تهديدًا من هذا النوع، وبالفعل قد أحرق الفرنسيون كثيرًا من القرى المصريَّة، وهذا يعني أنّ نابليون كان ينظر إلى الأمة المصريَّة بعين غير العين التي كان ينظر بها إلى الأمم الأوروبيَّة.

ثالثًا- تبيّن من خلال هذا البحث كذب مزاعم المستعمر الفرنسي في أنّه جاء حاملاً مشاعل التنوير لشعب همجي بلا تنوير؛ فما كانت الإصلاحات السياسيَّة التي تمثّلت في دواوين الحكم إلّا وسيلة خبيثة لمعرفة ما يدور في أذهان صفوة المصريين من العلماء والأعيان. كما كانت الإصلاحات الاجتماعية تهدف في المقام الأول إلى تغريب المجتمع المصري والقضاء على هويته الإسلامية، عن طريق إذاعة الفجور والتحلل الأخلاقي وإخراج المرأة المسلمة من تقاليدها الإسلامية؛ لأنّهم أدركوا، من خلال جهود المستشرقين، أنّ الدين الإسلامي هو العقبة الكؤود لاستقرار السلطات

الفرنسيَّة في مصر. كما كانت الإصلاحات الاقتصادية المتمثلة في الزراعة والصناعة والتجارة من أجل الاستفادة الفرنسيَّة القصوى من ثروات مصر، كذلك كانت الإصلاحات العلميَّة والفكريَّة كلّها تصبّ في مصلحة الجيش ومساعدته ووضع العلم في خدمة الحرب والحكومة الاستعمارية. وأنّ الهدف من البعثة العلميَّة المرافقة للحملة لم يكن هدفًا علميًّا، بل هدفًا صليبيًّا مغلّفًا بالعلم شأنه شأن الرحلات الاستكشافية التي قام بها الصليبيون ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي.

رابعًا- أظهرت الحملة الفرنسيَّة على مصر مدى ضعف الدولة العثمانيَّة وعدم قدرتها على حماية ولاياتها، فأصبح حلم الولاة والحكام الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانيَّة. كما أظهرت بأنّ مصر للمصريين وليست لبكوات المماليك الذين حينما سمحت لهم الظروف التحالف مع المستعمر عاونوه ووقفوا ضد الشعب المصري كما فعل مراد بك الذي كان صاحب فكرة حريق القاهرة.

خامسًا- رسخت الحملة الفرنسيَّة في وجدان المصريين وعقولهم أنّ المستعمِر لا يبحث إلّا عن نهب ثرواتهم وكنوزهم ونفائسهم العلميَّة والحضارية. وأنّه ما جاء إلّا لوأد اليقظة الإسلامية التي بزغ نورها في الشرق، وسرقة النفائس العلميَّة التي استمات الفرنسيون في الخروج بها أو حرقها، واستنزاف خيرات البلاد، والسعي لنشر البدع والمنكرات بين أبناء الأمة، ونشر السفور والخلاعة والمجون والمنكرات لتغييب هوية المجتمع الإسلامية، وإفقاده دينه وحسّه الوطني وانتماءه بوصفها من ضلالات الماضي.

لائحة المصادر والمراجع

١. أحمد زكريا الشلق، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١)، فصل بكتاب: المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٩.

٢. جاد طه، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت.

٣. جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسيَّة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

٤. جوزيف ماري مواريه، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسيَّة على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠.

٥. روبير سولية، مصر ولع فرنسي، ترجمة لطيف فرج، القاهرة، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ١٩٩٩.

٦. زينب عبد العزيز، مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٥.

٧. عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر: أوروبا من الثورة الفرنسيَّة إلى الحرب العالمية الثانية، بيروت، دار النهضة العربية، د.ت.

٨. عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣ تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريَّة، ١٩٩٨.

٩. عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٤، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريَّة، ١٩٩٨.

١٠. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٢١.

١١. عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج٢، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٢١.

١٢. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الريف المصري في القرن الثامن عشر، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٦.

١٣. عبد السلام عبد الحليم عامر، طوائف الحرف في مصر، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣.

١٤. عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩.

١٥. عبد العزيز محمد الشناوي، الأزهر جامعة وجامعة، ج٢، القاهرة، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ٢٠١٣.

١٦. عبد الله عبد الرازق إبراهيم، شوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان الحديث المعاصر، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧.

١٧. عز الدين نجيب وآخرون، موسوعة الحرف التقليدية في مصر، ج١، القاهرة، جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة، يناير ٢٠٠٤.

١٨. عطية القوصي وآخرون، الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث، القاهرة، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، ٢٠١١-٢٠١٢.

١٩. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ مصر الحديث والمعاصر ١٥١٧-١٩١٩، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣.

٢٠. فرج محمد الوصيف، مصر بين حملتي لويس ونابليون، المنصورة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨.

٢١. محمد حبيدة، أوروبا في القرن التاسع عشر (بونابرته)- دروس ومحاضرات ٢٠٢٠-٢٠٢١، الرباط، ط١، ٢٠٢١.

٢٢. محمد جلال كشك، ودخلت الخيول الأزهر، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي،١٩٩٠.

٢٣. محمد عبد الكريم الوافي، يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسيَّة على مصر، طرابلس- ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع،١٩٨٤.

الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة في سورية قُبيل الاحتلال الفرنسي

د. حسام جميل النايف[1]

الملخص

يعود اهتمام فرنسا ببلاد الشام إلى القرن الرابع الميلادي، إذ كانت القوافل لا تنقطع ذهابًا وإيابًا، وحقّقت التجارة الفرنسيّة مع المشرق ازدهارًا كبيرًا جدًّا، وغدت حلب مركزًا لقنصليةٍ فرنسيةٍ عظيم الأهمية، بدأت فرنسا نفوذها إلى دمشق من خلال الإرساليات التبشيريّة (الجزويت) أو اليسوعيين التي عملت فرنسا على إرسالها للمنطقة؛ لأنّها تعمل على نشر الديانة المسيحيّة الكاثوليكيّة بالذات بما يحقق لها نفوذًا ومصالح، وقد ازداد نفوذ هذه الإرساليات لمحاولة تنصير المسلمين. ومن طرق النفوذ الفرنسي أيضًا كانت المؤسسات الاقتصاديّة الفرنسيّة، التي تؤدّي دورًا ماديًّا لا يقلّ خطورةً عن الأوّل؛ فقد كوّنت علاقاتٍ تجاريّةٍ مع الدولة العثمانيّة، أسهمت في تغلغل رؤوس الأموال الفرنسيّة في مشاريع الدولة العثمانيّة، وأصبح لفرنسا مركزٌ مرموقٌ في مجال الصناعة، والتجارة، وشكّل هذا عائقًا أمام سير القوانين الوطنية فضلاً عن أنّها جلبت الخسارة والويل للدولة، ومن خلال عوامل وظروفٍ عديدةٍ احتلّت فرنسا سوريا وعملت على حصر الشؤون الاقتصاديّة بيدها، وبيد أغلبية المموّلين الفرنسيين؛ فأدّى ذلك إلى ضعف التجارة وكسادها وكثرة العاطلين عن العمل، ومعاناة السكان من المجاعة والحرمان. وقد جاء هذا البحث في مقدمةٍ وعدّة مباحث، كان أهمها أوضاع سوريا في ظلّ الحكومة العربيّة، والاهتمام الفرنسي في بلاد الشام قبل الحرب العالمية الأولى، وسياسة الانتداب الفرنسي على سورية، ثم مشاريع فرنسا حول لواء الإسكندرونة، وتصفية الخلافات الدولية حول قضايا الانتداب، وغيرها من المباحث المهمّة.

الكلمات المفتاحية: الانتداب الفرنسي، اتفاقية أنقرة، الإسكندرونة، الإرساليات التبشيريّة، ونستون تشرشل.

---

١. متخصّصٌ في التاريخ – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة / سورية.

مقدّمة

مثّلت سورية (بلاد الشام) أهميةً كبيرةً للدبلوماسيين والسياسيين الغربيين أواخر القرن التاسع عشر؛ كونها ملعبًا لمنافسات الدول العظمى التي باتت تعرف باسم (اللعبة الكبرى). ومع مطلع القرن العشرين بدا للعيان أنّ هذه المنافسات قد خفّت وطأتها ولكن هذا كان ظاهريًا فقط، وما كان يجهّز لهذه المنطقة فاق كلّ التوقعات. في ذلك الوقت، كانت معظم أراضي بلاد الشام ماتزال تغفو تحت سطوة الإمبراطورية العثمانية المتهالكة. ونسبيًا كانت بلاد الشام منطقةً هادئةً يتحرّك فيها التاريخ ببطءٍ شديد. وفي الحقيقة لم يؤدِّ رجلٌ قط دورًا أكثر أهميةً ممّا أداه ونستون تشرشل في ولادة الشرق الأوسط الذي نعيشه اليوم، تشرشل الذي كان قبيل الحرب العالمية الأولى سياسيًا بريطانيًا ناشئًا، انعدمت الثقة فيه على نطاقٍ واسع، وكان عديم الاهتمام بآسيا المسلمة، إلّا أنّ فضولية القدر قادت تشرشل إلى بلاد الشام ليتداخلا مرارًا في حياة بعضهما السياسية. وكان للعراك بينهما آثاره، فوجه بلاد الشام اليوم تتخطاه حدود هي في الواقع نُدبٌ خلّفتها مواجهاته مع ونستون تشرشل[١].

المبحث الأول: سورية في ظلّ الحكومة العربيّة (١٩١٨-١٩٢٠م)

أدّى نجاح الثورة العربية بتحرير دمشق في مطلع شهر تشرين الأول عام ١٩١٨ إلى إثارة نوعٍ من التفاؤل داخل البلاد العربية إلّا أنّ هذا التفاؤل سرعان ما تلاشى مع تشابك العلاقات البريطانية بين وعودها للعرب ومصالحها مع الحلفاء لاسيّما فرنسا[٢].

فلقد خشيت فرنسا من مغبّة انتصار العرب ووصول قواتهم إلى شمال سورية والمناطق الساحلية منها؛ فسارعت إلى إنزال قواتها في بيروت واحتلال المناطق الساحلية من كيليكية إلى الناقورة بعد أنْ احتجّت لدى القوات البريطانية في مصر على احتلال القوات العربية لهذه المناطق وحملتها على دعوة فيصل لإخلائها، وأصبحت البلاد العربية في أعقاب الحرب تخضع لإداراتٍ متباينةٍ فالشريف حسين بن علي في الحجاز يديره منذ أن اعترف الحلفاء به ملكًا، وانفرد الإنكليز

١. ديفيد فرومكين، نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط، ترجمة وسيم حسن عبدو، دار صفحات للنشر، دمشق، ودار عدنان، بغداد، ٢٠١٥، ص ٣١-٣٢.

٢. زين الدين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق وولادة دولتي سورية ولبنان، بيروت ١٩٧١، ص ٨٠-٨٦

بالعراق يحكمونه في ظلّ الأحكام العسكرية[١].

أمّا سورية فقد خضعت لثلاث إداراتٍ متباينة؛ فالمنطقة الشرقية التي تشمل سورية الداخلية من العقبة إلى حلب تحت إدارةٍ عربيةٍ على رأسها الأمير فيصل، والمنطقة الغربية التي تمتد على طول الساحل من الناقورة جنوبًا إلى كيليكية شمالاً تحت الإدارة الفرنسية، والمنطقة الجنوبية وتشمل فلسطين تحت الإدارة البريطانية[٢].

وفي ٥ تشرين الثاني ١٩١٨م أعلن الأمير فيصل عن تشكيل حكومةٍ عربيةٍ في دمشق، وعيّن علي رضا الركابي رئيسًا لها.[٣] واستطاع الجيش العربي التغلّب على بقايا الجيش العثماني وتحرير حلب في ٢٥ تشرين الأول ١٩١٨م[٤]. وقد استطاع الأمير فيصل أنْ يُؤسّس في سورية قواعد دولةٍ عربيةٍ مستقلّةٍ عاصمتها دمشق، وأكد أنّ حكومته حكومةٌ عربيةٌ تقوم على أساس العدل[٥].

وكان أمام الحكومة الفتية في دمشق مهامٌّ كبيرةٌ لإعادة تنظيم البلاد؛ بسبب ما تركه انسحاب الأتراك من فوضى ونتيجة لمآسي الحرب، وبادرت السلطات العربية إلى تنظيم الأعمال الحكومية على أنقاض الإدارة العثمانية ووفق قوانينها وتنظيماتها ولكن بعد تعريبها مع تعديلٍ جزئي تدريجي[٦].

وما لبثت النوايا الخفية أنْ بدأت تبرز للعيان؛ إذ عمدت السلطات الفرنسية إلى إنزال الأعلام العربية في مناطق نفوذها وطردت الحاكم العربي من بيروت، وأجبرت العرب على إخلاء اللاذقية والمناطق الشمالية الغربية من سورية التي كانت قد حرّرتها القوات العربية نفسها، ممّا أثار السخط الرسمي والشعبي[٧].

فكانت هذه أولى الضربات الأليمة التي مُنيت بها الثورة العربية بوجهٍ عامٍ والقضية السورية

---

١. حسين فوزي النجار، السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط، ط١، مصر ١٩٥٣، ج١، ص ٤٠٩-٤١١.

2. F.o. 3714183//X. B/414, 101919/10/. Pp. 12- 25.

٣. عبد الكريم رافق، «العلاقات السورية-التركية ١٩١٨-١٩٢٦»، جامعة الموصل، أرشيف مركز الدراسات التركية، البحوث التاريخية، ملف ٣٧، ص ١

٤. أحمد قدري، مذكراتي عن الثورة العربية، دمشق ١٩٥٦، ص ٨١.

٥. زين، الصراع، ص ٨١.

٦. خيرية قاسمية، العلاقات العربية –التركية من خلال مذكرات وأوراق القاوقجي، ١٩١٢-١٩١٨، بحث مقدم إلى المؤتمر الثالث للعلاقات العربية –التركية، والذي انعقد في عمان، الأردن، للفترة من ٢٥-٢٨ نيسان ١٩٨٥، جامعة الموصل، أرشيف مركز الدراسات التركية، ملف ٣٢، ص ١٥.

٧. فلاديمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ط٧، بيروت ١٩٨٠، ص ٤٧٤.

بوجه خاصّ. إنّ ترك السواحل للجيوش الفرنسية كان يعني الشروع في تطبيق اتفاقية سايكس-بيكو بعد أنْ كان البريطانيون قد صرحوا قبلاً بأنّها لاغية[١].

أمّا العرب فقد أقلقهم جدًا التصريح الذي نشر في الصحافة الغربية الذي يخصّ مستقبل البلاد العربية، وهم ينتظرون الإعلان عن تحقّق آمالهم ومساعدة الأمير فيصل، وتنفيذ الحلفاء وعودهم للعرب وتأمين استقلالهم[٢]. وبرر الحلفاء موقفهم بأنّه إجراءٌ وقتي، وأنّ تقرير مصير البلاد من خصائص مؤتمر الصلح في باريس[٣].

فلما انعقد مؤتمر الصلح في باريس ١٨ كانون الثاني ١٩١٩، تكشّفت جميع المخططات الاستعمارية ضد أيّة محاولةٍ لإقامة دولةٍ عربيةٍ مستقلة، وفُرِضَ الانتداب الأجنبي على الأقطار العربية، ورفع الأمير فيصل راية الوحدة العربية وطرحت اللجنة السورية في باريس فكرة (سورية الكبرى) التي تضمّ لبنان وفلسطين بالإضافة إلى سورية[٤].

وأثناء المباحثات التي جرت في لندن بين ممثلين عسكريين بريطانيين وفرنسيين والأمير فيصل في كانون الأول ١٩١٩م للبحث في قضية انسحاب وتبديل القطعات العسكرية البريطانية؛ وذلك لتهدئة الأمير فيصل الذي اشتكى من الحوادث التي جرت في سورية من قبل الفرنسيين وبضمنها الترتيبات التي اتُّخذت، والتي تم بموجبها تقسيم سورية دون استشارته وضدّ رغبة السكّان[٥]. وفي مؤتمر الصلح بباريس تقرّر فصل البلاد العربية عن تركيا، ووافق على ميثاق عصبة الأمم الذي تنص مادته (٢٢) على نظام الانتداب والتي جاء فيها: «إنّ بعض الجماعات التي كانت تابعةً للإمبراطورية العثمانية بلغت درجةً من الرقي يمكن أنْ يُعترف بها شعوبًا مستقلةً على أن ترشدها في إدارتها مشورة منتدبٍ عليها، ومساعدتها حتى تصبح قادرةً على أنْ تحكم نفسها بنفسها، وينبغي أنْ تراعى مقدمًا رغباتُ هذه الجماعات في اختيار الدولة المنتدبة»[٦].

وألقى الأمير فيصل خطابه الذي طلب فيه الاعتراف ببلاد العرب كوحدة جغرافيةٍ مستقلّةٍ برئاسة والده الشريف حسين بن علي والتسليم باستقلال سورية الكامل على أنْ تكون مرتبطة شؤونها

١. ساطع الحصري، يوم ميسلون، دار الاتحاد، بيروت ١٩٦٩، ص ٧٤.

2. F.O. 3714183//X. B/7847, 81919/10/

3. F.O. 3714183//X. B/7847.

٤. نعمة السعيد، النظم السياسية في الشرق الأوسط، ط٢، بغداد ١٩٧٨، ج١، ص ١٧٤.

5. F.O. 3714183//X. N/7847, 131919/10/.

٦. نجيب الأرمنازي، سوريا من الاحتلال حتى الجلاء، ط٢، بيروت ١٩٧٣، ص ١١.

الخارجية بحكومة الحجاز، وهاجم بشدة محاولة تقسيم بلاد العرب وفق معاهدات سريّة وجعلها مناطق نفوذ للدول الكبرى[١].

وبناءً على طلبٍ من الولايات المتحدة، شكّل المؤتمر لجنة تحقيقٍ دوليةٍ سُمّيت بلجنة (كنج-كرين) لزيارة المنطقة والاطلاع على الإرادة الشعبية. وصلت اللجنةً إلى يافا في ١٠ حزيران[٢] وزارت عموم أنحاء فلسطين قبل أنْ تأتي إلى لبنان ومنها إلى دمشق التي وصلتها في ٢ تموز ١٩١٩م، وفي اليوم التالي لوصولها قام المؤتمر السوري[٣] بتسليم اللجنة قرار المؤتمر الذي طلب الاستقلال التام الناجز للبلاد[٤].

وأيّدت اللجنة وحدة سورية على أنْ تكون فلسطين جزءًا منها، وقيام حكمٍ ذاتيّ في لبنان في إطار الوحدة السورية، وأنْ يكون الحكم دستوريًا، ويصبح الأمير فيصل ملكًا على سورية، ونبذ فكرة (الوطن القومي لليهود)، والحدّ من الهجرة اليهودية إلى فلسطين[٥].

وأسهمت الظروف في إنهاء مهمّة هذه اللجنة، فقد مرض الرئيس الأمريكي (ولسن) وأهمل تقرير اللجنة التي قدمت توصيتها في ٢٨ آب ١٩١٩م، إلى الوفد الأمريكي في مؤتمر الصلح وبقيت حبرًا على ورق، ولم تنشر في حينه[٦].

وفي ١٥ أيلول ١٩١٩م، حصل اتفاقٌ (لويد جورج-كليمنصو) بين كلٍّ من بريطانيا وفرنسا، وبموجبه تمّ جلاء القوات البريطانية في غرب سورية وكيليكيا وإبدالها بقواتٍ فرنسيّة، وإبقاء فلسطين وشرقي الأردن تحت الاحتلال البريطاني، وعدم المطالبة بإدخال ولايةً الموصل ضمن

---

١. إحسان هندي، معركة ميسلون، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٧، ص ١١.

٢. النجار، السياسة، ص ٤١٥.

٣. المؤتمر السوري: كان بمنزلة مجلسٍ نيابيّ ومجلسٍ تأسيسي، وقد تألّف من نواب يمثلون جميع الأقطار السورية بمناطقها الثلاث: الشرقية والغربية والجنوبية، وبتعبيرٍ آخر سوريّة الداخلية والساحلية وفلسطين، وكان الغرض منه إظهار رغبة الشعب السوري، أما لجنة الاستفتاء الأمريكية وكذلك لتعيين شكل الحكومة وعقد المؤتمر أولى جلساته في ٣ حزيران ١٩١٩م، وآخر اجتماعاته في ١٩ تموز ١٩٢٠م. انظر: محمد جميل بيهم، العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨-١٩٣٢، دار الطليعة، بيروت د.ت. ، ص ١١٣.

٤. هندي، ص ٢٥، الحصري، يوم ميسلون، ص ٢٤٥.

٥. بيهم، العهد المخضرم، ص ١٧١.

٦. علي محافظة، موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩-١٩٤٥، ط١ـ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥، ص ٢٢.

الدولة السورية، واحتفظت القوات العربية بالمنطقة الداخلية من سورية[١].

كانت القوات الفرنسية راغبةً في إبقاء مفارزهم في حلب ودمشق، ولكن هذا لا يمكن إلّا بعد موافقة الأمير فيصل الذي سترفع له القضية بعد وصوله إلى لندن في ١٨ أيلول ١٩١٩م، أمّا فيما يخصّ طلب الأمير فيصل بتبديل البنادق التركية التي بحوزة القطاعات العربية ببنادق بريطانية، فإنّه يجب استشارة فرنسا[٢].

ثم دعا لويد جورج الأمير فيصل إلى لندن مرةً أخرى، وأقنعه بضرورة التفاهم مع الحكومة الفرنسية، وأن بريطانيا نفضت يدها من القضية السورية، فكان اتفاق «فيصل-كليمنصو» (من تشرين الأول ١٩١٩-كانون الثاني ١٩٢٠)، الذي يقضي باستقلالٍ شكليّ لسورية، والاعتراف بانفصال لبنان سياسيًا عنها، على أنْ يقوم مؤتمر الصلح بتعيين الحدود، وأصرّت فرنسا على فرض سيادتها على البلاد[٣].

وأثار الاتفاق ردود الفعل الوطنية وخاصّة بعد تعيين فرنسا الجنرال غورو مندوبًا ساميًا وقائدًا عامًا في الشرق، مدعومًا بقواتٍ فرنسيّةٍ كبيرةٍ، وكان استقبال الأمير فيصل عند عودته إلى دمشق في منتصف كانون الثاني ١٩٢٠ متّسمًا بالبرود والشكوك، فقرر فيصل الإعلان عن استقلال سورية بحدودها الطبيعية ونصب نفسه ملكًا دستوريًا على البلاد في ٨ آذار ١٩٢٠م[٤]. كما عارض حزب الاتحاد السوري بدمشق كلّ الترتيبات المؤقتة والإجراءات والتحركات الفرنسية، وطالب بإيجاد حلٍّ شاملٍ ودائمٍ للقضية السورية[٥].

وفي ٢٦ نيسان ١٩٢٠م عُقد مؤتمرٌ في سان ريمو شاركت فيه كلٌّ من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان، وحصلت فرنسا على موافقة المؤتمر بانتدابها على سورية ولبنان، وحصلت بريطانيا

1. F.O. 3714183//X. B/414, 111919/10/;

وانظر: وجيه كوثراني، بلاد الشام (السكان، الاقتصاد، والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين)، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٠، ص ١٩١.

2. F.O. 3714183//X. N/7847, 81919/10/.

3. F.O. 3714183//X. N/7847, 81919/10/;

سهيلة الريماوي، الحكم الحزبي في سورية أيام العهد الفيصلي ١٩١٨-١٩٢٠، ط١، عمان ١٩٩٨، ص ١٣١.

٤. حسن الحكيم، مذكراتي (صفحات من تاريخ سورية الحديث ١٩٢٠-١٩٥٨)، ط١، بيروت ١٩٥٨، ص ٢٣٤-٢٣٥.

5. F.O. 3714183//X. B/414, 31919/10/, p.35.

على الموافقة بانتدابها على العراق وفلسطين، وتمّ الاتفاق بين حكومتي بريطانيا وفرنسا على حلّ المسائل الخاصّة بالانتداب على سورية ولبنان وفلسطين والعراق وفق موادّ خاصّة[١].

رفض العرب قرارات سان ريمو، وقرروا التصدّي للعدوان، فعكفت حكومة الركابي بإعداد العدّة للمقاومة فقررت التجنيد الإجباري، وباشرت بإنشاء جيشٍ نظامي، ورفضت الاعتراف بانتداب فرنسا[٢].

وفي ١٤ تموز وجه الجنرال غورو إنذاره الشهير[٣] إلى الملك فيصل، وحدّد مدة أربعة أيام لقبوله، دارت خلالها مفاوضاتٌ طويلةٌ بين الحكومة الركابية والجنرال غورو للوصول إلى اتفاق، وأشارت الوزارة الركابية على فيصل الأول قبول الإنذار، لكن المؤتمر السوري قرر عدم الاعتراف بأيّ اتفاقٍ أو معاهدة تعقدها الحكومة ما لم تعرض عليه ويصادق عليها، واستجاب الشعب لقرار ممثّليه فخرجت المظاهرات تطالب باستقالة الوزارة[٤].

وقد اختلفت حكومة فيصل حول قبول الإنذار، ومع ذلك توصلت في ٢٠ تموز إلى قرارٍ نهائي بقبوله، ونفذت الحكومة أربعة بنودٍ من الإنذار منها تسريح الجيش[٥]. فخرجت المظاهرات لتأييد المؤتمر السوري وقرر غورو أنْ تزحف قواته لاحتلال حلب ومحاصرة دمشق[٦]. فزحف نحو دمشق بجيش كبير[٧].

وفي ٢٤ تموز ١٩٢٠م، خاضت القوات العربية بقيادة وزير الدفاع السوري يوسف العظمة معركة ميسلون، ونظرًا لعدم تكافئ القوى بين الجيش العربي والجيش الفرنسي كان النصر حليف الفرنسيين، واستشهد القائد يوسف العظمة، وانكسر جيشه؛ فزحف الجيش الفرنسي نحو دمشق

---

١. د. ك. و: ملفات البلاط الملكي، التصنيف ٨٨٣/٣١١، المعاهدات والاتفاقات ١٩٢٠، وثيقة ١، ص ١.

٢. وليد المعلم، سورية ١٩١٨-١٩٥٨ (التحدي والمواجهة)، ط١، دمشق ١٩٨٥، ص ٨.

٣. جاء في الإنذار: أ. قبول الانتداب الفرنسي. ب. قبول ورقة النقد السوري عوضًا عن العملات الذهبية. ج. تأديب المجرمين الذين أظهروا عداء لفرنسا. د. التصرف بسكة حديد رياق حلب للنقليات العسكرية الفرنسية. للمزيد حول الإنذار انظر: الأرمنازي، ص ١٦-١٧؛ هندي، ص ٤٠-٥٤.

٤. المعلم، ص ٨.

٥. زين، الصراع، ص ١٦٦-١٧٦.

٦. فؤاد نصحي، سورية في المعركة، العالمية للطبعة والنشر، القاهرة ١٩٥٧، ص ٣٨.

٧. لوثروب ستوارد، حاضر العالم الإسلامي، تعريب عجاج نويهض، ط٣، بيروت ١٩٧١، ج٤، ص ٤٦.

وأنذر الأمير فيصل بالسفر حالاً من دمشق؛ فاضطر الأمير فيصل إلى ترك سورية[١] إلى أنْ تم تعيينه ملكًا على العراق[٢].

المبحث الثاني: سياسة فرنسا ومخططاتها حول الانتداب على سورية

أولًا: التطوّرات السياسية:

الاهتمام الفرنسي في بلاد الشام قبل الحرب العالمية الأولى:

يعود تاريخ العلاقات بين فرنسا وبلاد الشام إلى القرن الرابع الميلادي حيث كانت القوافل التجارية، ومواكب الحجيج لا تنقطع عن السير مباشرة، وبكلّ انتظامٍ ذهابًا وإيابًا بين الجهتين(٣)، وبلغت التجارة الفرنسية مع المشرق حدًّا من الازدهار فائق الوصف، وغدت حلب مركزًا لقنصلية فرنسيّة، عظيم الأهمية[٤]، وهذه السياسة، سياسة التعاون المادي، والتبادل التجاري التي أسّسها العهد الملكي بفرنسا هي التي تابعتها الحكومات المتعاقبة، وقد طوّر التمسك بهذه السياسة النشاط لدى أصحاب المصالح الخاصة من الفرنسيين فبادرت شركاتهم إلى تجهيز البلاد باللوازم البدائية للصناعة، والزراعة من رؤوس الأموال الوفيرة التي أدخلتها إليها[٥].

وفي فترة الحكم العثماني كانت بلاد الشام ولايةً عثمانية، وكانت من الناحية الاقتصادية بلدًا مزدهرًا اقتصاديًا، وتتمتع بوضعٍ خاصٍّ في الدولة العثمانية؛ بل كانت أوضاعها الاقتصادية تُعَدُّ أفضل من غيرها من الولايات العثمانية، فالتجارة فيها كانت رابحة، وتتمتع بوضعٍ لا بأس به يخدمها في هذا وضعها الجغرافي الممتاز، فكانت ممرًا للتجارة العالمية، وتجارة الترانزيت. وفي مجال الزراعة كانت سورية تُعَدُّ من الموارد الرئيسة للمصادر الزراعية في الدولة العثمانية، وكانت سورية تكفي نفسها من الناحية الزراعية؛ بل تصدّر إلى الخارج ما يفيض عن حاجتها، أمّا الصناعة فقد كانت مزدهرةً بصناعاتها التقليدية التي لم تكن تنافسها أيّ ولايةٍ عثمانية فيها[٦]، والذي زاد من

---

١. هند فتّال، تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، ط١، بيروت ١٩٨٨، ص ٢٩٢.

٢. فائز غصن، مذكراتي عن الثورة العربية، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٥٦، ص ٢٩٢.

3. Leonard Stein, Syria and Lebanon, London, 1926, p.27.

٤. مجيد خدوري، المسألة السورية، مطبعة أم الربيعين، دمشق، ١٩٣٤، ص٧.

٥. فريدريك زريق، نهضة العرب، التحرر فالاستقلال فالدولة، مطبعة ابن زيدون، دمشق ،١٩٤٩، ٩١ – ٩٢.

6. Raymond A. Hinnebusch, The Political Economy of Economic Liberalization in Syria, Internatinonal Journal of Middle East Studies, Cambridge university press, vol .27, no.3.(Aug., 1995) , pp . 305 - 320.

هذا الرخاء الذي نعمت فيه بلاد الشام أنّه لم تكن توجد حواجز بينها؛ أي أنّها كانت تؤلّف وحدةً اقتصاديةً متكاملةً رغم أنّه كان في بلاد الشام أكثر من ولاية، لكن تغيّر هذا الوضع فيما بعد، وأصبحت الحواجز السياسية تقطع بلاد الشام إلى عدّة دول؛ ممّا أدى إلى نشوء حواجز اقتصاديةٍ عديدةٍ من جمركية وغيرها[١].

وقد اكتسبت فرنسا امتيازات عدّة من الدولة العثمانية، وذلك في النصف الأول من القرن السادس عشر(١٥٣٥م)، هذه الامتيازات جعلتها تتمتع بمركزٍ متفوّقٍ في ولايات الدولة العثمانية[٢].

الإرساليّات التبشيريّة ودورها

إنّ النفوذ الفرنسي في بلاد الشام أوّل ما عُرف في الإرساليات التبشيرية (الجزويت)، أو اليسوعيين التي عملت فرنسا على إرسالها للمنطقة، وكانت الحكومة الفرنسية تعمل في كلّ مرةٍ للحصول على امتيازاتٍ دينيةٍ في المعاهدات التي تعقدها مع السلطان العثماني، وكانت بداية هذا الامتياز الديني في عام ١٦٠٩م ينصّ على:

«حرية الرعايا الفرنسيين لزيارة الأماكن المقدسة، وكذلك رعايا الدول الصديقة والحليفة باعتراف السلطان العثماني وحمايته»، وفي سنة ١٦٧٣م ازدادت هذه الامتيازات بشكلٍ إيجابي، ووضوحًا أكثر؛ إذ أضافت إليها حرية امتلاك الكنائس، والأماكن المقدسة داخل الدولة العثمانية كلها، والسماح لها بممارسة النشاط، وإقامة الشعائر والطقوس الدينية. وفي عام ١٦٤٩م، تم التوقيع على معاهدة صداقةٍ، تم فيها فرض الحماية الفرنسية على المسيحيين المارونيين المقيمين في جبل لبنان في أراضي الدولة العثمانية[٣].

كانت فرنسا تودّ بأيّة وسيلةٍ فرض حمايتها على الرعايا المسيحيين من أهل البلاد، وادّعت ذلك لنفسها، وعملت جاهدة لحمل الدولة العثمانية على الاعتراف لها بحق الإشراف على شؤون النصارى الكاثوليك الذين هم رعايا الدولة العثمانية، واستطاعت فرنسا أن تفرض احترام هذه الحقوق على الدول الأوروبية جميعًا، والبابا الذي أصبح يؤيد موقف فرنسا في الشرق لمسيحيي الشرق من العرب على أنهم الآن تحت الحماية الفرنسية، وكان لموقف فرنسا من هذه الحماية

1. George Lenczowski, Middle East in World Affairs, Oxford University Press, 1953, p .232.

٢. عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣، ص٧٣٧.

٣. حكمت عبد الكريم فريحات، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية الكبرى ١٩١٦-١٩٢٠، ط٢ ، دار الراتب الجامعية، عمان ، د.ن ، ص٣٠. ٣١ .

الدينية أثر ملحوظ وواضح في احتلال فرنسا مكانة مرموقة في منطقة المشرق العربي، وفي توطيد النفوذ الفرنسي في النواحي الاقتصادية، والثقافية، وسببًا لوجود القناصل الفرنسيين في المشرق؛ لأنه لولا هذه الحماية، وحق الإشراف على الرعايا المسيحيين الشرقيين هناك الذين أصبحوا يشكلون تبعية ذات أهمية مكنت فرنسا من نشر تأثيرها، وممارسة دورها في حوادث المنطقة.[١]

وكانت فرنسا تجد في مساعدة الإرساليات التبشيرية، وتسهيل مهمتها في أراضي الدولة العثمانية، وخاصة في بلاد الشام مصالح سياسية كبرى؛ لأنها تعمل على نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية بالذات بما يرتب لها نفوذًا ومصالح، وقد نشطت هذه الإرساليات جميعها في حركة التبشير، ومحاولة تنصير المسلمين من أهل البلاد، واتخذت هذه الظاهرة الدينية ستارًا يخفي وراءه الأطماع السياسية، والمصالح الاقتصادية التي كانت تعمل من أجلها هذه الإرساليات، وكانت هناك صعوبات كثيرة، وعراقيل متنوعة تواجهها هذه الإرساليات سواء من الحكومة العثمانية، أو من الأهالي أنفسهم في سوريا ولبنان، وفلسطين فلجأت إلى استعمال الوسائل المتنوعة لتذليل هذه الصعوبات، والعراقيل[٢]، وكان من أهم هذه الوسائل توزيع الكتاب المقدس مترجمًا باللغة العربية على أبناء البلاد، ثم التبشير عن طريق البعثات الطبية، والمؤسسات الطبية؛ لأن رجالها يحتكون دائمًا بالناس، ويكون لهم تأثير في المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين، وكان للنساء دور في عملية التبشير في أثناء الزيارات التي يقمن بها لمنازل المسلمين، أو إلقائهن المحاضرات العامة، أو قيامهن بمهنة التمريض فكُنَّ يقمن بالتبشير في مستشفيات النساء، ويرسلن الطبيبات المبشرات إلى البيوت لمعالجة المرضى، وهدفهن الرئيس هو الاتصال بالنساء مباشرة، وعرض بضاعة التبشير عليهن[٣]، ونشطت الإرساليات التبشيرية في إنشاء المدارس، والمعاهد، والكليات، وقد كانت هذه المؤسسات توجه توجيهًا دينيًا من البابا في روما، وتوجيهًا سياسيًا من حكومة فرنسا، وكانت أهدافهم واضحة وثابتة، وهي بث العادات، والتقاليد الفرنسية، ونشر العلوم، والأفكار الفرنسية أيضًا إذ كانوا يقومون في مؤسساتهم الابتدائية والثانوية جميعها بتقديم التعليم ونمط الثقافة الفرنسية[٤]، حيث استعملت أنبل المهن كالتعليم، والطب وسيلة إلى غاية خاصة هي القيام بعملية التبشير الديني

1. Eugene Jung , Les Puissances Devant La Revolte Arabe , Charles Herissy ,Paris , 1906, p.190 .

٢. مصطفى الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج٢، معهد الدراسات العالية ، القاهرة ، ١٩٥٧، ص١٢٨ .

٣. مصطفى خالدي، وعمر فروخ ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، دار المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٥٣، ص٥٤؛ محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج٢، المطبعة العصرية، صيدا ، ١٩٥٠، ص٥.

٤. فريحات ، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية الكبرى ، ص ٣٩-٤٠-٤١ .

الذي كان هو نفسه ستارًا للتبشير التجاري والسياسي، وأساسًا متينًا للاستعمار[١].

ثانيًا: المشاريع الاقتصادية والاجتماعية الفرنسية حول سورية أواخر الحرب العالمية الأولى

إن الدور الذي أدّته المدارس، والإرساليات التبشيرية دور معنوي خطير هو « فرنَسةُ سوريا»، أما الدور الذي كانت تؤديه المؤسسات الاقتصادية الفرنسية، فهو دور مادي لا يقل خطورة عن الأول، وهو استغلال خيرات البلاد، أما بالنسبة للعلاقات الاقتصادية التجارية بين فرنسا وسوريا فترجع إلى العصور الوسطى إلا أنها توسعت في العصور الحديثة، وازدادت أهميتها، وكانت تجارة الشرق بشكل كلي تحت إدارة الغرفة التجارية في مرسيليا، فكان هذا عاملاً رئيسًا « للتأثير الفرنسي في الشرق، وخاصة في بلاد الشام، فقد كان التجار الفرنسيون يبادلون التجار السوريين الخمور، والحبوب، والأنسجة، والأسمنت وغيرها، وكانت أهم مادة تستوردها فرنسا من الشام هي مادة الحرير التي تقوم عليها صناعة المنسوجات الفرنسية، ولاسيما في مدينة ليون، وكانت تعد بلاد الشام بلدًا منتجًا للحرير، وكانت تجارة الحرير تجعل لأصحاب المصانع في ليون تأثيرًا قويًا في رجال الحكومة الفرنسية في تغيير مواقفهم، فقد أبدوا سنة ١٩١٥م تأثرهم الشديد بسبب الاضطرابات والقلاقل في سوريا[٢] ، ونتيجة لهذه العلاقات التجارية فقد تغلغلت رؤوس الأموال الفرنسية في مشاريع الدولة العثمانية، وأصبح لفرنسا مركزًا مرموقًا في مجال الصناعة، والمالية، ولم تتوقف فرنسا عن تأدية دور إيجابي مهم في أحوال الدولة العثمانية، إذ قامت بتمويل عشرة مشاريع برؤوس أموال فرنسية، وتمكنت من إنشاء شركة البنك العثماني بالتعاون مع إنكلترا، واحتكر هذا البنك إصدار الأوراق النقدية وتقديم القروض الكبيرة للتطور الزراعي، كما أدت فرنسا في مطلع القرن العشرين دورًا مهمًا في الإدارة، والطوابع، والصيد البحري، وصناعة الحرير، وتجارة الحبوب، والضرائب على المواشي، وأصبحت رؤوس الأموال الفرنسية ذات أهمية بالغة في الاقتصاد السوري قبيل الحرب العالمية الأولى[٣] .

---

١. جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ، ط٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧ ، ص١٠٠ .

2. William I. Shorrock , The Origin of the French Mandate in Syria and Lebanon: the Railraad Question , 1901- 1914 , International Journal of Middle East Studies, Cambridge University Press,vol.1, no.2,(apr.,1970), pp.133 - 135.

٣. فريحات ، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية الكبرى، ص٤٤. ٤٥ .

كان الفرنسيون هم المسيطرون على اقتصاد البلاد، ويتمتعون بفوائد مشاريعها الاقتصادية، وكانت الصناعة الوطنية ضحية الاستيراد الأجنبي الذي لم تستطع الحكومة إقامة الحواجز الجمركية أمامه؛ مما جعل جميع الموارد، والمداخيل الضخمة للدولة تذهب إلى صناديق البنوك في لندن، وباريس، وبرلين، وفيينا، وكانت جميع المشاريع الاقتصادية كالبنوك، وشركات الغاز والمياه، والشركات العامة للمقاولات العثمانية، ومد خطوط السكك الحديدية تمول جميعها برؤوس أموال فرنسية[١].

إن هذه الامتيازات والمصالح الاقتصادية التي حققتها فرنسا في بلاد الشام كانت عائقًا أمام سير القوانين الوطنية فضلاً عن أنها جلبت الخسارة والويل للدولة، وكانت فرنسا مستعدة لاستخدام السلاح للمحافظة على هذه الامتيازات؛ بل كانت مستعدة لاستخدام كل قواها حتى ولو أدى ذلك إلى احتلال سورية في سبيل الإبقاء عليها.

المبحث الثالث: التآمر الفرنسي والدولي على لواء اسكندرونة

أولًا: مشاريع فرنسا حول لواء اسكندرونة

إن دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانية والنمسا ضد فرنسا وإنكلترا وروسيا، هيأ لهذه الدول فرصة تحقيق أطماعهما في البلاد العربية، فبدأت مفاوضات سياسية بين الدول الثلاث لاقتسام ميراث الدولة العثمانية على ضوء المستجدات الجديدة[٢].

وقد واجهت فرنسا خلال هذه المفاوضات مشروعين بريطانيين، رأت فيهما تعارضًا مع مصالحها في سورية، وتهديدًا لتواجدها الفعلي، كان المشروع الأول: مشروع احتلال الإسكندرونة، والثاني: مشروع الاتفاق مع الشريف حسين؛ لضمان قيامه ضد الدولة العثمانية.

مشروع احتلال الإسكندرونة:

كانت قضية إنزال قوات عسكرية حليفة في الإسكندرونة؛ لقطع الدولة العثمانية في الوسط، أولى القضايا الحساسة بين بريطانيا وفرنسا[٣].

فقد وضع الحلفاء لأنفسهم في بداية الحرب سلسلة طويلة من المشاريع والخطط، حسبوا فيها

١. ذوقان قرقوط، تطور الحركة الوطنية في سوريا من ١٩٢٠. ١٩٣٦ ، دار الطليعة، بيروت، ط١ ١٩٧٥، ص ١٧.

٢. ساطع الحصري: يوم ميسلون، ص ٣٥-٣٦.

3. F.O. 3719 004866/2480/ JON 1915.

لكل احتمال حسابه، وقرروا ما يجب أن يعملوه لتنظيم التعاون فيما بينهم عند تحقق كل احتمال من هذه الاحتمالات. وكان من جملة المشاريع المذكورة؛ مشروع إنزال قوات عسكرية في ميناء الإسكندرونة، والتغلغل في سوريا بدأ من الميناء المذكور[١].

وكان هذا المشروع مُعدًّا للتنفيذ في السنة الثانية من الحرب؛ لأن الحلفاء -وبناء على طلب روسيا- قرروا ضرب الدولة العثمانية عن طريق الدردنيل واستانبول، وجهزوا حملة عسكرية كبيرة من أجل ذلك.

إلا أن كتشنر القائد الإنكليزي، قام بزيارة للدردنيل، للاطلاع والتأكد من نجاح الحملة، وبفضل خبرته العسكرية، ارتأى التوجه نحو الإسكندرونة مباشرة؛ لأن إنزال حملة عسكرية فيها يضمن قطع طرق المواصلات العثمانية من وسطها، ويحقق نتائج مهمة جدًا[٢].

ومن أجل هذا الغرض قام البريطانيون بالاتصال مع الضباط السوريين؛ لإقناعهم بالقيام بحركة عسكرية مسلحة في سورية ضد الدولة العثمانية، عندما يقوم الإنكليز بإنزال قواتهم في الإسكندرونة[٣].

لكن الفرنسيين عارضوا هذا الأمر بشدة؛ خشية تأثير ذلك على مستقبل سورية، ولاسيما أنهم كانوا عاجزين عن تأمين قوات كبيرة لهذه الحملة، بسبب الأوضاع العسكرية القائمة على الجبهة الغربية، وكان من الطبيعي أن تقع حملة الإسكندرونة على عاتق الجيش والأسطول البريطانيين، واعتقد الفرنسيون أن ذلك يعرّض مصالح فرنسا إلى خطر عظيم؛ لأن احتلال سورية من قبل الجيش البريطاني، يقلل من نفوذ فرنسا في تلك البلاد، ويدفع بالسوريين إلى أحضان الإنكليز، ولهذا عارضه الفرنسيون بشدة، ونجحوا في حمل الحكومة البريطانية على التخلي عنه[٤].

١. ساطع الحصري: يوم ميسلون، ص ٣٧.

٢ساطع الحصري: يوم ميسلون: ص ٣٧-٣٨.

3 F.O. 37127 12490139665/ SEP 1915.

٤. ساطع الحصري: يوم ميسلون، ص ٣٨-٣٩.

مشروع الاتفاق مع الشريف حسين[١]

ثانيًا: الأوضاع السياسية في اللواء إبان الانتداب الفرنسي:

إن وصول قوات الثورة العربية إلى دمشق قوبل في أنحاء سورية جميعها بحماس كبير، فسارعت المدن السورية كافة إلى رفع الأعلام العربية، وإعلان التحاقها بالثورة، والتزامها بأوامر القيادة العربية.

لكن من سوء حظ الأمة العربية أنْ يحدث كلّ ذلك في أواخر أيام الحرب العالمية الأولى، ففي الوقت الذي كانت فيه القوات العربية تنتشر في المدن السورية، انهارت جبهة البلقان باستسلام البلغار، كما بدأ الألمان بالبحث عن الوسائل التي توصلهم إلى الهدنة والسلام، وعندما علمت فرنسا بمساعي ألمانية لعقد الهدنة، وشعرت بزوال الخطر عن بلادها، سارعت لإظهار أطماعها بشدة[٢]، فتوصلت إلى اتفاقٍ مع الحكومة البريطانية وقِّع في لندن في ٣٠ أيلول عام ١٩١٨م لحماية المصالح الفرنسية في المنطقة، التي ضمنتها لها اتفاقية سايكس بيكو[٣].

وفي ٢٥ أيلول ١٩١٨م أصدرت وزارة الحربية تعليماتها إلى (اللنبي) في مقر قيادته، تقضي في حال وقوع سورية ضمن نطاق نفوذ أيّة دولةٍ أوروبيةٍ، أنْ تكون هذه الدولة هي فرنسا، وصدرت التعليمات إلى (اللنبي) باستخدام ضبّاط فرنسيين في جميع مناطق الإدارة المدنية[٤].

نصّت اتفاقية سايكس بيكو على منح فرنسا السيطرة المباشرة على الخط الساحلي، وبناءً على ذلك عمل (اللنبي) على قمع كلّ محاولةٍ عربية للإشراف على المنطقة الساحلية، ولا سيما الإدارات العربية المؤقّتة التي تسلّمت الحكم من القوات التركية المنسحبة قبل وصول القوات

---

١. تناولت العديد من الكتب هذا المشروع وتوسعت في مراسلات حسين مكمهون: للاطلاع على نص هذه المراسلات انظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ثلاث مجلدات، مصر ١٩٣٤، المجلد الأول /النضال بين العرب والترك/، ص ١٣٠-١٤٤. وللتوسع في هذا المشروع انظر: زين، نشوء القومية العربية، ص ٦٠؛ ساطع الحصري: يوم ميسلون، ص ٣٨-٣٩؛ جريدة الأيام، الوثائق والمعاهدات في البلاد العربية، ص ٦٢-٦٥؛ خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق /١٩١٨-١٩٢٠/، دار المعارف مصر ١٩٧١، ص ٢٩.

٢. ساطع الحصري: يوم ميسلون، ص ٧٣، ٧٤.

٣. خيرية قاسمية: م. ن، ص ٥٣.

٤. دافيد فرومكين: سلام ما بعد سلام / ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤-١٩٢٢/، ترجمة أسعد كامل إلياس، قبرص ١٩٩٢/ ط١، ص ٣٧٣.

العربية[١]، ورفعت الأعلام العربية، وعدّت نفسها جزءًا من الحكومة العربية الموحدة، وشكّلت هيئاتٍ مسؤولةً مؤقّتةً لتأمين راحة السكان، ومنع الفوضى إلى حين وصول القوات العربية، ولا سيما في شمال سورية، حيث شكّل إبراهيم هنانو على رأس عددٍ من الرجال حكومةً مؤقّتةً، وحرّر أنطاكية وحارم، وشكّل إدارةً محلّيةً مركزها الريحانة، وعمل على تأمين النظام والأمن[٢]؛ ممّا أدّى إلى احتجاج الحكومة الفرنسية بسبب استيلاء العرب على منطقةٍ خصّصتها اتفاقية سايكس بيكو كجزءٍ من المنطقة الفرنسية[٣]، ولا سيّما بعد وصول القوات الفرنسية إلى الإسكندرونة في ١٢ تشرين الثاني ١٩١٨، وتحرّكها في ٧ كانون الأول ١٩١٨م، لاحتلال أنطاكية، بموافقة اللنبي وإقراره، فاصطدموا بمقاومة قوات التحرير العربية الموجودة في أنطاكية وحارم، وقبل وصول المفارز الفرنسية، ورفضت التخلّي عنها.

أصدر اللنبي أوامره للركابي بانسحاب كلّ القوات العربية فورًا من منطقة أنطاكية، وفي شباط ١٩١٩ غادر ممثّلو الشريف حسين المنطقة وسلّم اللنبي إدارة الساحل السوري كيليكية رسميًا للمندوب السامي الفرنسي الجنرال غورو[٤].

بعد أنْ تسلّم الفرنسيون كيليكية وسورية، بناءً على الاتفاق الإنكليزي الفرنسي الموقع في ١٥ أيلول ١٩١٩[٥]، قاموا بتقسيم المنطقة الغربية إلى ثلاث حكوماتٍ مراكزها: بيروت، واللاذقية، وأنطاكية، كما ضمّوا أقضية أنطاكية وبيلان وحارم، وكوّنوا منها لواءً إسكندرونة، ومنحوه الحكم الذاتي، وتم تعيين متصرّفٍ عربيّ تحت إشراف قائدٍ ومندوبٍ فرنسي[٦].

أخذت الأعمال الثورية في منطقة الإسكندرونة شكلاً أكثر تنظيمًا وشمولاً بتولي إبراهيم هنانو

---

١. ستيفن هامسلي لونغريغ: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة بيار عقل، بيروت ١٩٧٨، ط١، ص ١٠٠.

٢. إبراهيم الشغوري: المذكرات، دار الوثائق الإسلامية، القسم الخاص، ملف ٢٢، ص ١.

٣. خيرية قاسمية: م. ن، ص ٥٨.

4. Walter c. BANDAZIAN: The crisis of Alexandaretta, Michigan 1985, p 15.

وانظر أيضًا: لونغريغ: م. ن، ص ١٠٠. وانظر أيضًا: ج. دي. ف. لودر: م. ن، ص ٤٣.

٥. للاطّلاع على نصّ الاتفاق الفرنسي الإنكليزي الموقع في ١٥ أيلول ١٩١٩، والمذكرة البريطانية بتاريخ ١٣ أيلول ١٩١٩ بشأن الاحتلال المؤقت لسورية انظر: حسن حكيم: الوثائق التاريخية، بيروت ١٩٧٢، ص ١٥٩.

6. Stefaanos YEARSIMOS: Milliyetter Va sinirlar, Istanbul 1994, p 185.

وانظر أيضًا: يوسف الحكيم: سورية والعهد الفيصلي، بيروت ١٩٨٦، ط٣، ص ٤٨.

قيادة ثورةٍ منظّمةٍ في شمال سورية[١]. لكن عندما شعر الفرنسيون باتّساع نطاق الثورة عملوا على التفاهم مع قادتها، فحاولوا في البداية استمالة صبحي بركات، وبعد عدّة محاولاتٍ فوجئت ثورة الشمال باستسلامه وانسحابه مع عددٍ من الثوّار إلى حلب، حيث سُهلت له مقابلة المندوب السامي غورو في بيروت، وهناك تعهّد بركات بالعمل على إقناع الثوار بالعدول عن التمادي بمهاجمة الوحدات الفرنسية، ومقاومة الانتداب، ولكنّه فشل في محاولاته واستمرّت الثورة[٢].

تصاعدت الأعمال الثورية بشكلٍ لافتٍ للنظر في أنطاكية بدءًا من مطلع عام ١٩٢٠، حيث تكرّرت التقارير الفرنسية عن مجموعاتٍ مسلّحةٍ تقوم بالتعرّض للقوافل الفرنسية، وتقطع طرق المواصلات بين إدلب وحارم وتنسحب إلى أنطاكية والإسكندرون[٣]، وراحت هذه التقارير تتهم الحكومة العربية بتنظيم وتسليح هذه المجموعات المسلّحة، فقد أشار أحد هذه التقارير إلى أنّ حلب قد أصبحت مركز اضطرابٍ يتوافد عليه العرب المسرّحون من الجيش[٤].

أكدّت الوثائق الفرنسية أنّ المجموعات الثورية المنطلقة من حلب تواصل جهودها متكاتفةً مع جهود المجموعات التي تهاجم كلس وقطمة وعينتاب، وتحتلّ طريق إسكندرونة-حلب، واستطاعت هذه المجموعات السيطرة على طريق إسكندرونة – أنطاكية؛ فأصبحت ضواحي حارم وأنطاكية خارج متناول السلطة الفرنسية[٥].

جرت الحملات الفرنسية المتتالية على قرى منطقة الإسكندرونة، حيث قصفت عددًا كبيرًا من القرى الثائرة بالمدافع الضخمة، ممّا اضطرّ أهلها إلى إخلاء تلك القرى، والنزوح عنها بعد أنْ دمر الفرنسيون أغلب بيوتها[٦]. وبدأ الفرنسيون منذ منتصف عام ١٩٢٠، بالعمل على استكمال احتلال سورية الداخلية، فدخلوا حلب عن طريق كيليكية، واستطاعوا احتلالها من دون مقاومةٍ تذكر، ثم دخلوا دمشق في ٢٤ تموز ١٩٢٠م بعد معركة ميسلون[٧].

---

١. على رضا: قصة الكفاح الوطني في سورية /١٩١٨-١٩٤٦/، حلب ١٩٥٦، ص ٥٦.

٢. غالب العياشي: الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي في سورية، بيروت ١٩٥٥، ص ١٨٢، ١٩٧-١٩٨.

3. D.F.AFF.ETR, LEVENT, 19, BERYUT 14 SEP 1920.

4. D.F.AFF.ETR, LEVENT, 19, BERYUT 14 SEP 1919.

5. D.F.AFF.ETR, LEVENT, 27, p 210.

٦. صالح السعدون: المذكرات، غير منشورة، دار الوثائق الإسلامية، القسم الخاص، رقم الملف ٢١، ص ١١.

٧. للتوسع في عمليات الاحتلال الفرنسي لدمشق وحلب. انظر: ساطع الحصري: يوم ميسلون.

أمام هذا الوضع المتردي، أدرك الفرنسيون استحالة السيطرة على تلك البلاد جميعها، مع محاربة العرب والأتراك في وقتٍ واحد، فقرروا التخلّي عن أحد القطرين إما سورية وإمّا كيليكية[١]، فصمّمت على بسط سيطرتها على سورية الداخلية مهما كلفها الأمر، ومن أجل ذلك لم تتردد فرنسا في التضحية بقسمٍ من مطامعها في البلاد الأخرى، فقرّرت التخلّي عن كيليكية.

وبغية إزالة العوائق التي تعرقل عملها في سورية، تنازلت عن الموصل لبريطانيا، ووافقت على وضع فلسطين تحت الانتداب الإنكليزي وحده، وبدأت مفاوضات مع الأتراك للجلاء عن كيليكية، وضمنت بذلك عدم معارضة إنكلترا في كلّ ما ستقوم به من الأعمال والحركات في سورية[٢]، ثم وقّعت هدنةً مع الأتراك تكون مقدمةً للصلح معهم؛ ليتم لها بعد ذلك القضاء على الثورة في سورية.

توصلت فرنسا، بعد المفاوضات مع تركيا في لندن، إلى توقيع بخصوص كيليكية التي تشكّل مع غيرها من المقاطعات الحدود الشمالية لسورية[٣]، ثم وقعت فرنسا وتركيا اتفاقية فرانكلين بويون في ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١م، تعهّدت فرنسا بموجبها بالجلاء عن كيليكية، وتسليمها للأتراك، مقابل التزام الحكومة التركية بعدم تقديم المساعدة للثوار السوريين، بما يضرّ مصالح فرنسا في سورية، وبناءً على هذا كلّفت الحكومة التركية أزدشير قائد القوات التركية في ثورة هنانو والمفتش العام للثورة، بالعمل على إنهاء الثورة وإقناع زعمائها بالتخلّي عنها، واللجوء إلى تركيا[٤].

على إثر توقيع الهدنة مع تركيا، وصلت نجداتٌ فرنسيةٌ تزيد على خمسين ألف جنديّ جلبت من كيليكية، وبذلك ازدادت القدرات العسكرية الفرنسية، وأصبح من الصعب الانتصار على الفرنسيين[٥].

كان لتخلّي القوة التركية عن ثورة هنانو أثرٌ كبيرٌ وحاسمٌ على مجرى الثورة، وكان من أكبر العوامل التي أدت إلى وقوع الوهن والضعف في الثورة، حيث بدأ الانحلال في الثورة، ولا سيما

١. ساطع الحصري: يوم ميسلون، ص ٦٦.

٢. م. ن، ص ٧٠.

3. F.O. 3716455// A/ 2013 7 JUL 1921.

٤. مذكرات السعدون، ص٤٥. وانظر: أدهم آل جندي: م. ن، ص ٩٢.

5. F.O. 3716450/, E 5715 BERUT 3 JON 1921.

وانظر أيضًا: مذكرات الشغوري.

بعد أنْ استطاعت القوات الفرنسية الزحف عن طريق إسكندرونة وأنطاكية إلى حارم، وكفر تخاريم، وجسر الشغور، وإدلب، واتّخذت من هذه المناطق قواعد حصينة[١]، ثم أعلن الفرنسيون العفو العام عن المجاهدين الذين يلقون سلاحهم ويستسلمون. وهكذا استطاع الفرنسيون تفكيك عرى الثورة، وتهديمها، والقضاء عليها.

ثالثًا: تصفية الخلافات الدولية حول قضايا الانتداب

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، عقد الحلفاء معاهداتٍ عدّة، كان من أهمّ أهدافها القضاء على السيادة التركية، وتحرير الشعوب التي طال عهد خضوعها لنير الأتراك، كما فرضوا على السلطان التركي توقيع معاهدة سيفر[٢] التي فرضت تدويل المضائق بدءًا من الدردنيل إلى بحر مرمرة مع نزع السلاح منها.

لكن هذه التسوية أثارت حماس القوميين الأتراك؛ فالتفوا حول القائد التركي مصطفى كمال، واتّخذوا من أنقرة مركزًا لقيادتهم، وبعد فوزهم بالانتخابات التركية، وقعوا على الميثاق الوطني التركي، الذي أعلن: أنّ الأتراك لن يقبلوا أية قيودٍ تُفرض على استقلالهم، كما لم يقبلوا فصل أيّة ولايةٍ يسكنها الأتراك عن الإمبراطورية العثمانية. كما ادّعى الأتراك، ملكية جميع الأراضي الواقعة شمالي الخط المستقيم بين جنوبي الموصل، وميناء الإسكندرونة، أمّا حلب وبقية أجزاء لواء إسكندرونة فتقع إلى جنوب هذا الخط، وهكذا فإنّ كلاً من منطقة اللواء وحلب مستثناة من الأراضي التي شملها الميثاق[٣]. في الوقت نفسه تنازل الأتراك بشكلٍ صريحٍ عن جميع ادّعاءات الملكية التركية على أجزاء الإمبراطورية العثمانية التي تقطنها أغلبية عربية[٤].

ومع تسارع الأحداث أدرك الفرنسيون أنّه من المستحيل الاحتفاظ بالمقاطعات في كيليكية، فاقترحوا أن تُعدّل حدودهم في سورية للاحتفاظ بالمكاسب المادية والاقتصادية والثقافية في تركيا؛ فدخلوا في مفاوضاتٍ مع الأتراك، انتهت بتاريخ ٩ آذار ١٩٢١، بتوقيع رئيس وزراء فرنسا أرشيد بريان اتفاقًا مع ممثّلٍ حكومة أنقرة بكير سامي بك؛ ليضع حدًّا للاشتباكات في كيليكيا. وكان من

١. أدهم آل جندي: تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، دمشق ١٩٦٠، ص ٩٢.

٢. رمزي ميور: النتائج السياسية للحرب العظمى، ترجمة محمد بدران، مصر ١٩٣٦، ص ١٢٠-١٢١.

3. Avedis k. Sanjian, The Sanjak of Alexandretta (Hatay) study in France- Turco-Syrian relations, Michigan 1856, p 40 - 41.

٤. للاطلاع على نص الميثاق الوطني انظر: جمال أركبي، مشكلة السنجق، تركية ١٩٤٧، ص ٢٠٣.

أهمّ بنود الاتفاق أنْ تشكّل الحكومة إدارةً خاصّةً في منطقة الإسكندرونة، كما نصَّ الاتفاق على منح الفرنسيون حق تشغيل الخطّ الحديدي من باياس وميدان إكبس لتأمين المواصلات بين حلب والإسكندرونة[١].

ولكن هذا الاتفاق لم يرضِ الحكومة التركية في أنقرة، فقد أكدّت التقارير الإنكليزية استمرار الأعمال القتالية في كيليكية، على الرغم من توقيع الاتفاق، واستمرار الأتراك في تحضيراتهم لمهاجمة حلب، واستمرار تحريضهم للثوار السوريين في كفر تخاريم والقصير وأنطاكية[٢].

وفي أواخر أيار ١٩٢١ بلّغ الأتراكُ الجنرالَ غورو أنّ هذا الاتفاق ليس في صالحهم، وطالبوا بمناطق أخرى جنوبي الحدود تشمل حلب والإسكندرونة، وأتبعوا طلباتهم هذه بتحريك ثلاث فرقٍ عسكرية يبلغ عدد أفرادها ١٢ ألف جنديّ عسكروا في المنطقة، وقد رافق ذلك إرسال الوفود التركية إلى الشمال الشرقي من حلب، وإلى الغرب من الخط الحديدي بين حلب وحماة لإثارة المشاكل ضد الفرنسيين[٣].

وأمام هذا الوضع اختارت الحكومة الفرنسية مسالمة الأتراك والتفاهم معهم؛ وذلك من أجل مصالحها المتعدّدة وعميقة الجذور في منطقة حوض المتوسط الشرقي؛ فضلاً عن أنّ استخدام فرنسا للحركة الوطنية التركية سيُفشل الأطماع السياسية للقوى الأوروبية، وبشكلٍ خاصّ الأطماع الإنكليزية في المنطقة[٤].

لذلك عمدت الحكومة الفرنسية إلى توقيع اتفاقيةٍ شاملةٍ مع حكومة مصطفى كمال في أنقرة بتاريخ ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١، عُرفت باسم (اتفاقية أنقرة)، وقعها عن الجانب الفرنسي فرانكلين بويون الوزير الفرنسي السابق، والسيد يوسف كمال بك وزير الخارجية التركي، بتوقيع هذه الاتفاقية تجاهلت فرنسا كليًّا معاهدة سيفر، واعترفت فعليًّا بحكومة أنقرة الكمالية[٥].

وحصلت فرنسا بالمقابل على تصريحٍ من الحكومة التركية، يمنح شركاتها امتيازاتٍ اقتصاديةً بقصد استخراج معادن الحديد والكروم والفضة الموجودة في وادي هاريست (الخرطوش) التركي

1. M.A.E, D.F, Concernât le Lèvent, 33, 1 Mars 1921, p 185 - 187.

2. C.O. 3712/ A/268/ 117189 NO 51 BEROUT 14 APRIL 1921.

3. F.O. 3716455/ A / 2013 NO 1516 /6001/ 45, 7 JUNE 1921.

4. Avedis k. Sanjian, Op.Cit., p 20.

5. Walter c. Bandazian, The crisis of Alexandretta, Michigan 1985, p 36.

لمدة تسعة وتسعين عامًا، على أنْ يسهم الأتراك بنسبة خمسين بالمائة من رأس المال المستثمر[١].

وتؤكّد الوثائق البريطانية وجود ملحق سريّ في الاتفاقية ينصّ على: تخلّي الانتداب الفرنسي عن كامل اللواء لتركية في موعد يُحدّد مستقبلاً، وتكون عملية التخلّي هذه عن طريق التشديد على الاستقلال الشخصي للواء إسكندرونة عن سوريا، ثم عندما يصبح الوقت أكثر ملاءمةً يصبح هذا اللواء خارجًا عن إدارة السلطات الفرنسية في بيروت، وفي مرحلةٍ لاحقةٍ يمكن ضمّه إلى تركيا[٢].

عَدّت فرنسا هذه الاتفاقية ظفرًا دبلوماسيًا لها، فقد استطاعت إحباط السياسة البريطانية في الشرق الأدنى بتأييدها للحركة الكمالية، كما ساعدت على إيقاف الجيوش اليونانية عند حدّها؛ وبالتالي قلّصت النفوذ البريطاني، كما ساعدت الاتفاقية على تقوية مركز فرنسا في الشرق الأدنى، وتفرّغها للقضاء على المقاومة الوطنية السورية[٣].

أثار إعلان الاتفاقية احتجاجات بريطانيّة شديدة، واستمرّ الخلاف البريطاني الفرنسي حتى ٢٠ أيلول ١٩٢٣م، حيث ذهب اللورد كيرزون بنفسه للتفاهم مع السيد بونكاريه رئيس الوزراء الفرنسي، لإيقاف التقدم التركي في تراقية، وإنهاء الحرب بين تركيا واليونان[٤].

رابعًا: السياسة الاقتصادية الفرنسية إبان الانتداب على سورية:

عملت السلطات الفرنسية على حصر الشؤون الاقتصادية بيدها، وبيد أغلبية الممولين الفرنسيين، وتم افتتاح فروعٍ للبنوك الفرنسية في المدن السورية وخاصّة بنك ليون للاعتماد الذي لعب دورًا خطيرًا في استعباد البلاد ماليًا[٥].

كما لعبت غرفة تجارة مارسيليا دورًا مهمًّا في تحقيق المطامع الفرنسية فرأت أنّه من غير الممكن أنْ تهمل فرنسا سورية، الأرض التي أُطلق عليها اسم (فرنسا المشرق)، وأكدت الأهمية التاريخية والاقتصادية لهذا البلد وعلى ضرورة المطالبة بها كإرثٍ يعود لفرنسا[٦].

---

١. مجيد خدوري: قضية الإسكندرونة، دمشق ١٩٩٢، ط٢، ص ١٣؛ وانظر: ذوقان قرقوط: ذوقان قرقوط، تطور الحركة الوطنية، ملحق نص الاتفاقية رقم ٢٥، نقلاً عن وزارة الخارجية السورية، ص ٣٠٠.

2. F.O. 371/ 1060 A/ 2174 NO 30, ALEPPO 17 FEB 1924.

٣. مجيد خدوري؛ م. ن، ص ١٤.

٤. م. ن.

٥. د. ك. و: ملفات البلاط الملكي، التصنيف ٣١١/١٤٩، أسس الانتداب في سورية، وثيقة رقم ٩، ص ١٦.

٦. عقدت غرفة تجارة مارسيليا مؤتمرًا خاصًا حول سورية في نهاية ١٩١٨، ورسم فيه الاقتصاديون لوحة زاهية أمام أنظار رجال الأعمال والتجار المجتمعين لاستيعاب هذه المستعمرة الجديدة، ودعا مندوبو المؤتمر إلى مصادرة الأراضي الشاسعة، وطالبوا بتسهيل استيلاء الاحتكارات الفرنسية على الأراضي السورية. انظر: فلاديمير لوتسكي، الحرب الوطنية التحررية في سوريا ١٩٢٥-١٩٢٧، ترجمة محمد دياب، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٧، ص ٩٤؛ كوثراني، بلاد الشام، ص ٣٩٣.

ومنذ احتلال فرنسا لسورية وضعت السلطات الفرنسية يدها على أهم وارداتها الأساسية وهي واردات الجمارك وجعلتها لوفاء الديون العمومية فلقد بحثت معاهدة لوزان في موادها المنحصرة بين مادتي ٤٦-٥٧ قضية الدين العام، وقررت أنّ كلّ بلدٍ انفصل عن الدولة العثمانية يتحمّل من الدين العام نصيبًا يتعادل ومقدار ما عاد عليه من القروض التي كانت أساس هذا الدين العام[١].

وعملت السياسة الانتدابية الفرنسية على ربط سورية بمصالحها حيث ربطت الليرة السورية بالنقد الفرنسي (لفرنك)، وتم إصدار الأوراق النقدية السورية على هذا الأساس والتي أضرّت بالأسواق التجارية ضررًا بليغًا، وسببت خسائر كبيرةً بسبب صعود النقد وهبوطه المتوالي، ووصل نهب سورية ولبنان إلى حدٍّ لم يبلغه حتى في أحلك أيام الحكم العثماني، ونشط في هذا المجال بنك سورية الجديد وريث البنك العثماني القديم[٢].

ففي نيسان م١٩١٩، أبرم هذا البنك الذي يملكه الرأسمال الفرنسي بالكامل وهو مازال في مرحلة التأسيس، اتفاقيةً مع وزارة المالية الفرنسية تقضي بمنحه احتكار إصدار العملة السورية، وأُسّس في البنك لهذا الغرض قسمٌ خاصٌّ بالإصدار، وتنفيذًا لهذه الاتفاقية أمر المفوض السامي الفرنسي في سورية في الثاني من نيسان ١٩٢٠م، بوضع العملة السورية الجديدة المستندة إلى الفرنك الفرنسي قيد التداول، وكانت الليرة السورية الصادرة عن بنك سورية تعادل ٢٠ فرنكًا، والقرش السوري الواحد يعادل ٢٠ سنتيمًا، ولم تكن تغطية العملة الجديدة ذهبية، بل من الأوراق المالية الفرنسية المودعة في الخزينة المركزية في باريس[٣].

وضعفت التجارة السورية وأصابها الكساد من جرّاء ذلك، وأرهقت البلاد بنفقات الانتداب[٤]. وأخذت الصادرات بالهبوط منذ سنة ١٩٢٩م، وعقدت الاتفاقيات التجارية مع البلدان المجاورة فكان النجاح حليفها في ذلك مع فلسطين وشرق الأردن، ولكن لم تلقَ نجاحًا مع تركيا فاضطرت أنْ تلغي اتفاقها معها في سنة ١٩٢٩م، بعد أن بقي ذلك الاتفاق مدة أربع سنواتٍ من دون أيّة نتائج إيجابية[٥].

١. بدر الدين السباعي، أضواء على الرأسمال الأجنبي في سورية، ١٨٥٠-١٩٥٨، ط٢، دمشق ١٩٧٠، ص ١٤٢.

٢. محمد كرد علي، خطط الشام، ط٣، دمشق ١٩٨٣، ج٣، ص ٢٦٤.

٣. لوتسكي، الحرب الوطنية، ص ٩٥-٩٦.

٤. بيهم، الانتدابان، ص ١٠٥.

٥. سعيد حمادة، النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، الجامعة الأمريكية، بيروت ١٩٣٦، ص ٢٥٤.

وتدهورت أوضاع البلاد الاقتصادية، وكثر عدد العاطلين عن العمل، وعانى السكان من المجاعة والحرمان من جرّاء السياسة الاقتصادية الفرنسية، واحتكار الأسواق للبضائع الأجنبية، ويذكر أنّه قد قام أكثر من ألف عاملٍ عاطلٍ بحمل الأكياس الفارغة، والسير نحو دار الحكومة وهم ينشدون: (يا حكومة يا منصفين بدنا ناكل جوعانين، عندنا عيال بدنا خبز بدنا طحين)، وقد جاءت قوات الشرطة ففرّقت هؤلاء الجياع من دون أنْ يحصلوا على الخبز والطحين. وفي ذلك دلالةٌ واضحةٌ على سوء الأوضاع الاقتصادية في البلاد من جرّاء السياسة الاقتصادية الفرنسية[١].

لقد وجّه الاحتلال الفرنسي ضربةً مدمرةً إلى الصناعة الوطنية في سورية، فأدّى النهب الفرنسي، وتدهور الزراعة إلى إفقارٍ متزايدٍ للفلاحين، وتقلص السوق الداخلية بصورةٍ مطرّدةٍ، وظلّت هذه السوق تحت سيطرة رأس المال الأجنبي الذي أغرق البلاد بسلعٍ كانت الصناعة المحلية عاجزةً عن منافستها، والأكثر من ذلك أنّه رغم الأزمة الزراعية، والانخفاض الحادّ في تصدير المنتجات السورية من ٨,٥ مليون فرنك ذهبي في سنتي ١٩١٠-١٩١١ إلى ٤٧,٥ مليونًا سنة ١٩٢٢، فإنّ استيراد السلع الأجنبية إلى سورية بعد الاحتلال الفرنسي فاق مستوى ما قبل الحرب بنسبةٍ كبيرةٍ بلغت ٣٠٠ مليون فرنك ذهبي سنة ١٩٢١، و ٢١٩ مليونًا سنة ١٩٢٢، و١٥٠ مليونًا سنة ١٩٢٣، و ٢١٣ مليونًا سنة ١٩٢٥، مقابل ١٧٠ مليونًا في سنتي ١٩١٠-١٩١١م[٢].

وكانت سياسة تقسيم وتجزئة سورية في مقدمة الأسباب التي أضرّت بوضع البلاد الاقتصادي، وقادت بطبيعة الأمر إلى وزيادة نفقات الإدارة، وإثقال كاهل المكلف فضلاً عن استئثار السلطة الفرنسية بموارد المصالح المشتركة والجمارك التي كانت مكوسها تزداد ارتفاعًا، فيتناول الموظفون الفرنسيون الذين يعدّون بالمئات رواتب ضخمةً ويتمتعون بمزايا كثيرةٍ مثل أجور المنازل والأسعار[٣].

١. جريدة البرق الأسبوعي، السنة الثالثة والعشرين، العدد ٣٤٤٢، ٢٣ آب ١٩٣٢، ص ٧.

٢. لوتسكي، الحرب، ص ١١٠.

٣. الأرمنازي، سوريا، ص ٢٤.

خاتمة:

من خلال ما سبق نلاحظ أنّ البلاد العربية عامةً، وسورية بشكلٍ خاصّ، كانت ضحية مؤامرةٍ كبيرةٍ، تزعمتها فرنسا وبريطانيا، كان هدفها إجهاض أيّ محالةٍ لإقامة حكومةٍ عربيةٍ أو حصول العرب على استقلالهم والتخلص من نير الاحتلال العثماني، حيث توالت المؤامرات والاتفاقيات التي جرّدت العرب والسوريين من حقوقهم كافة، وأدّت إلى إخضاعهم للانتداب الفرنسي بحجة الارتقاء بالشعوب العربية لتصبح مواكِبةً للعالم المتمدن، وهي الحجّة التي لطالما تغنّت بها الدول الأوروبية الطامعة بخيرات البلاد الاقتصادية والطامعة بتوسع مستعمراتها لتشمل البلاد العربية كلّها التي كانت خاضعةً للدولة العثمانية.

وظهر ذلك جليًّا من خلال السياسة الاقتصادية التي اتبعتها فرنسا في إدارة البلاد، والتي اعتمدت على نهب خيراتها واستنزاف ثرواتها، فضلاً عن محاولاتها الفاضحة إلى تجزئتها إلى دويلاتٍ طائفيةٍ وإثنيّةٍ لتدّب التفرقة فيها، ويتدمّر حلمها بوحدتها واستقلالها.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا- الوثائق

أ_الوثائق العربية:

١. صالح السعدون: المذكرات، غير منشورة، دار الوثائق الإسلامية، القسم الخاص، رقم الملف ٢١.

٢. د. ك. و: ملفات البلاط الملكي، التصنيف ٣١١/٨٨٣، المعاهدات والاتفاقات ١٩٢٠، وثيقة ١.

٣. د. ك. و: ملفات البلاط الملكي، التصنيف ٣١١/١٤٩، أسس الانتداب في سورية، وثيقة رقم ٩.

ب- الوثائق الأجنبية

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية: ويرمز لها بالرمز: «D.F.AFF»

4.Documents Francis des Affaires Etrangères Concernant le Levant: Syrie – Liban durant les Années 1918-1940.

5.Documents Francis des Affaires Etrangères Concernant le Levant: le Turquie de 1918 -1926.

٦. تقارير المفوضية العليا للانتداب الفرنسي عن الأوضاع العامة في سورية ولبنان لأعوام «١٩٢٦-١٩٣٧»: ويرمز لها بالرمز: «Rapport»

7.Rapport a la société des Nations sur la Situation de la Syrie et du Liban: Année 1923-1837.

وثائق وزارة الحرب البريطانية ويرمز لها بالرمز: «C.O».

8.Documents of the British Colonial Office: About Syria from 1921-1944.

وثائق وزارة الخارجية البريطانية ويرمز لها بالرمز: «F.O».

9.Documents of the British Foreign Office: About Syria from 1921-1947.

المراجع العربية:

١٠. الأرمنازي، نجيب: سوريا من الاحتلال حتى الجلاء، ط٢، بيروت ١٩٧٣.

١١. بيهم، محمد جميل: الانتدابان في العراق وسوريا، مطبعة العرفان، صيدا ١٩٣١.

١٢. ـــــــــــــــ، العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨-١٩٣٢، دار الطليعة، بيروت د.ت.

١٣. آل جندي، أدهم: تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، دمشق ١٩٦٠.

١٤. الحصري، ساطع: يوم ميسلون، دار الاتحاد، بيروت ١٩٦٩.

١٥. الحكيم، حسن: مذكراتي (صفحات من تاريخ سورية الحديث ١٩٢٠-١٩٥٨)، ط١، بيروت ١٩٥٨.

١٦. حمادة، سعيد: النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، الجامعة الأمريكية، بيروت ١٩٣٦.

١٧. خالدي، مصطفى؛ فروخ، عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، دار المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٥٣.

١٨. خدوري، مجيد: قضية الإسكندرونة، دمشق ١٩٩٢، ط٢.

١٩. ـــــــــــــــ، المسألة السورية، مطبعة أم الربيعين، دمشق، ١٩٣٤.

٢٠. دروزة، محمد عزة: حول الحركة العربية الحديثة، ج٢، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥٠.

٢١. رافق، عبد الكريم: «العلاقات السورية-التركية ١٩١٨-١٩٢٦»، جامعة الموصل، أرشيف مركز الدراسات التركية، البحوث التاريخية، ملف ٣٧.

٢٢. رضا، على: قصة الكفاح الوطني في سورية /١٩١٨-١٩٤٦/، حلب ١٩٥٦.

٢٣. الريماوي، سهيلة: الحكم الحزبي في سورية أيام العهد الفيصلي ١٩١٨-١٩٢٠، ط١، عمان ١٩٩٨.

٢٤. زريق، فريدريك: نهضة العرب، التحرر فالاستقلال فالدولة، مطبعة ابن زيدون، دمشق ،١٩٤٩.

٢٥. زين، زين الدين نور الدين: الصراع الدولي في الشرق وولادة دولتي سورية ولبنان، بيروت ١٩٧١.

٢٦. السباعي، بدر الدين: أضواء على الرأسمال الأجنبي في سورية، ١٨٥٠-١٩٥٨، ط٢، دمشق ١٩٧٠.

٢٧. السعيد، نعمة: النظم السياسية في الشرق الأوسط، ط٢، بغداد ١٩٧٨، ج١.

٢٨. الشناوي، عبد العزيز محمد: أوربا في مطلع العصور الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.

٢٩. الشهابي، مصطفى: محاضرات في الاستعمار، ج٢، معهد الدراسات العالية، القاهرة، ١٩٥٧.

٣٠. العياشي، غالب: الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي في سورية، بيروت ١٩٥٥.

٣١. غصن، فائز: مذكراتي عن الثورة العربية، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٥٦.

٣٢. فتال، هند: تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، ط١، بيروت ١٩٨٨.

٣٣. فريحات، حكمت عبد الكريم: السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية الكبرى ١٩١٦-١٩٢٠، ط٢، دار الراتب الجامعية، عمان، د.ن.

٣٤. قاسمية، خيرية: العلاقات العربية – التركية من خلال مذكرات وأوراق القاوقجي، ١٩١٢-١٩١٨، بحث مقدم إلى المؤتمر الثالث للعلاقات العربية – التركية، والذي انعقد في عمان، الأردن، للفترة من ٢٥-٢٨ نيسان ١٩٨٥، جامعة الموصل، أرشيف مركز الدراسات التركية، ملف ٣٢.

٣٥. ـــــــــــــــ، الحكومة العربية في دمشق /١٩١٨-١٩٢٠/، دار المعارف مصر ١٩٧١.

٣٦. قدري، أحمد: مذكراتي عن الثورة العربية، دمشق ١٩٥٦.

٣٧. قرقوط، ذوقان: تطور الحركة الوطنية في سوريا من ١٩٢٠- ١٩٣٦، دار الطليعة، بيروت، ط١ ١٩٧٥.

٣٨. كرد علي، محمد: المذكرات، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٤٨.

٣٩. ـــــــــــــــ، خطط الشام، ط٣، دمشق ١٩٨٣، ج٣.

٤٠. كوثراني، وجيه: بلاد الشام (السكان، الاقتصاد، والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين)، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٠.

٤١. محافظة، علي: موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩-١٩٤٥، ط١ـ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥.

٤٢. المعلم، وليد: سورية ١٩١٨-١٩٥٨ «التحدي والمواجهة»، ط١، دمشق ١٩٨٥.

٤٣. النجار، حسين فوزي: السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط، ط١، مصر ١٩٥٣، ج١.

٤٤. نصحي، فؤاد: سورية في المعركة، العالمية للطبعة والنشر، القاهرة ١٩٥٧، ص ٣٨.

٤٥. هندي، إحسان: معركة ميسلون، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٧.

المعربة:

٤٦. انطونيوس، جورج: يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ط٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧.

٤٧. فرومكين، ديفيد: سلام ما بعد سلام / ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤-١٩٢٢/، ترجمة أسعد كامل إلياس، قبرص ١٩٩٢/ ط١.

٤٨. ـــــــــــــــ، الحرب الوطنية التحررية في سوريا ١٩٢٥-١٩٢٧، ترجمة محمد دياب، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٧.

٤٩. ـــــــــــــــ، نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط، ترجمة وسيم حسن عبدو، دار صفحات للنشر، دمشق، ودار عدنان، بغداد، ٢٠١٥.

٥٠. لوتسكي، فلاديمير: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ط٧، بيروت ١٩٨٠.

٥١. ستوارد، لوثروب: حاضر العالم الإسلامي، تعريب عجاج نويهض، ط٣، بيروت ١٩٧١.

٥٢. لونغريغ، ستيفن هامسلي: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة بيار عقل، بيروت ١٩٧٨، ط١.

٥٣. ميور، رمزي: النتائج السياسية للحرب العظمى، ترجمة محمد بدران، مصر ١٩٣٦.

الجرائد والمجلات:

٥٤. جريدة الأيام، الوثائق والمعاهدات في البلاد العربية

٥٥. جريدة البرق الأسبوعي، السنة الثالثة والعشرين، العدد ٣٤٤٢، ٢٣ آب ١٩٣٢.

المراجع الأجنبية:

56. Bandazian, Walter c.: The crisis of Alexandaretta, Michigan 1985

57. Jung, Eugene, Les Puissances Devant La Revolte Arabe, Charles Herissy, Paris, 1906.

58. Hinnebusch, Raymond A: The Political Economy of Economic Liberalization in Syria, International Journal of Middle East Studies, Cambridge university press, vol .27, no.3.(Aug., 1995).

59. Lenczowski, George: Middle East in World Affairs, Oxford University Press, 1953.

60. Sanjian, Avedis k.: The Sanjak of Alexandretta (Hatay) study in France- Turco-Syrian relations, Michigan 1856.

61. Shorrock, William I., The Origin of the French Mandate in Syria and Lebanon: the Railraad Question, 1901- 1914, International Journal of Middle East Studies, Cambridge University Press,vol.1, no.2,(apr.,1970).

62. Stein, Leonard: Syria and Lebanon, London, 1926.

63. Yearsimos, Stefaanos: Milliyetter Va sinirlar, Istanbul 1994.

جدل التعريب والتغريب في تونس

كيف واجهت جامعة الزيتونة مناهج الاستعمار اللّغوي الفرنسي؟

د. ناجي الحجلاوي[1]

الملخص

لعلّ في إدراك الجذور التاريخيّة الكامنة وراء الأزمة اللّغويّة الّتي سبّبها الاستعمار الفرنسي لتونس، ما يساعد على المعالجة الدقيقة لتعقيدات قضيةٍ بهذه الأهميّة. لقد بدا من البيِّن أنّ التعليم الزّيتوني زمن الاستعمار- على سبيل التخصيص - كان يُعاني المنافسة الشديدة حين راحت اللّغة الفرنسية تغزو كلّ المقررات الدراسيّة. وعندما أراد الاستعمار وضع يده على التّعليم الزّيتوني تصدّت له الحركة الشعبيّة بقوّة، وبخاصّة الحركة الطلابيّة. ومع الاستقلال واصل الزيتونيّون نضالهم من أجل دعم اللغة العربيّة وتعميق ربط التعليم بالهويّة العربيّة الإسلامية. ومع أنّ المسار الإجمالي للحقل الأكاديمي قد تمّ توحيده على يد الدولة الوطنيّة، فقد ظلّ التعليم الزيتوني- وهو التّعليم الّذي كان قائمًا على اعتماد اللّغة العربيّة - يُعاني التهميش والضعف وغياب الدافعيّة. وهذا يعود في الواقع إلى عاملَيْنِ: ذاتيّ سببُه التقليد والمحافظة، وموضوعيّ يتمثّل في الاضطهاد الاستعماري والتّهميش، وعمليات التّغريب اللّغوي والثقافي.

تقوم فرضيّة هذا البحث على الكشف عن أوضاع اللّغة العربيّة بالبلاد التونسيّة قبل الاستعمار وبعده، وذلك من خلال استقراء مكوّنات المسألة التّربويّة المعتمدة، وبيان مخططات الاستعمار الهادفة إلى طمس معالم اللّسان العربي ومن ورائه الحضارة برمّتها. في موازاة ذلك، سوف نلقي الضوء على الدور الذي تبوّأه جامع الزيتونة الّذي تحوّل فيما بعد إلى جامعةٍ تحمل اسمه وترفع لواء القيم العربيّة الاستقلاليّة والثقافة الإسلاميّة الأصيلة. وإلى ذلك سيجنح هذا البحث نحو اعتماد المنهج الاستقرائي والنّقدي لتحقيق الفرضية المُشار إليها.

الكلمات المفتاحيّة: التعريب، التغريب، جامعة الزيتونة، الاستعمار اللّغوي، الاستعمار الفرنسي.

---

١. أستاذٌ محاضرٌ بالمعهد العالي للحضارة الإسلاميّة-جامعة الزيتونة- تونس

١-أوضاع اللّغة العربية بالبلاد التونسية قبل الاستعمار

يعدّ أحمد باشا باي وهو الباي العاشر في الدولة الحُسيْنية الّذي حكم البلاد (١٨٣٧-١٨٥٥)، هو أوّل من تفطّن إلى ضرورة رسم السياسة الثّقافية الخاصّة بالبلاد التونسية، فأنشأ المدرسة الحربية ببارْدو، وجلب إليها أساتذةً من خريجي الزّيتونة ومن خارج الزّيتونة، وأدرج فيها علومًا غير مألوفةٍ في الفضاء الزّيتوني، ثمّ أصدر مرسومًا للنّهوض بالتّعليم الزيتوني سنة ١٨٤٢م، ما يدلّ على حرص هذا الباي على وضع استراتيجيةٍ ثقافيةٍ للبلاد التونسية[١]. ومن بعده أسّس وزيره الأكبر خير الدّين التّونسي المدرسة الصادقية سنة ١٨٧٥م، وكانت كلتا المدرستيْن خير سندٍ للتّعليم الزّيتوني قصد تعصيره وتطويره. وفي هذا الفضاء ظهرت حركةٌ طُلابيةٌ زيتونيةٌ أطلقت على نفسها اسم (صوت الطالب الزّيتوني)، وهي حركةٌ ذات أبعادٍ ثقافيةٍ ونقابية، وقد حملت لواء التّصدّي للمشاريع الثّقافية التّغريبيّة، وندّدت بقوّة بالاستشراق المغلّف بالمنزع العلمي ولاسيّما في شكله الأوّلي المتمثّل في البعثات التبشيريّة والرّحلات العلمية.

لقد كانت البلاد التونسية، قبل حلول الحقبة الاستعمارية، قِبلة المتعلّمين، ثمّ ساء حال الثّقافة، تدريجيًا، تحت وطأة المستعمرين الإيطاليين والفرنسيين الّذين تواصلت هجرتهم إلى البلاد التّونسية مدّةً غير قصيرة قبل الدخول الفعلي للجيوش الاستعمارية. وقد كان المشهد الثّقافي والفكري رائجًا ومُنتجًا في اختصاصاتٍ كثيرةٍ على يد ثلّةٍ من العلماء، ففي المجال العلمي نجد ابن الجزّار (ت ٣٦٩هـ)، وفي مجال النّقد الأدبي ابن شرف (ت ٤٦٠هـ)، وابن رشيق (ت ٤٥٦هـ)، وفي الميدان التّاريخي عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، وفي اختصاص الفقه نجد ابن عرفة (ت ٨٠٣هـ).

وفي الفضاء اللّغوي نعثر على معجم اللّغة العربية لصاحبه ابن منظور القفصي (ت ٧١١هـ)، وقد تميّز الأدب التّونسي بجزالة لغته ورقّة معانيه[٢]، إنّ هذه المظاهر الثّقافية كلّها جعلت من البلاد التّونسية محطّة إشعاعٍ حضاريّ ما بين القرنيْن الثامن والسادس عشر للميلاد، وقد عمّ هذا الإشعاع كامل أقطار الشمال الإفريقي، والجنوب الأوروبي، فراج فنّ الخطّ العربي وتفنن المهندسون في المعمار وتخطيط المدن، وتطوّرت الفنون المختلفة.

١. ينظر عبد الباسط الغابري، صوت الطالب الزيتوني: حركة ثقافية سياسية، مركز النشر الجامعي، منونة، تونس، ط١، ٢٠١١، ص ٣٤٠.

٢. يُنظر عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، تعريب سامي الجندي، دار القدس، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٧٥، ص ٥٤.

إنّ اللاّفت للنّظر، في الحقبة الّتي سبقت الاستعمار بمدّةٍ وجيزةٍ أنّ الثّقافة والفكر كانا على أحسن صورةٍ لهما، وقد تأسّست المدرسة الحربية بباردو، المشار إليها آنفًا، وهي ذات اختصاص يُعرف بالبوليتكنيك. وقد أعيدت هيْكلة الجامعة الزيتونيّة على أسسٍ علمية، فتمّ توسيع مكتبتها بشكلٍ لافت، ففي سنة ١٨٤٢ م. صدر قانونٌ يسيّر نظام الدّروس ويُحفّز رجال التّعليم بترفيع رواتبهم، ويحصّن جودة التّدريس عبر ضبط جداول العمل وساعات التّدريس على يد مجلس الجامعة صاحب السلطة البيداغوجية والإدارية، وهو مكلّف بالمراقبة والمراجعة والتّقييم. وفي سنة ١٨٧٠م، ضاعفت الحكومة مرتبات الإطارات التّعليمية لإثارة الحماسة في الإطارات التّربوية، وتحسين مردودهم، وتقوية فاعليتهم عبر العناية بهم والتّحسين من ظروفهم. وقد تمّ تعيين الأستاذ الأكبر للجامعة الزيتونية لكي يُشرف على سير الدّروس وتجويد أساليبها ورفعة أدائها[١].

لقد كان في تونس قُبيْل الاستعمار اثنتا عشرة كلية وعشرون ومائة مدرسة ابتدائية تعلّم المواد كلّها باللّغة العربية، وثلاثون أستاذًا جامعيًا، وستون أستاذًا مساعدًا، وأكثر من ثمانمائة طالب، وفي المعاهد الثّانوية المنتشرة على مختلف ربوع البلاد كان هناك اثنا عشر ألف تلميذ، وقد أثبت المؤرّخ ابن أبي الضياف في كتابه (إتحاف أهل الزمان) ما يُميّز هذه المرحلة بقوله: «إنّ أيّة قرية لم تخلُ من مدرسةٍ ابتدائية»[٢]. والمهمّ أنّ التّعليم قد كان مجانيًا في كلّ مرحلةٍ من مراحله بدعم من الأوقاف وأصحاب المشاريع الخيْرية بالإضافة إلى مساهمة الدولة، وقد كان بالعاصمة التّونسية بمفردها اثنان وعشرون بيْتًا تحتوي على خمسمائة غرفةٍ مخصّصةٍ لإيواء الطلاّب المعوزين والقادمين من المناطق البعيدة عن العاصمة.

لقد اضطلع الوزير خير الدّين باشا ــ الّذي دامت مدّة حكمه بين عامي (١٨٧٣-١٨٧٧) ــ بمهامٍّ تعليميةٍ وتربويةٍ تدعّم منزلة اللّغة العربية في البرامج التّربوية، فهو الّذي وسّع إطارات جامعة الزيتونة سنة ١٨٧٥م، وزاد من عدد أساتذة الكليات بالأقاليم والجهات، وأنشأ مكتبةً عامّة، وفي السّنة نفسها أنشأ مدرسةً مهمّةً تعضد التّعليم الزيتوني وهي مدرسة الصادقية، وهي تحتوي على ثلاثة شعب: الأدب، وعلوم الفقه، والعلوم الصحيحة كالرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والجغرافيا، والقانون.

١. يُنظر عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، م ن، ص ٥٤ وما بعدها.

٢. أحمد بن أبي الضّياف، إتّحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج٨، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، ١٩٩٩م، ص٩٢.

إنّ الهدف الموحّد في هذا التّعليم بالبلاد التّونسية هو تقوية الهوّية العربية الإسلامية في النشء عبر التضلّع في اللّسان العربي، وما أنتجه عبر العصور الإسلامية من ثقافةٍ وفكرٍ في مختلف المجالات والمعارف والعلوم، وقد عبّر ديتو رنيل كونستان عن هذا المعنى بقوله: «لقد كان يجيء السُّواح المسلمون من أماكن قصيّة كي يستمعوا في جوامع البلاد التونسية إلى تدريسٍ خالٍ من التّعصب»[١].

٢-دخول الاستعمار وفرض التّغريب اللّغوي

منذ حدود سنة ١٥٧٤م، كانت الإيالة التّونسية تحت سلطة الدّولة العثمانية، وفي حدود سنة ١٨٨١م، تحوّلت بمفعول الضعف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي إلى مجالٍ استحوذت عليه الإمبراطورية الفرنسية كثمرةٍ طبيعيةٍ للاستدانة الكبرى لأوروبا، بالإضافة إلى كثرة الأوبئة وارتفاع الضرائب وانتشار القلاقل والثورات مثل ثورة ١٨٦٤م. ومن ثمّ أصبح للأجنبي حقّ امتلاك الأرض والبنايات، إذ مارس القناصل الأوروبيون الضغوطات الكثيرة على الباي محمد الصادق الّذي حكم فيما بين (١٨٥٩-١٨٨٢)، وذلك لانتزاع الامتيازات التّفضيلية لفائدة المعمّرين[٢].

واللاّفت للانتباه، أنّ ألمانيا وبريطانيا قد شجعا فرنسا على الاستيلاء على البلاد التونسية في مؤتمر برلين ١٨٧٨، وذلك لمحاصرة إيطاليا الّتي يُخشى أنْ تُسيطر على البحر الأبيض المتوسط، ومن ثمّ تبسط نفوذها على قناة السويس، والمضيق الفاصل بين صقلية وتونس. وألمانيا بدورها رغبت في تعويض فرنسا على هزيمتها في الألزاس، وقد قال بسمارك خلال المؤتمر المذكور للفرنسيين: «إنّ الإجاصة التونسية قد نضجت وحان وقت قطافها»[٣].

إنّ الاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية قد بدأ توسّعًا اقتصاديًا وسياسيًا، انتهى إلى استعمارٍ ثقافيّ ساعة فتح عيْنيْه على سلطة اللّغة العربية وهيمنتها على العقول لارتباطها بالقرآن الكريم وما يتّصل به من رصيدٍ ثقافيّ وحضاري.

---

١. نقلاً عن عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، م ن، ص ٥٨.

٢. يُنظر أروى العبيدي، ١٢ ماي ١٨٨١ يوم صارت تونس ملكًا لفرنسا، مقال إلكتروني تحت الرّابط التالي: Inku.be ، تاريخ النشر ١٢ ماي ٢٠٢٢، تاريخ الدخول ٣ سبتمبر ٢٠٢٤.

3. A.J.P Taylor, Bismark: The Man and the Statesman, Penguin Books, London, 1966, P189..

صراع العربية مع الفرنسية

دخل الاستعمار الفرنسي البلاد التّونسية ١٨٨١م، فانشدّ إلى النّشاط الثّقافي البادي في عنصريْه البارزيْن: اللّغة والدّين، فسارع برسم مخطّطاتٍ للقضاء عليهما، ففي معاهدة المرسى المنعقدة سنة ١٨٨٣م، وقع إرساء بذور تحطيم النهضة الثّقافية بشكلٍ مفضوح، فقد نصّت المادّة الأولى منها على حقّ الاستعمار الفرنسي وللمالية الفرنسية حقّ التّوجيه المعنوي للشعب التّونسي، والقصد من ذلك أنّ الرؤوس المدبّرة للفترة الاستعمارية، قد وجدت نفسها أمام مشكلةٍ ثقافيةٍ حادّة تتمثّل في كيفية التّصدي للنظام التّعليمي الزيتوني الّذي كان محكم التّرابط والتّكامل، فهل يُترك الحبل على الغارب لصالح اللّغة العربية، والمواد الدّينية أم ستعمل على فرض اللّغة الفرنسية ودمجها في المنظومة الثّقافية؟

لقد شعر الاستعمار بخطر الدور الّذي تضطلع به اللّغة العربية، وهو خطرٌ يتمثّل في القدرة على بناء الشخصية المتفرّدة صاحبة الوعي النابذ للظلم والعبودية، فعمد الاستعمار إلى التّفكير في إلغائها، ولكن لمّا صعب عليه ذلك إلى حدّ الاستحالة تحت وطأة المقاومة لتجاهل العربية، فراغ الاستعمار إلى قطع الموارد الدّاعمة لتعليم اللّغة العربية، فالتجأ الشعب إلى الدّعم الذّاتي من الجمعيات الخيْرية، وعليه ساءت أحوال المدرس للّغة الوطنية حيث كان مدرس العربية يتقاضى ساعتئذٍ مائتيْ فرنك، ويتقاضى الأستاذ بالأقاليم للمادّة ذاتها تسعة فرنكاتٍ فقط.

وبعد مقاومةٍ عنيفةٍ من الحركة الطلابية الزيتونية المدعومة شعبيًا، لفرض اللّغة العربية وتحسين ظروف معلمها ماديًا ومعنويًا، سمحت الحكومة سنة ١٨٩٦ بتأسيس مدرسةٍ ابتدائيةٍ عربيةٍ فرنسيةٍ تُعرف بالمدرسة الخلدونية بتمويلٍ شعبيّ خاصّ، والغاية منها تطوير التّعليم الزيتوني وإغناء الثّقافة العربية بالمعارف الحديثة، ولم تقوَ هذه المدرسة على الاستمرار أمام الضغط الحكومي وضعف الموارد الدّاعمة. وتحت الضغط الطلاّبي وكثرة المطالبات باحترام اللّغة العربية جنحت الحكومة إلى إدخال مادّة العربية بالمدارس الفرنسية، ولكن في صورة المادّة الاختيارية.

لقد سجّلت سنة ١٩١١م أحداثًا عنيفةً خاضها التّونسيون ضد التّمييز الحكومي بيْن العربية والفرنسية، وقد أُعلن الإضراب العامّ حتّى إعلان الإصلاح الضروري للأوضاع التّعليمية، ودام الإضراب شهرًا. ورغم التّنكيل بالطّلاب والمواطنين فإنّ حبّ اللّغة العربية كان يزداد يومًا بعد يوم ورغم الفقر والخصاصة فقد هبّ الشعب إلى دعم الدّروس الخصوصية المهتمّة بالعربية[١].

١. يُنظر عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، م ن، ص ٦١.

وتحت وطأة التّغريب المفروض، بدأ تعليم العربية يتدحرج ويتقهقر حيث انتقل من أساتذة تونسيين إلى فرنسيين، وتقلصّ عددهم، فقد نقص العدد من سبعة إلى ثلاثة فقط بالمدرسة الصادقية، فساءت أحوال اللّغة العربية بشكلٍ ملحوظ، ولا يجد التّونسيون سبيلاً أمامهم إلاّ التّظاهر والإضراب والمطالبة بإعادة الاعتبار إلى الثّقافة الوطنية، وقد عبّر Victor Piquet[1] عن غطرسة الاستعمار ومحاولة فرضه للغة الفرنسية بقوله: «يبدو أنّ فرنسة السكان التونسيين هي على أسرع ممّا ينبغي»[2].

لقد مرّت مدّةٌ من الزمن الاستعماري على البلاد التونسية أطبقت اللّغة الفرنسية قبضتها على التّعليم عامّة، ولم يجد التونسيون سوى شيخٍ مؤدّبٍ أعمى يُناهز الثمانين من عمره يعلّم البنات الصغيرات القرآن رمزًا للمحافظة على تعليم اللّغة العربية[3]. ولكن الشعب التّونسي كان واعيًا تمام الوعي برغبة الاستعمار الفرنسي في القضاء على اللّغة العربية رمز الذّاتية والهوّية. فقد عمد هذا الاستعمار إلى تدنيس إنسانية الفرد التّونسي وإفساد شخصيته من خلال ممارسته الدّالة على عُقدة التّفوق العنصري والتّعصب الأعمى، والميل إلى الانتفاع والربح وتحقيق المصالح الشخصية لإماتة الضمير وروح العدالة في الشعب التّونسي، وكلّ ما يمت إلى الأخوة الإنسانية، ويقضي على مظاهر الاعتزاز بالفكر واللّسان، وهو ما دعّم روح الدفاع عن الذّات والحرّية والعدالة والهوّية والكرامة[4] ، وإذا كانت الحالة التّربوية زمن الاستعمار على هذه الحالة فهل تغيّرت أوضاعها بعد الاستقلال؟

٣-الوضعية التّربوية في التّعليم الزّيتوني بعد الاستقلال

مثّل موضوع إصلاح الأوضاع التّعليمية مشغلاً جوهريًا عند ثلّةٍ من المثقّفين والعلماء إثر استقلال البلاد التّونسية، ومن أبرزهم محمّد الطاهر ابن عاشور (ت١٩٧٣م) وابنه محمّد الفاضل (ت ١٩٧٠م)، فقد ألّف الأب كتابًا مهمًّا بعنوان: (أليس الصبح بقريب؟)، ضمنّه مشروعه الإصلاحي المتعلّق بتطوير الجامعة الزّيتونيّة من حيث مضامين الدّراسة ومناهجها، وألّف الابن كتابًا بعنوان:

١. هو كاتب فرنسي ولد سنة ١٨٧٦م، وتوفي سنة ١٩٦٥م، نذكر من مؤلفاته: الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا: تونس، الجزائر، المغرب، أُعيد طبعه سنة ٢٠١٨ م، من منشورات Forgotten Books.

2. Victor Piquet, La Colonisation Française Dans l'Afrique Du Nord:Algérie, Tunisie Maroc, Forgotten Books, Paris, 2018, P152.

٣. يُنظر عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، م ن، ص ٦٥.

٤. يُنظر علي البلهوان، تونس الثائرة، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط ١، ٢٠١٨م، ص ٨.

(لحركة الأدبية والفكرية في تونس)، رسم فيه ملامح الثّقافة التونسية قديمًا وحديثًا مُركزًا على دور العلماء في التّصدّي لمحاولات الاستعمار الرامية إلى طمس الهويّة اللّغوية والدّينية[١]، علمًا بأنّ محمّد الطاهر ابن عاشور قد تحوّل من عضوٍ في نظارة الجامع - الجامعة إلى عميد كليّة الشريعة وأصول الدّين في ثوْبها المدني الجديد في مطلع الاستقلال بإحدى ضواحي العاصمة، وفي كتابه المذكور، نوّه بأصالة اللّغة العربية وبقيمة العلم ودوره في تقدّم البلدان والأمم، وما يوفّر للإنسان من سعادة الدنيا والآخرة فضلاً عن صلاح الذّات ونيْل الكمالات، والعلم نبض الحياة لا يخلو زمنٌ منه على اختلاف درجاته، فبدا هذا الشيخ صاحب تجربةٍ عمليةٍ ميْدانيةٍ وذا معرفةٍ نظريةٍ بالمسألة التّربوية، وعليه ازداد عدد الطلاب في عهده، وظهرت الصرامة في مستوى التّدريس والتقييم، كما بدت الجودة في النظام التّربوي الّذي عمل على إرسائه.

إنّ الجهود الإصلاحية في بداية الاستقلال التونسي مثّلت استمرارًا طبيعيًا لمحاولاتٍ قديمةٍ بذلتها حركة (صوت الطالب الزّيتوني) في عدّها أنّ الشعب الجاهل هو الّذي يسهل استلابُ عقله، وأنّ الجاهل بلغته لا هوية له، «فعندما يكون التّدريس إبداعيًا، يمكننا أنْ نتوقع حدوث أنماطٍ عديدةٍ من التّعلّم مثل تعلّم الحقائق، والنظريات والأساليب»[٢]، لذلك حرصت نخبةٌ من الوطنيين على تأسيس مدارس قرآنيةٍ حديثةٍ تُعنى بالقرآن ولغته، كما رغبت في نشرها على كامل التراب التونسي لمنافسة التّعليم الّذي خلفه الفرنسيون[٣]، فتخرّجت دفعاتٌ تتقن اللّغة العربية، وقد تزايدت هذه المعاهد بنمو الحركة التّعليمية والثّقافية بحيث شملت البنين والبنات، وتوسّعت رقعة هذه الفروع فشملت كلّ تراب القطر التّونسي وتجاوزته إلى الجزائر الشقيقة حتّى بلغت في جملتها خمسةً وعشرين فرعًا، وتزايد عدد الطلاب إلى حدود عشرين ألفًا، وكان التّعليم محدّدًا بسن الخامسة عشرة، وكان المرور من المرحلة الابتدائية إلى الثانوية مميّزًا بالصرامة.

وقد ازداد التّعليم نجاعةً إثر المراجعة الإصلاحية المشار إليها زمن محمّد الطاهر ابن عاشور، فبالإضافة إلى مجانية التّعليم والإقامة كان الطالب يتمتّع بمنحةٍ محترمة، وكانت مداخيل الزّيتونة ترد من الهبات والأوقاف، وتدريجيًا تحوّلت فروع الزّيتونة إلى معاهد حكومية، ومدارس إعدادية،

١. يُنظر محمد الفاضل ابن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، ط ١، ١٩٧٢، ص ٤١ وما بعدها.

٢. لومان جوزيف، إتقان أساليب التّدريس، تعريب حسين عبد الفتاح، مركز الكتب الأردني، الأردن، ط١، ١٩٨٩، ص ١٥.

3. V. Abd elmoula Mahmoud, L'université Zaytounienne et la société Tunisienne , thèse de doctorat de 3ème cycle C.N.R.S , Tunis, 1971, P118.

وأُدرجت بها اللّغات الأجنبية. وبذلك توحدّ التّعليم بالبلاد التونسية ابتدائيًّا وثانويًّا، يُختم بالحصول على شهادة الباكالوريا ثمّ التّعليم العالي، ومع ذلك بقي نظام التّعليم الزّيتوني يدرّس بالمرحلة الابتدائية، ويلتحق أبناؤه بالمعهد الصادقي، فيدرسون الفلسفة واللّغات الحيّة والرياضيات، فتوسّعت معارفهم، وسجل بذلك أبناء الزّيتونة انفتاحًا لافتًا على العلوم الحديثة.

لقد كانت الزّيتونة توفد من أبنائها فِرقًا إلى مصر والعراق ودمشق لدراسة العلوم العصرية، وكان عددهم يزداد من سنةٍ إلى أخرى على عهد الوزير محمود المسعدي الرّاغب في التّحديث والتّعصير[1]. وقد تمّ تغذية التّعليم الزّيتوني في المرحلة العالية بالمواد القانونية، وارتفع عدد المسجلين من الطلبة الزّيتونيين في شهادة الدكتوراه في الدول المتقدّمة كالولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا وبلغاريا. وقد أورد محمّد الشّاذلي النّيفر (ت١٩٩٧م)، أنّ الجامعة الزّيتونية: «قد تمّ إحداثها فيما بعد الاستقلال وتحديدًا في ٢٨ أفريل ١٩٥٦م، ترأس إدارتها العميد الشّيخ العلاّمة محمّد الطّاهر ابن عاشور، واقتُصر على أنْ تكون جامعةً مُختصةً بالتّعليم العالي، وسُمّيت الجامعة الزّيتونيّة، وبه صارت ذات خمس كليّات: كليّة الشّريعة، وكليّة أصول الدّين، وكليّة الآداب، وكليّة اللّغة العربيّة، والمعهد العالي للقراءات»[2]. والملاحظ أنّ هذا النّظام التّعليمي لم يُعمر إلاّ سنة واحدةً؛ إذ أُغلقت هذه المعاهد وسائر المؤسسات الخاصّة بالتّعليم الدّيني واللّغة العربية بمفعول الإصلاحات الجديدة سنة ١٩٥٨م.

إنّ الأمور لمّا آلت إلى الرئيس الحبيب بورقيبة بعد خروج الاستعمار سنة ١٩٥٦م، صرّح في خطابه المؤرّخ في ١٦ سبتمبر من سنة ١٩٥٨م، ببعث نظام تعليميّ جديد، وإلحاق طلبة التّعليم الزّيتوني بشعبتي التّكوين الصّناعي والفلاحي والصحّي عادًّا ذلك العلامة الدّالة على الخروج من التّخلف. وهكذا عاش التّعليم الزّيتوني ومن ورائه اللّغة العربية العطالة والإقصاء والتّهميش. وقد رغبت الدولة الوطنية في تدعيم الاتّجاه الحداثي والتخلّص من الانشداد إلى الماضي الممثّل في التّعليم الدّيني وطرقه التّقليدية ولغته الكلاسيكية، يُورد علي الزيدي في هذا الإطار ما يلي: «وأهلّ مشروع إصلاح التّعليم المذكور مبشّرًا بتحقيق آمال التّونسيين في توحيد التّعليم وتعريبه، ولو على مراحل مع شعبة (أ)، الّتي نعتت بأنّها قارّة، مقارنة بالشعبتيْن الانتقاليتيْن (ب)، و(ج). لكن عندما شكّل الحزب الحاكم في عام ١٩٦٧ (لجنة قومية للتّعليم)، ضمن لجنة الدّراسات الاشتراكية،

1. V. Abd elmoula Mahmoud, Ibid, P109.

٢. محمّد الشّاذلي النّيفر، مُختصر تاريخ الزّيتونة: الجامع والجامعة، ذكرى مرور ثلاثة عشر قرْنًا على تأسيس الزّيتونة، ضبط نصّه وعلّق عليه علي بن أحمد العلايمي، دار العلم للنشر والتّوزيع، تونس، ط١، ١٤٤٣هـ، ٢٠٢٢م، ص ٨.

وعهد إليها بتقويم مشروع الإصلاح برمّته، تبيّن أنّه لم يكن يراد للشعبة القارّة منذ البداية إلاّ أن تكون انتقالية، وأنّ مشروع الإصلاح الّذي رفع شعاري التّوحيد والتّعريب لم يحقّق أيًّا منهما، بل كان يُخفي وراءه مشروعًا مناقضًا يدعو للإبقاء على ازدواجية لغة التّعليم بتونس، وتكريس أفضلية اللّغة الفرنسية في تدريس العلوم والتقنية، وتقزيم الجامعة الزّيتونية بجعلها كليةً للشريعة ضمن جامعةٍ تونسيّةٍ تابعةٍ بشكلٍ أو بآخر لجامعة باريس»[١].

يجد الدّارس أثر السياسة الفرنسية في توجّهات الرئيس بورقيبة الّذي رأى أنّ المدخل الاقتصادي ضروريٌّ للانتفاع، وأنّ الاستثمار في العقل الكوْني أفضل من الاستثمار في التّراث، وأنّ الاقتداء بالغرب اقتصاديًا ولغويًا وفكريًا أفضل لتونس من الاقتداء بالعرب[٢].

٤-إرهاصات المواجهة واتجاهاتها

لم يقف الحراك الزّيتوني صاغرًا أمام المدّ التّغريبي، فقد عبرّ عن روحٍ نضاليةٍ إذ كان يُعلّق النهضة على اللّغة العربية ورمزيتها، وعلى الثّقافة الإسلامية وثرائها، ويُنادي بإرجاع الكلمة الأخيرة للشعب التّونسي، ويعمل على إرساء قواعد الإصلاح الضامنة لتحقيق الدّافعية في المجال التّعليمي ليكون رغبةً ذاتيةً، وهكذا أبدى الوسط الزّيتوني وعيًا جديدًا يتجاوز مقولتي الحلال والحرام إلى الحديث عن التّقدّم الماثل في المحافظة على الأصالة والتّمسك بالثّوابت الدّينية المُعبّرة عنها بلسانٍ عربي مبين، بوصفهما عماد الحضارة العربية الإسلامية، ولكنّ الطالب الزّيتوني هُمّش، وأُضعف التّكوين التّقليدي، وتمّ القضاء التّدريجي على الفروع الزّيتونية، وتحوّلت إلى معاهد حكوميةٍ، وغزتها البرامج على النّمط الفرنسي حيث تُهيمن اللّغة الفرنسية. وهكذا تحوّل النّظام التّعليمي تحوّلًا جذريًا، يقول بورقيبة مُعلنًا انتهاء التّعليم الزّيتوني واللّسان المُعبّر عنه: «وقد أردتُ فقْءَ هذا الدمل، وجعل حدٍّ للدعايات المغرضة الّتي تعتمد التّضليل باسم الإسلام ، والعروبة والدستور والدّين»[٣].

إنّ الجدير بالملاحظة في هذا المجال، هو الإشارة بموضوعية إلى غلبة المنزع التّقليدي على النّضال الزّيتوني الدّائر حوْل الأبعاد التّعبدية، والتّركيز على المسألة التّعليمية الضيقة؛ إذ سجّلت

١. علي الزيدي، دراسات في تاريخ التّعليم بالبلاد التّونسية في الفترة المعاصرة، منشورات منتدى الفارابي للدّراسات والبدائل، صفاقس، تونس، ط١، ٢٠١٤، ص٢٣٠.

٢. يُنظر لطفي حجّي، بورقيبة والإسلام الزعامة والإمامة، دار الجنوب للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٤، ص ٧٨.

٣. المنصف وناس، الدولة والمسألة الثّقافية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط١، ١٩٩٥، ص ٦٣.

البرامج التّربوية ضعفًا في الدّافعية، وتقلّصًا في المقبولية رغم نُبل الأهداف العلمية والتّحرّرية، فاكتسحها تيار الحداثة مع الحزب الجديد القادم بقوّةٍ باسم العمل والتّقدّم والإنجاز، فاستشعرت الأوساط الزّيتونية، مرّةً أخرى، قيمة المسألة التّربوية، ودور التّعليم ومركزية اللّغة العربية، إذ هالتها أزمة البرامج والكتب والتّجهيزات والإطار المدرسي، فالمناهج التّعليمية، حينئذٍ، كانت هزيلةً تغلب عليها العلوم النّقلية بالإضافة إلى خلوها من العلوم الكوْنية كعلم النّفس، والاجتماع، والفلسفة، واللّغات الأخرى بما فيها القريبة من العربية، وقد طغت النّزعة المذهبية على المواد المدروسة ما يدلّ على انخرام عقلية واضعيها[١].

وفي خصوص الكتب المعتمدة في التّدريس تجدر الإشارة إلى أنّها كانت متونًا مجترّةً ومكرّرةً لا علاقة لها بالواقع، مثل قطر النّدى، وابن عقيل، والأشموني، وقد تواصل التّدريس الزّيتوني بُعيْد الاستقلال على الأساليب نفسها المتمثّلة في الإكراه والتّلقين والحفظ ومنع الأسئلة والاستغراق في المسائل الخلافية[٢]. وعليه غابت الملكات الفكرية والنّقدية. وأمّا المدّرسون فقد كان عددهم قليلاً، وعلومهم محدودةً وتقليديةً تسميهم الحركة الطلابية بمدرّسي الكتب المطروقة، وامتحاناتهم مضطربة، واللّجان غير منسجمة المعايير، وكانت مراحل التّعليم الزّيتوني غير مترابطةٍ ولا تخصّص فيها.

إنّ هذه الوضعية المتهاوية في التّعليم الزّيتوني جعلته ثانويًا وهامشيًا، بل محلّ سخريةٍ من الحداثيين، بعد أنْ كانت الجامعة الزّيتونيّة مطلبًا وطنيًا بُعيْد خروج الاستعمار الفرنسي، وكلّ ذلك بالرغم من المحاولات الإصلاحية الّتي بذلها محمّد الطاهر ابن عاشور بربط الفروع بالجامع الأعظم، وتأسيس فروعٍ جديدة، وتوسيع نطاق التّعليم الرياضي، وإدخال مبدأ التّخصّص فيها، وجلب الأساتذة الأكفاء المختصين، وترقية برامج الامتحانات وضبط شبكة التّقييم، ومراجعة البرامج من حين إلى آخر[٣]، ما أدّى إلى ارتفاع مؤشر الدّافعية في مستوى المناهج المعتمدة في الفضاء الزّيتوني. واضح أنّ هذه الجهود الإصلاحية قد حاولت تقليص دوائر الغربة الّتي يُعانيها التّعليم الزّيتوني المرتبط أساسًا بالنّماذج التّراثية التّقليدية ما قلّل من ألقه ونجاعته، وهو أمرٌ وفّر مادّةً مساعدةً للمُصلحين للنّقد والتّحذير من السقوط الحضاري.

١. يُنظر محمّد البدوي، أمور يضحك السفهاء منها، ع ٥ بتاريخ ١٩٥١/٠١/١٩، ص ١.

٢. ينظر نصر بن علي الشريفي، النّظم التّربوية في عصر الحماية، بحث لنيل شهادة دكتوراه الحلقة الثالثة، إشراف رشاد الإمام، جامعة الزيتونة، تونس، السنة الجامعية ١٩٨٩-١٩٩٠، ص ١٩٢.

٣. ينظر محمّد الطاهر ابن عاشور، أليس الصبح بقريب؟، دار السلام، مصر. دار سحنون للنشر، تونس، ط١، ١٤٢٧ه، ٢٠٠٦م، ص ١١٨ وما بعدها.

لقد قرّرت الدّولة الوطنية التّونسية الحديثة النّهوض بالأوضاع التّربوية بطريقتها الخاصّة، معتبرة أنّها سبب المناعة الحضارية، وأدركت أنّ المعركة الحالية هي معركة دائرة بالأساس حوْل اكتساب العلم، ولذلك انكبت على التّخطيط والتّنفيذ لبرامج مستحدثة. وعليه أصدرت كتابة الدولة للتّربية كتابًا بعنوان: (الانبعاث التّربوي)، وتكوّنت لجانٌ مختصّةٌ لتنفيذ الإصلاح ومتابعة الإشراف عليه في ضوء الاستفادة من تجارب فرنسا في المجال التّربوي. ولا غرابة، حينئذٍ، أنْ يُعدّ التّعليم الدّيني السّائد بالزّيتونة تعليمًا مأزومًا من حيث المحتويات ومن حيث المناهج والطرق البيداغوجية خاليًا من كلّ نوعٍ من أنواع الدّافعية.

وعليه أعلنت الدّولة الوطنية كلمة الحقّ حوْل أزمة المسألة التّعليمية، وقد أُريد بهذه الكلمة غير ذلك، فرغبت في تطوير التّعليم فانتهجت سبيل الإصلاح القسري، فكان لا بُدّ من الانفعال بهذه الحالة بنحوٍ أربك النّمو الطّبيعي للنهضة الثّقافية والفكرية في الأوساط الزّيتونية، إذ فُرضت عليها معركة الأصيل والدخيل أو الأصالة والمعاصرة وهي ثنائية ستظلّ تفعل فعلها في الفضاء الزّيتوني بصفةٍ خاصّة، وفي الثّقافة التونسية بصفةٍ عامّة، وهي قضيةٌ تجد جذورها في صراع المنبهرين بالثّقافة الفرنسية مقابل المتمسكين باللّغة العربية وتُراثها، وإذا تمّ القبول بهذه المعركة زمن الخروج من الاستعمار فإنّه لا مبرّر لاستمرار هذا الوعي بعد عقودٍ من الاستقلال، إذ كشّرَ الغرب عن أنيابه الاستعمارية ونواياه التّخريبية.

ورغم المحاولات الإصلاحية المُتكرّرة للنّهوض بأوضاع المسألة التّربوية وعلى رأسها قضايا اللّغة العربية، فإنّ الغلبة ظلّت للعلوم النّقلية كالحديث، والتّفسير، والفقه، وعلوم القرآن الموروثة الّتي لا تُقدّم بوصفها مجرّد مداخل منهجية أبدعها العقل المسلم، بل على أنّها علوم ثابتة ونهائية ضمن مؤسساتٍ تحتاج إلى مزيدٍ من الهيكلة والتّنظيم، فتحت وطأة التّغريب لا يوجد في الجامعة الزّيتونية، على سبيل المثال، قسمٌ للّغة العربية وآدابها على غرار الجامعات الدّينية الأخرى في العالم الإسلامي، كما لا يوجدٌ فيها أقسامٌ للتّاريخ أو اللّغات أو الفلسفة، أو علم الاجتماع، أو علم النّفس، وإنّما هي مجرّد موادّ تُدرّس في نطاق المعهد الواحد بالتّوازي مع المواد الدّينية الصرفة.

لقد استمرت الأوضاع على هذه الحالة ومازالت إلى حدّ الآن، وقد قرّرت الحكومة التّونسية في ثمانينات القرن الماضي إدخال إصلاحاتٍ جذريةٍ لتأهيل بعض البرامج المستحدثة، وفتح خطط إلحاق أساتذة من خريجي كلية الآداب للتّدريس بالجامعة الزّيتونية ومزاولة التّدريس في نطاق الفلسفة والعلوم الإنسانية واللّغات الأجنبية. ففي سنة ١٩٨٧م، وبمقتضى قانون ٨٣ تحوّلت

كلية الشريعة وأصول الدّين إلى جامعة مستقلة تُسمّى (بجامعة الزّيتونة)، بمعاهدها الثّلاثة: معهد الشريعة إلى سنة ١٩٩٥م، ثمّ أصبح تابعًا لوزارة الشؤون الدّينية تونس، ومعهديْن عاليْن هما: المعهد العالي للحضارة الإسلامية، والمعهد العالي لأصول الدّين مع مركزٍ بحثيّ وهو مركز الدّراسات الإسلامية بالقيروان، وفي سنة ٢٠١٤ م، أُضيف معهد الخطابة والإرشاد الّذي أصبح في سنة ٢٠١٩ م، يُسمّى (بالمعهد العالي للعلوم الإسلامية) بالقيروان.

لقد هدفت هذه الإصلاحات إلى تطوير الوضعية التّعليمية بالجامعة الزّيتونية وإدماجها ضمن المسار الحضاري العالمي، لكنّ النّزعة الّتي ظلّت غالبةً هي النّزعة المحافظة والتّشبث أكثر بالتّراث كردّة فعلٍ على عدّ هذه المحاولات الإصلاحية في جوهرها اختراقًا لخصوصية المؤسسة وفرضًا للنّزعة التّغريبية، فتعمّق الخلاف مرةً أخرى بين مناهج تحمل اسم الحداثة وأخرى ترفع لواء الأصالة، والضحية الأساسية هو الجانب العلمي والتّكوين الطّالبي، فالجامعة الزّيتونية تُقدّم مضامين علميةً متعلّقةً بثالوث معروف بالعقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي، والطريقة الجُنيْدية، دون طرح أيّ سؤالٍ عن راهنية هذه العلوم أو نقدها أو محاولة تطويرها، وهي بذلك تُسهم من دون أن تشعر، في الجمود الفكري والخمول الثّقافي.

إنّ الجدير بالذكر هو أنّ الجامعة الزّيتونية لو عرف علماؤها كيف يتطورون ذاتيًا ويتأقلمون مع المتغيّرات الاجتماعية والثّقافية لكانت جامعتهم قاطرة المجتمع الأولى تقوده إلى برّ التّقدّم، ولاسيّما في المجال الثّقافي وتجديد الفكر، لكنّهم انحازوا إلى اجترار المناهج القديمة وتكرار المحتويات التّربوية المطروقة. وقد تضافر هذا العامل الدّاخلي مع معرقلٍ خارجيّ هو إرادة الدولة الوطنية المتمثّلة في إزاحة التّعليم الدّيني من طريق الحداثة والتّطوّر والتّغريب.

إنّ الزيّتونة الّتي تصدّت إلى المحاولات الاستعمارية الهادفة إلى المحو الثّقافي والمسخ اللّغوي لم توفّق في الصراع ضدّ الدولة الوطنية، ولم تكسب الكثير؛ لأنّ شيوخها تحصّنوا بمقولات التّراث من دون تمحيصٍ أو نقدٍ أو تطوير، وأكثر من ذلك كرّسوا جهودهم للتّصدّي لكلّ محاولةٍ تجديديةٍ ناعتين إيّاها بالمُروق والفسق، ومع ذلك يفتح الشاب الزّيتوني عينه على الثّورات الاتصاليةٍ والإعلامية الّتي تدفعه ليبذل جهودًا ذاتية للاستفادة أكثر فأكثر من ثورة المناهج الحديثة من أجل المساهمة وإنْ جزئيًا في إنتاج المعرفة وترويجها.

إنّ اسم الزيتونة يكتسب سُمعته من تاريخها المجيد في مقاومة الاستعمار والانتصار إلى المحافظة على اللّغة العربية، وإلى قيمة العلم في مقاومة الجهل، وأمّا ما يتعلّق بالمحتوى العلمي

ومناهج التّدريس فهي جوانب تشكو نقصًا كبيرًا، وتُعاني من أزماتٍ معرفيةٍ ومنهجيةٍ عويصة، وكم من معهدٍ في العالم، على قِصر مدّته، يتسنّى له الاستقلال بمناهج ورؤى خاصّة به، وأمّا حالة التّعليم بالجامعة الزّيتونية فهي على خلاف ذلك، ففي الوقت الّذي يُروّج أنّ هذا المَعْلم أقدم جامعة إسلامية لا تُرى له حصيلة علمية دالة على ذلك، ولعلّ ذلك ما دعا الغابري عبد الباسط إلى عدّ الزّيتونة تعيش حالة إغماءٍ وذهول[١].

إنّ الجامعة الزّيتونيّة «تمرّ في الحالة الرّاهنة بصراعٍ محتدمٍ بين تياراتٍ متجاذبةٍ، تُريد إرضاخها لوسائل الغزو المتنوّعة وأساليب الابتلاع لهذه الطوائف المتشاكسة بسبب تباين الثّقافات فيها، وتباعد العقليات بين طبقاتها، وتضارب التّقاليد الموروثة والطارئة في مجتمعها، واختلاف وجهة أبنائها وحيْرتهم المضطربة بين جموع الشرق والغرب»[٢]. ويبدو أنّ هذه الحيرة قد طالت كثيرًا، وتأخّرت الإجابة عنها؛ لأنّ جامعةً تعجز عن إبداع بدائل نظريةٍ خاصّةٍ تطبع توجّهاتها العلمية وتحقّق الجودة في سلم المعايير الأكاديمية العالمية، لا تُعدّ جامعةً بأتمّ معنى الكلمة. ولا غرابة في ذلك فنزعة المحافظة غَلّقت الأبواب أمام القبول بالاختلاف في التّفكير فضلاً عن القبول بإلحاق المختلف في المذهب والدّيانة كي يتمكن من التّرسيم والدّراسة.

٥-صراع الهُويّات وثنائية الأصيل والدخيل

لقد ذهب بعض الزعماء الأفارقة والكُتاب من أمثال الكاتب ياسين إلى أنّ التّغريب والفرنكفونيّة غنيمة حربٍ، وذهب بعضهم الآخر إلى أنّها طعامٌ مسمومٌ مثل إميل سيزار، وفرانس فانون ومهدي المنجرة، وعثمان سعدي، ومحمود الذّوادي، علمًا بأنّ الفرنكفونيّة نمطٌ في التّفكير بأبعاده الثّقافية، والسياسية، والتّاريخية، والجغرافية، وهي تتوزّع بالأساس على المستعمرات الفرنسية خدمةً للغة الاستعمار، وهي امتدادٌ إمبراطوريٌّ يستهدف السّيطرة في كلّ تشكّلاته لتحقيق التّفوّق على اللّغات الأخرى والأديان المغايرة[٣]، ولهذه المسألة الثّقافية بُعدٌ حضاريّ حيث يُرسم الحوار بين الثّقافات المتنوّعة ضمن الحضارة الإنسانيّة، وما يشوب هذا الحوار من مغالبةٍ وصراع، وهيمنةٍ لانعدام التّوازن في القُوى والعلاقات.

---

١. عبد الباسط الغابري، تونس العميقة، تقديم محمّد ضيف الله، الدار التونسية للكتاب، تونس، ط ١، ٢٠١٤ ، ص ٨٩.

٢. عبد الباسط الغابري، م ن، ص ١٧١.

٣. يُنظر عبد الإله بلقزيز، الفرنكوفونية: إيديولوجيا، سياسات، تحدٍّ ثقافي. لغوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠١١م، ص ٨.

إنّ التّغريب اللّغوي قد قدّم نفسه في بداية أمره على أنّه علامة تقدّمٍ وتحضر، ولكنه سرعان ما تكّشف عن فكرةٍ منظّمةٍ ومرتّبةٍ تُمهّد لاستعمار مباشر في البلاد التونسية، حيث ارتكاب الفظائع الأخلاقيّة، ثمّ تغريب ثقافي مفضوح يعمل على سلب الوعي الوطني وربط أصحابه بالدوائر الاستعمارية، وضمن هذه المرحلة الثّانية تندرج جهود الحبيب بورقيبة في اقتراحه على شارل ديغول بتأسيس الجبهة المغاربيّة الفرنكفونيّة لتمتين الرّابطة الثّقافيّة بشرط الحصول على الاستقلال. والطّريف في هذا المجال، أنّ التّاريخ السنوي لاحتفال المنظمة الفرنكفونيّة بتأسيسها هو ٢٠ مارس الموافق لذكرى استقلال البلاد التونسية.

لقد بدت محاولات الاستعمار الفرنسي جلّيةً في فرض اللّسان الفرنسي منذ وقتٍ مبكر، وقد رَبط بين الاقتصاد والسّياسة والثّقافة من أجل إلحاق البلاد التونسية بالإمبراطورية الفرنسية عبر الاندماج الثّقافي. وقد بدا الصّراع الثّقافي على أوجه بعد الحرب العالمية الثانية على أنّه واجهة الهيمنة بين الأنجلوسكسونيّة والفرنكفونيّة. فقد حرص الرئيس بورقيبة على الفرنكفونيّة نكايةً في جماهيريّة عبد النّاصر الزّاحفة من مصر والرّافعة لشعار العروبة والعربية، وهذه الظّاهرة تعبّر عن انتقالٍ من استعمارٍ مباشرٍ غاشمٍ إلى استعمارٍ ناعم. فالمكاسب لا تكاد تُذكر، فكما دخلت فرنسا باسم الحماية تواصل حضورها باسم التّحضّر والتّقدّم، فهي شكلٌ ثقافيّ يغلّف الاستعمار، وقد تمّ استغلال توهّج اللّغة الفرنسيّة ساعة الثّورة الفرنسيّة بقيمها الّتي تبدو تنويرية وإنسانية كالحرية والعدالة والأخوّة. وهكذا تحوّل الغُنم إلى غُرمٍ مسمومٍ بالمركزيّة والتّفوّق والرّغبة في النّهب والسّيطرة. ولا أدلّ على ذلك من فرض اللّغة الفرنسية في البرامج التّعليميّة في ضوء علاقة السّيطرة والتّسلّط. وإزاء هذه الظاهرة تباينت المواقف بين القبول كغسّان التّويني، والرّفض مثل محمود الذّوادي الّذي يعدّها علامة تخلّفٍ ثقافيّ وقيميّ من شأنها غرس مركّب نقص[١].

لقد جسّد التّغريب اللّغوي الحالة الشّوفينيّة المعادية للثّقافة العربية الإسلامية في البلاد التونسية من خلال محاولة تغلغله في الأذهان بطريقةٍ ناعمةٍ ما يُحيل على غزوٍ لغوي، يُخفي العداوة للّغة والدّين المغايريْن، وقد بدا ذلك من خلال المخطط الاستعماري المُتجسّد في تغذية النعرات بين الأعراق والأقليّات، والتّرويج للفرنسيّة باسم الحريّة والاستقلال.

لقد عمل الاستعمار الفرنسي على تغذية الصراع بين الفرنسية الدخيلة والعربية الأصيلة من

١. يُنظر محمود الذوادي، ضعف المناعة اللغوية والهوية المرتعشة في المجتمعات المغاربية، دار النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط ١، ٢٠١٨م، ص ٣٠ وما بعدها.

خلال تهميش التّعليم الدّيني القائم على اللّغة العربيّة مقابل تدعيم اللّغة الفرنسيّة، ما جعل التّعليم أداةً في خدمة المشروع الاستعماري. وذلك كلّه يكشف عن زيف ادّعاء التّعاون الثّقافي بدليل إصدار قانونٍ يعاقب تمجيد الاستعمار ٢٠٠٥م، وبالإضافة إلى أنّ فرنسا تندّد بالنّازية والمحرقة وتمجّد استعمارها الغاشم الماحي للهويّة والشّخصية، والغريب أنّ فرنسا حسب المهدي المنجرة، على سبيل المثال، ليست معترفةً بجرائمها، بل مصرّة على طغيانها وجرائمها الماثلة في غرس القابليّة للاستعمار[١].

إنّ التّغريب اللّغوي كالاستشراق تمامًا، فهو صناعةٌ أوروبيّة، وهو جهازٌ ثقافيّ عدوانيّ يُخفي ما لا يُظهر، وهو يحاول إحكام قبضته على المستعمرات من خلال استخدام الضّغط المالي عبر بنك فرنسا وعبر الاقتصاد المهيمن المنّادي ظاهريًا، بالتّعاون، والخطر في هذه السّياسة الاستعماريّة التّعويل على صناعة العقول والذّهنيات انطلاقًا من التّعويل على البرامج الدّراسيّة تحت غطاء التّعاون والشراكة في هذا المستوى، وقد تخصّصت لتنفيذ هذا الأمر منظمّات وإدارات ووكالات للتّدريب والتّكوين، وقد رُصد لذلك قدرٌ كبيرٌ من الأموال، ولا غرابة أنْ تكون النّتائج كلّها لصالح الأوساط الاستعمارية حيث نجد التّفقير المادّي والمعنوي للشّعب التونسي، والغنى بأنواعه للشعب الفرنسي.

إنّ التّغريب اللّغوي، سياسة تتجلّى في مستوياتٍ عديدةٍ منها الدّيبلوماسي والثّقافي والتّعليمي والاقتصادي والمالي والاستثماري، وتهدف كلّها إلى ضمانٍ المصلحة الفرنسيّة المادّيّة والمعنويّة. لقد خاضت العربية معارك حاسمةً ضد لغة الاستعمار، وعرفت فترات من القوّة استمدتها من رغبة في التّعريب بدت كإرادةٍ سياسيةٍ مُحتشمةٍ عند بعض المثقّفين التونسيين الّذين وصلوا إلى أجهزة السلطة، علمًا بأنّ اللّغة العربية هي بمنزلةٍ جهاز المناعة المدافع الأوّل على الحضارة العربية في وجه التّغريب الّذي يعدّه محمود الذوادي داءً، ويُسّميه بضعف المناعة اللّغوية[٢].

لقد مثّل الفضاء التونسي، قُبيْل الاستعمار وبعده، مسرحًا للعبة المخاتلة والتّآمر والمخادعة بين السلطان من جهة، ورجل الثّقافة من جهةٍ أخرى، إذ تمّ التّراجع عن تدريس الشعبة (أ) المعتمدة على العربية في الابتدائي والثّانوي فترة وزير التّعليم محمود المسعدي، لصالح الشعبة (ب) القائمة

١. يُنظر المهدي المنجرة، الإهانة في عهد الميغا إمبريالية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٤م، ص ٦٩. ويُنظر كذلك مالك بن نبي، ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعيّة) تعريب عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ١٩٧٤م، ص ٣٨.

٢. يُنظر محمود الذوادي، ضعف المناعة اللغوية والهوية المرتعشة في المجتمعات المغاربية، م ن، ص٦٠.

على الثنائية اللّغوية، والنّتيجة الحاصلة من ذلك تمثّلت في إيجاد جيلٍ معوّقٍ في مستوى الثّقافة واللّغة والفكر، وما من شكّ في أنّ اللّغة لا تتطوّر ولا تتجدّد إلاّ إذا تفاعلت إيجابيًا مع الثّقافات السّائدة بعيدًا عن الغصص اللّغوية ومركبات النّقص على حدّ عبارة محمود الذوادي، علما بأنّ التّحرير الحقيقي يمرّ حتما بالتّحرّر اللّساني[١].

الخاتمة

لقد حاول هذا البحث الحفر في المسألة التّربوية الّتي اضطلعت بها المؤسسة التّربوية الزّيتونية، سواء زمن الاحتلال الفرنسي أم زمن الاستقلال، بوصفها مجالاً حيّويًا يعكس الحالة اللّغوية الّتي كانت عليها العربية من رغبة في التّطوّر من جهة، والتّصدّي لمحاولات التّغريب الثّقافي من جهةٍ أخرى. وإذ لوحظت ملامح الصراع الّذي كان على أشدّه بين أنصار اللّغة العربية وأنصار الفرنسية زمن الاستعمار وبعده، فإنّ الاستعانة باستقراء تاريخ المسألة التّعليمية والتّربوية بات عملاً ضروريًا. ففي الحال الّذي كانت الأوضاع التّعليمية والتّربوية تُعاني في ظلّ مخطط الاستعمار من تهميشٍ وتفريغٍ من المحتويات الجادّة والمفيدة إنْ في مستوى المحتويات، وإنْ في مستوى طرائق الأداء، ظهرت حركةٌ طلابيةٌ تفضح هذه الممارسات وتُنادي بإصلاح التّعليم الزّيتوني، وبالفعل انفتحت أبواب المؤسسة أمام أبناء الجهات النائية والآفاق، وتعدّدت الفروع الزّيتونية في أغلب الجهات، وتمت مراجعة بعض المواد وتحسين تدريسها.

وقد لقيَ الإصلاح التّربوي هونًا في عقول بعض رجال السياسة والعلم قبل الاحتلال الفرنسي وبعده، إذ تواصلت هذه الجهود الإصلاحية بعد الاستقلال إلاّ أنّ غلبة المشاريع التّحديثية والتّغريبية بقرارٍ من دولة الاستقلال اقتضت القضاء على استقلالية المؤسسة، إذ أُلغي نظام الأوقاف والأحْباس، وأُلحقت الزّيتونة بالنّظام التّعليمي الجامعي الرسمي، ومع ذلك كانت النّزعة المحافظة هي الغالبة حيث كان الانتصار إلى العلوم النّقلية هو الطاغي على العملية التّربوية إلى أنْ تدخلت الحكومة التّونسية في أواخر ثمانينات القرن الماضي، وأدخلت في المناهج التّعليمية العلوم الكوْنية والإنسانية، وأُلحقت بالجامعة الزّيتونية أساتذة من تكوينٍ مغايرٍ، وهم خريجو كلية الآداب، فتمّ التّلاقح، وأُدرجت موادّ لم تكن معهودةً من قبل، وبدأت المناهج الحديثة والمقاربات المستجدة تجد طريقها نحو تعميم الإفادة للحصول على مردودية جديدة.

١. يُنظر كمال السّاكري، الفرنكفونيّة فرس رهان أم حصان طروادة، منشورات الأفق، تونس، ط ١، ٢٠٢٢، ص ٢٧٥ وما بعدها.

إنّ الوضع الّذي عاناه التّعليم الزّيتوني هو جزءٌ من وضع المجتمع بأسره، الذي كان تحت استعمارٍ غاشمٍ معادٍّ للّغة العربية وللثّقافة الإسلامية، ودولةٍ متغربةٍ تُراهن على اللّحاق بركب الحضارة، وكأنّ الحضارة واقفة بانتظار المجتمعات الضعيفة. وهذا الهجوم المزدوج على اللّغة العربية من جهة وعلى المضامين التّربوية المحافظة من جهةٍ أخرى، هو المفسّر لردّة الفعل من قبل الزّيتونيين خوفًا على الهويّة، واللّغة، والدّين.

إنّ الجدير بالملاحظة، أنّ الثّقافة لا تتطوّر إلاّ بالإبداع والإنتاج، والّذي لابدّ من الإشارة إليه، في التّجربة التونسية، أنّ توحيد التّعليم ليس بالضرورة أمرًا ناجعًا، فهو عاملٌ يقضي على التّنوع والاختلاف، ويبدو أنّه إجراءٌ فوّت على البلاد التّونسية حيازة قطبٍ علميّ يُغري الكثيرين من مختلف القارات للإقبال على الدّراسة فيه.

لائحة المصادر والمراجع

أ) المراجع باللغة العربية

١. ابن نبي مالك، ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعيّة)، تعريب عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ١٩٧٤م.
٢. ابن عاشور محمّد الطاهر، أليس الصبح بقريب؟ دار السلام، مصر- دار سحنون للنشر، تونس، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
٣. ابن عاشور محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، ط ١، ١٩٧٢.
٤. ابن أبي الضّياف أحمد، إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، ١٩٩٩م.
٥. البدوي محمّد، أمور يضحك السفهاء منها، ع ٥ بتاريخ ١٩٥١/٠١/١٩م.
٦. بلقزيز عبد الإله، الفرنكوفونية: إيديولوجيا، سياسات، تحدٍّ ثقافي- لغوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠١١.
٧. البلهوان علي، تونس الثائرة، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط ١، ٢٠١٨م.
٨. بيار بورديو، العنف الرمزي، تعريب نظير جاهل، المركز الثّقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٤م.
٩. الثعالبي عبد العزيز، تونس الشهيدة، تعريب سامي الجندي، دار القدس، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٧٥م.
١٠. تونس العميقة، تقديم محمّد ضيف الله، الدار التونسية للكتاب، تونس، ط ١، ٢٠١٤م.
١١. حجّي لطفي، بورقيبة والإسلام الزعامة والإمامة، دار الجنوب للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٤.
١٢. الذوادي محمود، ضعف المناعة اللغوية والهوية المرتعشة في المجتمعات المغاربية، دار النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط ١، ٢٠١٨م.
١٣. الزيدي علي، دراسات في تاريخ التّعليم بالبلاد التّونسية في الفترة المعاصرة، منشورات منتدى الفارابي للدّراسات والبدائل، صفاقس، تونس، ط١، ٢٠١٤م.
١٤. السّاكري كمال، الفرنكفونيّة فرس رهان أم حصان طروادة، منشورات الأفق، تونس، ط ١، ٢٠٢٢م.
١٥. الشريفي نصر بن علي، النّظم التّربوية في عصر الحماية، بحث لنيل شهادة دكتوراه الحلقة الثالثة، إشراف رشاد الإمام، جامعة الزيتونة، تونس، السنة الجامعية ١٩٨٩-١٩٩٠م.
١٦. عبد الوهاب حسن حسني، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التّونسية، مكتبة المنار، تونس، ط١، ١٩٧٢م.
١٧. العبيدي أروى، ١٢ ماي ١٨٨١ م، يوم صارت تونس ملكًا لفرنسا، مقال إلكتروني تحت الرّابط التالي: Inku.be ، تاريخ النشر ١٢ ماي ٢٠٢٢م، تاريخ الدخول ٣ سبتمبر ٢٠٢٤م.

١٨. الغابري عبد الباسط: صوت الطالب الزيتوني: حركة ثقافية سياسية، مركز النشر الجامعي، منونة، تونس، ط١، ٢٠١١م.
١٩. المنجرة المهدي، الإهانة في عهد الميغا إمبريالية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٤م.
٢٠. النّيفر محمّد الشّاذلي، مُختصر تاريخ الزّيتونة: الجامع والجامعة، ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنًا على تأسيس الزّيتونة، ضبط نصّه وعلّق عليه علي بن أحمد العلايمي، دار العلم للنشر والتّوزيع، تونس، ط١، ١٤٤٣هـ، ٢٠٢٢م.
٢١. وناس المنصف، الدولة والمسألة الثّقافية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط١، ١٩٩٥.
٢٢. الهذلي عبد الرحمان، جمعية الشبان المسلمين بتونس والحركة الوطنية ١٩٣٦-١٩٥٩م، مركز الدّراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ط١، ٢٠٢٢م.

ب) المراجع باللغة الأجنبية

23. -Abd elmoula Mahmoud, L'université Zaytounienne et la société Tunisienne , thèse de doctorat de 3ème cycle C.N.R.S , Tunis, 1971.

24. -Piquet Victor, La Colonisation Française Dans l'Afrique Du Nord:Algérie, Tunisie Maroc, Forgotten Books, Paris, 2018.

25. -Taylor A.J.P, Bismark : The Man and the Statesman, Penguin Books, London, 1966.

قراءات علمية

يتناول هذا الباب قراءات علمية في مشاريع او كتب او اعلام مناهضة للاستعمار او مدافعة عنه بغية إعطاء صورة واضحة للقارئ عن المشهد الاستعماري.

دور السَّيِّد محسن الأمين في مواجهة الاستِعمار الفرنسي لسوريَّة

د. مرح رافع البرغش

الدبلوماسية الروحيّة والمخطّط الإبراهيميّ المشروع الاستعماري الجديد

د. هبة جمال الدين

دور السَّيِّد محسن الأمين في مواجهة الاستِعمار الفرنسي لسوريَّة

مرح رافع البرغش[1]

الملخص

شهدت الأراضي السوريَّة تطوُّرات وأحداثًا محورية في الميادين: السِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، وكذلك في المُقوِّمات الفكريَّة والثَّقافيَّة، ولا سيما مع ابتِداء توغُّل القوَّات المسلَّحة الفرنسيَّة نحو هذه الأراضي وانتهاج السُّلطات الفرنسيَّة سياسةً استعماريَّةً متفاوتةً في تأدية مخطَّطاتها محقِّقةً في ذلك قسمًا من أهدافها السِّياسيَّة والاقتصاديَّة، فقابلت مُعارضة ومُقاومة ضخمة، وامتد النِّضال إلى ما هو أبعد من القوَّات العسكريَّة السوريَّة والمُجاهدين الثُّوَّار ليشمل شرائِح المُجتمع برمّته بما فِيهم السَّادة العُلماء، مما أدى إلى: مُناهضات، وثورات، ومعارك، وحركات كفاحيَّةٍ مسلَّحةٍ وسلميَّةٍ.

لذلك فإنَّ هذا البحث سيكشف ويُوضِّح الأدوار الرَّائدة والإسهامات العظيمة لأحد أبرز أساطين العلم في عصره، العالم الموسوعي المُصلح السَّيِّد محسن الأمين في مُقارعة الاستِعمار طوال حياته ساعِيًا إلى نُهوض الأمَّة العربيَّة والإسلاميَّة ورفعتها، وهُنا سيتمُّ التَّحدُّث بإيجاز عن: مولده، ونشأته، ومؤلفاته، وآثاره، ومن ثمَّ الحديث عن أدواره: (السِّياسيَّة، والدَّعويَّة، والثَّقافيَّة، والاقتصاديَّة) في أثناء الانتداب الفرنسي على سوريَّة وعمَّا آلت إليه من نتائج إيجابية انعكست على نطاق واسع، وحقَّقت تلك الأهداف السَّامية، وانتهى البحث إلى خاتمة تضمَّنت أبرز النَّتائج.

الكلمات المفتاحية: السَّيِّد محسن الأمين، سوريَّة، فرنسا، الانتداب الفرنسي.

١. متخصصة في التاريخ الحديث والمعاصر- جامعة دمشق/ سورية.

المُقدِّمة:

لقد أدَّى تدهور الأوضاع السِّياسيَّة في الأراضي السُّوريَّة خِلال مرحلة الانتداب الفرنسي إلى اندلاع ثورات ومعارك واسعة النِّطاق، ممَّا دفع مُختلف شرائح المُجتمع إلى الانخراط في حركات نضاليَّة وكفاحيَّة مُسلَّحة وسلميَّة إبَّان سنوات الانتداب الفرنسي، وأدَّى السَّادة العُلماء دورًا عظيمًا في دعم الوحدة الوطنيَّة وتعزيز سبل الاستقلال والحرّيّة، وانتهجوا نهجًا مُتوازنًا في السَّعي إلى حماية البلاد وتطويرها ودعمها في مُختلف المَجالات: السِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والثقافيَّة بشكلٍ مباشر أحيانًا، وبشكلٍ غير مباشر في أحيان أخرى.

لذلك وبناءً على جُهود السَّادة العُلماء الحثيثة والمضنية ضد المساعي الاستعماريَّة الغربيَّة، فإنَّ إشكاليَّة البحث تتمحور حول تَوْضِيح إسهامات أحد أبرز العلماء، وهو العالم الموسوعي والمُصلح الديني السَّيِّد محسن الأمين الذي لم تبعده المشقَّات والصِّعاب عن النِّضال الوطني، بل جعلته أكثر عَزمًا وتصميمًا على السَّير نحو مُقاومة السِّياسة الفرنسيَّة الرَّامية إلى تجزئة الهويَّة العربيَّة والإسلاميَّة وإثارة التَّفرقة والنِّزاعات الطَّائفيَّة.

وهكذا فإنَّ أدوار السَّيِّد محسن الأمين ضد السُّلطات الفرنسيَّة في الأراضي السُّوريَّة هي محور هذا البحث، والهدف من ذلك فهم جُهوده في مُقاومة الاحتلال الفرنسي، وأثر ذلك في حياة أبناء المُجتمع، في حين يكتسب البحث أهمّيّته من تركيزه على إسهامات السَّيِّد الأمين، وبالمُقابل تركيزه على أحداث وجوانب مُختلفة، بما في ذلك التَّطوُّرات السِّياسيَّة المُؤدِّية آنذاك إلى المُقاومة المُجتمعيَّة ضد الانتداب الفرنسي، وعمَّا نتج من أدوار السَّيِّد الأمين الرِّياديَّة، كما يكتسب البحث أهمّيّة مُضافة من ضرورة رفد تخصُّص التَّاريخ الحديث والمُعاصر والمكتبات في الوطن العربي بأبحاث تسلِّط الضَّوء على سِير العُلماء وإسهاماتهم في حماية الوطن والدِّفاع عنه؛ لاستخلاص الدُّروس والعبر وتنشئة أبناء المُجتمع على نهجهم، والسَّير على خُطاهم، وغرس الأخلاق الفاضلة في المُجتمع، مع الأخذ بالحسبان ارتباطها بالظُّروف الزَّمنيَّة والمكانيَّة، أي: في السِّياق التَّاريخي والجُغرافي، وبطبيعة التَّحدِّيات التي تواجه الأمَّة العربيَّة والإسلاميَّة.

أمَّا منهج البحث، فقد اتُّبِع المنهج التَّاريخي والتَّحليلي بعد جمع المعلومات ذات الصِّلة بالبحث وفرزها وتصنيفها بحسب خطة البحث، ومن ثمَّ تحليلها، مع الاعتماد على مجموعة من: المصادر الأصليَّة العربيَّة، ومنها مُصنَّفات السَّيِّد محسن الأمين ونجله، وكذلك مجموعة من المصادر المُعاصرة لمرحلة البحث وعدد من المراجع العربيَّة، ومجموعة من المجلَّات العربيَّة المُواكبة للأحداث، كما استند البحث على عدد طَفِيف من الوثائق والصُّحف والمجلَّات الفرنسيَّة، وعدد من المراجع الأجنبيَّة لإضفاء البحث بجوانب علميَّة مهمَّة.

أولًا: ومضات مُوجزة عن السَّيِّد محسن الأمين (١٢٨٤-١٣٧١هـ/١٨٦٧-١٩٥٢م):

هو أبو محمَّد الباقر محسن بن عبد الكريم بن علي بن محمَّد الأمين بن مُوسى بن حيدر بن أحمد بن إبراهيم، ويَرجِع نسبُه إلى الحسين ذِي الدَّمعة بن زيد بن علي زين العَابدين بن الحسين بن علي بن أبي طَالب عليه السلام [١].

مولده ونشأته:

وُلِد السَّيِّد محسن الأمين في قرية شقرا بجبل عامل في العام ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م[٢]، وكان والده السَّيِّد عبد الكريم بن علي الأمين رجلًا: «... تقيًّا، نقيًّا، صالحًا، صوَّافًا، قوَّامًا، طيِّب السَّريرة، حجَّ بيت الله الحرام، وزار بيت المقدس وزار المشاهد المُقدَّسة في العراق...[٣]»، أمَّا والدته، فهي ابنة العالم الجليل الشيخ محمَّد حسين فلحة الميسي، كانت مِن «... من فضيلات النِّساء، عاقِلة، صالِحة، ذكيَّة، مُدبِّرة، عابدة، مُواظبة على الأوراد والأدعية...[٤]»، وهكذا فقد كان لِلمكانة العلميَّة الرَّفيعة الَّتي حظيت بها أُسرتُه وشهرتها الواسعة الَّتي ملأت الأرجاء الفضل في تربيته وتَثْقِيفه وتشجيعه على طلب العلم[٥].

١. الأمين ١٩٨٣ ب: ص٧-٨. مجموعة من العلماء ٢٠١١: ج٣، ص٢٩٣-٢٩٤.

٢. الجبل آب ١٩٢٨: ص٢٩.

٣. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٣٤. الأمين ١٩٨٣ ب: ص٧-٨.

٤. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٣٤-٣٣٥.

٥. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٣٤

وبعدما شرع بمسيرته العلميَّة حفظ القُرآن الكريم بالتَّجويد، مع تعلُّمه الخط والكِتابة، ثمَّ واظب على مجالس العِلم وحلقات العُلماء في عددٍ من الدُّول العربيَّة والإسلاميَّة، وركَّز اهتمامه على العلوم الشَّرعيَّة، ومنها أصول الدين والفقه الإسلامي، كما تعمق بعلوم اللُّغة العربيَّة، ومنها: النَّحو، والصَّرف، والبيان، والعَروض، إلى جانب اهتمامه بعلم المَنطق، وأكمل مسيرته العلميَّة بالتَّوجُّه إلى النَّجف، وتتلمذه على أيدي أساطين العلم فيها حتَّى نال إجازة في الاجتهاد، وعند عودته إلى موطنه الأم واصل تحصيله العلمي، وانكبَّ على: المُراجعة، والمُطالعة، والتَّأليف، والتَّصنيف، وأضحى مرجعًا للطَّائفة الجعفريَّة، ومن أهم المُقلّدين في عصره، كما عمل في التَّدريس، واستفاد من علمه وخبرته طلاب العلم[١]، وحظي بشهرةٍ واسعة لتواضعه وسعة علمه وفقهه، وقد وصفه الكاتب والأديب ابن زيدون (٠٠٠٠هـ/٠٠٠٠م) في مجلَّة العرفان، قائلًا: «كانت شهرته قد انتشرت في كل صقع، ومحبَّته قد تغلغلت على كل قلب، فإنَّ الجيل القادم وما يليه سيعرف له من القدر ما لم نعرف، ويرفعه إلى منزلة لا يحتلُّ قمَّتها إلَّا العُظماء[٢]».

مؤلفاته وآثاره:

ألَّف السَّيِّد محسن الأمين كتبًا ورسائل في موضُوعات مُختلفة من ميادين العلم زادت عن المائة مصنَّف، منها اثنان وعشرون مؤلَّفًا في الفقه وأصوله، وما ينيف عن: ثلاثة كتب في أصول الدِّين، وخمسة مؤلَّفات في الأدعية والأوراد، ومؤلَّف واحد ضمن ثلاثة أجزاء في السِّيرة النَّبويَّة، وثلاثة مُصنَّفات في الأخلاق، وثلاثة كتب في اللُّغة، وكتاب واحد في البلاغة، وتسعة مؤلَّفات في الأدب، وستة مؤلَّفات في: النَّحو، والصَّرف، والبيان، وخمسة مُصنَّفات في الشِّعر، وثلاث روايات قصصية، وأربعة مؤلَّفات في التَّاريخ، وأربعة في المُفاخرات، ومؤلَّف واحد في المَنطق، وأكثر من عشرين ردًا في فن الرُّدود على: المجلَّات، والصُّحف، والكُتَّاب، وله من الرِّحلات حوالي خمس رحلات جُمعت بعد وفاته في مؤلَّف أطلق عليه «رحلات السَّيِّد محسن الأمين»، وصنَّف حوالي ثمانية وعشرين مُؤلَّفًا ضخمًا في مُختلف المجالات الأخرى، كما أولى عناية

١. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٣٦-٣٤٤. الجبل آب ١٩٢٨: ص ٢٩. حرز الدين ١٣٠٥: ج٢، ص١٨٤-١٨٥. الفحام تموز ١٩٩٢: ص٤٩٧. كحالة د.ت: ١٨٤. مجموعة من العلماء ٢٠١١: ج٣، ص٢٩٤-٢٩٥.

٢. زيدون تموز ١٩٣٨: ص٤٣٥.

واهتمامًا كبيرًا بالكتب المدرسيَّة، فألَّف أجزاء عدة مُلائِمة للمراحل التَّعليميَّة في المدارس[١].

وبقي طِوال حياته مع ما جمعه في أفق معرفته من أنواع مختلفة ومتنوعة من العلوم والأدب والفنون يؤلِّف ويصنَّف ويُخرج إلى النُّور كُنوزًا علميَّة قيِّمة ونَفيسة، وقد قال في ذلك: إنَّه وبالرغم من بُلوغه السَّادسة والثمانين من عمره ومُواجهته لوهن حالته الجسديَّة والصحيَّة، فإنَّه استمرّ في التَّأليف والتَّصنيف ليلاً نهارًا، وفي أثناء السَّفر والترحال بين المناطق وفي داره، وتابع المُساهمة في إنتاج وإخراج أعمال علميَّة ثمينة تفيد كل زمان ومكان وتهتم بقضايا وأحداث مختلفة ومتنوعة[٢].

ثانيًا: مقاومة السَّيِّد محسن الأمين الانتداب الفرنسي:

شهدت المرحلة المعنيَّة بالدِّراسة تطوُّرات وأحداثًا مصيريَّة مهمَّة في الدُّول العربيَّة عامَّةً وسوريَّة خاصةً على الأصعدة: السِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والفكريَّة كافَّة، وكان للسَّيِّد محسن الأمين دورٌ رائدٌ في رفد هذه المجالات طِوال حياته، وهنا سيتمُّ الحديث بإيجاز عن إسهاماته العظيمة في أثناء الانتداب الفرنسي على سوريَّة وعمَّا حقَّقته من نتائج.

الدّور السياسي:

لقد أظهرت شخصيَّة السَّيِّد محسن الأمين أنَّه ليس سياسيًّا أو مُتخصِّصًا بالشَّأن السِّياسي، ولم يهتم بالمناصب السِّياسيَّة ويتودَّد للسَّاسة، لكن بصفته مَرجعًا دينيًّا له مُقلِّدوه، فإنَّ اهتمامه الدَّائم والمُتواصل بشؤونهم الدِّينية والدُّنيويَّة فرض عليه أن يهتم اهتمامًا جليًّا بالقضايا السِّياسيَّة المُعاصرة، وأن يعمل على إيجاد حلول دينيَّة تخدم الوطن وأبناؤه، ولم يقتصر تدخُّله في موطنه الأم فحسب، وإنَّما امتدَّ ليشمل الأراضي العربيَّة والإسلاميَّة الَّتي شهدت مجموعة من الأحداث السِّياسيَّة عقب الحروب والنِّزاعات[٣].

واتَّضح دور السَّيِّد محسن الأمين بشكلٍ جلي في دوره السِّياسي العظيم المُناهض للاستعمار

١. الأمين تشرين الثاني ١٩٢٧: ص ٢٨٦. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٧١-٣٧٤. الطهراني ١٩٥٩: ص ٣٨٦. عبد الحميد ٢٠٠٤: ج٢، ص٨٠-٨١. العرفان ٣ نيسان ١٩٣٣: ص٦٠٥-٦٠٦. عواد ١٩٩٢: ص ١٥٦-١٥٩. ميرڤان ٢٠٠٣: ص٤٧٢-٤٧٣. نزيل سامراء ١٣٥٥: ج٢، ١٢٠، ٢٤٨.

٢. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٧١. الأمين ٢٠٠٠: ص١٩٧.

٣. الأمين ١٩٩٢: ص ١١١-١١٢. زراقط ٢٠١٢: ص ٨٨.

وسياسته، فقد أيَّد الملك فيصل الأوَّل (١٣٠٠- ١٣٥٢هـ/١٨٨٣-١٩٣٣م) عقب تنصيبه ملكًا على سوريَّة، وقاد وفدًا ضخمًا من جبل عامل إلى دمشق لتهنئته، ولم يقتصر دوره على هذا التَّأييد الأوَّلي، فعندما توغلت السُّلطات الفرنسيَّة السَّواحل السُّوريَّة أرسل وفدًا من كبار ووجهاء جبل عامل إلى دمشق؛ لتأكيد الولاء للسُّلطات المحليَّة ومعارضة مشاريع السِّياسة الاستِعماريَّة الفرنسيَّة[١].

ومن الواضح أنَّ السُّلطات الفرنسيَّة أدركت إدراكًا تامًّا مكانة السَّيِّد الأمين في المُجتمع ودوره المُؤثِّر والرِّيادي في نفوس السُّوريِّين بشكلٍ خاص، فسعت إلى استمالته جانبها بتنصيبه رئيسًا للطَّائفة الجعفريَّة في لبنان وسوريَّة، وعرضت عليه مزايا هذا المنصب الماليَّة الكبيرة[٢]، وبالرغم من جهودها، لكن وبالطَّبع، فقد باءت بالفشل بعدما رفض السَّيِّد الأمين رفضًا قطعيًّا هذا المنصب ولم يهتم بما سيُنتِج عن مُعارضة أوامر السُّلطات الفرنسيَّة، قائلًا في ذلك إنَّ: «... هذا الأمر لا أسير عليه بقدم، ولا أخط فيه بقلم، ولا أنطق فيه بفم...» [٣].

ويبدو أنَّ المسؤول الفرنسي فُوجِئ برفض السَّيِّد الأمين للعرض الفرنسي، وقال مُتسائلًا: «... النَّاس تتوسَّط للحصول على هذا المنصب، فكيف بمن يأتيه؟!» فردَّ عليه السَّيِّد عبر قوله:

«أيُّها السَّائلُ عنهمُ وعنِّي لسْت منْ قيسٍ ولا قيس منِّي»[٤].

ورغم مساعي المسؤول الفرنسي في إقناع السَّيِّد الأمين وترغيبه بالقبول والتَّمتُّع بالامتيازات الفرنسيَّة المُقدمة مع هذا المنصب الرَّفيع، إلَّا أنَّه عاد بمساعيه خائبًا بعدما أكَّد له السَّيِّد رفضه الصَّارم، وروى أنَّ الله سُبحانه وتعالى قد أغناه عن هذه المنافع الماليَّة بالرِّضا والقناعة[٥]، وحتَّى عندما حاول بعض الزُّعماء إقناعه بالعُدول عن قراره وقبول هذا المنصب مبيّنين أنَّ البلاد بحاجة إلى التَّضحية في ظل هذه الأوضاع المُتفاقمة، أجابهم قائلًا: «لا يصعب على المرء أن يُضحي بِدمه في سبيل المصلحة العامَّة، ولكنَّه لا يُضحي بِكرامته»[٦].

---

١. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٦٩. الأمين ١٩٩٨: ص٢١٤-٢١٥. مجموعة مؤلفين ١٩٥٧: ص ١٣٤.

٢. الأمين ١٩٩٢: ص ١٢١. زراقط ٢٠١٢: ص ٩٤-٩٥.

٣. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٧٠. زراقط ٢٠١٢: ص ٩٥.

٤. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٧٠. زراقط ٢٠١٢: ص ٩٥.

٥. زراقط ٢٠١٢: ص ٩٥.

٦. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٦٩. مجموعة مؤلفين ١٩٥٧: ص ١٣٦.

ولم يقتصر دوره السِّياسي على ذلك فحسب، وإنَّما ظهر دوره السِّياسي أيضًا خِلال مُتابعته الحثيثة لسير الثَّورات ضد المُستعمر الفرنسي في أثناء إقامته في قرية شقرا، وفي دعم الثُّوَّار وتقديم المَشورة والنُّصح للثُّوَّار عبر الوفود القادمة إليه من الأراضي السوريَّة، ويلحظ هذا من خِلال أحداث ووقائع عدة فندَّتها المصادر التَّاريخيَّة المُؤرِّخة للسَّيِّد الأمين[١]، فعلى سبيل المِثال: يروي المُؤلِّف حسن الأمين (١٣٢٦-١٤٢٣هـ/١٩٠٨-٢٠٠٢م) نجل السَّيِّد محسن الأمين في «مُستدركات أعيان الشِّيعة» من هذه المواقف: لِقاء السَّيِّد محسن الأمين مع وفد دمشقي في داره الكائنة في شقرا وانفرادهما معه باجتماع مُسهب لمُناقشة الاستعدادات للثَّورة وطلب المشورة السِّياسيَّة لإيصالها إلى ثوَّار الثَّورة السُّوريَّة الكبرى[٢]، كما يروي المؤلِّف «أدهم آل جندي» في كِتابه (تاريخ الثَّورات السُّوريَّة في عهد الانتداب الفرنسي) أنَّ وفدًا من حي الأمين مؤلَّفًا من سبعة أشخاص قصدوا السَّيِّد الأمين إبَّان إقامته في شقرا للتَّباحث معه في الانضمام إلى الجهاد في الثَّورة السُّوريَّة الكبرى، وبعدما أمرهم بوجوب الجهاد لُوحظت زيادة تدريجيَّة في عدد الثُّوَّار من حي الأمين، وأقبل بقيَّة سكَّان الحي إلى تقديم الدّعم المعنوي والمادّي للثوار ضد القوَّات الفرنسيَّة[٣].

ولمَّا أصدرت السُّلطات الفرنسيَّة القانون المُخصَّص لتنظيم الطَّوائف في ١٩ ذي الحجَّة ١٣٥٤هـ/ ١٣ آذار١٩٣٦م، وأُدخلت عليه تعديلات في ١٤ جمادى الآخرة ١٣٥٧هـ/ ١١ آب ١٩٣٨م والسَّاعي إلى تصعيد أطر التَّفرقة بين الطَّوائف وإثارة النِّزاعات بينهم على أسس مذهبيَّة وبما يناقض الشَّرع الإسلامي، فقد اشتدَّت الاحتجاجات من السَّادة العُلماء، فأرسل السَّيِّد الأمين على الفور احتجاجًا باللُّغتين العربيَّة والفرنسيَّة إلى المُفوَّضيَّة الفرنسيَّة في بيروت[٤] مُبيّنًا أنَّ هذا القانون يمس حُرمة الأديان السَّماويَّة[٥]، ويُفرِّق بين المذاهب الإسلاميَّة، وفي نهاية الاحتجاج طالب بصفته الرَّئيس الرُّوحي للطَّائِفة الإسلاميَّة الجعفريَّة في سوريَّة ولبنان بإلغاء القانون[٦]، فأدَّت جهوده

١. زراقط ٢٠١٢: ص ٩٧.

٢. الأمين ١٩٩٢: ج٤، ص٢٧٠. الأمين ١٩٩٩: ص ٦٦.

٣. آل جندي ١٩٤٠: ص٣٤٨.

٤. الأمين ٢٠٠٠: ص ١٨٨-١٨٩.

٥. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٧٠. الأمين ٢٠٠٠: ص ١٨٩.

٦. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٧٠. الأمين ٢٠٠٠: ص ١٨٩.

إلى إلغاء السُّلطات الفرنسيَّة هذا القانون[١]، ويدل ذلك على جهوده السِّياسيَّة الواضحة في مُقارعة السِّياسة الفرنسيَّة منذ تغلغل القوَّات الفرنسيَّة نحو الأراضي السُّوريَّة وحتَّى الجلاء.

الدّور الدَّعوي:

سعى السَّيِّد محسن الأمين في المساجد والمدارس والمجالس العلميَّة بحماس إلى توضيح أُسس الدِّين الحقيقيَّة البعيدة عن الخُرافات والأضاليل مع التَّصدي لكل ما يُحجم مدارك العقل للارتقاء بالمُجتمع الإسلامي نحو مُستقبل أفضل وأكثر إشراقًا، ولمَّا ابتدأ الانتداب الفرنسي أخذ يدعو ويحث أفراد المُجتمع على التَّطوُّع ومُقاومة الفرنسيّين، والانضمام إلى الجهاد في الثَّورات والمعارك ضد القوَّات المُستعمرة وفي مراحل النِّضال كافَّة ضدَّهم، وظهر هذا الدّور بشكل جلي في خُطبه ومجالسه المُؤثِّرة إبَّان وقائع الانتداب الفرنسي[٢]

وتكرَّرت خُطبه الدَّعويَّة في حثِّ الشبان على الجهاد خلال الثَّورات بما في ذلك الثَّورة السُّوريَّة الكبرى، وأكد أهمِّيَّة الجهاد بالنَّفس وتقديم الدّعم المَعنوي والمادِّي للثُّوَّار في سبيل الله ونصرة للوطن، وأعلن في إحدى خطبه قائلاً: «وإني أرى أهم ما نتكلَّم به، في هذا الجمع والحشد، ما فيه تشييد أمر الجهاد والمُحافظة على الوطن المحبوب ونصرة الدُّولة بـــ: اليد، واللِّسان، والنَّفس، والمال»[٣]، واستشهد أيضًا بـــ: آيات من القُرآن الكريم، والأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة، ومجموعة من أقوال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبعض أبيَّات الشِّعر المُؤثِّر؛ للتشجيع على الجهاد والمُحافظة على الوطن من أي مُستعمر[٤].

وبقي السَّيِّد الأمين طِوال مرحلة الانتداب الفرنسي على سوريَّة يدعو فِئات المُجتمع في خُطبه إلى الدِّفاع عن الوحدة الإسلاميَّة، والتَّمسُّك بها مع الابتعاد عن كل الأعمال المُؤدِّية إلى تعميق

١. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٧٠. الأمين ١٩٩٢: ص ١٢٠-١٢١. الأمين ٢٠٠٢: ج١٠، ص٤٨. زراقط ٢٠١٢: ص ٩٦.

٢. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص ٣٨٧،٣٩٣. زراقط ٢٠١٢: ص ٩٤.

٣. زراقط ٢٠١٢: ص ٩٤.

٤. زراقط ٢٠١٢: ص ٩٤.

التَّفرُّقة وتنمية التَّجزئة بمطيَّة تكوين: جماعات، وطوائف، وأحزاب، وفرق، وقال في ذلك مقُولته الشَّهيرة: «لم نزل نتخاصم على شرعيَّة الخليفة حتَّى صار المندوب السَّامي الفرنسي هو خليفتنا[١]»، وهذا ما يُوضح مدى التزام السَّيِّد الأمين بتعزيز الوحدة الإسلاميَّة وتقويتها لمُقاومة الاستِعمار.

ويؤيِّد لطفي الحفَّار (١٣٠٢-١٣٨٧هـ/١٨٨٥-١٩٦٨م)[٢] ما دُوِّنَ في السُّطور السَّابقة، فيقول: «... كنَّا نستمد قوَّة روحيَّة ورعاية واسعة، ودعوة صالحة من الإمام المُجتهد السَّيِّد محسن الأمين على عكس ما نراه من بعض الادعياء الجُهلاء...»[٣]، ويؤكِّد أنَّ السَّيِّد الأمين كان خلال كل ثورة ومعركة ضد القوَّات الفرنسيَّة: «... يدعو للثّبات والتَّضحية والإخلاص في العمل ويبارك جُهود العاملين، ويدعو لهم بالقوَّة والتَّأييد...»[٤]، ثمَّ يتحدَّث الحفَّار عن السَّيِّد محسن الأمين في أثناء اجتماعه معه جانب كبار رجال الكتلة الوطنيَّة[٥] وثلة من العلماء في المجالس المُقامة في داره، ويقول: «وكم كنَّا نانس بزيارته من حين لآخر لما نلاقي في أحاديثه المُمتعة ودعاياته الوطنيَّة المُخلصة من التَّشجيع والتَّنشيط والحث على مُتابعة الجهاد في سبيل الله والوطن، وتحقيق غايات البلاد في الحرّيّة والاستقلال والدِّفاع عن كرامة الإسلام والمُسلمين، والتَّضامن مع مختلف الطَّوائف والمذاهب، والتَّسامح، والاتحاد، ونبذ الضَّغائن، والأحقاد»[٦]، وهذا يؤكِّد الدّعم الذي قدمه السَّيِّد الأمين للسُّلطات الوطنيَّة إبَّان الإعداد والتَّخطيط لقيام الثَّورة السوريَّة الكبرى.

١. الميلاد ١٩٩٦: ص ١٦١. نصر الله ١٩٨٣: ص ١٦٢.

٢. لطفي حسن الحفَّار: وُلِد في الشاغور (في دمشق)، وتلقى العلم في المدارس وعن كبار علماء عصره، وبعد أن أتمَّ تعليمه تولى عددًا من المناصب السياسية، وانضم إلى جانب كبار السياسيين في الكتلة الوطنية لإنهاء الانتداب الفرنسي وطرد القوات الفرنسية من الأراضي السورية، وعرف بجهوده العظيمة في مقارعة الفرنسيين. الكزبري ١٩٩٧: ص٢١-٢٣، ٦٩-٦٧، ٨٥-٨٦، ١٣٣-١٣٤، ١٨٣-١٨٤.

٣. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٨٣-٣٨٤. مجموعة مؤلفين ١٩٥٧: ص ١٩٣.

٤. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٨٣-٣٨٤. مجموعة مؤلفين ١٩٥٧: ص ١٩٣.

٥. الكتلة الوطنية: ظهرت في سورية عقب انتهاء الثورة السورية الكبرى بعد اندماج حزب الاستقلال مع جزء من حزب الشعب، وكان هدف الكتلة الوطنية الوحدة الوطنية والنضال الوطني ضد القوات المستعمرة، وتحرير البلاد من أي قوى مستعمرة، وبالفعل، فقد أدت دورًا فعالًا بين الأعوام ١٣٤٦-١٣٦٥هـ/ ١٩٢٨-١٩٤٥م في مُناهضة السلطات الفرنسية؛ لطردهم من الأراضي السورية. حنا ٢٠١٨: ص١٠٩-١١٤.

٦. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٨٣-٣٨٤. مجموعة مؤلفين ١٩٥٧: ص ١٩٣.

الدّور الثقافي:

تمثل دور السَّيِّد الأمين الثقافي في خطَّته التَّطويريَّة والإصلاحيَّة السَّاعية إلى النَّهضة وإحياء الدِّين وتطوير جدي في المجالات: الدِّينية، والاجتماعيَّة، والثَّقافيَّة، والتَّعليميَّة، والتَّربوية، مُؤكِّدًا في ذلك حق الأمة العربيَّة والإسلاميَّة بالتَّمتع في الحرّيّة والسِّيادة، وكاشِفًا لحقيقة السُّلطات الغربيَّة وسياستها التَّغريبيَّة الاستِعماريَّة، مع خوضه معارك عظيمة ضد التَّخلُّف والبدع، وضد أي مُؤثرات غربيَّة استعماريَّة، وحرص إبَّان حياته وخاصَّة في مرحلة الانتداب الفرنسي على تدريس علوم اللُّغة العربيَّة وآدابها في المجالس والتَّجمُّعات، والحث على دراستها كوسيلة لمُواجهة تأثير الأفكار الغربيَّة وانتشار اللُّغة الفرنسيَّة، وقد ألقى مُحاضرات عدَّة تسلَّط الضَّوء على أهمِّيَّة اللُّغة العربيَّة على مدار العصور، واشتهرت من هذه المُحاضرات تلك الَّتي ألقاها في قاعة المُحاضرات في المَجمع العِلمي العربي بدمشق في شهر جمادى الأولى ١٣٦٤هـ/ نيسان ١٩٤٥م، إلى جانب التَّفقُّه بالدِّين[١].

وأقام مدرستي المُحسنيَّة واليوسفيَّة على أُسس حديثة، فجمع في مناهجها وطرائِق تدريسها بين ما هو مُتعارف عليه من المَناهج المدرسيَّة إلى جانب العلوم الدِّينيَّة، وأحدث جمعيَّات خيريَّة عدَّة؛ لتمويل الجوانب العلميَّة سعيًا منه في محاربة الأمِّيَّة وتعزيز التَّقدُّم الثَّقافي في المُجتمع، كما أسَّس حلقات علميَّة يوميَّة وأسبوعيَّة[٢]، وأكَّد في مؤلَّفاته فضل العلم وأهمِّيَّته، وحث على السَّعي في طلبه، وكان هدفه منها أيضًا نشر العلم في سبيل الإصلاح والوحدة الإسلاميَّة وتعميق روابط الأُلْفَة والمودَّة، والبينة على هذا تظهر في وصف الشَّيخ محمَّد هاشم الخطيب (١٣٠٤-١٣٧٨هـ/ ١٨٩٠-١٩٥٨م)[٣] للسَّيِّد الأمين بأنَّه كان: «...واقفًا لدسائس المُغرضين وحركات الأعداء والمُستعمرين بالمِرصاد، فكان يُحذِّر في: مؤلَّفاته المُتعدِّدة، ومقالاته السَّامية، ونصائِحه القويمة، وإرشاداته الحكيمة من تفريق الصُّفوف، ويدعو إلى التَّعاون وتمتين أواصر المحبَّة والآخاء بين جميع المُسلمين والعرب...»[٤].

---

١. الأمين آب وأيلول ١٩٤٥: ص ٤٥٣-٤٦٠. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٣٨٧. زراقط ٢٠١٢: ص ٨٥-٨٧، ٩٤.

٢. الأمين ١ تشرين الأول ١٩٥٢: ص٦١٩-٦٢٠، ٦٢٢. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١٠، ص٤٢٥. زراقط ١٩٩٢: ص ١٨٢

٣. الشَّيخ محمَّد هاشم الخطيب: وُلِد في دمشق، وبها نشأ، وتتلمذ على يد كبار علمائها طالبًا العلوم الشرعية، ثمّ أقبل على الدراسة في بعض المدارس الدمشقية، ولزم دار الحديث الأشرفية، وبعد إتمام تحصيله العلمي تولى الخطابة في جامع سنان آغا جانب التدريس في الجامع الأموي. الحافظ، أباظة ١٩٨٦: ج٢، ص٧١٠-٧١٤.

٤. مجموعة مؤلفين ١٩٥٧: ص ٢٧٥.

كما عبَّر السَّيِّد الأمين في مؤلَّفاته وقصائده عن مشاعره الوطنيَّة إبَّان المعارك والثَّورات، ووجه رسالة إلى أبناء المُجتمع لمُقاومة السِّياسة الاستِعمارية الفرنسيَّة، وهذا واضِح في شعره، حيث عبر عن تأييده للثَّورة العربيَّة وقائِدها، فضلاً عن أنَّه أشاد بالملك فيصل الأوَّل في قصيدة أخرى عكست رأيه السِّياسي فيه، وعندما تغلغل الفرنسيّون في الأراضي السُّوريَّة نظم قصيدة نضاليَّة عُدت من أوائل القصائد الوطنيَّة النِّضاليَّة الَّتي تهدف إلى نقل حقيقة النِّضال الاستقلالي[١]، وجاء في القصيدة:

إنَّ الحيـــاْةَ تنـــاْزعٌ وخِصـــــام .....هيـــهاتِ ماْ بـــسوى السُّيـــوفِ سلام

والعـــدَلُ كالـــعنقـــاْءِ فينـــا والـذي..... لم ينـــفِ عـــنهُ الضَّيـــم فـــهو يُضـــاْم

قالـــوا السّـــلامُ نُريـــدهُ بفعالِنـــا..... والأمـــنُ تدركـــهُ بنـــا الأقـَــوام

إن كـــانْ هـذا أمـنُكمُ وســـلامُكم .....فـعلـى السّـلامِ تحـيـَّـةٌ وســـلام

قالـــوا الشّعـــوبُ نفـــكّها من رِقِّها..... كـــلاّ بـــل استـــعْبـــادها قـــد رامُـــوا

هبُّـــوا بني قـــحطانَ طـــالَ رقـَادُكم .....فإلامَ أنتـم غـافلـــون نـيـــــام

باسمِ الحِـماية والوِصـــاية يُـــجتَوى .....حـــقٌّ لكـــم وتـــدوسُـــكـم أقدام[٢]

وبناءً على ما تقدم يلحظ القارئ مدى اهتمام السَّيِّد الأمين بالثَّقافة وحرصه على تشجيع شرائح المُجتمع على التَّخلُّص من براثِن الاستِعمار الغاشم وأفكاره الفكرية والثَّقافيَّة الاستِعماريَّة، وتنشئة جيل مبني على الإصلاح متمسِّكًا في العلوم الدِّينيَّة وعلوم اللُّغة العربيَّة ومُتعمِّقًا بها بالدَّرجة الأولى وعلى أكمل وجه.

الدّور الاقتصادي:

للحديث عن دور السَّيِّد محسن الأمين الاقتصادي في مُواجهة الاستِعمار الفرنسي، فمن الضَّروري عرض لمحة مُوجزة عن استراتيجية تغلغل الشَّركات الأجنبيَّة، ومنها الفرنسيَّة في

١. الأمين ١٩٩٨: ص٢١٤.

٢. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١، ص٤١٥.

الأراضي العربيَّة، والقول: إنَّ فرنسا بدأت مع دخولها مرحلة الرَّأسماليَّة في نقل بعض رساميلها نحو الأراضي التَّابعة للسَّلطنة العثمانيَّة، والشُّرُوع تدريجيًا باستثمارات مُباشرة في قطاعات مُتَنَوِّعة من أجل ترسيخ نُفوذها وتعزيزه بما يتماشى مع غاياتها وسياستها الاستِعماريَّة من جهة، وتطوير التِّجارة في أراضٍ مُحددة لحاجتها الماسَّة إلى المواد الخام، وجني الأرباح الهائِلة من بيع المُنتجات الصِّناعية الفرنسيَّة الفائِضة من جهة أخرى[١].

ومن خِلال هذه الاستثمارات ظهرت شركات فرنسيَّة مُتخصِّصة بنوع محدد من الاستثمارات في إحدى مجالات الخدمات الحضريَّة والبنية التَّحتيَّة في العصر العثماني، واستمر معظمها في العمل منذ منحها الامتياز الاستثماري وحتَّى أواخر القرن العشرين[٢]، ومن هذه الشَّركات برزت شركة ترام وكهرباء دمشق (Société Tramways Et Électricité De Damas)[٣]، وشرعت بتقديم خدمات النَّقل بواسطة عربات الترام، وتأمين الكهرباء في أحياء دمشق وشوارعها، لكنَّها سعت إلى مُضاعفة أرباحها السَّنويَّة عبر استغلال شرائح المُجتمع بأكمله، والجور عليهم في رفع أسعار اشتراكات الكهرباء، ومُضاعفة رسوم التَّنقل بالترام، ممَّا أثار حفيظة الدِّمشقيّين، وأجَّج نار المُقاومة الاقتصاديَّة[٤].

1. Geyikdağı 2011: p57. Kurmuş 2007: P 86. Özdemir 2010: P 3137-. Pamuk 1987: p76.

2. Birdal 2010: P 21. Pamuk 1987: P 79.

٣. تأسست شركة الترام الكهربائي والإنارة الإمبراطورية العثمانية بدمشق (Société Impériale Ottomane De Tramways Et D'éclairage Électriques De Damas) في ٨ شوال ١٣٢٢هـ/ ١٦ كانون الأول ١٩٠٤م ومنحت امتيازًا استثماريًا من السلطنة العثمانية مدة ٩٩ عامًا؛ بهدف تقديم خدمات الترام ضمن أحياء دمشق مع توفير الكهرباء، وخاصةً الإنارة، وباشرت بعد جهود مضنية في العمل خلال العام ١٣٣٠هـ/١٩١٢م، لكن استمرارها في تقديم الخدمات السنوية والتكاليف الإضافية المترتبة على افتتاح خطوط جديدة أدى إلى فتح الشركة الباب أمام المستثمرين لتأمين رأس المال المطلوب بعد بيع السندات، مما أسفر عن دخول الرأسمال الفرنسي لتتحول الشركة تدريجيًا إلى شركة بلجيكية-فرنسية، فبُدِّل اسم الشركة في العام ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م إلى شركة ترام وكهرباء دمشق، وشرعت في رفع أسعار خدماتها؛ لتحقيق أرباح مضاعفة الأمر الذي أرهق الدمشقيين وأثارهم ضدها.

Journal Des Finances 12 Mars 1937, 70 Annee, N° 11, P 149.

Pech 1906: P: 238239-.

٤. الأمين ٢٠٠١: ص١٢٦.

Journal Des Finances 12 Mars 1937, 70 Annee, N° 11, P 149

وفي ٢١ شوَّال ١٣٥٤هـ/ ١٦ كانون الثَّاني ١٩٣٦م توجَّه وفدٌ من الكُتلة الوطنيَّة إلى دار السَّيِّد محسن الأمين، وكان الغرض من الزِّيارة التَّباحث معه بخصوص هذه الشَّركة وتبليغه بما جرى بينها وبين الدِّمشقيّين من أحداث تعسُّفيَّة، فأبدى السَّيِّد الأمين غضبه من تصرفات الشَّركة تجاه الدِّمشقيّين[١]، ثمَّ أقبل على تقديم النُّصح للحاضرين وإحداث منهجيَّة مُنظَّمة لتطبيق المُقاطعة، ونصح الوفد بتنظيم مُقاطعة لهذه الشَّركة في أنحاء دمشق، وقال: «إنَّ من العار علينا جميعًا أن تسودنا هذه الشَّركة الأجنبيَّة وتذلّنا»[٢].

وتابع كلامه في أثناء الاجتماع عمَّا سيُنتج عن هذه المُقاطعة الاقتصاديَّة، قائلًا: «إنَّني أدعو إلى أكثر من ذلك، أدعو إلى أن نتَّخذ من المُقاطعة بابًا إلى العِصيان المَدني على الفرنسيّين، فلا ينتهي إلَّا بتحقيق مطالبنا الاستقلاليَّة، وأن يكون هذا العِصيان بأن تضرب البلاد السُّوريَّة كلُّها إضرابًا شامِلًا، وأن لا ننهي الإضراب إلَّا بنزول فرنسا على حُكمنا بتحقيق الاستقلال»[٣].

حقَّقت دعوته إلى مُقاطعة الفرنسيّين اهتمامًا ملحوظًا من جانب الوفد، فشرعوا في ٢٢ شوَّال ١٣٥٤هـ/ ١٧ كانون الثَّاني ١٩٣٦م بالتَّخطيط والتَّنظيم للبدء بالإضراب ومُقاطعة المُنتجات والشَّركات التَّابعة للفرنسيّين، والشُّروع رسميًّا بالمُقاطعة فور صباح اليوم التَّالي، وفي نهاية الاجتماع وافق جميع الحاضرين على مُخطَّطات سير المُقاطعة، وبالفعل، فقد أسرع الوفد حال وصوله دمشق بإذاعة المُقاطعة ونشرها على أوسع نطاق[٤]، وهكذا فقد انطلقت رسميًا من دار السَّيِّد محسن الأمين وظهر دوره الاقتصادي البارز في انطلاق الحركة الوطنيَّة والإضراب العام ضد السُّلطات الفرنسيَّة.

وأفادت المجلَّات والصُّحف الفرنسيَّة المُعاصرة لهذه الأحداث، ومنها: مُراسلات الشَّرق (La Correspondance d'Orient) بأنَّ العديد من عربات الترام أضرمت فيها النّيران في أحياء دمشق، ونوَّهت إلى أنَّ مُقاطعة هذه الشركة جرت باسم: الإسلام، والعدالة، والحرّيّة، والاستقلال،

١. زراقط ٢٠١٢: ص ١٠٠-١٠١.

٢. الأمين ٢٠٠١: ص١٢٦.

٣. زراقط ٢٠١٢: ص ١٠٠-١٠١.

٤. الأمين ١٩٨٣ أ: ج١، ص٣٨٢. زراقط ٢٠١٢: ص ١٠٠-١٠١.

وحذَّرت من خُطورة المُقاطعة التي أعطت انطباعًا للسُّلطات الفرنسيَّة بأنَّ هناك أحداثًا خطيرة يجري الإعداد لها[١].

واستمرَّ الإضراب من ٢٣ شوَّال ١٣٥٤هـ/ ١٨ كانون الثَّاني ١٩٣٦م حتَّى ١٤ ذي الحجَّة ١٣٥٤هـ/ ٨ آذار ١٩٣٦م أرغمت السُّلطات الفرنسيَّة خِلال هذه المُدة؛ بسبب تصاعد الأحداث واشتداد المُظاهرات إلى الدُّخول في مُفاوضة مع هاشم الأتاسي (١٢٩٠-١٣٨٠هـ/ ١٨٧٣-١٩٦٠م)[٢]، فتوجّه الأتاسي إلى دار السَّيِّد محسن الأمين لطلب النُّصح والتَّوجيه إبَّان المُفاوضة، وبعد مُناقشات مُطولة بينهما، قال له السَّيِّد الأمين: «لست من المُفاوضة في شيء، ومطالب البلاد معروفة، ففاوضوا على أساسها»[٣]، ومن المُسلَّم به أنَّه كان يقصد استقلال الأراضي السُّوريَّة، ونيل الحرّيّة التَّامَّة، وإجلاء القوَّات الفرنسيَّة.

وهكذا، فقد انطلقت مرحلة المُفاوضات في ٦ ذي الحجَّة ١٣٥٤هـ/ ٢٩ شباط ١٩٣٦م بعدما توجّه وفد سوري للاجتماع مع المُفوض السَّامي الكونت دامين دي مارتيل (Damien de Martel) (١٢٩٤-١٣٥٩هـ/ ١٨٧٨-١٩٤٠م)[٤]، وبعد مُباحثات مُكثَّفة تمَّ التَّوصُّل إلى إجماع الرَّأي، حيث وافقت السُّلطات الفرنسيَّة على الاعتراف باستقلاليَّة الأراضي السُّوريَّة، والبدء بتجهيزات لإبرام مُعاهدة في باريس بهذا الشَّأن[٥]، ولم ينته الإضراب إلَّا بعد أن قبلت السُّلطات

1. Correspondance D'orient Questions Mediterraneennes 1936, Mars: 29 Annee, N° 459, P107108-.

٢. هاشم الأتاسي: وُلِد في حمص، وبها نشأ، ودرس في مدارسها، ثمَّ انتقل لمتابعة مسيرته العلمية في استانبول، وبعد أن أنهى تعليمه تولى مناصب سياسية عدة، كان من أبرزها رئيسًا للمؤتمر السوري، ورئيسًا للوزارة السورية، ورئيسًا للكتلة الوطنية السورية، ثمَّ عينَّ رئيسًا للجمهورية مدة ثلاث مرات. الزركلي ٢٠٠٢: ج٨، ص٦٥.

٣. الأمين ٢٠٠١: ص١٣٠. حسن ٢٠٠٨: ص٩٨.

٤. الكونت دامين دي مارتيل: وُلِد في باريس، وبها نشأ، وبعد إكمال تحصيله العلمي، نُصِبَ في العديد من المناصب السياسية الفرنسية حول العالم وخاصة في الصين، ثمَّ نقل إلى بيروت، وعين مفوضًا ساميًا فرنسيًا بعد هنري بونسوت (Henri Ponsot)، لمتابعة المخططات الاستعمارية الفرنسية في سورية ولبنان، وبقي في هذا المنصب من العام ١٣٥١هـ/١٩٣٣م حتى ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

Le Temps 23 janvier 1940: P3. L'œuvre Fondateur 15 Juillet 1933: N6.400, P2.

٥. زراقط ٢٠١٢: ص ١٠٠-١٠١.

الفرنسيَّة ببعض شروط السُّلطات الحكوميَّة، وأصدرت أيضًا في ٦ رمضان ١٣٥٥هـ/ ٢٠ تشرين الثاني ١٩٣٦م قرارًا تحت رقم ٢٥٦ يتعلق بالموافقة على إجراء تعديلات في أسعار جميع خدمات شركة ترام وكهرباء دمشق، ووجهت القرار إلى المُفوَّضيَّة الفرنسيَّة في بيروت للاتفاق مع السُّلطات الحكوميَّة[1]، وكان هذا الاضراب إحدى أعظم الانتصارات الَّتي أضرَّت بالسُّلطات الفرنسيَّة ومنحت الشَّعب السُّوري جزءًا من مطالبه، واستمرّوا على هذه الخطا في الدِّفاع عن حرّيّتهم واستقلالهم حتَّى الجلاء الفرنسي عن الأراضي السُّوريَّة.

ثالثًا: أهم النَّتائج التي انتهى إليها البحث:

- برز السَّيِّد محسن الأمين بإسهاماته: السِّياسيَّة، والدَّعويَّة، والاقتصاديَّة، والثَّقافيَّة الرَّائدة في مُقارعة السُّلطات الفرنسيَّة منذ بدء توغلهم نحو الأراضي السوريَّة، ولم يعرف الكلل ولا الملل، فسعى بكل طاقة وهمَّة إلى: ترسيخ الوحدة الوطنيَّة، وتعزيزها، وصونها، والدِّفاع عن قضاياها حتَّى جلاء القوَّات الفرنسيَّة، ونيل الاستقلال والحرّيّة التَّامّة، وعكس بأدواره هذه هيئة السَّيِّد والقائد العظيم حتَّى أضحى أنمُوذجًا مثاليًّا يأتمُّ به العُلماء في العالمين العربي والإسلامي.
- لقد كرس حياته في الاهتمام بمُعالجة قضايا فئات المُجتمع على اختلاف أنواعها وأصنافها مُستخدمًا نهجًا وافيًا ومُتكاملاً ومُرتكزًا فيه على مبادئ الدِّين الإسلامي ودلالاته في توطيد أُسس الإصلاح، ولم ينحصر تركيزه هذا بموقع جغرافي مُحدد، وإنَّما امتد ليشمل الأراضي العربيَّة والإسلاميَّة كافَّة.

- بذل السَّيِّد الأمين جهودًا كبيرةً في: إرشاد شرائح المُجتمع، وحثَّهم، وتشجيعهم، وتوجيههم نحو الطَّريق القويم، أي: طريق الجهاد في سبيل الله تعالى أولاً، ثمَّ في سبيل نصرة الوطن، وتوثيق أُسس التَّضامن والوحدة الوطنيَّة، وحماية الأراضي العربيَّة من أي شكل من أشكال الاستعمار، ومن أي مؤثِّرات غربيَّة استعماريَّة.

- تكلَّلت حياته بمعاركه الضَّخمة في سبيل مُحاربة: الأمِّيَّة، والتَّخلُّف، والخرافات، والأضاليل،

1. Haut Commissarıat De La République Française En Syrie Et Au Liban 30 Novembre 1936: P433.

وإصلاح المُجتمع، والحفاظ على الهويَّة العربيَّة والإسلاميَّة، وإبعاده عن الزَّيف الغربي، وقد ألَّف في سبيل ذلك مؤلَّفات ثمينة أغنت المكتبات العربيَّة والإسلاميَّة، ولا تزال مَرجعًا رئيسًا في مُختلف العلوم منذ وفاته وحتَّى الوقت الحاضر.

ـ أحبط السِّياسة الاستِعمارية والمساعي الغربيَّة، ومنها الفرنسيَّة في الأراضي السوريَّة الهادفة إلى التَّجزئة والتَّفرقة على أُسس عَشائِريَّة وطائفيّة بأدواره العظيمة في يقظة أبناء المُجتمع.

لائحة المصادر والمراجع:

المصادر والمراجع العربيَّة:

١. آل جندي، أدهم (١٩٦٠)؛ تاريخ الثَّورات السوريَّة في عهد الانتداب الفرنسي، مطبعة الاتحاد، دمشق، د.ط.

٢. الأمين، حسن (١٩٩٢)؛ مستدركات أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات, بيروت، د.ط.

٣. الأمين، حسن (١٩٩٨)؛ سراب الاستقلال في بلاد الشام ١٩١٨-١٩٢٠، رياض الريس للكتب والنشر, بيروت، ط١.

٤. الأمين، حسن (١٩٩٩)؛ حلّ وترحال ذكريات، رياض الريس للكتب والنشر, بيروت، ط١.

٥. الأمين، حسن (٢٠٠١)؛ مظاهرات وثورات وحروب عربية، دار المحجة البيضاء, بيروت، د.ط.

٦. الأمين، حسن (٢٠٠٢)؛ دائرة المعارف الإسلاميَّة الشيعية، دار التعارف للمطبوعات, بيروت، ط٦.

٧. الأمين، علي مرتضى (١٩٩٢)؛ السَّيِّد محسن الأمين سيرته ونتاجه، دار الهادي، بيروت، ط١.

٨. الأمين، محسن (١٩٨٣ أ)؛ أعيان الشيعة، حققه وأخرجه حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، د.ط.

٩. الأمين، محسن (١٩٨٣ ب)؛ خطط جبل عامل، السَّيِّد محسن الأمين: حياته بقلمه وأقلام الآخرين ، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١.

١٠. الأمين، محسن (٢٠٠٠)؛ سيرة السَّيِّد محسن الأمين وهي جزء من كتاب أعيان الشيعة، تحقيق وشرح هيثم الأمين وصابرينا ميرڤان، رياض الريس للكتب والنشر, بيروت، ط١.

١١. الحافظ، محمَّد مطيع، أباظة، نزار (١٩٨٦)؛ تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، قدم له شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ط١.

١٢. حرز الدِّين، محمَّد (١٣٠٥)؛ معارف الرجال في تراجم العلماء والادباء، علق عليه محمَّد حسين حرز الدِّين، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم، د.ط.

١٣. حسن، عبدالله الحاج (٢٠٠٨)؛ تاريخ لبنان المقاوم في مئة عام ١٩٠٠-٢٠٠٠، دار الولاء, بيروت، ط١.

١٤. حنا، عبدالله (٢٠١٨)؛ صفحات من تاريخ الأحزاب السِّياسيَّة في سوريَّة القرن العشرين وأجواؤها الاجتماعية، المركَّز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١.

١٥. زراقط، عبد المجيد (١٩٩٢)؛ الجانب الإصلاحي للعلامة السَّيِّد محسن الأمين العاملي، المصلح الإسلامي السَّيِّد محسن الأمين في ذكراه السنوية الأربعين، المستشارية الثَّقافيَّة للجمهورية الإسلاميَّة الإيرانية, دمشق، د.ط.

١٦. زراقط، عبد المجيد (٢٠١٢)؛ محسن الأمين العالم المجتهد وحركته الإصلاحية، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، مركَّز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١.
١٧. الطهراني، آقا بزرك (١٩٥٩)؛ مصفى المقال في مُصنَّفى علم الرجال، د.ن، إيران، ط٢.
١٨. عبد الحميد، صائب (٢٠٠٤)؛ معجم مؤرخي الشيعة الإمامية – الزيدية - الإسماعيلية، مؤسسة دار معارف الفقه الإسلامي, قم، ط١.
١٩. عواد، عاطف (١٩٩٢)؛ الجانب الفكري والأدبي عند العلامة الأمين، المصلح الإسلامي السَّيِّد محسن الأمين في ذكراه السنوية الأربعين، المستشارية الثَّقافيَّة للجمهورية الإسلاميَّة الإيرانية, دمشق، د.ط.
٢٠. الكزبري، سلمى الحفار (١٩٩٧)؛ لطفي الحفّار ١٨٨٥- ١٩٦٨ مذكراته، حياته وعصره، رياض الريس للكتب والنشر, بيروت، ط١.
٢١. مجموعة من العلماء (٢٠١١)؛ رسائل الشعائر الحسينية رسالة التنزيه للسَّيِّد محسن الأمين والرسائل المؤيدة والمعارضة لها، جمعها وحققها وعلق عليها محمَّد الحسون، مؤسسة الرافد للمطبوعات, بغداد، ط١.
٢٢. مجموعة مؤلفين (١٩٥٧)؛ السَّيِّد محسن الأمين: حياته بقلمه وأقلام الآخرين، حققه وأخرجه حسن الأمين، مطبعة العرفان, بيروت، د.ط.
٢٣. نزيل سامراء، محمَّد محسن (١٣٥٥)؛ الذريعة إلى تصانيف الشيعة، مطبعة الغري، النجف، د.ط.
٢٤. ميرڤان، صابرينا (٢٠٠٣)؛ حركة الإصلاح الشيعي علماء جبل عامل وادباؤه من نهاية الدُّولة العثمانية إلى بداية استقلال لبنان، ترجمة هيثم الأمين، دار النهار للنشر، بيروت، ط١.
٢٥. كحالة، عمر رضا (د.ت)؛ معجم المؤلفين تراجم مصنَّفي الكتب العربيَّة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.
٢٦. نصر الله، إبراهيم (١٩٨٣)؛ حلب والتشيع، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط١.
٢٧. الميلاد، زكي (١٩٩٦)؛ خطاب الوحدة الإسلاميَّة مساهمات الفكر الإصلاحي الشيعي، دار الصفوة، بيروت، د.ط.
٢٨. الزركلي، خير الدين (٢٠٠٢)؛ الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمسعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥.

المجلَّات العربيَّة:

٢٩. الجبل، فتى (آب ١٩٢٨)؛ السَّيِّد محسن الأمين، العرفان، مجلَّة علميَّة أدبية شهرية مصورة، لمنشئها أحمد عارف الزين، صيدا، المجلد السادس عشر، الجزء الأول.

٣٠. زيدون، ابن (تموز ١٩٣٨)؛ السَّيِّد محسن الأمين، العرفان، مجلَّة علميَّة أدبية شهرية مصورة، لمنشئها أحمد عارف الزين، صيدا، المجلد الثامن والعشرين، الجزء الخامس.
٣١. العرفان، أحد أنصار (٣ نيسان ١٩٣٣)؛ السَّيِّد محسن الأمين يخرج أثرًا جديدًا، العرفان، مجلَّة علميَّة أدبية شهرية مصورة، لمنشئها أحمد عارف الزين، صيدا، المجلد الثالث والعشرين، الجزء الرابع والخامس.
٣٢. الأمين، محسن (تشرين الثَّاني ١٩٢٧)؛ كتاب نادر، العرفان، مجلَّة علميَّة أدبية شهرية مصورة، لمنشئها أحمد عارف الزين، صيدا، المجلد الرابع عشر، الجزء الثالث.
٣٣. الأمين، محسن (آب وايلول ١٩٤٥)؛ اللُّغة العربيَّة، العرفان، مجلَّة علميَّة أدبية شهرية مصورة، لمنشئها أحمد عارف الزين، صيدا، المجلد الحادي والثلاثين، الجزء التاسع والعاشر.
٣٤. الأمين، محسن (١ تشرين الأول ١٩٥٢)؛ آراء وأنباء السَّيِّد محسن الأمين، مجلَّة المجمع العلمي العربي، المجلد السابع والعشرون، الجزء الرابع.
٣٥. الفحام، شاكر (تموز ١٩٩٢)؛ السَّيِّد محسن الأمين، مجلَّة المجمع العلمي العربي، المجلد السابع والستون، الجزء الثالث.

الوثائق الفرنسيَّة:

36. Haut Commissarıat De La République Française En Syrie Et Au Liban (30 Novembre 1936); Bulletin Oficiel Des Actes Administratifs Du Haut Commissariat, Beyrouth, 15 éme Année No 22.

الصُّحف والمجلَّات الفرنسيَّة:

37. Correspondance D'orient Questions Mediterraneennes (1936, Mars); Paris: France, 29 Annee, N° 459.

38. Journal Des Finances (12 Mars 1937); Paris: France, 70 Annee, N° 11.

39. Le Temps (23 janvier 1940); Supplément Économique. Paris: France.

40. L'œuvre Fondateur (15 Juillet 1933); Gustave Téry, Paris: France, N6.400.

المراجع الفرنسيَّة:

41. Pech, E (1906); Manuel des Societes Anonymes Fonctionnant En Turquie. Paris: France.

المراجع الإنكليزية:

42. Birdali, Muriat (2010); The Plolitical Econiomy Of Ottioman Piublic Debt Insolviency And Eiuropean Flinancial Cointrol In The Late Nineteenth Century, I.B. Taiuris Piublishers, New York: USA.

43. Geyikdağı, V. Necla (2011); Foreign Invesment In The Ottoman Empire International Trade And Relations 1854–1914, I.B.Tauris Publishers, London: UK. & New York: USA.

44. Pamuk, Şevket (1987); The Ottoman Empire And European Capitalism 1820-1913 Trade investment and production, Cambridge University Press, New York: USA.

المراجع التركية:

45. Kurmuş, Orhan (2007); Emperyalizmin Türkiye'ye Girişi, Yordam Kitap, . İstanbul: Türkiye.

46. Özdemir, Biltekin (2010); Osmanlı Devleti Dış Borçları 1854-1954 Döneminde Yüzyıl Süren Boyunduruk, Maliye Bakanlığı, Ankara: Türkiye.

الدبلوماسية الروحيّة والمخطّط الإبراهيميّ
المشروع الاستعماري الجديد

د. هبة جمال الدين[1]

الملخص

تناقش هذه الورقة قضية الدبلوماسية الروحية وتوظيفها كمدخلٍ لمخطّطٍ استعماريّ جديدٍ في المنطقة؛ ليتم توظيفها لتغيير النظرة السياسية للأديان كمصدرٍ للصراع والحلّ في الوقت ذاته، عبر صهر المشترك الديني وصولاً إلى هويةٍ إبراهيميّةٍ جديدةٍ عبر الدين والسياحة والثقافة الداعمة لمفهوم الأسرة والأخوة الإبراهيمية، لتحقيق السلام الديني العالمي، غايته الحقيقيّة إيجاد بيئةٍ فكريّةٍ ونفسيّةٍ للقبول بالمستعمر تحت ستارٍ دينيّ داخل مشروعٍ سياسيّ استعماريّ، يكفل الهيمنة والسيادة والتحكم المركزي للصهيونية اليهوديّة المدعومة من الصهيونيّة المسيحية العالمية.

في هذا المضمار، ستحاول الورقة البحث في اشتقاق الدبلوماسية الروحية وما يسمّى بالإبراهيمية كمخطّطٍ استعماريّ بأدواتٍ دينيّةٍ جديد؟ في هذا الإطار سيتم البحث في تساؤلات فرعية تتمثل في ماهية مفهوم الدبلوماسية الروحية ومرتكزات المفهوم، وهل ترتبط الإبراهيمية بوصفها نعتًا للأديان السماوية بمصطلح الدبلوماسية الروحية، وما الهوية الإبراهيمية المطروحة؟ وكيف يمكن ترجمتها؟ وما الغاية الأساسية لها؟ وهل شهدت مشروعات سياسية على الأرض منفذّة أو مطروحة تطبيقًا للمفهوم؟ وكيف يمكن عدّها مشروعًا استعماريًّا ذا مسحةٍ دينية. وتنقسم بدورها إلى قسمين، الأول يناقش مفهوم الدبلوماسية الروحية وإرهاصات ظهوره والمرتكزات المفاهيمية له، والثاني يطرح مفهوم الهوية الإبراهيمية كمرتكزٍ مهمٍّ للدبلوماسية الروحية، ومشروعات الاستعمار الجديد، وما يحمله من مشروعاتٍ سياسيةٍ على الأرض.

الكلمات المفتاحية: المخطّط الإبراهيميّ، الاستعمار الجديد، معركة هرمجدون، الدبلوماسية الروحية، مسار إبراهيم، الولايات المتحدة الإبراهيمية.

---

١. متخصصة في العلوم السياسية- بمعهد التخطيط القومي/ مصر.

مقدمة وتأصيل نظري للمفهوم:

أضحى الدين حاضرًا في خطابات الساسة في الإدارة الأمريكية الجمهورية والديموقراطية في عهدي ترامب وبايدن على التوالي كمدخلٍ للاستعمار الجديد ذي المسحة الدينية؛ للوصول لمعركة هرمجدون كغاية التاريخ كغاية تدعمها الصهيونية المسيحية؛ فنجد وزير الخارجية الجمهوري بومبيو في ١٩ يناير ٢٠١٩ يعرف نفسه في الجامعة الأمريكية بالقاهرة بالمسيحي من الكنيسة الإنجيلية، ويخاطب الجمهور قائلا «نحن جميعًا أبناء إبراهيم: مسيحيون، مسلمون، ويهود. في مكتبي، أحتفظ بالكتاب المقدس على مكتبي مفتوحا ليذكرني بالله وكلمته، وبالحقيقة»[١]، كذلك الحال بشأن الرئيس بايدن الديموقراطي يستخدم الإنجيل في كلماته المتكررة، ويقتبس نصوصه في خطاباته، كما حدث في إفطار الصلاة الوطني حيث خاطب الشعب الأمريكي بالآتي: «الإيمان يمكن أنْ يجمع البلاد معًا في وقتٍ مظلم» [٢]. ممّا يثر إشكاليةً كبيرةً حول اهتمام الساسة في الإدارة الأمريكية بالدين على الرغم من المعتاد عليه في السياسة الدولية منذ إنشاء منظمة الأمم المتحدة، وإبعاد الدين عن مجريات السياسة الدولية. ولكننا الآن أصبحنا نرى تطوّرًا جديدًا يطرح تساؤلاً مهمًّا:

«هل يمكن عدُّ استخدام تلك الإشارات تطورًا في السياسة الخارجية الأمريكية؟ هل الأمر محض الصدفة أم أنّه مؤشرٌ على إعادة استخدام الدين وتوظيفه في السياسة الدولية كحاكم في العلاقات بين الدول؟».

إنّ استحضار الدين في الخطابات السياسيّة يزيل الستار عن ظهور اتجاهٍ بين الساسة بالولايات المتّحدة الأمريكيّة توظّف فيه العبارات الدينية خلال الأحاديث والتصريحات[٣]. فقد أخذ العديد من السياسيين الأمريكان يدللون على أهمية الدين في صنع السياسة الخارجية في الوقت الراهن؛

---

١. نصّ خطاب بومبيو في الجامعة الأمريكية بالقاهرة: مصر أرض الكفاح، شبكة سي ان ان بالعربية،

https://arabic.cnn.com/middle-east/article/201911/01//text-pompeos-speech-american-university-cairo-egypt-land-struggle، 2019/002/02 متاحة بتاريخ

2. Abhishek Banerjee, Abrahamic Religions Good, Pagan Cultures Bad: How Liberal Media is Cheering Biden and Christian over America, Opindia, Feb, 6, 2021.

3. IvyPanda, Religion and Politics Religious Capacities for Conflict Resolution and Peacebuilding, https://ivypanda.com/essays/religion-and-politics/, Nomos 2012, accessed on 152019/01/

من بينهم مادلين أولبرايت – وزيرة خارجية الولايات المتحدة الأسبق - التي ترى أن وجود «عالم من دون دينٍ أمر غير مناسب، فهو الجحيم بعينه، بل إنّ على الدبلوماسيين الأمريكان أنْ يفكّروا بشكلٍ أوسع حول دور الدين في السياسة الخارجية، وبالتبعية في اختيار الخبراء المعاونين لهم؛ فيجب أن يطوّروا قدرتهم للتعرّف على الكيفية التي تمكّن المبادئ الدينية من المساهمة في خلق الصراع، والتوقيت الذي يمكنها من أنْ تطفئ نار الحرب. ويجب أيضًا أنْ يعيدوا توجيه مؤسّسات السياسة الخارجية ليأخذوا تمامًا في الاعتبار القوة الهائلة للدين في التأثير على كيفية تفكير الشعوب، وطريقة شعورهم وتصرّفهم. فالدوافع الدينية لا تختفي بسهولةٍ؛ فأغلبها تكون مختبئةً وتظهر في اللحظة المناسبة. فعلى صنّاع القرار في أمريكا أنْ يتعلّموا جيدًا أكبر قدرٍ ممكنٍ عن الدين، بل ويضمّنوا هذه المعرفة في أطار استراتيجيتهم. حتى إن برين هيهر وصف ذلك التحدي بجراحة المخ التي تعدّ مهمةً وحتميةً، وخطرةً جدًّا في الوقت ذاته إذا حدث فيها خطأ خلال إجرائها» [١].

ومثّل هذا التوجّه طفرةً جديدةً في النظر دور الدين في حلّ النزاعات في العلاقات الدولية. فهو ليس محرّكًا للنزاع فقط، وإنّما مصدرٌ للحلّ في الوقت ذاته، وهذا خلاف النظرة السائدة للدين بوصفه سببًا للصراعات القائمة في العالم، التي عبّر عنها بوضوح صموئيل هنتنغتون في نظرية (صراع الحضارات)، إنّ الهويات الدينية والثقافية للأشخاص ستكون المصدر الرئيس للنزاع في عالم ما بعد الحرب الباردة [٢]، وأبرز نموذجٍ ذلك الصراع العربي الإسرائيلي[٣]. فبدأ الباحثون خاصة في الخبرة الأمريكية بتغيير النظر للدين، فكتب عالم اللاهوت انز كوانج الابور حول تناقض السلام والعنف في الأديان العالمية، مؤكّدًا على قوة الجماعات الدينية في تعزيز السلام. حيث عدّ ذلك مدخلاً جديدًا للنظر للدين كنافذةٍ للحلّ بوصفه بوتقةً يمكنها أنْ تصهر المختلف بين الأديان التي تجمع المشترك الديني معًا، وتنحي الخلافات جانبًا لتحقيق السلام العالمي، الذي تحدثت عنه النظرية المثالية لأرنولد

1. Madeleine Albright, Faith & Diplomacy, https://globalengage.org/attachments/499_albright-faith-and-diplomacy.pdf, accessed on 112017/10/

2. Serhat S. Cubukcuoglu, JUDAISM, CHRISTIANITY, AND ISLAM: Are these monotheistic traditions intrinsically opposed to each other?, https://www.academia.edu/9533453/Conflict_in_Monotheistic_Religions, accessed on 152019/01/

3. Roland Czada (& others), Religions and World Peace Religious Capacities for Conflict Resolution and Peacebuilding, CZADA, Roland; HELD, Thomas; WEINGARDT, Markus. Religions and World Peace. Baden-Baden, Nomos 2012, https://bundesstiftung-friedensforschung.de/wp-content/uploads/201709//religions.and_.world_.peace_.czada_.et_.al_..pdf, accessed on 152019/01/

توينبي في بداية عشرينات القرن الماضي، وباسيل ماثيوز في كتابه بعنوان (مسار الاسلام الفتيّ: دراسة في صدام الحضارات)، تبعه المستشرق برنارد لويس في كتابه (ثقافات في صراع) عام١٩٩٣ .

ولم تكن نظرية نهاية عجلة التاريخ وسيادة النموذج الأمريكي بمنأى عن تناول الدين، فقد حدثت مراجعاتٌ فكرية قدّمها رائد هذه النظرية فرنسيس فوكو ياما، إذ رأى أنّ حكم القانون وتطبيق الديموقراطية لن يتأتى إلاّ بالبحث عن مصدر للقواعد الاجتماعية غير الثابتة التي تتجسد في القيم الأخلاقية المشتركة بين أفراد المجتمع، وهذا يتجسّد في الدين. فالمكان المناسب لتحقيق هذا الغرض هو دراسة الدين، وخصّ الأديان السماوية وسمّاها بالأديان التي حدّدت مجتمعات ما قبل العصر الحديث، مثل إسرائيل القديمة (وفقًا لوصف فوكوياما)، وأوروبا في العصور الوسطى، والعالم الإسلامي في وقت مبكر. فالقواعد الدينية هي الضمان والمحكّ الحاكم للمؤمنين، بوصفها مستمدةً من السلطة الإلهية، ومن ثم تتسم بالالتزام؛ فطاعتها أمرٌ واجبٌ بما في ذلك السيادة والسلطة السياسية التي يعدّها المجتمع والحكّام مستمدةً من الإله. فالحاكم هو بمنزلة نائبٍ له على الأرض. ويؤكد أنّ قبول المجتمعات الدينية لسيادة القانون أمرٌ طبيعي؛ فهي أكثر قبولاً له من غيرها من المجتمعات التي تدين بدياناتٍ أخرى محدودةٍ بنطاقٍ جغرافي كما هو الحال بالصين.

فالمجتمعات الدينية القديمة كان احترامها موجّه أوّلاً للكتب المقدسة، ودور العبادة، وتشترك جميعها في الزي كقواعد مشتركةٍ بين الأديان، ترمز للعدالة المشتركة، وكلّ مجتمع دينيّ (الإسلامي، الإسرائيلي، الروماني المسيحي)، يعترف صراحة بوجوب العيش بموجب القانون المحدّد دينيًا[1] .

من هنا يمكن القول إنّ فوكوياما نظر للأديان الثلاثة بوصفها مدخلاً لسيادة النموذج الديموقراطي الغربي وحكم القانون المصاحب له، بل إنّه تحدّث عن المشترك الديني كمطيّةٍ للوصول إلى نهاية التاريخ التي تتم عبر الهيمنة الغربية. ممّا مثّل مدخلاً مهمًّا عند الحديث عن الدبلوماسية الروحية.

ويفسّر العديد من المحلّلين اهتمام الولايات المتحدة بالدين بسيطرة الصهيونية المسيحية على الساسة في الولايات المتحدة، التي تؤمن بفكرة العودة الأصولية المتجدّدة للجذور كأساسٍ لحركة التاريخ بالعالم. تعدّ مهمة أعضاء هذه الحركة وأتباعها هي: تدبير وتهيئة كلّ الأُمور التي من الممكن أنْ تعجّل عودة المسيح إلى الأرض، ومن السيطرة على العالم، ومن ثم فتعدّ

1. Francis Fukuyama, TRANSITIONS TO THE RULE OF LAW, Journal of Democracy, January 2010, VOLUME21, ISSUE1, PP. 31 - 44, https://www.journalofdemocracy.org/articles/transitions-to-the-rule-of-law/ accessed on 152019/01/

ما يُنجز داخل الساحة السياسية الدولية تكليفًا إلهيًّا؛ وبذلك أضحى الدين مدخلاً لتفسير الدور الأمريكي في العالم؛ بوصفه محرّكًا ومبررًا ومفسّرًا[١]. وهذا ما وصفه كلٌّ من أنطونيو سبادارو، والقس مارسيلو فيغيروا، بأنّه تحالف الكاثوليك المحافظين والإنجيليين حول برنامج سياسي صريح، ويضربون المثل مثال بـ (جون مور)، الذي يعدّ من أبرز الزعماء الإنجيليين الذين يدعمون وينصحون ترامب[٢].

وبدأت بعض المؤسّسات البحثية بالولايات المتحدة بإعادة قراءة السياسة الخارجية الأمريكية من منظور ديني؛ عبر إعادة قراءة النصوص وربطها بالأحداث السياسية بوصفها المحرّك لسلوك الساسة بالولايات المتحدة، ويأتي في مقدمة هذه المنظمات مؤسسة (مجتمع المؤرّخين للسياسة الخارجية الأمريكية)، ومن أشهر باحثيها Andrew J. Rotter، الذي قدّم تفسيرًا من الكتاب المقدّس لقرارات الإدارات الأمريكية المتعاقبة منذ إنشائها، فعلى سبيل المثال عدّ قضية ضمّ الفلبين عام ١٨٩٩ م نتيجة إرشاد إلهيّ حظي به الرئيس الأمريكي ويليم ماكينلي؛ فقد جاءه صوتٌ ليخبره لينطلق، فاكتشف بأنّ قضية الضمّ قضيةٌ سماويةٌ لا تردّد فيها، وذهب إلى ما هو أبعد حيث عدّ روتر أنّ قرار إلقاء الولايات المتحدة القنبلة علي هيروشيما خلال حرب الولايات المتحدة ضدّ إلمانيا ١٩١٧ م، ترجمةً لنظرة ويلسون إلى الحرب من منظور قصة التضحية التي استبدل فيها الرب التضحية والطاعة بالبركة والحماية للمسيحين؛ فجاء قرار اتّخاذه للحرب داخل الكونجرس في إطار ما سمّاه (الاعلان المقدّس)، فالتضحية من أجل طاعة أوامر الله استرشادًا بقصة سيدنا إبراهيم خلال التضحية بابنه، وذكر روتر بأنّ هذا التفسير هو ما وصفته الكنيسة بأمريكا بـ(الفكر المسيحي بالعالم العلماني). ويدلل على استخدام الدين في تصريحات عددٍ من القادة خلاف ويلسون كالرئيس فرانكلين روزفيلت، فقد صرّح أنّه يمثّل دائمًا شيئين؛ الفكر الديموقراطي، والدين المسيحي. ووصف دالس – وزير خارجية أمريكا الأسبق - الحرب الباردة بالمنافسة الدينية بين الإيمان والإلحاد، ولم يفته الإشارة إلى تصريح الرئيس بوش الابن بعد أحداث ١١ سبتمبر بأنّها حربٌ صليبية، رغم اعتذاره عن هذا الوصف لاحقًا [٣].

---

١. إحسان العقلة، تعريف حوار الأديان، ٢٠١٧.

2. Michael Sean Winters, politics influenced religion, https://www.ncronline.org/news/opinion/distinctly-catholic/2017-politics-influenced-religion, Dec 29, 2017, accessed on 152019/01/

3. Andrew J. Rotter, “the Religious Typology of American Foreign Relations”, Nazan Review of American Studies, Volume 29 2007: Proceeding of the NASSS 2007, PP 23 - 27.

ويأتي طرح روتر متوافقًا مع ظهور اتّجاهٍ جديدٍ يطرح مدخلاً دينيًا لتفسير الأحداث السياسية، وينتقد التفسير العلماني لها، إذ يقدّم كلٌّ من Scott W. Hahn & Benjamin Wiker مقاربةً جديدةً يسمّونها بـــ (تسيس الكتاب المقدّس Politicizing Bible)، يقرّران فيها أنّ الكتاب المقدّس يقدم تفسيرًا يوميًّا للسلوك والصراع على السلطة، ويبرر التحالفات السريّة للمفكّرين الذين تجمعوا معًا لتحقيق أهداف الرب ضدّ الأولويات الروحية للكنيسة، حيث ينظر هذا الطرح إلى ما هو أبعد من ادّعاء الحياد والموضوعية في الدراسات العلمانية، ويقدّم ربطًا بين الأحداث السياسية ونصوص الكتاب المقدّس؛ عبر تتبع المشاريع والكتابات السياسية والتشكيك في القضايا التي تعدّها مدارس اللاهوت من المُسلَّمات[١].

في هذا الصدد، يعدّ روتر أنّ مسيرة السياسة الخارجية الأمريكية تعكس إيمان الساسة بالدولة؛ فهي الغاية من حياة المسيح التي تجسّدت في تعليم البشر، ومعاناته من أجل إنقاذ البشرية. ومهمّة أمريكا تتمثّل في الإدراك العالمي للرسالة؛ لذلك فصنّاع القرار الأمريكان عبر السنين قاموا بحفر السرد القصصي للمسيحية داخل الخرائط الذهنية لعقولهم، وحاولوا نقله إلى خرائط العالم، وهذا ما قاموا به خلال إدراكهم وتنفيذهم للسياسة الخارجية الامريكية. ويؤكّد أيضًا أنّ صنّاع القرار بالولايات المتحّدة لا يستطيعون الفصل بين معتقداتهم وإيمانهم وبين آرائهم العملية ومهامهم العلمانية، فنظرتهم الدينية للعالم تظهر خلال كتابتهم للمذكرات فما يسمعونه بالكنائس يوم الأحد تظهر في قراراتهم يوم الاثنين خلال اليوم. وظهر ذلك في أداء الرجال والنساء الذين مارسوا السياسة الخارجية الأمريكية. ويرى أنّ هناك طريقتين لمتابعة تأثير العهد القديم على قرارات السياسة الخارجية الأمريكية (وفقًا لرأي الكاتب)[٢]:

أخذ اللغة على محمل الجد. حينما يتم استعمال مجازات من الأنجيل، أو يتم الاشارة إلى القصص الواردة في الكتاب المقدّس

السماح بنحوٍ مقيّد بالموافقة على عبارة أن (افتراض كون الأشخاص المتدينين ينظرون

1. Scott W. Hahn & Benjamin Wiker, Politicizing the Bible: the Roots of Historical Criticism and the Secularization of Scripture 13001700- ,The Cross Road Publishing Company: Herder & Herder Book , 2013 , Barnes & Noble, www.branesandnoble.comlwlpoliticizing-the-bible-scott-w-hahn/1110929768#ProductDetailsTab, accessed on 232021/03/

2. Andrew J. Rotter, the Religious Typology of American Foreign Relations, Nazan Review of American Studies, Op.cit.

إلى لعالم من منظور الدين، وحينما يتم مواجهتهم بمواقف شبيهة تناولها الكتاب المقدّس سيقومون بالاستجابة وفقًا لهذا المنظور، والنهج الذي تناوله الإنجيل)، كما يتذكرون ويؤمنون، أو وفقًا لاستيعابهم للنصّ. فحينما يعدّ الساسة السياسة الخارجية كياناتٍ دينيةً سينظّرون للقرارات السياسية، بأنّ الآباء الأوائل قد واجهوا مثل هذه المواقف واختاروا قراراتٍ محددةً لها انبعاثاتٍ دينيةٍ واردةٍ بالكتاب المقدس [١].

وفي هذا السياق، وترجمة لاهتمام الأدارات الأمريكية المتعاقبة بالدين عقب انتهاء الحرب الباردة جاءت قضية حوار الأديان للظهور كأحدى القضايا المهمة في أجندة السياسة الخارجية، بوصفها وسيلةً لتصدير الاهتمام للعالم الخارجي، وكمصطلح يُشير إلى التفاعل، والبناء والإيجابي بين الناس من تقاليد دينيّةٍ مختلفة، ومعتقداتٍ روحيّة، وإنسانيّة سواء أكان ذلك على مستوى الفرديّة، أم المؤسسيّة، إذ يتم في هذا الحوار تعزيز التفاهم بين الأديان أو المعتقدات المختلفة لزيادة قبول الآخر [٢].

في هذا السياق، تم تنظيم سلسلةٍ من المؤتمرات التي شغلت العديد من الساسة والمحلّلين، وجاء الاهتمام بها لعددٍ من المبررات؛ من أبرزها سعي بعض الدول إلى نشر وترويج معتقداتها الدينية والقيمية، أو احتواء التوجهات الدينية لبعض الدول والتنظيمات التي ترى فيها تحدّيًا لمنظومتها القيمية، أو الرغبة في تحسين صورتها والتصدّي للاتهامات التي توجّه لها بدعم الإرهاب والفكر المتطرّف. وفي إطار تسيس قضية حوار الاديان تم النظر إليها من منطلق إدارة الصراعات الدولية؛ ففي عام ٢٠٠١ م، نظّمت الأمم المتحدة تقريرًا بعنوان (تجاوز الانقسام وحوار الحضارات)، وتوصلت إلى دور حوار الأديان في ترسيخ التعاون الإقليمي، وخلق مشتركٍ بين الدول التي تختلف في سياستها الوطنية التي تعلي من مصلحتها القومية على أية اعتباراتٍ أخرى. من منطلق أنّ حوار الأديان يمكن أنْ يقلّل من تكلفة إدارة الصراعات، ويزيد من الجوانب الإيجابية الكامنة؛ لأنّه سيشمل البني التحتية في المجتمعات الوطنية كمؤثرٍ على الساسة عبر التواصل مع الرأي العام العالمي، ويزداد المردود إذا كان للبعد الديني دورٌ في نشأة الصراع [٣].

وكان مدخل حوار الأديان بوابةً لتطوير مصطلح الدبلوماسية الروحية القائمة على تحويل

١. مقابلة مع المطران منير حنا: مطران الكنيسة الأسقفية بمصر وشمال إفريقيا والإقليم الأفريقي، القاهرة، ٢٠١٧/١١/١٦.

٢. إحسان العقلة، تعريف حوار الأديان، ٢٠١٧.

٣. عصام عبد الشافي، البعد الديني في السياسة الخارجية: جدالات الفكر والحركة: الجزء الثاني، كنانة أونلاين، ٢٠١٧.

الحوار إلى خدماتٍ تقدّمها الأديان، من شأنها بناء جسور تربط بين الشعوب؛ كمكافحة الملاريا وحملات الإغاثة؛ فلا يعود دور الأديان إدارة النزاع أو الصراع، وإنّما يكون دورًا فاعلاً على الأرض في خلق سلامٍ دينيّ عالمي[1]. من هذا المنطلق يمكن القول إنّ الحديث عن حوار الأديان وتحويلها إلى حوارٍ خدمي كان أحد روافد المفهوم الجديد الذي بدأ يناشد بالمشترك الديني وإعادة قراءة النص الديني كمدخلٍ جديدٍ لحل الصراعات داخل الساحة السياسية، عبر مفهوم الدبلوماسية الروحية.

في هذا الصدد، ستحاول الورقة الإجابة عن تساؤلٍ مهمٍّ يتمثّل في ماهية مفهوم الدبلوماسية الروحية ومرتكزات المفهوم، هل ترتبط الإبراهيمية بوصفها نعتًا للأديان السماوية بمصطلح الدبلوماسية الروحية، وما الهوية الإبراهيمية المطروحة؟ وكيف يمكن ترجمتها؟ وما الغاية الأساسية لها وهل شهدت مشروعاتٍ سياسيةً على الأرض منفذّة أو مطروحة تطبيقًا للمفهوم.

في هذا الصدد، ستنقسم الورقة إلى قسمين رئيسين، الأول يناقش مفهوم الدبلوماسية الروحية ومرتكزات المفهوم متضمنًا الديانة الإبراهيمية كميثاقٍ قيميّ محدّد، والقسم الثاني يطرح مفهوم الهوية الإبراهيمية والمشروعات المنفذّة على الأرض لتدعيم الهوية، واستخدامها لتغير شكل المنطقة عبر التكامل الإقليمي.

القسم الأوّل: مفهوم الدبلوماسية الروحية ومرتكزات المفهوم:

يقدم هذا القسم استعراضًا لمفهوم الدبلوماسية الروحية واتجاهات تعريفها، والمفاهيم التي يرتكز عليها المفهوم.

١. مفهوم الدبلوماسية الروحية:

جاء الاهتمام بمفهوم الدبلوماسية الروحية مع مطلع الألفية الجديدة كأحد المتغيّرات الدولية للسياسية الدولية، التي رفعت شعارات تحقيق السلام العالمي، وحلّ النزاعات، ومكافحة الفقر، وتحقيق التنمية المستدامة، والتي لها تأثيرٌ على السياسات المجتمعية الداخلية. فهي طرحٌ جديدٌ يقدّم على الأرض مدعومًا من القوى الغربية (المعسكر الغربي) على رأسها الولايات المتحدة، والمملكة البريطانية، والكيان الصهيوني (إسرائيل)، وبعض حلفاء الولايات المتحدة.

1. Allen Keiswetter and Bishop John Chane, Diplomacy and Religion: Seeking Common Interests and Engagement in a Dynamically Changing and Turbulent World, https://www.brookings.edu/wp-content/uploads/201606//Religion-and-Diplomacy_English_Web.pdf, accessed on 052017/11/

ورغم أنّ هذا التناول للدين ليس بالجديد عن العمل السياسي، فإنّ ربطه بالروح التي مصدرها الله (عز وجل)، كان بهدف تحقيق أهداف الدولة من خلال مخاطبة العقائد والتقاليد الدينية التي تمسّ القلب، التي تعدّ معيار التمييز وقانون الحكم على الأمور، بل هي مصدر كينونة الإنسان وفقًا لأفلاطون[١]؛ فالروحانيات هي إعادة تشكيل النفس البشرية التي تهدف إلى معالجة حالة الإنسان، وصورة الله، طبقًا لهذا التعريف، فإنّ إعادة التهيئة موجهة نحو القلب. أي أنّها تتعلّق بسياسات تمسّ القلب والشعور، وتحظى بالقبول والدعم الداخلي[٢] . ومن ثم يمثّل هذا الربط الضمان لخلق الأتباع والمؤيدين لها نفسيًّا، وتشكيل رأيّ عامٍّ داعمٍ ومساندٍ لها. واختلفت الاتجاهات والمؤسسات في تعريف الدبلوماسية الروحية؛ فلا يوجد تعريفٌ محدّدٌ جامعٌ مانعٌ للمفهوم خاصة؛ بسبب حداثته، وهناك من تناوله أو أشار إليه بشكلٍ عابرٍ، أو تناول المفهوم من خلال الممارسات التطبيقية، وقد استطاعت الباحثة اشتقاق اتجاهاتٍ مختلفةٍ خلال تناول الفكرة أو المفهوم. وتمكّنت الباحثة من تقسيم الأدبيات التي تعرّضت للمفهوم إلى اتجاهين رئيسين، تتفرّع منهما اتجاهاتٌ فرعية أخرى؛ الأول تناول الهدف من المفهوم، والثاني هوية المفهوم.

الاتجاه الأول: التعريف وفقًا للهدف من المفهوم

هناك من رأى أنّ الدبلوماسيّة الروحيّة مدخلٌ للقضاء على الفقر العالمي كالبنك الدولي؛ ففي تقريره بعنوان (التنمية والدين عام ٢٠٠٧)، تحدّث عن السلام الديني العالمي كمدخلٍ لمكافحة الفقر الكوني عبر دبلوماسية المسار الثاني، لتحقيق تفاهمٍ مشتركٍ حول مسببات الفقر، وكيفية محاربته من خلال الأديان؛ إذ إنّه لا سلام بدون سلام بين الأديان الإبراهيمية، والمشاركة في تقديم خدماتٍ مبنيّةٍ علي قيم التعليم الديني لتحقيق الأهداف الإنمائية للألفية الثالثة، التي تحوّلت بعد ذلك إلى أهدافٍ للتنمية المستدامة [٣] .

---

١. وبعض علماء المسلمين يرى النفس هي الروح والجسد مجتمعين، ويرى البعض الآخر أنّ النفس قد تكون أو لا تكون خالدة، ولكن الروح خالدة حتى بعد موت الجسد. لمزيد من التفاصيل انظر: العالم الجديد، الروح عند الفلاسفة، متوفر بتاريخ ٢٠١٧/١١/١٧:

http://wherweare191.blogspot.com.eg/201607/http://blog-post_18.html

2. ClaireE. Wolfteich, Spirituality, https://www.bu.edu/cpt/files/201004//Wolfteich-Spirituality-and-PT-2011-Wiley-Blackwell.pdf, accessed on 172017/11/

3. Katherine Marshall, Marisa Van Saanen, Development & Faith: Where Mind, Heart, Soul Work Together, Washington DC, World Bank, 2006, http://siteresources.worldbank.org/EXTDEVDIALOGUE/Resources/Development_Faith.pdf, accessed on 222017/11/

وهناك من عدّ الدبلوماسيّة الروحيّة مدخلاً لحلّ الصراعات، كالمركز الدولي للديانة والدبلوماسية بواشنطن؛ الذي عدّها مدخلاً لحلّ الصراعات المعتمدة على الهوية التي تتخطّى حدود قدرة الدبلوماسية الرسمية، عبر تكامل الأديان كجزءٍ من الحلّ. وتتمثّل الأسس الفكرية والروحية كإقترابٍ غير تقليدي لحلّ الصراعات التي يمكن ايجادها في الأديان، فهى البعد المفقود من صناعة الدولة STATECRAFT. والدبلوماسية المستندة على المعتقد، واللعب بالسياسة الواقعية كورقة رابحة، فهناك دورٌ إيجابي لما يمكن أنْ تؤدّيه العوامل الدينية والروحية في منع الصراعات وحلّها. فهي تقود دعم التغير الاجتماعي المستند إلى العدالة والمصالحة، وتوجد حالة قوية لتكامل الاعتبارات الدينية في إطار تطبيق السياسة الدولية[١] . فهى مدخلٌ جديدٌ لحل النزاعات والصراعات، تستخدم بدافع الشخصيات والظروف. وتختلف وفقًا للموقف؛ فالدبلوماسية المبكرة أو المانعة تقتضي التدخل السريع بعد اندلاع الصراع، أو في إطار عملية مصالحةٍ طويلة الأجل بالنسبة للصراعات القائمة الممتدة؛ مهمتها هو منع وحل الصراعات التي تعتمد على الهوية IDENTITY BASED CONFLICT:[٢]

« كما كانت الهوية الدينية محرّكة للصراع المبكّر بين الأفراد أو الجماعات، يمكن أن تكون مخففةً للألم والصراع».

وهناك من عدّ هدفها الوصول إلى السلام الديني العالمي كاتحاد تراث إبراهيم، فيرى أنّها القوى المحرّكة للسلام عبر التقارب بين الديانات الثلاثة [٣].

الاتجاه الثاني: ركزّ على هوية المفهوم كساحةٍ من ساحات التفاوض (دبلوماسية المسار الثاني)

يعرفه اندرو بترسون الدبلوماسيّة الروحيّة بأنّها دبلوماسية المسار الثاني لتحقيق الأهداف السياسية للدولة، كحلّ النزاعات والخلافات الحسّاسة، وتقريب وجهات النظر التي لا يمكن حلّها في العلن بطرقٍ تقليديةٍ خاصّةٍ التي لها جذورٌ دينيةٌ، كخطوةٍ للتقارب من أجل السلام العالمي،

1. The international Center for Religious & Diplomacy, http://icrd.org/approach/, accessed on 162017/11/

2. Ibid

3. Abrahamic Reunion, http://stjamesbozeman.org/sites/default/files/abrahamic_reunion_flyer.pdf, accessed on 112017/11/

وإقامة علاقاتٍ طبيعيةٍ في المستقبل[١]. وهناك من أكّد على مدخليّة وآليّة هذا المسار من التفاوض (المدخل النفسي) لتحقيق الهدف المرجو، كمؤسسة إعادة اتّحاد أبناء إبراهيم، التي تعرفها بوصفها مفاوضات المسار الثاني باستخدام المدخل النفسي لدحض الأصولية في الأديان الثلاثة، لاستنتاج نهاية العالم والالتزام بشأن العلاقات المستقبلية التي تستند إلى القيم المشتركة الأخلاقية والاجتماعية [٢].

وفي ظلّ حداثة المفهوم وعدم تحديده، حاولت الباحثة تقديم تعريفٍ إجرائيّ يرسم ملامح هذه المبادرة الجديدة على النحو الآتي: «مسار من مسارات التفاوض، يستهدف حلّ النزاع أو منع حدوثه من أجل بناءٍ سلامٍ دينيّ عالمي، عبر الجمع بين القادة الروحين والساسة داخل آلية المسار الثاني للمفاوضات Track II Diplomacy ؛ للتباحث حول القضايا الحسّاسة محلّ النزاع بهدف التوصّل إلى مشتركٍ عبر تقارب الأديان السماوية الثلاثة (الإسلام- المسيحية- اليهودية)، أو ما يُسمّى بالديانات الإبراهيمية أو الدين الإبراهيمي (الدين العالمي الواحد) حسب ما يقدّم من طرح للقضاء على الاختلافات والوصول إلى متفق يقبله المجتمع، عبر ترجمته إلى خدماتٍ ملموسةٍ يشعر بها المواطن (الحوار الخدمي)؛ ليكون ولاؤه للدين الإبراهيمي، ويتم نقله للخريطة السياسية؛ لأنّ هذا المسار سيكون مركز صنع القرار السياسي بالعالم[٣] بهدف خلق السلام الديني العالمي».

وعلى الرغم ممّا سلف ذكره فإنّنا ينبغي أنْ ندرك أنّ مفهوم السلام الديني العالمي ما هو إلاّ سلامٌ مستندٌ إلى السيطرة عبر الدين والمشترك بين الأديان، ومستندٌ إلى تهميش المختلف عليه من ديانات تلت اليهودية ليصبح الإسلام والمسيحية ديانات بعيدة عن صيغ السلام العالمي الجديد بموافقة القادة الروحيين على اختلاف خلفياتهم ومرجعياتهم حتي وإنْ كانت دينية.

1. Andrew Preston, Sword of the Spirit, Shield of Faith: Religion in American War & Diplomacy, New York: Alfred A. Knopf, 2012 , pp 409- 436

2. //Joseph V. Montville, “Track Two Diplomacy: The Work of Healing History”, The Whitehead Journal of Diplomacy and International Relations, Summer/Fall 2006, www.journalofdiplomacy.org, accessed on 112017/10/

3. Children of Ibrahamic Institute official website, http://abraham.lib.virginia.edu/studentuva.html, accessed on 052017/11/

٢. مرتكزات مفهوم الدبلوماسية الروحية:

اتساقًا مع ما تمّ طرحه يمكن التوصل إلى عددٍ من المرتكزات التي يمكن اشتقاقها من هذا المفهوم:

أولًا: الغاية الوصول إلى السلام الديني العالمي:

فالحاجة إلى بيئةٍ كونيةٍ لدعم نوعية التنمية الاقتصادية التي يمكن أنْ تفيد النسبة العظمى لسكان العالم. تتم عبر التقارب بين الأديان والوصول إلي المشترك الذي يطبق سياسيًّا عبر ربط المصالحة الدينية بالدبلوماسية الرسمية وغير الرسمية، أي خلق انسجامٍ SYNERGY لحفظ السلام الذي يخدم هذه الاحتياجات كافة. وتحقيق السلام الديني العالمي [١].

ثانيًا: القضايا موضع الاهتمام ومنهجيّة الحلّ السياسي:

إعادة المصالح الدينية لما سمّوه «الشعوب الأصلية» على الخريطة (لكن من دون تحديد من هم الشعوب الأصيلة، حيث سيتم الاتفاق عليها خلال جلسات الحوار حول المشترك الوحي). ولكن هناك اتفاقية لدى الأمم المتحدة تحمل اسم الشعوب الأصلية، وهي الاتفاقية رقم ١٦٩ لعام ١٩٩١ (الأمم المتحدة، ١٩٩١) التي تحدّد ماهيتهم، وطرق التوصل إليهم، والحقوق التي يجب أنْ يحصلوا عليها[٢]؛ بوصفها عناصر أساسية لمفاوضات السلام بين الشعوب التي لها تاريخ من التديّن. فعلى سبيل المثال يركّز معهد أطفال إبراهيم تحديدًا على الأديان الإبراهيمية، وعلى الصراعات التي تقسم الشعوب التي تديّن بالطاعة لله (كمشترك عام). والأكثر إلحاحًا من هذه الصراعات؛ هي بالطبع الصراعات العنيفة، هذا علاوة على الخلافات السياسية غير العنيفة ذات الأهمية الاجتماعية بين الجماعات الدينية. فعلى سبيل المثال بشأن النزاع في الشرق الاوسط، يتم النظر إليه بأنّ حلّه من خلال استغلال الإمكانات التي تتيحها الأديان لتكون مصدرًا للتفاهم المشترك؛ كسيارةٍ يمكن امتطاؤها نحو السلام، وتغير الرؤية السائدة من قبل، فالدين الذي قد يحمل أسباب النزاع، هو مصدرٌ للحلّ في الوقت ذاته، والذي يمكن ترجمته سياسيًا على الخريطة السياسية عبر تقديم نصرة أصحاب الحقّ الأصلي من منطلق ديني. [٣]

1. Joseph V. Montville, Op.cit.

٢. الأمم المتحدة حقوق الانسان مكتب المفوض السامي، نصّ الاتفاقية رقم ١٦٩ بشأن الشعوب الأصلية والقبلية في البلدان المستقلة، ١٩٩١.

3. Children of Ibrahamic Institute official website, Op.Cit.

ثالثًا: أماكن التدخّل (نطاق العمل):

يشمل نطاق عمل الدبلوماسية الروحية في الصراعات الطائفية COMMUNAL CONFLICT التي تتجاوز حدود الدبلوماسية الرسمية خاصّة التي تتلاقى فيها[1]:

- المصالح الاستراتيجية للسياسة الخارجية للدولة الأم التي ترعى الفكرة أو المنظّمة الروحية.
- مناطق الصراعات التي هجرتها الدبلوماسية أو التي لم تشترك في حلّها الدبلوماسية الروحية.
- عدم قدرة الدبلوماسين الرسمين للوصول إلى الفاعلين الرئيسين للصراع.
- الفاعلون الدينيّون المشتركون بشدّة في الصراع أو الذين لا يشتركون بدرجةٍ كبيرةٍ في عمليات السلام.
- امتلاكها لعلاقاتٍ يمكن أنْ تيسّر الدخول للفاعلين الرئيسين للصراع وضمان القبول المحلّي لها.

رابعًا: دور القيم الدينية المشتركة:

الدين عامل مصالحة أكثر من كونه عامل انقسام، عبر استخدام مفاهيم الإيمان المشتركة كوسيلةٍ لبناء حسٍّ إنسانيّ مشتركٍ عبر مبادراتٍ على رأسها الأديان الإبراهيمية. فعلى سبيل الذكر اختبر جوناثان فوكس نظرية هنتنجتون صراع الحضارات، وتوصّل إلى أنّ الدين لا يسبّب الصراعات الدينية، ويستنتج فوكس أنّ هناك احصاءات تظهر أنّ الخلافات داخل الحضارات التي يهيمن عليها دينٌ إبراهيميٌّ واحدٌ أو غيره أكبر من الخلافات فيما بينهما. وتتصدر ذلك المسيحية القائمة - وفقًا له - ويأتي الإسلام في المرتبة الثانية. بسبب أنّ واقع هذه الأديان وطوائفها - وفقًا لرأيه - تطالب بالحصرية دومًا. وظهر في هذا السياق، مصطلح «الدين العام» بوصفه الامتداد الواسع لدور الله في الخلق مانحًا البشرية حقوقًا واضحةً ومحدّدة. وهذا الدين العام الهدف منه هو تحقيق الصالح العام: بمعنى الأساس الذي يجمع بين القادة الروحيين من أرجاء العالم كافة، ليؤكّدوا القيم المشتركة فيما بينهم، والالتزامات وليجتمعوا حول طاولةٍ واحدة للحوار والعمل. فالدين العام هو عامل مصالحةٍ واستقرارٍ سياسي؛ فقيم التعاطف الأبدية وتحمّلً أعباء الآخرين تعدّ أفكارًا تحبّذها الأديان والفلسفات الروحية من حول العالم، فمعظمها يشجع الصداقة، والمصالحة، والتعايش السلمي بين القبائل والثقافات والشعوب والدول واحترام، الخلاف، ، ولا تتعارض هذه العقلية والمفاهيم والأفكار الدبلوماسية[2].

1. The international Center for Religious & Diplomacy, http://icrd.org/approach/, accessed on 162017/11/

2. Ibid

خامسًا: الميثاق: المرجعية التي ترتكز عليها الدبلوماسية الروحية

يقدم للعالَم طرحين، إمّا الحديث عن الديانات الإبراهيمية، وإمّا الديانة الابراهيمية الموحّدة، لكن كما سيتضح أنّ الطرحين لا يختلفان عن بعضهما البعض. فكلاهما يقومان على عدّ تكامل الأديان جزءًا من الحل عبر[١]:

- تجسير الصلة بين الأطر السياسية والدينيّة في دعم صنع السلام.
- نشر الفرق الدينية التنفيذيّة المتداخلة في الأماكن التي فيها تهديد بإندلاع الصراعات، أو في أماكن حدوثها.
- تدريب رجال الدين والمؤمنين على مهارات صنع السلام.
- دعم ترجمة التعليم الديني الذي سيقلل سوء الفهم والصراعات.

أ. الديانات الابراهيمية[٢]:

يشير مصطلح الديانات الإبراهيمية أو الإيمان الإبراهيمي (نسبةً إلى النبي إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء)، إلى الأديان السماوية الثلاثة «الاسلام- المسيحية- اليهودية»[٣]، التي تجمع القادة الدينين والسياسين معًا لمشاركة للتراث المشترك والتشابهات في علم اللاهوت من أجل تحقيق سلامٍ دينيّ عالميّ قائمٍ على الضمير الجمعي العالمي[٤].

---

1. Ibid

٢. قبل الإشارة إلى الطرح في هذا السياق تقتضي الضرورة الإشارة إلى أنّ الباحثة لا تروّج لما يسمّى بالديانات الإبراهيمية أو مصطلح الدين العام، أو الدين الإبراهيمي العالمي، أو ما يطلق عليه السلام الديني العالمي، لكن تودّ الاشارة لتوجيه النظر والبحث حول المخطط الخارجي الخطير الذي يتم إثارته خارجيًّا كأحد صور الإنذار المبكر. وترفض الباحثة تمامًا هذا الطرح ولا تتعاطى معه على الاطلاق.

٣. البعض يضيف أحيانًا البهائية، وأحيانًا الأيزيدية، وفي أوقاتٍ أخرى الهندوسية، لكن الأكثر انتشارًا الأديان السماوية الثلاثة.

٤. استنادًا إلى عدد أنصار أتباع الديانات السماوية، خاصة أنّ حوالي ٣٢٪ من سكان العالم مسيحيون ٢,٢ بليون نسمة، وأنّ ٢٣٪ مسلمون حوالي ١,٦ مليار نسمة، و٠,٢ يهود،٨ حوالي ١٤ مليون نسمة، أي أنّ ما يزيد عن ٥٦٪ من سكان العالم إبراهيميّون. لمزيد من التفاصيل انظر:

Howard Steven Friedman, 5 Religions With The Most Followers, https://www.huffingtonpost.com/howard-steven-friedman/5-religions-with-the-most_b_853000.html, 252011/06/

يخصّ بعضهم مصطلح الديانة الإبراهيمية بمصطلح التراث اليهودي المسيحي[١]، لكون هذا المصطلح يستعمل لوصف الديانة الغربية والتقاليد الاخلاقية. ويحاول أنصار هذا الطرح أنْ يرجعوا جذور الحرب العالمية الثانية، والهلوكوست والصراع العربي الاسرائيلي الممتد، إذ عملت هذه الأزمات على تحريك الوازع الديني لقادة العالم والمتدنين للعمل من أجل السلام بين الأديان الثلاثة. ومن روّاد هذا الفكر الباحث الروماني الكاثوليكي لويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢) الذي طرح مفهوم السلام بين الديانة المسيحية والإسلام، اعتمادًا على الإيمان «الجذر الشائع في إبراهيم». وفي الفترة الممتدة من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٥م، صدرت وثائق من الفاتيكان تحدّثت عن التراث المشترك للأديان الثلاثة، واستخدمت النبي إبراهيم عليه السلام مصدرًا رئيسًا لمحاولة التقارب الديني. وفي اكتوبر ١٣ عام ٢٠٠٧م، وجّه مائة وتسعة وثلاثين باحثًا مسلمًا ورجل دينٍ خطابًا مفتوحًا لقادة كنائس العالم؛ عرضوا خلاله تفهمهم للأرضية المشتركة بين المسيحية والإسلام. حمل الخطاب عنوان (الكلمة المشتركة بيننا وبينكم)، استند العنوان إلى الآية القرآنية التي أشارت إلى «اهل الكتاب» للوصول إلى اتفاقٍ حول عبادة الإله، ويطلب الخطاب السلام والتفاهم بين المسلمين والمسيحين استنادًا إلى القيم التأسيسية للعقيدتين «حب إله واحد وحب الجار». وتجدد الطرح مرةً أخرى بعد حادث ١١ سبتمبر ٢٠١١ م، إذ تمت الدعوة إلى الوحدة والسلام عبر ايجاد أرضيةٍ مشتركةٍ بين الأديان الثلاثة[٢].

ويعي هذا الطرح وجود اختلافاتٍ بين كلٍّ من اليهودية والمسيحية والإسلام، فهناك اختلافاتٌ جوهريةٌ بين هذه الأديان الثلاثة، لكنّه يؤكد على الأفكار التعليمية الأساسية فيها لتكون الأساس المشترك بين الأديان الثلاثة، من ذلك:

ـ أهمية النبي إبراهيم داخل الأديان الثلاثة كمرجعيةٍ روحيةٍ.

---

١. التراث اليهودي المسيحي هو مصطلح ازداد شيوعًا في العالم الغربي في الآونة الأخيرة، وهو يعني أنّ ثمة تراثًا مشتركًا بين اليهودية والمسيحية، وأنّهما يكوّنان كلًّا واحدًا. ويعدّ التراث اليهودي المسيحي من المكونات الرئيسة للحضارة الغربي.

2. Missouri Synod, The Abrahamic Religions: An Evaluation from the Theological Perspective of The Lutheran Church, https://www.lcms.org/Document.fdoc?src=lcm&id=2937, accessed on 112017/11/

ـ التوحيد لدى الأديان السماوية الثلاثة.

ـ المرجعيّة الدينيّة المحوريّة للكتب المقدّسة رغم اختلافها.

ـ القيم السماوية لدى الأديان الثلاثة خاصّة أنّ أغلبها مشتركة كالمحبّة والإخاء والتسامح.. الخ.

ـ المقدّسات المشتركة داخل الديانات الثلاثة (رحلة سيّدنا إبراهيم والدول التي زارها خلال رسالته السماوية)، خاصة محورية قدسية مدينة القدس مدينة السلام في الأديان الثلاثة[1].

ب. الديانة الإبراهيمية العالميّة: الدين العالمي الموحّد

هو طرحٌ مقدّمٌ للولاء لدينٍ عالميّ واحدٍ يجمع القيم المشتركة بين الأديان، التي لا يوجد عليها خلافٌ. ويعدّ هذا الطرح الأقل قبولاً من الطوائف الدينية المختلفة بمختلف الأديان السماوية؛ لأنّه يفرغ جوهر الأديان ويمحو وجودها. ومن روّاد هذا الفكر القس Dr. Jaerock Lee من كوريا الجنوبية «مؤسس كنيسة مانمين بسيول، ورئيس منظمة عالم الروح المقدس الصليبي، ورئيس مؤسّسة الخلاص من العالم المسيحي»[2]. وقد أشار أيضًا إلى الدين الإبراهيمي الواحد الرئيس الأمريكي باراك أوباما؛ خلال تقرير الدين والدبلوماسية الصادر عن معهد بروكنجز الدوحة ٢٠١٣,[3]، ومن الجدير بالذكر أنّ دكتور (لي) قد ألّف كتابًا حديثًا يحمل عنوان القدس الجديدة، يقدم القدس بوصفها المدينة الإبراهيمية.

---

1. Ibid

2. Official website of REV Dr. JAEROCK LEE, https://www.drlee.or.kr/english/01_Leejaerock/faith1.asp, accessed on 212017/11/

٣. ألن كيسويتر والأسقف جون شاين، الدبلوماسية والدين: البحث عن مصالح مشتركة والانخراط في عالم من الاضطرابات والتغيرات الديناميكية،أوراق بحثية لمنتدى مرشوع العالقات الأمريكية مع العالم الإسلامي التابع لمعهد بروكنجز للعام ٢٠١٣، واشنطن: معهد بروكنجز، تشرين الثاني ٢٠١٣، متوفر بتاريخ ٢٠١٧/١١/١١:

https://www.brookings.edu/wp-content/uploads/2016/06/Religion-and-Diplomacy_Arabic_Web.pdf

سادسًا: الوسيلة: دبلوماسية المسار الثاني والتنسيق بين القيادات الروحية والسياسية:

يمكن لدبلوماسية المسار الثاني أنْ تضطلع بما لم تقدر عليه الدبلوماسية الرسمية؛ فهي وسيلة اتصالٍ لتمرير الأفكار والرسائل بصورةٍ غير رسمية إلى الطرف الآخر، وبالعكس. تقوم بإرساء الإنسانية المشتركة بين الأطراف لبناء العلاقات، وتسهيل البحث عن المصالح المشتركة. فالتفاعل قد يولّد أفكارًا ومبادراتٍ تتوفّر للمفاوضين الرسمين لدرسها وتطبيقها. فهي مرحلةٌ انتقاليةٌ تهدف لاحقًا إلى خلق الدبلوماسية المباشرة أو تعزيزها. وتقوم بإنشاء شبكات دبلوماسيّة المسار الثاني بين رجال الدين من كلا الطرفين، التي بإمكانها أنْ توفّر بدايةً دبلوماسيّةً عبر القيام بالآتي:[١]

أ. تشجيع الديانات «الإبراهيمية» لدعم مفاوضات السلام الجديدة.

ب. تكوين دائرة من العلماء المسلمين واليهود والمسيحيين الذين تعلّموا كيفية العمل معًا بشكلٍ وثيق، ودراسة التقاليد المقدّسة لبعضهم البعض، وتوليد نماذج للدراسة التعاونية بين ممارسي الديانات الإبراهيمية الثلاث[٢].

ج. تحاول مفاوضات المسار الثاني التركيز على خلق بيئةٍ من الرأي العام، مهيّئة ومؤيّدة تجعل أمام القيادة السياسية المساحة لخوض المخاطرة للحديث عن السلام، وتبنّيه. وهي النقطة المهمة لبناء سلامٍ حقيقي.

وقد طوّرت الدبلوماسية الروحية آلية المسار الثاني عبر دمج الإطار غير الرسمي المتمثّل في رجال الدين (القادة الروحين) أو المنظمات المستندة على العقائد (المراكز الدبلوماسية الروحية)، مع الساسة والدبلوماسيّين لضمان تحويل المشترك إلى واقعٍ سياسيّ فعليّ على الأرض كمركزٍ للحكم بالعالم.

وفي هذا السياق، من المهم الانتباه إلى أنّ مفهوم الدبلوماسية الروحية مفهومٌ ذو غطاءٍ استعماريّ يتم توظيفه بداخل المجتمعات التي تعاني من الصراعات الطائفية، تحت ادّعاء حلّ الصراعات، ولكن الغاية الحقيقة تغذية الطائفية عبر الحوار الديني لمناقشة الاختلافات وتنحيتها؛ ممّا يؤجج الأوضاع دينيًا، ويعمل على خلق النزاعات والتشكيك في الأديان عبر تنحية المختلف عليه، وهو الإسلام والمسيحية كدياناتٍ تاليةٍ لليهودية كديانةٍ متفقٍ على وجودها من قبل الديانات

---

١. م. ن.

2. Children of Ibrahamic Institute official website, Op.Cit.

السماوية الثلاثة. ومن ثم قد يقود الأمر لدينٍ إبراهيميّ عالميّ كما نادى به جاروك لي، ممّا يعني الكفر بالديانات السماوية عبر وضع صيغةٍ جديدةٍ تأتي من خلال منابر التشكيك في الدين والبحث عن المشترك المقبول من المشككين عبر كتاب حرية التفكير العقائدي، ممّا يعني نشر الإلحاد والتهويد بالمنطقة.

القسم الثاني: الهوية الإبراهيمية مدخلًا للمخطّط الاستعماري الجديد:

يناقش هذا الجزء مفهوم الهوية الإبراهيمية الجديدة التي تدعمها وتسوقها الدبلوماسية الروحية كأحد مرتكزاتها، وسبل التمهيد للقبول بالمخطط الاستعماري كهويةٍ بديلةٍ عن الثوابت والمرتكزات الوطنية والدينية، وتكون هويةً تقبل بالمحتل تحت مفهوم الأسرة الواحدة والعائلة الإبراهيمية والأخوة الإنسانية، وتطرح سبل طرحها عبر طرقٍ جديدةٍ مقبولةٍ مجتمعيًّا كالسياحة الدينية مثل «مبادرة مسار إبراهيم» التي تتخذ من السياحة الدينيّة مدخلًا للمطالبة بتدويل أرض المسار التي تطرح خريطة أرض إسرائيل الكبرى كخطوةٍ أوليةٍ للتدويل ثم الاستعمار، وكذا تطرح سبل استثمارها سياسيًا للقبول بتغير خريطة المنطقة عبر مشروعٍ استعماري يندرج تحت مفهوم التكامل الإقليمي الإبراهيمي، أو ما يُسمّى بالولايات المتحدة الإبراهيمية، لينهض على أنقاض الدول القومية ليعلي من هيمنة إسرائيل مدعومة من الصهيونية المسيحية كبداية للوصول لمعركة هرمجدون نهاية التاريخ.

١. بناء هويةٍ إبراهيميّةٍ جديدة

تطرح الأسرة الإبراهيمية الواحدة كبديلٍ عن القومية العربية التي تسعى لإقامة هويةٍ جديدةٍ تقبل بوجود إسرائيل، وتنسخ الثوابت التاريخية والعربية، فاختيار الإدارة الأمريكية والصهيونية المسيحية لأبي الأنبياء كمحرّكٍ جامعٍ لأتباع الأديان التي أضحت تنعت بالإبراهيمية، ليعبّر عن الجذر الديني المشترك بين الأديان، ويوظّف للتأكيد على مفهوم الأسرة الواحدة في إطار إحياء ذكرى وقصة نبي الله إبراهيم، التي ترد في الكتب المقدسة الثلاثة كأبٍ لأسحق (نسله اليهود والأقباط)، وإسماعيل (نسله المسلمون)، فجميع أتباع الأديان الثلاثة الإبراهيمية هم أبناء إبراهيم، فهم أخوة وأولاد عمومة؛ فجميعهم أعضاء عائلةٍ واحدةٍ، ومن ثم فإنّ أيّ خلافٍ قائمٍ هو خلاف

أسري عائلي يمكن حلّه بين أفراد الأسرة الواحدة[١]. ويزعم ويليم أوري رئيس مجلس أمناء مبادرة مسار إبراهيم بجامعة هارفارد أنّ السلام الدائم في الشرق الأوسط يدور حول قضيةٍ أساسيةٍ ألا وهي قضية الهوية[٢]، فخلف الصراع يوجد «قصة» فكلٌّ من المسلمين واليهود والمسيحيين لديهم قصص الخاصة بشأن الأرض والتاريخ الذي يحدّد هويتهم، وتُعدّ هذه محرّكات الصراع، فتغيرها سيؤدّي إلى حلّ الصراع تدريجيًا. فالصراع يجب النظر إليه بأنّه شبيه للصراع الأسري الذي ينشأ بين أطراف العائلة الواحدة. فقصة نبي الله إبرهيم يعدّها بمنزلة نوعٍ من الترياق لإعادة تعريف الأطراف المتصارعة كأقارب، ترمز للاحترام والضيافة والترحاب كبدايةٍ لخلق أمّةٍ جديدة[٣].

٢. مسار إبراهيم Abraham Path Initiative:

يعد مشروع مسار إبراهيم تدعيمًا لمفهوم الهوية الإبراهيمية المشتركة باستخدام طرق الحج المشترك لبناء ذاكرةٍ مشتركةٍ بين شعوب المنطقة وحجّاج المسار من أتباع الأديان الإبراهيمية - كما يسمّونها -. وتستند فكرته إلى دراسةٍ قامت بها جامعة هارفارد عن التفاوض بين أبناء إبراهيم، في إطار مبادرةٍ تُسمّى «على خطى إبراهيم» التي تعيد طرح رحلة هجرة إبراهيم وأتباعه للتأكيد على المشترك، قُدّرت هذه الخطى أو المسيرة على مدار ٥٥ يومًا، يتم خلالها الإعلان عن أسماء المدن والمناطق التي زارها عليه السلام على امتداد الرحلة، وحيثما يختلف الطريق وفقًا لمصادر القرآن والإنجيل لخلق رابطٍ مقدّسٍ بين الدول محل الرحلة[٤]. فيقدّم مسار إبراهيم تجسيدًا لرؤية المشترك الإبراهيمي كمشتركٍ روحيّ يتم تسويقه سياسيًّا وثقافيًّا وتاريخيًّا وعقائديًّا في إطار رحلة النبي إبراهيم، التي امتدت وشملت عشر دول، تم تحديدها عبر تكامل الروايات بالأديان الثلاثة معًا؛

1. Thomas Walsh, The Abrahamic Faiths and Universalism: Faith-Based Actors in a Complex World, 2019, https://www.icermediation.org/news-media/meeting-coverage/the-abrahamic-faiths-and-universalism-faith-based-actors-in-a-complex-world/

٢. الصراع حول الهوية يعيد مقولات الصهيونية حول تغيّر وتلاشي الهوية العربية، وتحديث الشخصية العربية عبر تدميرها والقضاء عليها، فتغيير الكينونة هي المحرّك للمبررات نفسها. خلاف أنّ ذلك فيه تزييف لحقيقة الصراع، وفيه ضياع للحق العربي.

3. Kimberlyn Leary (&others), Negotiating the Path of Abraham, working papers, Harvard Business School, December 21, 2009, https://www.hbs.edu/ris/Publication%20Files/10049-.pdf, accessed on 122021/12/

4. Joseph V. Montville, Track Two Diplomacy: The Work of Healing History, Op.Cit

فالمسيحية واليهودية تتفقان على الطريق الذي سلكه نبي الله، حيث يبدأ من تركيا وينتهي بمصر، أما الإسلام فلديه إضافة مهمّة، وهي وصول نبي الله إبراهيم إلى مكّة، كأحد المحطّات الهامة في التاريخ الإسلامي، ومن ثم تطرح جامعة هارفارد عشر دولٍ سافر إليها نبي الله تغطيها المبادرة، وتمثّل تجسيدًا لمشروعٍ إقليمي. وتم مأسستها في مؤسسة مسار إبراهيم التابعة لجامعة هارفارد[1].

وطرحت مبادرة مسار إبراهيم في بداية إنشائها عددًا من الأهداف والتحديات بالمنطقة؛ فأعلنت أنّ هدفها كسر الحدود السياسية تجاه المسافرين على الطريق، خاصّة أمام الإسرائيليين بالمنطقة، وجاء ذلك في تقرير أعدّته باحثةٌ بجامعة هارفارد عام ٢٠٠٤م، تُسمّى (سوزان كولن)، إذ عملت في غزة والضفة مع الفلسطينيين ومع الإسرائيليين داخل الأراضي المحتلة، وتوصلت إلى أنّ المشروع ليكون ممكن التنفيذ لا بدّ من كسر وإزالة الحدود بالمنطقة. وعدّت أن وضع إسرائيل ورفض دول المسار التطبيع معها من أصعب التحديات بالمنطقة.

فوجد أوري – رئيس مجلس أمناء مؤسسة مسار إبراهيم بجامعة هارفارد- أنّه من الصعب فرض إقامة مشروعاتٍ معينةٍ في دول الطريق كالتطبيع مع إسرائيل – وذلك في البداية فقط - فمن الأفضل أنْ يتم ذلك بالتنسيق وحثّ الدول على تبنيها للمشروع، وليس فرضه عليها كأمرٍ واقعٍ – على أنْ يكون ذلك لفترة من الوقت- فالأمر لا يجب أنْ يظهر مرتبطًا بنهج طريق إبراهيم، تفاديًا لأية توتراتٍ سياسيةٍ، على أنْ يكون التطبيع أمرًا لاحقًا، وأنْ يتم بشكلٍ تدريجيّ خلال الإنشطة المستقبلية للمسار. وكان من أخطر التساؤلات المطروحة إثارة الجدل حول ملكية المسار، أي من يملك الطريق والتحكم فيه، تلاقى هذا التساؤل مع طرح الكاهن الياس عميدون – القيادي بتيار الصوفية العالمية- وتوصلوا إلى جعل مكانة خاصة لقادة كلّ مجموعةٍ صغيرةٍ تسير على الطريق، علاوة على المسافرين الأوائل سيكونون سفراء باسم الطريق، ووجودهم مهم في تطوير الطريق، والمبادرة ذاتها لحين مناقشة قضية ملكية أرض المسار بشكلٍ أوسع بعد اكتمال المشروع، فتم النظر اليها

1. Abraham Path Initiative, Steps A long the Path: Annual Report 2013, Massachusetts Avenue: Abraham Path Initiative, https://www.scribd.com/document/228331532/Annual-Report-2013-Abraham-Path-Initiative, accessed on 222019/03/

كقضيّةٍ مؤجّلة.[١] توضح الخريطة رقم١ مسار إبراهيم، كما تم التخطيط له.

الخريطة رقم ١:

مسار إبراهيم كما تمّ التخطيط له

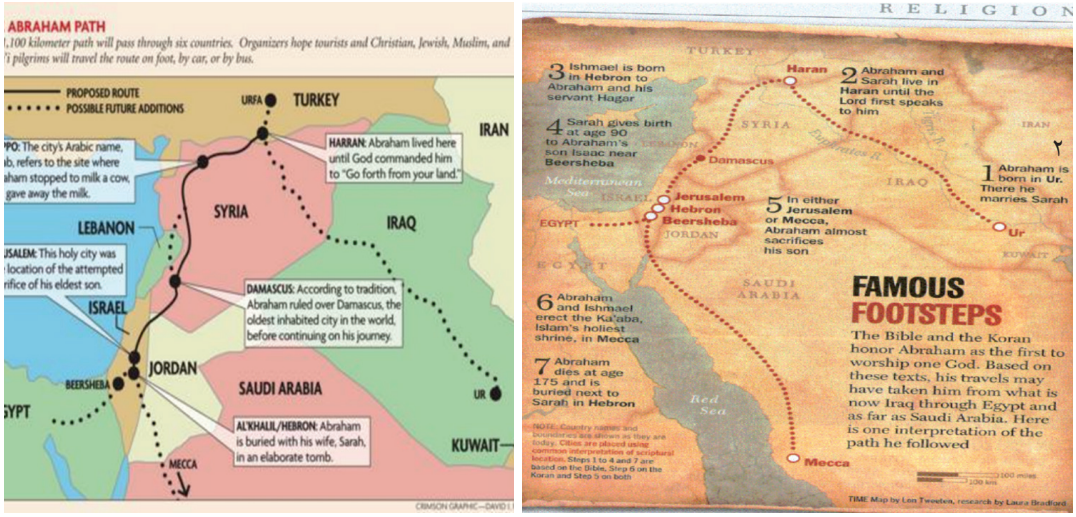

ويدرس فريق العمل في السياسات الخارجية والدين التابع لوزارة الخارجية الأمريكية طرق العمل مع أحفاد إبراهيم الروحيين؛ لتطوير شبكةٍ من طرق الحجّ تربط المواقع المقدّسة في البلدان العشر من الشرق الأوسط، التي زارها إبراهيم، كمشروع نزع الألغام من وادي نهر الأردن الذي يضمّ ثالث أقدس موقعٍ مسيحيّ لما فيه موقع معمودية يسوع المسيح في الضفة الغربية، كشكلٍ عمليّ للتنسيق على أرض الواقع بين السياسي والروحي[٣].

1. Christian B. Flow and Rachel B Nolan, Go Forth from your Country: Negotiation expert plans multi-national retracing of Abraham's path, Harvard Crimson, https://www.thecrimson.com/article/200616/11//go-forth-from-your-country-for, 162006/11/

2. David Van Biema, The Legacy of Abraham, Time Magazine, Sept. 30, 2002, http://content.time.com/time/magazine/article/0,9171,1003355,00.html, accessed on 152019/05/

3. Children of Ibrahamic Institute official website, Op.Cit.

خريطة رقم٢

رحلة الرسول إبراهيم وفقًا للديانات الثلاثة[١]

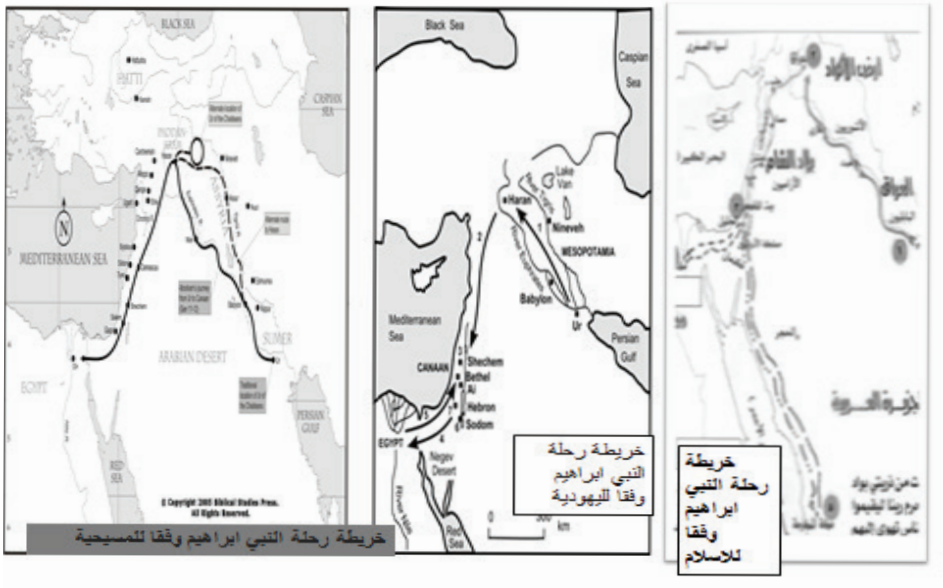

يتضح من الخريطة السابقة أنّ إضافة خطّ رحلة ابراهيم وفقًا للإسلام سيساعد إسرائيل في توسيع رقعه الرحلة، حيث تتماثل سير الرحلة في اليهودية والمسيحية وتتسع مسيرتها في الإسلام، ومن ثم ادخال مسيرة إبراهيم وفقًا للإسلام سوف تتلاقى مع مخطط أرض إسرائيل الكاملة - الذي يتشابه مع الخريطة الرسمية المعلنة من قبل جامعة هارفارد حول المسار- ، وتصل بالفعل لمكّة بالمملكة العربية السعودية كما يتّضح بالخريطة رقم ٣ التي توضح المقارنة بين أرض إسرائيل الكبرى ورحلة إبراهيم من منظور التوراة والمسيحية والإسلام والخريطة الرسمية لمبادرة مسار إبراهيم وفقًا لجامعة هارفارد.

1. Christian Library, Abraham's Journey from Mesopotamia, http://www.christianstudylibrary.org/link/abrahams-journey-mesopotamia, accessed on 112018/08/

The Bible Journey, Abram's Journey to Canaan, http://www.thebiblejourney.org/biblejourney223-/the-journeys-of-adam-enoch-noah-abraham/abrams-journey-to-canaan/, accessed on 112018/08/

التاريخ المصوّر للأنبياء والرسل، بعد هجرة إبراهيم ﷺ من بابل، ٢٠١٨.

الخريطة رقم ٣

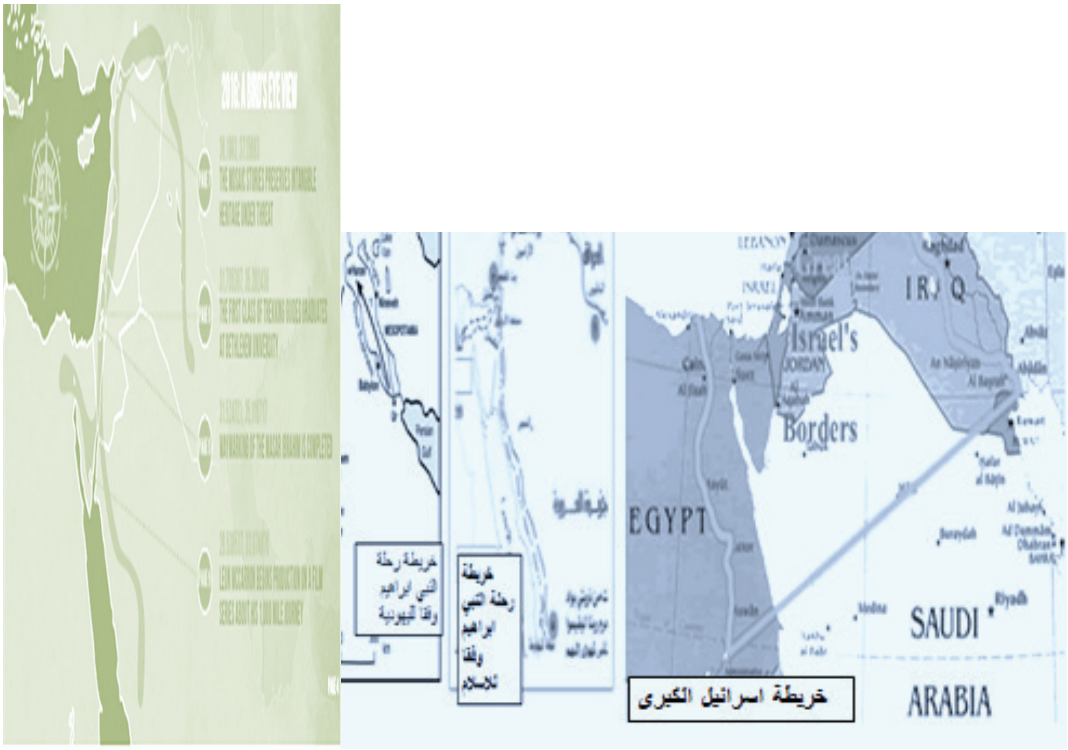

المقارنة بين أرض إسرائيل الكبرى ورحلة إبراهيم من منظور اليهودية والمسيحية والإسلام والخريطة الرسمية للمسار وفقًا لجامعة هارفارد.[١]

فتلاقي الطرحان في «مفهوم الأرض الموعودة للنبي إبراهيم ونسله وفقًا للصهيونية»، يمكن الوصول إليها بتلاقي الرؤية الإسلامية والمسيحية واليهودية في رحلة النبي إبراهيم لتمتد من النيل للفرات مرورًا بشمال المملكة العربية السعودية، وتشكّل الدول العشر التي نصّ عليها المخطط الصهيوني «أرض إسرائيل الكبرى»، وهي تتوافق مع مسار إبراهيم الصادر رسميًا عن مبادرة مسار إبراهيم بجامعة هارفارد. ممّا يعكس الرغبة في تدويل مسار يطرح خريطة إسرائيل، ويكتب تاريخ استعماريّ صهيونيّ من قبل مروجي الاستعمار الجديد بالصهيونية المسيحية بالإدارة الأمريكية.

١. هبة جمال الدين، الدبلوماسية الروحية والمشترك الإبراهيمي: المخطط الاستعماري للقرن الجديد، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، فبراير ٢٠٢١، ص ٢١٤.

٢. مشروع الاستعمار الجديد: مشروع التكامل الإقليمي الإبراهيمي «الولايات المتحدة الإبراهيمية»

تستند فكرة المشروع إلى الهوية الإبراهيمية والخبرة المشتركة بين أفراد الأسرة الإبراهيمية الواحدة، فهو مشروعٌ استعماريّ مستقبليّ يكتمل بعد تجذّر الهوية الإبراهيمية. وتتبلور فكرته في دراسةٍ أصدرها مركز Emergy)) للدراسات البيئية بجامعة فلوريدا، تطرح تطبيقًا لنموذج التكامل الإقليمي بمنطقة الشرق الأوسط تحت مسمّى الولايات المتّحدة الإبراهيمية، فالمشروع لم يقدم بوصفه مبادرةً سياسية، وإنّما رؤية استشرافية استعمارية بادّعاء الرغبة في بقاء المنطقة المهدّدة بالجفاف وندرة الموارد خلال المستقبل القريب. تحدث بعد موت الدول القومية بسبب فشلها في تلبية احتياجات شعوب المنطقة، علاوة على معول الهدم بفعل الإرهاب والصراعات الطائفية. ونظرًا لخطورة الوضع بسبب توزيع قدرٍ كبيرٍ من الموارد الطبيعية بتلك المنطقة في ظلّ ندرة الموارد بالعالم، خاصّة مع وجود كارثة تغير المناخ وما تحمله من تهديداتٍ كامنةٍ لكثيرٍ من دول العالم، مع غياب رشادة النظم المتحكّم في موارد المنطقة في إنتاج البترول وتصديره وتوظيف عوائده، ومن أجل الاستدامة وبقاء الكوكب، تأتي ضرورة إقامة اتّحاد فيدرالي يجمع كافة الدول المنهارة والمفكّكة معًا (١٨ دولة عربية وإيران، وقد يتوسع ليضم دولاً آسيويةً كأفغانستان ودولاً افريقيةً أخرى) تحت إدارة إسرائيل وتركيا، وسيتحقق قبول سكّان المنطقة لحكم إسرائيل بفعل الهوية الإبراهيمية، فتقبل خلالها الشعوب بحكم الكيان الصهيوني للأوطان العربية والإسلامية في إطار الأسرة الإبراهيمية والديانات أو الديانة الإبراهيمية الجامعة.

المشترك الروحي الإبراهيمي سيدفع الدول لقبول إقامة الولايات المتحدة الإبراهيمية رغم ندرة الموارد والصراع حولها، ستؤدّي إلى الاعتراف المتبادل بالقيم المشتركة، والاعتراف بالقيم البسيطة مثل الاشمئزاز من قتل بعضهم البعض، والعيش بسلام معًا كأسرةٍ إبراهيميةٍ واحدة. وتكون السلطة الفيدرالية في يد إسرائيل وتركيا، وشرعيتهما تتمثّل في امتلاك تكنولوجيا ترشيد الموارد الطبيعية أو ما يسمّى بـ «حوكمة إدارة المورد»، ليتحكما مركزيًا في موارد الدول العربية وإيران، وستتم مشروعات الربط بفعل القدرات التمويلية لدول الخليج العربي. ويروج لها بوصفها منظمةً سياسيةً تعكس رؤيةً فكريةً مستقبليةً قادرةً على إنتاج السلام والازدهار في جميع أنحاء الشرق الأوسط

وشمال أفريقيا، حيث تلبي احتياج الأطراف المتنازعة للعيش معًا في تناسقٍ مع الاعتماد على قاعدة الموارد التي تتسم بالندرة النسبية، يتم التشارك فيها عبر اتّحادٍ سياسيّ قائمٍ على المشترك الروحي الإبراهيمي لأبناء الأسرة الإبراهيمية الواحدة التي تم مأسستها في شكل اتحادٍ فيدراليّ بين دول المنطقة[١].

ويلاحظ أنّ الدراسة لم تتضمن الإشارة للقضية الفلسطينية، وربما يمكن تفسير ذلك بأنّ التمهيد لهذا الاتحاد الفيدرالي هو تصفية القضية الفلسطينية في دولةٍ واحدةٍ أو دولةٍ فلسطينيةٍ رمزيةٍ داخل دولةٍ إبراهيميةٍ واحدةٍ تتحكّم في سلطتها المركزية إسرائيل، وهذا ما يروج له شاؤل عوز خلال مبادرة الحركة الإبراهيمية بإسرائيل.[٢]

ومن الجدير بالذكر أنّ المخطط بدأ التنفيذ على الأرض بداخل الدول العربية المنهارة من قبل مبادرات تقدّمها قوى المعارضة كنقطةٍ بدايةٍ للانتشار على مستوى إقليم الشرق الأوسط ككل. ومن أبرز هذه الدلائل إعلان «حزب الاتّحاد الديمقراطي بشمال سوريا» عن إنشاء «المجلس التأسيسي للنظام الاتحادي الديمقراطي لروج آفا» عام ٢٠١٦. عبر إقامة ديمقراطية اجتماعيّة فيدرالية بين جميع الشعوب والفئات التي تقطن «شمال سوريا». تضمّ المكونات السورية المتعدّدة من العرب والأكراد، والآشوريين، والتركمان، والشركس، والمسلمين، والمسيحيين، والدروز، والعلويين، واليزيدين، وأعدادًا كبيرةً من الجماعات العرقية والدينية الأخرى. والإبراهيمية هي أساس الدولة الفيدرالية والمنطقة ككل، عبر الاهتمام بالثقافة الدينية الإبراهيمية وعبر دعم الجهود التي بذلها الأنبياء، هي التي أدّت إلى تطوّر ونمو القيم المعنوية والأخلاقية في المنطقة[٣].

---

1. Daniel E. Campbell & Elliott Campbell, The United States of Abraham: A Path toward Peace in the Middle East?, Emergy Synthesis 8, Conference Paper, January 2015, Proceedings of the 8th Biennial Emergy Conference (2015) , https://www.researchgate.net/publication/291818421

2. Yoel Oz, The Abrahamic Federation Movement 31-2- Plan: The Deal of the Millennium, the times of Israel, 22 July 2020,https://blogs.timesofisrael.com/the-abrahamic-federation-movement-31--2-plan-the-deal-of-the-millennium/, accessed on 122020/09/

٣. فرزند شيركو، النظام الاتّحادي الديمقراطي الجديد في شمال سوريا، منتدى فكرة : معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، https://www.washingtoninstitute.org/ar/fikraforum/view/northern-syrias-new-democratic-federal-system، 27 أيار/مايو 2016

الخاتمة:

تعد الدبلوماسية الروحية بداية مرحلةٍ جديدةٍ في مجريات السياسة الدولية لنشر المخطّط الاستعماري الجديد للصهيونية المسيحية، الساعية نحو الوصول لمعركة هرمجدون، ليتم التسويق لها بوصفها مدخلاً لتحقيق الاستقرار في العلاقات الدولية داخل التنظيم العالمي، لتصبح آلية لتعزيز الطائفية وتغذية الفرقة تحت شعار الأسرة الإبراهيمية الواحدة المرتكزة على المشترك الإبراهيمي القائم على تنحية المختلف عليه من الديانات التالية لليهودية «المسيحية والإسلام» للتشكيك فيهما، والبحث عن مشتركٍ مقبولٍ من قبل مروّجي المشروع الصهيوأمريكي من خلال ما يسمّى بالقادة الروحين على اختلاف مرجعيتهم وخلفياتهم. كمدخلٍ للقبول بالدين العام الإبراهيمي «كتاب حرية التفكير العقائدي».

وتعدّ الدبلوماسية الروحية والإبراهيمية مدخلاً لخلق هويةٍ بديلةٍ محلّ الهوية الوطنية والقومية والدينية؛ لتقبل بالمستعمر تحت إطار الأخوة الإبراهيمية والإنسانية والأسرة الإبراهيمية الواحدة.

ويتم توظيف تلك الهوية للتمهيد لقبول المخطّط الاستعماري الجديد الذي يُروّج له عبر مشروعات الربط والتكامل الإقليمي الفيدرالي الإبراهيمي القائم على أنقاض الدول القومية؛ لتتحكم إسرائيل في الموارد مركزيًّا عبر تحكّمها في السلطة الفيدرالية للاتحاد الإبراهيمي. ولعلنا نعي سبب الإبادة الجماعية بغزة «طوفان الأقصى»، وحرب لبنان، ومحاولتها القضاء على محور المقاومة، ودعم الغرب والصهيونية المسيحية لتلك العمليات ولاتفاقات إبراهام كمدخلٍ لفرض التطبيع ترجمةً للهوية الإبراهيمية الجديدة، وما تحدثه من ترتيبٍ إقليميّ جديدٍ للتعجيل بالمخطّط الاستعماري الإبراهيمي الجديد.

لائحة المصادر والمراجع

أولًا: قائمة المراجع باللغة الإنجليزية

الوثائق:

١. الأمم المتّحدة، حقوق الإنسان، مكتب المفوض السامي، نص الاتفاقية رقم ١٦٩ بشأن الشعوب الأصلية والقبلية في البلدان المستقلة، ٥ سبتمبر ١٩٩١، رابط:
https://bit.ly/2OV6HTY

٢. نصّ خطاب بومبيو في الجامعة الأمريكيّة بالقاهرة: مصر أرض الكفاح، شبكة سي ان ان بالعربية، متاحة بتاريخ ٢٠١٩/٠٠٢/٠٢ ، ١١/٠١/٢٠١٩:
https://arabic.cnn.com/middle-east/articletext-pompeos-speech-american-university-cairo-egypt-land-struggle،

الكتب:

٣. ألن كيسويتر والأسقف جون شاين، الدبلوماسية والدين: البحث عن مصالح مشتركة والانخراط في عالم من الاضطرابات والتغيرات الديناميكية، أوراق بحثية لمنتدى مرشوع العالقات الأمريكية مع العالم الإسلامي التابع لمعهد بروكنجز للعام ٢٠١٣، واشنطن: معهد بروكنجز، تشرين الثاني ٢٠١٣ متوفر بتاريخ ٢٠١٧/١١/١١:
https://www.brookings.edu/wp-content/uploads/2016/06/Religion-and-Diplomacy_Arabic_Web.pdf

المقابلات:

٤. مقابلة مع المطران منير حنا: مطران الكنيسة الأسقفية بمصر وشمال إفريقيا والإقليم الأفريقي، القاهرة، ٢٠١٧/١١/١٦

المقالات:

٥. إحسان العقلة، تعريف حوار الأديان، موضوع، متوفر بتاريخ ٢٠١٧/١١/١٩:
http://mawdoo٣.com/تعريف_حوار_الأديان

٦. العالم الجديد، الروح عند الفلاسفة، متوفر بتاريخ ٢٠١٧/١١/١٧:
http://wherweare191.blogspot.com.eg/2016/07 http://blog-post_18.html

٧. التاريخ المصور للأنبياء والرسل، بعد هجرة إبراهيم عليه السلام من بابل، متوفر بتاريخ ٢٠١٨/٠٨/١١:
https://lovely0smile.com/Msg-1021.html

٨. عصام عبد الشافي، البعد الديني في السياسة الخارجية: جدالات الفكر والحركة: الجزء الثاني، كنانة أونلاين، متوفر بتاريخ ٢٠١٧/١١/١٩:
http://kenanaonline.com/users/ForeignPolicy/posts/537892

٩. فرزند شيركو، النظام الاتحادي الديمقراطي الجديد في شمال سوريا، منتدى فكرة : معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ٢٧ أيار/مايو ٢٠١٦:
https://www.washingtoninstitute.org/ar/fikraforum/view/northern-syrias-new-democratic-federal-system،

ثانيًا: قائمة المراجع باللغة الإنجليزية:

Books:

10. Allen Keiswetter and Bishop John Chane, Diplomacy and Religion: Seeking Common Interests and Engagement in a Dynamically Changing and Turbulent World, https://www.brookings.edu/wp-content/uploads/2016/06/Religion-and-Diplomacy_English_Web.pdf, accessed on 05/11/2017

11. Andrew Preston, Sword of the Spirit, Shield of Faith: Religion in American War & Diplomacy, New York: Alfred A. Knopf, 2012 .

12. Scott W. Hahn & Benjamin Wiker, Politicizing the Bible: the Roots of Historical Criticism and the Secularization of Scripture 1300-1700 ,The Cross Road Publishing Company: Herder & Herder Book , 2013 , Barnes & Noble, www.branesandnoble.comlwlpoliticizing-the-bible-scott-w-hahn/1110929768#ProductDetailsTab, accessed on 23/03/2021

13. Roland Czada (& others), Religions and World Peace Religious Capacities for Conflict Resolution and Peacebuilding, CZADA, Roland; HELD, Thomas; WEINGARDT, Markus. Religions and World Peace. Baden-Baden, Nomos 2012, https://bundesstiftung-friedensforschung.de/wp-content/uploads/2017/09/religions.and_.world_.peace_.czada_.et_.al_..pdf, accessed on 15/01/2019

Periodicals:

14. Abhishek Banerjee, «Abrahamic Religions Good, Pagan Cultures Bad: How Liberal Media is Cheering Biden and Christian over America», Opindia, Feb, 6, 2021

15. Andrew J. Rotter, “the Religious Typology of American Foreign Relations”, Nazan Review of American Studies, Volume 29 2007: Proceeding of the NASSS 2007

16. Christian B. Flow and Rachel B Nolan, Go Forth from your Country: Negotiation expert plans multi-national retracing of Abraham's path, Harvard Crimson, https://www.thecrimson.com/article/2006/11/16/go-forth-from-your-country-for, 16/11/2019

17. Daniel E. Campbell & Elliott Campbell, "The United States of Abraham: A Path toward Peace in the Middle East?", Emergy Synthesis, No. 8, Conference Paper, January 2015, Proceedings of the 8th Biennial Emergy Conference (2015) , https://www.researchgate.net/publication/291818421

18. Francis Fukuyama, TRANSITIONS TO THE RULE OF LAW, Journal of Democracy, January 2010, VOLUME21, ISSUE1, PP. 31-44, https://www.journalofdemocracy.org/articles/transitions-to-the-rule-of-law/ accessed on 15/01/2019

19. Joseph V. Montville, "Track Two Diplomacy: The Work of Healing History", The Whitehead Journal of Diplomacy and International Relations, Summer/Fall 2006, www.journalofdiplomacy.org, accessed on 11/10/2017

20. Kimberlyn Leary (&others), Negotiating the Path of Abraham, working papers, Harvard Business School, December 21, 2009, https://www.hbs.edu/ris/Publication%20Files/10-049.pdf, accessed on 12/12/2021

21. Missouri Synod, The Abrahamic Religions: An Evaluation from the Theological Perspective of The Lutheran Church, https://www.lcms.org/Document.fdoc?src=lcm&id=2937, accessed on 11/11/2017

Articles:

22. Claire E. Wolfteich, Spirituality, https://www.bu.edu/cpt/files/2010/04/Wolfteich-Spirituality-and-PT-2011-Wiley-Blackwell.pdf, accessed on 17/11/2017

23. David Van Biema, The Legacy of Abraham, Time Magazine, Sept. 30, 2002, http://content.time.com/time/magazine/article/0,9171,1003355,00.html, accessed on 15/05/2019

24. International Center for Religious & Diplomacy, http://icrd.org/approach/, accessed on 16/11/2017

25. Howard Steven Friedman, 5 Religions With The Most Followers, https://www.huffingtonpost.com/howard-steven-friedman/5-religions-with-the-most_b_853000.html, 25/06/2011

26. IvyPanda, Religion and Politics Religious Capacities for Conflict Resolution and Peacebuilding,

27. , https://ivypanda.com/essays/religion-and-politics/, Nomos 2012, accessed on 15/01/2019

28. Madeleine Albright, Faith & Diplomacy, https://globalengage.org/attachments/499_albright-faith-and-diplomacy.pdf, accessed on 11/10/2017

29. Michael Sean Winters, politics influenced religion, https://www.ncronline.org/news/opinion/distinctly-catholic/2017-politics-influenced-religion, Dec 29, 2017, accessed on 15/01/2019

30. Serhat S. Cubukcuoglu, JUDAISM, CHRISTIANITY, AND ISLAM: Are these monotheistic traditions intrinsically opposed to each other?, https://www.academia.edu/9533453/Conflict_in_Monotheistic_Religions, accessed on 15/01/2019

31. Thomas Walsh, The Abrahamic Faiths and Universalism: Faith-Based Actors in a Complex World, 2019, https://www.icermediation.org/news-media/meeting-coverage/the-abrahamic-faiths-and-universalism-faith-based-actors-in-a-complex-world/

32. Yoel Oz, The Abrahamic Federation Movement 3-2-1 Plan: The Deal of the Millennium, the times of Israel, 22 July 2020,https://blogs.timesofisrael.com/the-abrahamic-federation-movement-3-2-1-plan-the-deal-of-the-millennium/, accessed on 12/09/2020

Websites:

33. Abraham Path Initiative, Steps A long the Path: Annual Report 2013, Massachusetts Avenue: Abraham Path Initiative, https://www.scribd.com/document/228331532/Annual-Report-2013-Abraham-Path-Initiative, accessed on 22/03/2019

34. Abrahamic Reunion, http://stjamesbozeman.org/sites/default/files/abrahamic_reunion_flyer.pdf, accessed on 11/11/2017

35. Bible Journey, Abram's Journey to Canaan, http://www.thebiblejourney.org/biblejourney2/23-the-journeys-of-adam-enoch-noah-abraham/abrams-journey-to-canaan/, accessed on 11/08/2018

36. Children of Ibrahamic Institute official website, http://abraham.lib.virginia.edu/

studentuva.html, accessed on 05/11/2017

37. Christian Library, Abraham's Journey from Mesopotamia, http://www.christianstudylibrary.org/link/abrahams-journey-mesopotamia, accessed on 11/08/2018

38. Official website of REV Dr. JAEROCK LEE, https://www.drlee.or.kr/english/01_Leejaerock/faith1.asp, accessed on 21/11/2017

39. Work Together, Washington DC, World Bank, 2006, http://siteresources.worldbank.org/EXTDEVDIALOGUE/Resources/Development_Faith.pdf, accessed on 22/11/2017

ترجمات

يتناول هذا الباب ترجمة البحوث والدراسات المتعلقة بتحليل ونقد الاستعمار من سائر اللغات إلى اللغة العربية وبأقلام المفكرين من العالم الإسلامي وغير الاسلامي.

ما الاستعمار؟

گَايْ بارْفيِّي

ترجمة: جمال عمّار

ما الاستعمار؟

گَايْ بارْفِيِّي [1]

الملخص

يسعى هذا البحثُ من خلال المنهجِ التحليليّ إلى الكشفِ عن حقيقةِ الاستعمارِ colonisation، بتجريدِ الاصطلاح دلاليًا عن باقي الاصطلاحاتِ المرتبطةِ به كاصطلاحِ السيطرةِ (الهيمنة / domination)، والاستغلالِ ((exploitation، والاستيعابِ (assimilation)، كما يفرّقُ بين الاستعمارِ والاستغلالِ؛ ليصلَ إلى أنّ الاستعمارَ وسيلةٌ خاصّةٌ للهيمنة، فهو شكلٌ خاصٌّ من أشكالِ الاستغلال؛ فالاستعمارُ هوَ عمليّةُ استغلالٍ لجميعِ مواردِ البلد، يقومُ بها سُكّانٌ جُدُدٌ يستقرّون فيه ويشكلّون مجتمعًا تامًّا كاملاً.

وتناولَ هذا البحثُ العديدَ من الأمورِ المهمّةِ والدقيقةِ، أهمّها موقفُ الاستعمارِ من السكّانِ الأصليينَ، كإشراكهم في مشروعه، أو إقصائهم وطردهم، أو استيعابهم كإيدٍ عاملة. والإقصاءُ في نظرِ الباحثِ، هو النّمطُ الأساسيُّ للعلاقاتِ بين الاستعمارِ (colonisation)، والسّكّانِ البلديّينَ الأصليّين؛ لأنّ المستعمراتِ الكبرى الحقيقيّةَ، الأشدَّ كثافةً سُكّانيّةً، لا تحتاج إلى السّكّانِ البلديّينَ الأصليّين، الذين يمثّلون أقليّةً ضئيلةً، ويُمكن نظريًّا ألّا يكونَ لهم وجودٌ. ويعدُّ المستعمِرُ المستوطِنُ الأرضَ شاغرةً، غيرَ مشغولةٍ، وهذا يُتيح له استغلالُها، واستعمارُها كما يريد. وفي البحثِ موضوعاتٌ عديدةٌ أُخر، سوف تطّلعُ عليها مفصّلاً في تضاعيفه.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار، الاستغلال، الهيمنة، الثورة، الإقصاء، العُنصريّة.

---

١. گَايْ بَارْفِيِّي (Guy PERVILLÉ) أستاذ خبير في التّاريخ المعاصر في جامعة تولوز - لو ميرايْ / فرنسا.

المصدر: مجلّة التّاريخ الحديث والمعاصر، المجلّد ٢٢، العدد ٣، جويلية (تمّوز)-سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥، صص. ٣٢١-٣٦٨.
doi: https://doi.org/10.3406/rhmc.1975.2323
نقْلاً من موقع پَرْسِي (percée) على شبكة الأنترنت.
تعريب: جمال عمّار

إنّ «الفكرة الاستعماريّةَ»، (idée coloniale) في فرنسا كما في غيرها، تتميّز بأدنى درجات الوضوح والجَلاء، ولا تسير نحو مزيدٍ من الوضوح، بل هي، على العكس من ذلك، تزداد إيغالاً في الغموض.

«الاستعمار»[١] (colonisation)، و«الاستعمارويّة» («النّزعة الاستعماريّة / (colonialisme، و«الامبرياليّة» («الاستكبار» / (impérialisme، إليكم البعض من المصطلحات التي تُستعمل بغموضٍ بدرجاتٍ متفاوتةٍ، والتي يمثّل تجميعُها رُكامًا خليطًا دلاليًّا ذا حدودٍ مُبهَمةٍ.

«ما المقصودُ؟»: لا أحدَ يسأل هذا السّؤالَ؛ لأنّ المفروضَ أنّ الجميع يملكون الجوابَ عنه؛ كلٌّ يحمل في ذاته جوابَه الخاصَّ به، الذي هو على قدرٍ كبيرٍ من الذّاتيّة وعلى قدرٍ متدنٍّ من الدِّقّة بحيثُ يبقى غالبًا مُضْمَرًا. من أجل ذلك نلحظ أنّ المناقشاتِ بين «أنصار الاستعمار» (colonialistes) و«الـمُعادين للاستعمار» (anticolonialistes)، مثلاً حول القضيّة الجزائريّة [الاستعمار الفرنسيّ]، أو في زمنٍ أقربَ إلينا، حول «الطابع الاستعماريّ» لدولة إسرائيل[٢]، قد أخذت صبغةَ الجدال الفوضويّ العقيم. لكنْ مَنْ في زمننا هذا، يجرُؤ على التّصريح بأنّه من «أنصار الاستعمار»[٣]؟ لقد فقد الاستعمارُ صيتَه وهيبتَه؛ إنّه الآن وصْمةُ عارٍ. وعلى الرّغم من ذلك فإنّ الاستعمارَ مجهولُ الحقيقة واقعًا.

عندما نسمع كلمةَ «استعمار» (colonisation) تسبق إلى أذهاننا «السّيطرة» (الهيمنة /

---

١. عنوان المقال باللّسان الفرنسيّ Qu'est-ce que la colonisation؟ ، مجلّة التّاريخ الحديث والمعاصر، المجلّد ٢٢، العدد ٣، جويلية (تمّوز). سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥، صص. ٣٢١-٣٦٨.doi: https://doi.org/١٠,٣٤٠٦/rhmc.٢٣٢٣,١٩٧٥نقْلاً من موقع پَرْسِي (percée) على شبكة الأنترنت.

٢. «إسرائيل، هل هي حقيقةٌ استعماريّةٌ؟»، مقالٌ كتبه المستشرقُ مكسيم رودنسون في مجلة الأزمنة الحديثة، العدد ٢٥٣ مكرّر، ملفّ حول الصّراع الإسرائيليّ-العربيّ (١٩٦٧)، ص. ١٧-٨٨.

"Israël, fait colonial?" par Maxime RODINSON, dans Les Temps Modernes no 253 bis, dossier sur le conflit israélo-arabe (1967), p. 17 - 88.

٣. مصطلح «الاستعمارويّة» (النزعة الاستعماريّة / (colonialisme، الذي ابتدعه المُعادون للاستعمار (موليناري (MOLINARI)، ١٨٩٥)، كان تحقيريًّا منذ البداية. راجع شارل-روبار آجيرون، معاداة الاستعمار في فرنسا من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٩١٤، باريس، بوف، ١٩٧٣، ص. ٥.

Charles-Robert AGERON, L'anticolonialisme en France de 1871 à 1914, Paris, PUF, 1973, p. 5.

(domination)، وهذه الأخيرة تستبطن «الاستغلال» (exploitation). حتّى أنّ الاستعمار، الـذي يكثر الكلام حوله، لم يُفكَّر فيه أبدًا. وبسبب هذا اللَّبْس المتواصل فإنّ الاستعمار هو الحالةُ المعاكسةُ لحالة الألزاس-اللُّورانْ (Alsace-Lorraine) بعد معاهدة فرنكفورت: «نتكلّم عنها دائمًا، ولا نفكّر فيها البتّة!...»

نحن ضائعون طوْعًا في متاهة التّصنيفات المتعلّقة بـالاستعمار، بأنواعه المختلفة وبمنظوماته المتعدّدة: هي تصنيفاتٌ اقتصاديّةٌ، وقانونيّةٌ، وتاريخيّةٌ... يبدو أنّ الاستعمار من الأمور التي يتعذّر تعريفُها، مثل الكهرباء، إلّا من خلال مظاهرها وآثارها! هل من الشّطط أنْ نطالب بتعريفٍ نظريٍّ واضحٍ قادرٍ على حصر كلّ الحالات الخاصّة للاستعمار في صيغةٍ جامعةٍ بسيطة؟ إذا ما تعذّر علينا إرجاعُ تشكيلة «الظواهر الاستعماريّة» (phénomènes coloniaux) المتنوِّعة إلى هذه الوحدة الجميلة، فينبغي، على الأقلّ، أنْ نُشخِّصَ اثنين أو أكثرَ من العناصر الأساسيّة، التي يُمكِّننا توليفُها من إعادة بناء «الحالات الاستعماريّة» (colonialismes) المرصودة تاريخيًّا. في هذه الفرضيّة يُخشى أنْ يكون كلُّ اقتراحٍ عامٍّ متعلّقٍ بـالاستعمار خاطئًا في عموميّته، مع أنّه يمكن أنْ يكون صحيحًا جزئيًّا.

في الماضي فقط، وجدنا بعض الأمثلة المشجِّعة لهذه المنهجيّة التّحليليّة. يُميِّز مقالُ «مستعمرة» (Colony)، في «الموسوعة البريطانيّة» (Encyclopaedia Britannica)، طبعة سنة ١٨٧٧، يُميّز بشكلٍ قاطعٍ بين نوعَيْن من الاستعمار (colonisation)، واحد منهما فقط يتوافق مع هذا المفهوم. بعد ذلك، نجد أنّ جُول هارْمنْد (Jules HARMAND)، مستوحِيًا من المفهوم البريطانيّ نفسِه، يخصّص اسم الاستعمار (colonisation) لما يُطلَق عليه بشكلٍ عامٍّ اسم «استعمار الإسكان» («استعمار التّوطين» /(colonisation de peuplement، وذلك في كتابه، المنشور سنة ١٩١٠م، السيطرة والاستعمار (الهيمنة والاستعمار / Domination et Colonisation). ثم من بعده، ميّز جورج هارْدِي (Georges HARDY)، مثلاً، بين «الطّابع الاستعماريّ» (aspect colonial) و «الطّابع الامبرياليّ (الطّابع الاستكباري» / (aspect impérial. لكنْ، وللأسف، لم يترسّخ هذَان الـمَثَلان فيكونا قدوةً علميّةً للباحثين، وبإمكاننا، ومن خلال مقال «مُستعمَرة»، في الموسوعة البريطانيّة نفسِها، الـمُحيَّن في طبعة ١٩٦٩، أنْ نرصد مدى الانحدار الحاصل في الأفكار الواضحة ومدى ازدياد الخبل (الاختلاط العقليّ / (confusion mentale، في عالَمنا المضطرب أكثرَ من أيِّ زمنٍ مضى.

من أجل ذلك أرى أنّه من الواجب علينا أنْ نستعيد هذه المنهجيّةَ التّحليليّةَ، وأنْ ندفعَ بها إلى مدًى أبعدَ. سوف نسعى للقيام بـ»تحليلٍ طيفيٍّ شاملٍ» (analyse spectrale) للرُّكامِ الخليطِ الدّلاليّ. سوف يمكّننا هذا التّحليلُ من التّمييز ليس بين عنصرَيْن أساسيَّيْن فقط، بل بين أربعة عناصرَ[١]، يُؤْمَلُ أنّ التّوليف بينها يكفي لإعادة رسم الفروق الدّقيقة بين الظّواهر الملحوظة. هذه العناصر هي:

١. **السيطرة** (**الهيمنة** / domination)،

٢. **الاستغلال** (exploitation)،

٣. **الاستعمار** بحصر المعنى (colonisation proprement dite)،

٤. **الاستيعاب** (assimilation).

وهكذا يصبح بإمكاننا أنْ نميّز الاستعمارَ(colonisation) من الظّواهر المرتبطة به، والتي غالبًا ما يقع الخلط بينه وبينها، تمامًا كما يخلّص سَبّاكُ المعادنِ المعدنَ من الشّوائب.

من الخطأ أنْ يجنحَ ظنُّ البعض إلى أنّ هذا المشروعَ النّظريَّ الذي يروم «إضفاء معنًى أكثرَ وضوحًا على كلماتٍ مألوفةٍ عند أهل الاختصاص» (donner uns sens plus pur aux mots de la tribu)، يندرج تحت هوَسٍ نرجسيٍّ صادرٍ من صَفائيٍّ (puriste) هاوٍ لفنّ التأصيل اللّغويّ، أو من «مُجرِّدٍ خالصٍ» (abstracteur de quinte essence). نحن ندرك جيدًا أنّ الكلماتِ لها تاريخٌ، وأنّها تغتني (تتطوّر) أو تبلى بالاستعمال؛ لكنّ الكلماتِ، التي نتكلّم عنها هنا، قد تآكلتْ عبر تاريخها إلى درجة أنْ لم يبقَ لها سوى مظهرٍ خادعٍ من المعنى. نحن نسعى، تحديدًا، إلى إعادة معنًى إلى كلماتٍ صارت جوفاءَ خاويةً من المعنى (flatus vocis). من أجل تحقيق ذلك من الضّروريّ أنْ نبحثَ عن الظّروف التّاريخيّة التي حصل فيها هذا التّآكل الدّلاليّ. كيف تكوّنت الفكرةُ الملتبسةُ عن الاستعمار (colonisation) التي نسعى إلى توضيحها؟ لماذا صمدت فاستمرّت إلى أيامنا هذه؟ هل إنّ النّاسَ قليلو الاهتمام بالتفكير من خلال مصطلحاتٍ صحيحةٍ ودقيقةٍ؟

أوّلا، يجب أنْ نُزيحَ عن عقولنا غشاوةَ الوهم حول هذه النّقطة: لقد حافظ اللَّبْسُ على وجوده في العقول؛ لأنّه يخدم مصالح الصّائدين في المياه العكرة.

---

١. لقد ميّز المركيز دو ميرابو ثلاثةً، وذلك في كتابه (صديقُ النّاس)، انظر في ما يلي، الصفحة ٢٣.

Le marquis de MIRABEAU, L’ami des hommes.

«إحدى الأساليبِ الأكثر شيوعًا التي تنهجها الظّلاميةُ المعاصرةُ تتمثّل في اللّعب على الغموض المقصود الذي أُلْقيت في غَيابَته المفاهيمُ المستعملةُ. مقابل هذا النّزعة، يجب علينا أنْ نعود إلى متطلّبات القرن الثّامن عشر، أيْ إلى المتطلّبات الحقيقيّة لكلّ عملٍ علميٍّ جديرٍ بهذا الاسم: أنّ نُعرِّفَ، دائمًا، الكلمات التي نستعملها، وألاّ نستعملَها إلاّ في المعاني التي قد سبقَ أنْ وُضعت لها وذُكِـرتْ في تعريفها»[١].

لا يمكن لعلم التّاريخ ولعلم السّياسة، إنْ أرادا أنْ يكونا عِلمَيْن حقًّا، أنْ يظلاّ تابعيْن خاضعيْن للمصطلحيّة الإيديولوجيّة.

تمثّل السيطرةُ (الهيمنة)، والاستغلالُ، والاستعمارُ (colonisation)، والاستيعابُ جوانبَ متكاملةً من ظاهرةٍ قديمةٍ قِدَم التّاريخ البشريّ: هي ظاهرة توسُّع المجتمعات والحضارات. لقد كسرتِ البشريّةُ حاجزَ الانغلاق القَبَليّ من خلال التمدّد العُنفيّ أو السِّلميّ، ووسّعتْ آفاقَها إلى مدًى يشمل مجموعاتٍ كبيرةً متّحدةً في حضارةٍ جامعةٍ واحدةٍ، إلى أنْ وصل الأمر بالبشريّة إلى الحالة الحاضرة لعالَـمٍ مُوحَّدٍ تقنيًّا من خلال وسائل التّواصل السّريعة، مع أنّه لا زال مُقسَّمًا من جهة المصالح والأفكار[٢]. إنّ التوسّعَ الأوروربيَّ، الذي استمرّ بعنادٍ من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين، هو السببُ الأساسُ لهذا العبور إلى المدى العالمي؛ لكنْ، هذا لا يعني أنّه لم تحدث عمليّاتُ توسُّعٍ في ما سبق من تاريخ البشريّة، وأنّه لنْ تحدثَ عمليّاتٌ أخرى في المستقبل.

السّيطرةُ (الهيمنةُ) هي سلطةُ السّيد (dominos) المطلَقة على عبيده. وتُرادفها في المعنى، تمامًا، كلمةُ التسلّط (السّطوة / empire, imperium)، [ومنها أُخذ اسمُ الإمبراطوريّة / empire]، التي هي السّلطة غير المشروطة للقائد العسكريّ على جنوده، وتوسُّعًا في المعنى، تُضافُ سلطتُه على أعدائه المغلوبين. وهكذا، فإنّ الإمبراطوريّة (empire)، في العلاقات الدّوليّة، هي كيانٌ سياسيٌّ قائمٌ على الغزو العسكريّ، وعلى توطيد وجوده باستعمال القوّة العسكريّة، أو بمجرد

١. مكسيم رودنسون، الإسلام والرّأسماليّة، باريس، لو سُويْ، ١٩٦٦، ص. ٢١-٢٢.

Maxime Rodinson, Islam et capitalisme, Paris, Le Seuil, 1966, p. 21 - 22

٢. هذا الموضوع عَرَضَه هرْبرْتْ لُوثِي، في مقاله «الاستعمار وتقدّم الجنس البشريّ»، في مجلة تاريخ الاقتصاد، العدد ٢١، ص. ٤٨٣-٤٩٥.

Herbert LÜTHY, «Colonization and the making of Mankind», Journal of Economic History, XXI, p. 483 - 495.

استعراضها والتّلويح باستعمالها للتّرهيب. يمكن أنْ يتحوّل تحالُفٌ معقودٌ طوعًا إلى تسلُّط: هكذا كانت الإمبراطوريّةُ الأثينيّةُ، أو الإمبراطوريّة الرّومانيّة في بداياتها. تُعرِّف الإمبراطوريّةُ نفسهَا بتعدّد الشّعوب والدّول القديمة التي تجمعها تحت سلطتها. من بين تلك الشّعوب يُوجَد عمومًا شعبٌ واحدٌ يجب تمييزُه عن البقيّة: إنّه الشّعبُ الغازي، الذي تأخذ الإمبراطوريّةُ منه اسمَها: الإمبراطوريّة الفارسيّة، الإمبراطوريّة الرّومانيّة، إمبراطوريّة الصّين (تْصِنْ / Tsin)، الإمبراطوريّة العربيّة، إلخ... [!]

يتسبّب تكوينُ الإمبراطوريّة في مشكلةٍ سياسيّةٍ، هي مشكلةُ وحدة المجموع المكوَّن بهذه الطّريقة. هل يجب الحفاظ على امتياز الشّعب الغازي، الغالِب، في العلاقة بكلّ الشّعوب الأخرى المغلوبة؟ سوف ينتج عن ذلك إمبراطوريّةٌ غيرُ متجانسةٍ (hétérogène) وهشّةٌ؛ لأنّ الصّرحَ الـمَشيدَ على القوّة والفاقدَ للحسّ السّياسيّ العامّ (conscience politique commune) سوف يكون مهدَّدًا بالتفكّك منذ أنْ تفقدَ القوّةُ الغازيةُ سلطتَها، أو أنْ تغلبَها جهةٌ أخرى أقوى منها. أو هل سيتمّ، تدريجيًّا تصاعديًّا، بسْطُ وضعِ الشعب الغالبِ واسمِه إلى مجموع مواطنينه؟ وهكذا سوف يتكوّن جسمٌ سياسيٌّ جديدٌ، لن يحتفظ من الإمبرطوريّة سوى باسمها، وسوف يُصبح واقعًا أمّةً جديدةً، أوسع جغرافيًّا، وأشدَّ قوّةً من كلا الكيانَيْن السّابقَيْن. ظلّتِ الأمبراطوريّةُ الرومانيّةُ نموذجًا مثاليًّا لمثل هذا التّطوّر في الذاكرة الجماعيّة للشّعوب الأوروبيّة: منذ الدّستور الأنطونيّ لسنة ٢١٢ (مرسوم كاراكالاّ / édit Caracalla)، تحوّلتِ الإمبراطوريّةُ الرّومانيّةُ (Imperium Romanum) إلى رومانيا (Romania)، ولقد رثا سقوطَ روما سنة ٤١٠ الغاليُّ (من بلاد الغال / Gaulois) روتيليس ناماتيانوس (Rutilius Namatianus) بعباراتٍ لا تُنسى: «لقد كنتِ مدينةً (عاصمةً) لما كان في ما مضى عالَمًا بذاته» (Tu urbem fecisti ex quo orbis erat / Tu as fait une Ville de ce qui était auparavant un Monde). في الطّرف الآخر من العالَم، كانت الإمبراطوريّةُ الصّينيّةُ تمثّل النّموذجَ المثاليَّ نفسَه للدّولة التي تجمع في كيانها الموحَّد أغلبَ ما كان يبدو أنّه هو العالَم أجمعَ.

في الحقيقة، يبدو أنّ الخاصيّةَ المميِّزةَ للإمبراطوريّات هي السّعي لتحقيق مشروعٍ ذي مدًى عالميٍّ. هو مشروعٌ مُفارق (غريبٌ غير معقول / paradoxal)، كما أنّ فاعليّته لم يتمَّ إثباتُها من خلال التّجربة بشكلٍ تامٍّ بعدُ. وذلك يعني بكلّ بساطةٍ، السّعيَ لفرض السّلام بتوسّل الحرب. لقد عرض شارل بيگْوِي (Charles PGUY) هذا الموضوعَ، في كتابه «فيكتور ماري الكونت هيگُو» (Victor Marie comte HUGO)، وذلك في رثائه للقائد العسكري أرْنسْتْ بسيشاري (Ernest PSICHARI):

«لاتينيٌّ، رومانيٌّ، وريثٌ للسلام الرّومانيّ... رومانيٌّ وريثٌ للقوّة الرّومانيّة، رومانيٌّ وريثٌ للقانون الرّومانيّ... صانعٌ للسّلام، بانٍ مؤسِّسٌ، منظِّمٌ مدبِّرٌ، مُقنِّنٌ، متكلِّمٌ ذو حُجّةٍ...، أنت صانعُ السّلام، الذي أرسى السّلامَ تحت ظلال السّيف، وهو السّلامُ الوحيدُ الذي يصمد، والوحيدُ الذي يدوم، والوحيد المأمون في النهاية هو في الحقيقة السّلامُ الوحيد الشرعيُّ وسليمُ المعدن؛ أنت الذي يعرفُ ما يعني السّلامُ المفروضُ، ويعرف كيف يفرض السّلامَ، وسيادةَ السّلام؛ أنت الذي يحفظ السّلام بالقوّة، «أنت الذي يفرض السّلام بالحرب» (bello pacem qui imposuisti)؛ وأنت الذي يعرف أنْ لا سلامَ صلبًا وثابتًا إلّا ما كان مفروضًا بالقوّة، وإلّا الذي تحفظه الحربُ، ومن دون حاجةٍ لاستعمال السّلاح؛ أنت الذي صنع السّلام بالأسلحة، وفرضَه، وحفظه بقوّة الأسلحة...[١]

اقترح الأمريكـيُّ جيْمسْ بورْنْهامْ (James BURNHAM) على بلده أنْ يلعب هذا الدّورَ الإمبرياليَّ (الاستكباريَّ)[٢]. لكنّ رؤساءَ الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وإنْ كانوا منذ ثلاثين سنة يلعبون دورَ «دَرَكِيِّي العالم» (gendarmes du monde)، لا يحبّذون بتاتًا عبارةَ «الإمبراطوريّة الأمريكيّة»، بل يحبّذون اسم «القائد» (leadership). «القائدُ» يعني «الهيمنة» (hégémonie)، وهي العبارة التي نعتهم بها الجنرال ديغول (de GAULLE)، والتي تعني إدارة تحالفٍ. كان اليونانيّون القدامى يميّزون بوضوحٍ، قبل انتصار إسبرطة على أثينا، «هيمنة» اللّاسيدوميّين (الدّوريّين / الإسبرطيّين القدامى(lacédomiens / المحترمين، من سيادة حلفائهم، ومن الحلف (arche) الذي فرضه الأثينيَون على المدن التّابعة لهم. لكنْ، كما يُثبت مثال أثينا، ومثال إسبرطة بعد انتصارها، يمكن أنْ يتحوّل حلفٌ إلى إمبرطوريّةٍ، وعبارةُ «الإمبرياليّة الأمريكيّة» أصبحتْ شائعةً في أوساط اليسار، تمامًا مثل عبارة «الإمبرياليّة السوفياتيّة» في أوساطٍ أخرى.

يمكننا أنْ نعرّف الإمبرياليّة (الاستكبار) بأنّها سياسةٌ تهدف إلى غزو الآخرين، تمارسها إمبراطوريّةٌ بنحوٍ واعٍ ومتعمَّدٍ. هكذا شخّص هاينريش فريديُونْگْ (Heinrich FRIEDJUNG)

---

١. ذكره راوول جيرارْدي، الفكرة الاستعماريّة في فرنسا، باريس، منشورات لا طابل رُونْدْ (المائدة المستديرة)، ١٩٧٢، ص. ١١٣.

Cité par Raoul GIRARDET, L'idée coloniale en France, Paris, La Table Ronde, 1972, 113.

٢. جيْمسْ بورْنْهامْ، عصر المؤسِّسين.

James BURNHAM, L'ère des organisateurs.

«عصرَ الإمبرياليّة»: «تصبح الرّغبةُ في القوّة واعيةً، ولهذا فهي ترقى إلى درجة دافعٍ للحركة»[١]. وعلى العكس من ذلك، يرى رايمون آرون (Raymond ARON) أنّ قوّةً عظمى يمكنها أنْ تُطبّق سياسةً «تسلّطيّةً» (impériale) من دون قصدٍ «إمبرياليٍّ» (impérialiste)[٢].

لقد طال الجدالُ في محاولة معرفة التّاريخ الذي كفّ فيه التوسُّع الرومانيُّ عن كونه عَرَضيًّا (fortuit) ليصبح منهجيًّا (systématique)؛ يزعم البعضُ أنّ الإمبراطوريّةَ البريطانيّةَ كانت قد غُزِيَتْ «في حين نوبةٍ من الذّهول وشرود الذّهن» (in a fit of absentmindedness). يُصوَّر التكوُّنُ غيرُ الإراديِّ للإمبراطوريّات، بشكل عامٍّ، كحالاتٍ تحصل بعد وقوع حروبٍ دفاعيّةٍ أو هجوماتٍ وقائيّة، الغرضُ الوحيدُ منها هو حمايةُ الحدود بتحسين الوضع الأمنيّ للحدود. أدان ليونارْد هوبْهَاوْسْ (Leonard HOBHOUSE)، في كتابه الدّيموقراطيّة وردّ الفعل (Democracy and reaction)، المنشور سنة ١٩٠٤، أدان هذا التّفسيرَ الذي يُلْقي بالمسؤوليّة في وقوع الغزو على الشّعب الـمَغْزُوّ:

«يجد الـمُراقبُ المتتبّعُ المتحيِّرُ، الذي ينتظر بلا جدوى حدوثَ هذا السّلامِ البريطانيِّ الموعودِ طويلًا، يجد نفسَه في مواجهة تسلسُلٍ لا ينتهي إلى حدٍّ من الحروب الحدوديّة، التي تتفاوت في ضراوتها وخطورتها، والتي تنتهي جميعُها بضمّ أراضٍ جديدة. تحت سلطة الإمبرياليّة، «معبدُ جانوس لم يُغلِقْ أبوابَه أبدًا». ولمْ تكفَّ الدماء عن السّيلان، ولَم تكفَّ العيونُ الثّكلى عن بكاء الموتى. يقينًا، في كلِّ حالةٍ كان يُذْكَر تبريرٌ رائعٌ. نحن دومًا في حالة دفاعٍ في حروبنا. لم تكن لنا نيّةٌ للدّخول في الحرب. نعم لقد دخلنا الحرب، لكنْ لمْ يكن في نيّتنا احتلالُ أرضِ العدوِّ المغلوب. صحيحٌ أنّنا قد احتللنا أرضَه بشكلٍ مؤقّت، لكنّنا لا ننوي ضمّها. لقد ضممناها، لكنْ لقد كنّا على يقين منذ البداية أنّ سيرورة الأحداث كانت غيرَ قابلةٍ للتجنّب، وأنّ ما حصل كان قدرًا محتومًا. في جميع الحالات كنّا نقوم بحربٍ دفاعيّةٍ، وفي جميعها كانت الأحداثُ تنتهي بنا إلى احتلال أرض جيراننا المعتدين علينا.

---

١. هاينريش فريديُونگْ، عصرُ الإمبراطوريّات، برلين، ١٩١٩-١٩٢٢، ذكره هاينْزْ گُولْفيتزر، الإمبرياليّة من سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٩١٨، باريس، فلامّاريون، ١٩٧٠، ص. ١٣.

Heinrich FRIEDJUNG, Dos Zeitalter des Imperialismus, Berlin, 19191922-, cité par Heinz GOLLWITZER, L'impérialisme de 1880 à 1918, Paris, Flammarion, 1970, p. 13

٢. رايمون آرون، الجمهوريّة التسّلّطيّة، باريس، كالْمانْ-لِيفِي، ١٩٧٣، ص. ٢٦٠-٢٦٢.

Raymond ARON, République impériale, Paris, Calmann-Lévy, 1973, p. 260 - 262

هذه هي القصّةُ الخياليّةُ (fiction) التي تُدْعَم رسميًّا. والحقيقةُ هو أنّنا ننهجُ سياسةً حربيّةً هجوميّةً على نطاقٍ واسعٍ وبمثابرةٍ كبيرة، وبأنّنا، لـمّا نجتهد في إغماض أعيننا باستمرار، نكون قد نجحنا في خداعِ أنفسنا أو بعبارةٍ أبسطَ، نكون قد نجحنا في تقديم الدّليل على نهجنا السياسيّ المتخم بالنّفاق، والأشدّ إجرامًا من محكمة فاقدةٍ للعدالة»[١].

إنّ صعوبة ترجيح أحد هذَين التّفسيريْن على الآخر هي بمقدار كون الاختلاف بين الدّفاع والاعتداء ليس دائما جليًّا. في الواقع، وكما أشار هانْسْ دلْبرُوكْ (Hans DELBRÜCK) و سيمونْ فَيْلْ (Simone WEIL)، إنّ الأمن المطلق بالنّسبة للبعض يستتبع اللاّأمنَ المطلق بالنّسبة للآخرين، والعكسُ صحيحٌ.

إذا ما كانت الإمبرياليّةُ تتميّز بالوعي بالذّات والإحساس بها، تصبح هذه السّياسةُ بحاجة إلى تبريراتٍ إيديولوجيّة. يمكن أنْ تكون هذه التبريراتُ ذاتيّةً (عِرقيّةً"ethniques" ، وقوميّةً "nationalitaires"، ووطنيّةً "nationales"، أو دينيّةً بمعنى الدّين العِرقيّ "religion ethnique") أو خَلاصيّةً كونويّةً (universalistes) (توسيع مجال الدّين الصحيح، رسالة الحضرنة "mission civilisatrice"، توحيد العالَم)، أو تكون التبريراتُ من النوعيْن معًا. والإمبراليّة، ككلّ نهجٍ سياسيٍّ «استكباريٍّ تسلطيٍّ» (impérial)، ومُحدَّدٍ بالظّروف، يجب أنْ يمنح امتيازاتٍ في شكلِ عطايا ماديّة، ولو في حدود ما يعوّض عن التّضحيات في الأرواح البشريّة والخسائر الماديّة التّي يتسبّب فيها. الغنائمُ، والفديات أو غرامات الحرب، وأموال الجزية، والضّرائبُ، الماليّة أو العينيّة أو التي في شكل عملٍ، المفروضةُ على المغلوبين، والوحدات العسكريّة التي توضَع في خدمة الجيش الغازي المنتصر، ذلك كلُّه ليس بالفوائد البسيطة. الأمنُ نفسُه، لو كان غرضًا مقصودًا ومتَّبعًا عمليًّا، هو امتيازٌ ملموسٌ في شكل تأمينٍ ضدّ الخسائر النّاتجة عن أيّ غزوٍ محتمَلٍ من الأعداء.

يُضاف إلى الفوائدِ غير الرسميّة، التي تنتج عن الغزو، الفوائدُ العاديّةُ الآتيةُ من استغلال المقاطعات الـمَغزُوّة، نظرًا إلى أنّ نفقات السّيادة عليها لا تتجاوزها. لقد أصبح من الأفكار العامّة المبتذَلة أنّ استغلال الأراضي الـمَغزُوّة يُؤدّي إلى إثراء الشّعب الغازي، بما يؤدّي إلى حدوث تحوّلٍ في العلاقات الاجتماعيّة والسّياسيّة في وسط هذا الأخير. في أثينا مكّن هذا الاستغلالُ من تطوير الديموقراطيّة بفضل الميستوُيْ (misthoi)، التي هي تعويضاتٌ ماليّةٌ وظيفيّةٌ كانت تُدفع إلى أعضاء الجمعيّات والمحاكم. في روما مكّن هذا الاستغلالُ العائلاتِ الكبرى الباتريسيّة

١. مذكور في گُولْفيتزر، م. ن، ص. ١١٨-١١٩.

Cité dans GOLLWITZER, op. cit., p. 118 - 119

(patriciennes) والبليبيّة (plébéiennes) من الإثراء، مع تأمين الهبات والخبز والألعاب للجماهير العاطلة عن العمل. وفق المثال الرّومانيّ، وعلى الرّغم من المثال الأثينيّ، من المسلَّم به، بشكلٍ عامٍّ، أنّ ممارسةَ سلطةٍ غير محدودةٍ عل شعوبٍ أخرى يصيب السّياسةَ الدّاخليّةَ للدّولة الغازيةِ بالعدوى، فتصبح سلطةً طاغوتيّةً: «الشعب الذيِ يضطهد شعبًا آخَرَ هو شعبٌ غيرُ حرٍّ»، حسب كارل ماركس (Karl MARX). يبدو، على أقل تقدير، أنّ ممارسة السّلطة التسلّطيّة (الاستكباريّة) في نظلم حكمٍ ديموقراطيٍّ يطرح العديد من المشاكل: كان يُوجد، في الإمبراطوريّة الفرنسيّة، تناقضٌ أكيدٌ بين الإيديولوجيا الدّيموقراطيّة الـتي تنشرها المدرسةُ، وبين الاستبداد الذي تمارسه الإدارةُ الاستعماريّةُ. لكنّ الكُتَّابَ كلَّهم يتّفقون، إجماعًا، على الإقرار بأنّ إثراء الشّعب الغالب في الحرب أو إثراء طبقته الحاكمة تُجرّدهم من الخصال التي صنعت قوّتَهم. تاريخُ الإمبراطوريّات دَوْرِيٌّ (cyclique): الصعودُ يَعقبه الانحدارُ، ثمّ الهَوِيُّ (السّقوطُ). قدّم ابنُ خلدون، مثلاً، تفسيرًا سوسيولوجيًّا للتّعاقب الدَّوريّ للإمبراطوريّات في المغرب [الإسلامي] (إفريقيّة / شمال إفريقيا حاليًّا].

من الطّبيعيّ أن نجمعَ تحت مصطلح «السيطرة» («الهيمنة») الصِّيَغَ السّياسيّةَ المتنوّعةَ التي لا قاسمَ مشتركًا بينها سواها. لا مشاكلةَ البتّةَ بين إمبرطوريّة جنكيز خان وإمبراطوريّة الملكة فيكتوريا: يجب أن نَميزَ الإمبرطوريّات بعضَها من بعض حسب درجة النَّظْم، الاقتصاديّ والاجتماعيّ والسّياسيّ، التي بلغها كلٌّ من الشّعوب الغازيَة. لقد عرف التاريخُ إمبراطوريّاتٍ للفلاّحين-الجنود (الرّومان، الصّينيّين)، وإمبراطوريّاتٍ للرُّعاة الرُّحّل (العرب، الأتراك، المنغوليّين)، كما عرف إمبراطوريّاتٍ بحريّةً (أثينا، قرطاج، البندقيّة، الإمبراطوريّات الاستعماريّة الحديثة). لقد غيّرت الثّورةُ الصّناعيّةُ مظاهرَ الإمبرياليّة.

من أجل ذلك من المفيد لنا أنْ نعرفَ بدقّة تاريخَ كلمة «إمبرياليّة» ودلالاتِها المتتاليةَ. لقد تمّ إنجازُ هذه الدّراسةِ[١]، على الأقلِّ لأجل المملكة المتّحدة [بريطانيا]، ولأجل فرنسا. من بين

١. ريتشارد كوبْنرْ، الإمبراطوريّة، منشورات جامعة كامبريدج، ١٩٦١. ريتشارد كوبْنرْ و هـ. د. شميدت، الإمبراليّة. قصّةُ كلمة سياسيّةٍ ودلالتُها، ١٨٤٠-١٩٦٠، كامبريدج ١٩٦٤. (تقريرٌ لـ هنري برانْشفيگْ، «الإمبراطوريّاتُ والإمبرياليّاتُ»، المجلةَ التّاريخيّة، جويلية (تمّوز)-سبتمبر (أيلول) ١٩٦٥.)

Richard KOEBNER, Empire, Cambridge University Press, 1961. Richard KOEBNER et H.D. SCHMIDT, Impérialisme. The story and significance of a political word, 18401960-, Cambridge, 1964. (Compte rendu par Henry Brunschwig: “Empires et impérialismes”, Revue historique, juillet-septembre 1965.)

التحوّلات المتعدّدة في المعنى، يوجدُ واحدٌ مفيدٌ بشكلٍ خاصٍّ. في القرن التّاسع عشر، كان مصطلحُ «إمبرياليّة» يشير، عند الأنكليز، إلى السّياسة الخارجيّة العدوانيّة والغازِيَة، لِنابليون الأول، في أرورِبا، ثمّ مثيلتُها، لِنابليون الثّالث. بينما، في فرنسا، كان هذا المصطلحُ نفسُه، مطابقًا للنّظام البونابرتيّ الدّاخليّ، القائمِ على مبدأ السّطوة والمدعوم من الجيش. بعد سقوط الإمبراطوريّة ونهاية الهيمنة الفرنسيّة (prépondérance française) في سنتَيْ ١٨٧٠ و ١٨٧١، وبعد إرساء سلامٍ مسلَّحٍ، في أوروبا، تحت هيمنة (hégémonie) الإمبراطوريّة الألمانيّة الجديدة، انتقل مجالُ تطبيقِ المصطلح من أوروبا إلى القارّات الأخرى. أصبح مصطلحُ «الإمبرياليّةُ» يعني إذنْ، السّياسةَ التّوسُّعيّةَ المسلّحةَ التي تدفع القوى الكبرى إلى التّنافس المحموم على آخر الأراضي «الشّاغرة» (vacantes)، في عمليّة «تقاسُمٍ للعالَم» (partage du monde). بعبارةٍ أخرى، لقد تمّ الانتقالُ من الحُلم القديم بتوحيد أوروبا بالقوّة إلى تجديدٍ للمصلحة بالنّسبة للإمبراطوريّات «الاستعماريّة».

الإمبراطوريّة الاستعماريّة

لكنْ، ماذا يعني هذا التّركيب: «إمبراطوريّة استعماريّة»؟ المفروضُ أنّ الجميع يعرف معناه، وبالتّالي فلا داعيَ للتعريف. لنكْتفِ إذنْ بذكر مميّزاته الأكثر بداهةً. يُفهَم عمومًا من تركيب «إمبراطوريّة استعماريّة» مجموعةً من الكيانات التابعة المـَغْزُوَّة أو الـمُستحوَذِ عليها من دُول أوروبا الغربيّة خلال الزّمن الممتدّ من منتصف القرن الخامس عشر إلى نصف القرن العشرين، والمنتشرة على كامل بقاع العالَم، بفضل السّيطرة على المحيطات، التي كانت احتكارًا للشّعوب الأوروبيّة طيلة هذا الحقبة الزّمنيّة. هذا البُعْدُ العالَـميُّ هو ما يُميّز هذه الإمبرطوريّاتِ الاستعماريّةَ عن جميع الإمبراطوريّات الأخرى: لقد كان فيليب الثّاني [ملك إسبانيا] يفتخر بأنّ الشمس لا تغيب أبدًا عن ممتلَكاته. هذا البُعْدُ أدّى إلى حدوثِ عدمِ تجانسٍ (hétérogénéité) مادّي وبشريٍّ أعمقَ من الذي كانت قد أحدثته الإمبراطوريّاتُ الجهويّة (الإقليميّة / régionaux) والقارّيَّة (continentaux). لقد كان الرّعايا المرؤوسون عمومًا مختلفين جدًّا عن أسيادهم، من جهة مظهرهم الجسمانيّ غالبًا، ومن جهة عقليّاتهم وتِقانتهم (تكنولوجيَاهم / technologie دائمًا): لقد ازداد التفوُّقُ العلميُّ والتّقنيُّ، لأوروبا على بقيّة العالَم اتّساعًا من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التّاسع عشر. وفي هذه الحالة كان من العسير على الغزاة أنْ يؤمنوا بجدوى الانصهار (fusion) النّهائيّ لشعوب الإمبراطوريّة في كيان سياسيٍّ واحد. أمّا الأنكليز فإنّهم لم يؤمنوا البتّةَ بفكرة الانصهار، وتبنّوْا مبدئيًّا منذ القرن التّاسع عشر سياسةَ تحرير الدُّول البلديّة الأصليّة (États indigènes)، [التي كانوا يستعمرونها] منذ

أن تصبحَ قادرةً على أنْ تحكم نفسَها بنفسها (وهو ما سُمِّي خطأً «التّحرير من الاستعمار/التحرّر من الاستعمار» / (décolonisation. قدّم الفرنسيّون انطباعًا بأنّهم يؤمنون بفكرة الانصهار لـمّا مجّدوا (exalter) «فرنسا العظمى» (la plus grande France)، «فرنسا ذات المائة مليون من السّكّان»، وأنّهم يسعون إلى تحويل الإمبراطوريّة إلى «الإتّحاد الفرنسيّ» (l'Union Française)، لكنّهم قد أثبتوا، بسلوكهم اللاّحق أنّهم، هم أيْضًا، كانوا يأبوْن تحويل فرنسا إلى «مستعمَرةٍ لمستعمراتها الخاصّة»، ولإخضاعها لسلطة دولةٍ فيدراليّةٍ تكون فيها «فرنسا المركز» مجرد مقاطعةٍ من بين مقاطعاتٍ أخرى. يتكوّن كلٌّ من الإمبراطوريّات الاستعماريّة [الأوروبّية] من رأسٍ وبطنٍ، وهما موجودانِ في أروبا، ومن أطرافٍ، وهي موجودةٌ في ما وراءَ البحار [المستعمَرات]. وهذه الأطراف تتنازع في ما بينها؛ لأنّ النّزاعاتِ الأوروبّيّةَ تنتقل إلى المستعمَرات. تاريخُ المستعمَراتُ [الأوروبّيّة] مُرقَّمٌ (ponctué) بالمواجهات المستمّرة بين الأساطيل وبعمليّات القرصنة إلى سنة ١٨١٥. بعد سنة ١٨٧١، ضاعف التّسابقُ المحمومُ للاستحواذ على آخر الأراضي الشّاغرة، من فُرص الاشتباك ومن احتمال نشوب حربٍ في أوروبا نفسِها. هل تستأهل الأراضي التنازعُ عليها؟

منذ بداية التّوسُّع الأوروبيّ في العالم إلى نهايته، تمّ تفسيرُ تكوّنِ الإمبراطوريّات الاستعماريّة وتبريرُه بحافِزيْن مشترَكيْن ومتكامليْن، الأوّل مثاليّ (idéal)، والآخَر مادّيّ (matériel). لقد كان المقصودُ:

- تنصير (évangéliser) العالَم، أو حضْرنته (civiliser)،
- و استغلال ثرواته.

والحافزُ الأوّلُ يبرّر الثّانيَ.

والحافزُ السّياسيّ المحضُ يأتي في آخر المطاف، على الأقلّ، قبل «عصر الإمبرياليّة»، تلك «الإمبراطوريّاتُ»، عمومًا، لم تُغْزُها جيوشُ الدّول المعنيّة: لقد تُرك زمامُ المبادرة بأيدي أشخاصٍ أو شركاتٍ فوّضتْ لهم ولها الدولةُ جزئيًّا حقوقَها الملكيّة (droits régaliens)، مع احتمال استردادها لاحقًا بعد الإنجاز النّهائيّ للغزو. لقد كان ذلك التّفويضُ للمبادرة «التسلطيّة» (impériale) مؤشِّرًا على أنّ المشاريعَ الاستعماريّةَ تتميّز بأنّها في آنٍ عمليّاتٌ محفوفةٌ بالمخاطر ومُرْبِحةٌ ماديًّا. لكنْ، في القرن السّادس عشر، كانت الدّولتان الإسبانيّةُ والبرتغاليّةُ، اللّتان كانتا تحتكران الممتلكاتِ الاستعماريّةَ، تتحكّمان بشدّة، كلٌّ في إمبراطوريّتيه. في القرنين السّابع عشر والثّامن عشر، كانتَ القوى الاستعماريّةُ الجديدةُ، وهي المقاطعاتُ المتّحدة (هولندا / (Provinces-Unies، وفرنسا وأنكلترا، تُوسّط شركاتٍ تجاريةً ذاتَ سيادةٍ جزئيةٍ (نصف سياديّةٍ / (demi-souveraines لإدارة

عمليّاتها الاستعماريّة، لكنّها تتدخّل، هي نفسُها، للقيام بالحروب الضروريّة. في تلك الحقبة، كان الغرضُ الاقتصاديُّ للتوسُّع الاستعماريّ يُعدّ أساسيًّا: لقد كان عصرَ «المركنتيليّة» (mercantilisme). كان لزامًا على المستعمَرات أنْ تمنح المركزَ الاستعماريَّ الاحتكارَ في ما يتعلّق بالمعادن الثمينة وبالموادّ الغذائية الاستوائيّة، لكي تحصلَ في مقابل ذلك على المنتوجات الـمُصنَّعة في المركز الاستعماريّ. كانت هذه التجارةُ غيرُ العادلة (غيرُ المتكافئة / inégalitaire) محميّةً بتوسّل احتكاراتٍ وامتيازاتٍ تجاريّة، وقوانينَ وأنظمةٍ جائرة، كانت القوّةُ السّياسيّةُ تفرض من خلالها سعرًا تعسّفيًّا للمبادلات الاقتصاديّة. من سنة ١٨١٥ إلى سنة ١٨٧١، اتّجهت المفاهيمُ الاقتصاديّةُ إلى التّفريق بين العلاقات الاقتصاديّة على مستوى العالَم، وبين الطّموحات السّياسيّة للدّول التسلّطيّة (الاستكباريّة / impériaux). لكنْ، بعد ١٨٧١، بدأ «عصرُ الإمبرياليّة» (l'âge de l'impérialisme).

لقد تمّ تفسير انقضاض القوى [الاستكباريّة] على الأراضي، التي كانت لا تزال شاغرةً في نهاية القرن التّاسع عشر، بمنطقٍ اقتصاديٍّ، على الأقلّ بمقدار ما تمّ تفسيرُه بالمنطق السّياسيِّ. إنّ تطوّر التّصنيع والرّسماليّة قادرٌ على تعزيز الحافز الاقتصاديّ للتّوسُّع الأوروبّيّ من خلال تنمية تصدير الرّساميل، وهجرة الرّجال، والبحث عن الموادّ الأوّليّة، وفتح أسواقٍ مضمونةٍ لتصريف سلع المراكز الاستعماريّة: بعد هوبسنْ (HOBSON)، عرّف ماركسِيُّو القرن العشرين: هِلْفَرْدِنْگْ (HILFERDING)، و روزا لوكسُمْبورگْ (Rosa LUXEMBOURG)، و بوخارين (BOUKHARINE)، وأخيرًا لينين (LNINE)، عرّفوا الإمبرياليّة بأنّها «أعلى مراحل الرأسماليّة». وهكذا، فإنّهم، بجَعْلهم الإمبرياليّةَ التعبيرَ السياسيَّ والعسكريَّ لضرورةٍ (nécessité) اقتصاديّة (أيْ رأسماليّة)، كانوا قد اتّفقوا مع أنصار الإمبرياليّة، الذين كانوا يستعملون، دون اشمئزاز، الحُجّة الاقتصاديّة. وكذلك لقد دعم كلٌّ من سيسيلْ رودسْ (Cecil RHODES)، و جول فِيرِّي (Jules FERRY) و جوزافْ شامْبرْلَنْ (Joseph CHAMBERLIN)، نظريّة الضرّورة الاقتصاديّة للإمبرياليّة:

«لقد حضرتُ، أمسِ اجتماعًا للعاطلين عن العمل في لندن، وبعد أنْ اسمتعتُ للخطابات العنيفة التي لم تزدْ عن كونها صرْخة لطلب الخبز، رجعتُ إلى بيتي وأنا على قناعة، أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى بأهمّيّة الإمبرياليّة... إنّ ما يَشغل بالي، قبل أيِّ شيءٍ آخَرَ، هو حلُّ المشكلة الاجتماعيّة. والحلُّ يعني، عندي، أنّ على المسؤولين على السّياسة الاستعماريّة، ومن أجل تجنيب الأربعين مليونًا من سكّان المملكة المتّحدة [بريطانيا] ويلاتِ الحرب الأهليّة، أنْ يفتحوا أراضيَ جديدةً لاستيعاب الفائض السّكّانيّ، وأنْ يُنشئُوا أسواقًا جديدةً لتصريف الفائض من منتوجات المناجم والمصانع. لقد دعمْتُ دائمًا فكرةَ أنّ الإمبراطوريّة البريطانيّة قد كانت بالنّسبة لنا معدةً. إذا أردنا

تجنّب حربٍ أهليّةٍ، يجب أن نُصبحَ إمبرياليّين»[١].

هذا النصُّ هامٌ لأنّ لينين قد ذكره في كتابه «الإمبرياليّة أعلى مراحل الرأسماليّة». كان لينينُ قد قدّم، في سياق تأويله لنصٍّ لـ ماركس، تشخيصًا يتوافق مع تشخيص رودس:

«الأسبابُ هي:

١. استغلال **أنگلترا** للعالَم؛

٢. احتكار **أنگلترا** للسّوق العالميّة؛

٣. الاحتكار الاستعماريّ الخاصّ بـ **أنگلترا**.

النتائج هي:

١. تبرْجُز (embourgeoisement) قسمٍ من البروليتاريا الأنگليزيّة (أي: قسمٌ من اليد العاملة الأنگليزيّة يصبح بورجوازيًّا)؛

٢. قسمٌ من هذه البروليتاريا يصبح خاضعًا لإدارة رجالٍ قد اشترتهم البورجوازيّةُ، أو على الأقل قد دفعتْ لهم ليفعلوا ذلك»[٢].

وهكذا أصبحت الإمبرياليّةُ الحلَّ (المؤقّت) الذي وجدتْه الرأسماليّةُ لتناقضاتها الدّاخليّة.

وعلى الرّغم من ذلك، وعلى العكس من الفكرة التي تَوافق عليها الإمبرياليّون والماركسيّون، فإن إثراءَ المراكز الاستعماريّة بفضل الاستغلال الذي قامت به الإمبراطوريّاتُ الاستعماريّةُ قد تمّ الاعتراض عليه والجدال فيه بقوّةٍ. لقد رصدْنا أنّ العديد من عماء الاقتصاد اللّيبراليّين في القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر[٣]، وبعض المؤرّخين غير الماركسيّين في القرن العشرين قد صرّحوا، مع

---

١. ورد ذلك في گُولْفيتْزرْ، ص. ١٣٦. مذكورٌ في لينين حسب مجلة دي نوتْ زيْتْ، المجلد ١٧، العدد الأول، ١٨٩٨، ص. ٣٠٤.

Dans GOLLWITZER, p. 136. Cité par Lénine d'après Die Neue Zeit, XVI, 1, 1898, p. 304

٢. لينين، الإمبرياليّة أعلى مراحل الرأسماليّة.

LÉNINE, L'Impérialisme, stade suprême du capitalisme.

٣. نصوصٌ في مارْسالْ مارْلْ، معاداةُ الاستعمارِ الأوروبيّةُ م ن لاسْ كاساسْ إلى ماركس، باريس، آرْمانْدْ كُولِنْ، ١٩٦٩.

Textes dans Marcel MERLE, L'anticolonialisme européen de LAS CASAS à MARX, Paris, Armand COLIN, 1969.

الاستدلال للإثبات، بأنّ الغزواتِ الاستعماريّةَ لمْ تُؤدِّ إلّا إلى إثراء بعض الأفراد وتنمية مصالحهم الشخصيّة، وأنّ الدولةَ والأمّةَ لم يستفيدا من ذلك اقتصاديًّا. المستعمراتُ باهظةُ الثّمن من جهة تكاليف الغزو، والتّحصين والحماية، والإدارة، والأشغال العامّة. والدّولةُ، أيْ دافعو الضّرائب، هي التي تتحمّل تكاليفَ ذلك. كتب هنْري برانْشفيگ بنبرةٍ ساخرةٍ:

«إنّ ما يُميِّز هذه السّياسةَ الاستعماريّةَ (الفرنسيةَ) هو المراهنةُ دائمًا على المستقبل: تتمّ المصادقةُ على القروض العسكريّة بذريعة أنّ التّنمية (المردودَ / mise en valeur) ستأتي بعد الغزو؛ يتمّ الموافقة على الاستثمارات؛ لأنّ ما تُحدثه من خطوط سكك الحديد وإنشاءاتٍ تقنيّةٍ أخرى تُمكّن من القيام بالاستغلال العقلانيّ؛ نضاعف عدد المستشفيات والمدارس من أجل تكوين كتلةٍ من اليد العاملة ذات المردوديّة الرّبحيّة؛ لا يُكَفّ عن المضاربةِ بالمستقبل، وهذه المضاربةُ تقود المستعمِرين، في نهاية الأمر، إلى تسخير الشّعوب عوضًا عن مجرّد استغلالها بلا قيدٍ ولا شرطٍ»[١].

بيّنتْ بعضُ الإحصائيّات أنّ الأراضيَ الاستعماريّةَ الـمَغْزُوَّةَ بتكاليفَ كبيرةٍ لها مردودٌ أقلُّ لصالح تجارة الغزاة منه لصالح الأجانب، وأنّ الفوائد الماليّة الأهمّ للقوى الاستعماريّة كانت تُوجَد عمومًا خارجَ إمبراطوريّاتهم، في بلدان مستقلّة، حتّى ولو كان استقلالُها قانونيًّا شكليًّا[٢]. هذا التّنافرُ الصّارخُ بين مجالات التّوسّع الاقتصاديّ وميادين الغزو الإمبرياليّ أظهر خيبةَ أملٍ كبيرةً حول اختيار كلمة «إمبرياليّة»، وهي كلمةٌ سياسيّةٌ-عسكريّةٌ، للإشارة إلى ظاهرةٍ اقتصاديّةٍ بشكلٍ أساسيٍّ. لقد كان لينينُ واعيًا بذلك إذْ يعتذر، في تمهيد كتابه « الإمبريالية أعلى مراحل الرّأسماليّة»، بقوْله: «نحن لن نتوقّف عند الجانب غير الاقتصاديّ للمسألة كما ينبغي أنْ يستحقّه». ينبغي علينا عدمُ البحث عن الطابع الأشدّ أصالةً لـ«عصر الإمبرياليّة» في بلوغ الاقتصاد الرّأسماليّ أشُدَّه بل في الأهميّة الجديدة للعوامل السّياسيّة للقوّة (القدرة / puissance وللنّفوذ والهيبة (prestige) في عمليّات التوسّع في ما وراء البحار. في القرن الثّامن عشر كان المركنتيليّون يُقِرّون بالجوهر

١. هنْري برانْشفيگْ، الإمبرياليّةُ الاستعماريّة الفرنسيّة. الأساطيرُ والحقائقُ، باريس، آرْمنْد كولِنْ، ١٩٦٠، ص. ١٠١.

Henri BRUNSCHWIG, Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français, Paris, Armand Colin.1960 , p. 101.

٢. توزيعُ الاستثمارات الخارجيّة سنة ١٩١٤: المملكة المتّحدة (بريطانيا) ٤٧٪ داخل الإمبراطوريّة و ٥٣٪ في الخارج؛ فرنسا ٩٪ و ٩١٪؛ ألمانيا ١٪ و ٩٩٪.

Répartition des investissements extérieurs en 1914: Royaume-Uni 47 % dans l'Empire et 53 % à l'étranger; France 9 % et 91 %, Allemagne 1 % et 99 %.

الاقتصاديّ للاستعمار، وكان اللّيبراليّون يهاجمونهم بهذا الخصوص باتّهامهم بأنّهم قد حرّروا (جرّدوا) الاقتصادَ الدُّوليَّ من غُلّه (طابعه / carcan) السّياسيّ. لقد جعل الإمبرياليّون التوسُّعَ الدّوليَّ شأنًا مهمًّا من شؤون الدّولة (affaire d'État). أمّا الاعتباراتُ الاقتصاديّةُ فتُحصَّل بعد ذلك في نطاق سياسة قوّةٍ تشمل أيْضًا وجهاتِ نظرٍ (points de vue)) أخرى، عسكريّةٍ، وثقافيّةٍ، إلخ. شخّص البروفسور هايْنْزْ گُولْفيتزْ هذا الاندماجَ للعامل الاقتصاديّ في السّياسة الإمبرياليّة كما يلي:

«إنّ ما يميّز الإمبرياليّةَ في ما يتعلّق بالممتلكات في ماوراء - البحار وبالمستعمرات، هو أنّها قد صبغتْ هذا الأخيرَ بلوْنٍ سياسيٍّ وركّزتْ على النّفوذ والهيبة (prestige) أكثر ممّا حصل في ما مضى. وذلك لم يكن يتّم عمومًا على حساب العامل الاقتصاديّ، لكن ما يلفت الانتباهَ هو أنّه قد تمّ التّركيز بشدّةٍ على وجهات نظرٍ غير اقتصاديّةٍ»[١].

لقد غُزِيتْ أراضٍ، فاقدةٌ لأيّ قيمةٍ اقتصاديّةٍ، فقط بسبب وضعها الاستراتيجيّ، لتجنيد أفرادٍ من شعوبها، أو لمنع قوّةٍ أخرى منافسةٍ من الاستقرار فيها. لم تَعدِ المستعمَراتُ تُعدّ مجرّدَ مُلحقاتٍ اقتصاديّةٍ للمراكز الاستعماريّة، بل صارت تُعدّ مقاطعاتٍ في إمبراطوريّةٍ عالَميّةٍ، أيْ أدواتٍ ومواضيعَ لسياسةٍ عالميّةٍ.

في زمننا الحاضر، وبعد «تحرّر مستعمَرات (تصفية مستعمرات (décolonisation / الإمبراطوريّات الأوروبيّة، أصبح هذا التّنافر بين المعنى الاقتصاديّ والمعنى السّياسيّ لمصطلح «إمبرياليّة» أوضحَ ممّا كان عليه في أيّ زمن مضى. يلحظ الماركسيّون الإمبرياليّةَ في سياق أفعالها حيثُ تختفي جميعُ العلاماتُ الظاّهرةُ: إنّ الإمبرياليّةَ حاضرةٌ في جميع البلدان الخاضعة لقوانين السوق الرأسماليّة العالميّة، حتّى مع غياب ضمّ الأراضي، وغياب الحماية الاستعماريّة (protectorat)، بل وحتى مع غياب الأحلاف والقواعد العسكريّة[٢]. يتصاعد انفصال «الإمبرياليّة»، بصيغة المفرد، عن الدّول الخاصّة لكي يتماثل مع مجموع الاقتصادات الرّأسماليّة المتقدّمة، التي

١. م. ن، ص. ٦٤-٦٥؛ انظر أيْضًا ص. ١١.

Op. cit., p. 6465-; voir aussi p. 11.

٢. ما الفرْقُ، إذنْ، بين «الإمبرياليّة» و «اللّيبراليّة» الخاصّتَيْن بالمرحلة السّابقة؟ تعود التّبعيّةُ الاقتصاديّةُ لدول أمريكا اللاّتينيّة إلى تلك الحقبة «اللّيبراليّة».

تمارس «تأثيرها الهيمنيَّ» (effet de domination)[١] على اقتصاد العالَم غير الاشتراكيّ. لقد فقد المصطلَحُ معناه الخاصَّ تمامًا، ليتماثل مع مصطلح «الاستغلال الاقتصاديّ».

وهكذا صار يُنظَر إلى الاستعمار بوصفه سيطرةً (هيمنةً)، وإلى الهيمنة بوصفها أداةً للاستغلال. في التّصوّر العامّ، الشّعبُ المستعمَرُ هو الشعبُ الخاضع للسّيطرة (الهيمنة) والاستغلال!

ما الاستغلال؟

الاستغلالُ (exploitation) هو الفعلُ الذي يُضفي قيمةً على شيءٍ ما، أيْ يُؤدّي إلى استخلاص منفعةٍ منه. واشتُقَّت من هذا المعنى العامّ عدّةُ معانٍ فرعيّة، ذاتِ نغَميّات (tonalités) حياديّةٍ (neutres)، أو مَدْحيّةٍ (laudatives)، أوْ تحقيريّةٍ (péjoratives): المستغِلُّ يختلف عن الاستغلاليّ (un exploitant n'est pas un exploiteur).

١/ المعنى الحياديّ [لكلمة «استغلال»] هو معنًى اقتصاديٌّ محضٌ ومجرّدٌ من كلِّ صبغةٍ أخلاقيّة (coloration morale). يُمكن استغلال أرضٍ، أو غابةٍ، أو مناجمَ: استغلال الأرض، والغابة، والمناجم، يشير إلى الفعل وموضوع الاستغلال، في الآنِ نفسه. أتى المعنى المَدْحيُّ من تمجيدٍ دينيٍّ أو بروميثيٍّ للفعل البشريّ الذي يغيّر وجه الأرض بإخضاعه الطبيعةَ لمخطّطاته. يمثّل اكتشافُ الموارد المخزونة واستعمالُها تنميةً للطبيعة وإضفاءً للقيمة عليها. الإنسانُ هو ملكُ (سيّدُ) المخلوقات، لقد استخلفه اللهُ على الأرض ليعمُرَها. من أجل ذلك، «لا يحقّ للبشريّة أنْ تشكوَ بأنّ عجزَ الشّعوب المتوحّشة وكسلَها يُبقيان أبديًّا بلا استغلالِ النّعمَ المخزونةَ التي وضعها اللهُ تعالى في عُهدتها على أنْ تتحمّل رسالةَ تثميرها لخدمة الجميع»[٢]. تتشارك العقولُ اللاّئكيّةُ ذلك التّصوُّرَ العظيمَ الذي يؤمن بوجود نزعةٍ لدى الإنسان لأنسنة الأرضِ كاملةً، لكنّ ذلك التّصوُّرَ فقد، مؤخّرًا، قسمًا كبيرًا من مصداقيّته: انتشرت انشغالاتُ البيئويّين (علماء البيئة ونشطاء حماية البيئة / écologistes) بين الجمهور، حتّى وصل الأمر إلى تعمُّم سؤالٍ حول ما إذا كانت التّنميةُ (mise en valeur) المُدّعاةُ تُقنِّع النَهْبَ، وبالتّالي فهي تُقنِّع التّدهوُرَ للوسط الطبيعيّ الذي يجب على

١. فرانْسوا بيرُّو: فاتحةٌ لنظريّةٍ في الاقتصاد المسيطر (المهيمن)، في الاقتصاد التّطبيقيّ (العمليّ)، عدد ٢-٣، ١٩٤٨.

François PERROUX: «Esquisse d'une théorie de l'économie dominante», dans Économie appliquée, n° 2 - 3, 1948.

٢. ر. ب. مولّرْ، ذكره إيمي سيزار؛ «التواصل المستحيلُ»، في طُرُقُ العالَم: «هل هي نهايةُ العصر الاستعماريّ؟، ١٩٤٨، ص. ١٠٩.

R. P. MULLER. Cité par Aimé CÉSAIRE; «L'impossible contact», dans Chemins du monde: «Fin de l'ère coloniale?», 1948, p. 109.

الإنسان أنْ يهيّئه؛ لأنّ حياتَه متوقّفةٌ عليه. هل أصبح الإنسانُ هو سرطانَ الكوكب؟ أوَليست الطبيعةُ البِكرُ أكثرَ جذْبًا من المناظر الحَضَريّة في العالَم الحديث؟

٢/ نمرّ الآن إلى المعاني التّحقيريّة لمصطلح «الاستغلال»، مع ملاحظة أنّ واجبَ تنمية موارد الأرض للصّالح العامّ للبشريّة قد تمّ استخدامه كحُجّةٍ لتبرير الكثير من الأفعال الظّالمة. لقد مثّلتْ فكرةُ «المصير الإلهيّ لمُتع هذا العالَم» (La destination providentielle des biens de ce monde) الأساسَ للحقّ في الاستعمار (colonisation) في عقيدة الكنيسة منذ القرن السّادس عشر. لقد طالب الأميرالُ ماهانْ (MAHAN) بـ «انتزاع الأراضي من الأعراق فاقدة الأهليّة» (incompétentes)، وكان ألبارْ صارُّو (Albert SARRAUT) يعلِّم أنّه من السّخافة معارضةُ مشاريع الاستعمار «بحُجّة ادّعاء حقّ إشغال (prétendu droit d'occupation)، أو بحُجّة أيِّ حقٍّ آخَرَ في العزلة القاسية، والذي يمكن أنْ يُديم، بين أيدٍ عاجزةٍ غيرِ مؤهَّلة، ملكيّةَ ثرواتٍ مخزونةٍ لا تُستعمل»[١]. هذا الانتزاعُ للأراضي يؤدّي إلى طرد «الأعراق غير المؤهّلة»، وإذا ما تكرّر واستمرّ سوف يؤدّي بهم إلى خسران جميع وسائل عيْشهم. لكنْ، لو كانت نتائجُ الاستغلال قد توقّفت عن حدود انتزاع أراضي منكودي الحظّ أولئك، لكان من الممكن لمفهوم الاستغلال أن يحافظ على شرفه. ليُعْلَمْ أنّ الاستغلال لم يَطلِ الموارِدَ الطّبيعيّةَ فحسبُ، بل تعدّاها ليشمل أيضًا الموارِدَ البشريّةَ، التي لاقتِ المصير نفسَه.

إنّ غُزاةَ العالَم الجديد الذين انطلقوا «كسِربٍ من الصّقور طارتْ إلى خارج موطنها الأصليّ» بحثًا عن «المعدن الأسطوريّ» (fabuleux métal)، لم يأتوا بنيّة «تنمية» (mettre en valeur) البلد [الـمَغْزُوّ، المستعمَر] بعملهم الخاصّ. العملُ الضّروريُّ لذلك الاستغلال كان جزءًا من الموارد الـمُستغلَّة. لقد كانوا كلُّهم، سواءً أكانوا أشرافًا (نبلاء / nobles) أم أراذلَ (gueux)، يريدون أنْ يعيشوا حياة الهيْدلْج (النبيل الإسبانيّ / hidalgo)، كانوا يريدون أنْ يزدرعوا (tranplanter) في ما وراء المحيط الأطلسيّ نظامًا اجتماعيًّا قائمًا على «استغلال الإنسان للإنسان». وهكذا فقد تعرضت الأيدي العاملةُ البلديةُ الأصليّةُ (main d'æuvre indigène) إلى الاستغلال، في المزارع وفي المناجم، استغلالٍ من الأفراد (الأشغال الشّاقّة التي كانت يمارسها الإسبانيّون الأفراد، على الهنود الحمر / encomienda)، ومن الدّولة (الأشغال الشاقّة التي كانت تمارسها الشركات الحكومية الإسبانيّة، على الهنود الحمر، / mita). لقد أُنهكت تلك الشّعوبُ بفعل الظّروف القاسية التي أجبروا عليها، والتي لم يألفوها من قبل، ما أدّى إلى فنائها كُلّيًّا أو جزئيًّا. فكان لزامًا استيرادُ أيدٍ

١. م. ن.

عاملةٍ للتّعويض، وكانوا العبيدَ الأفارقةَ. وحول ذلك كتب مونتسْكيو (MONTESQUIEU): «لقد أبادتِ الشّعوبُ الأوروبّيةُ شعوبَ أمريكا، فكان لزامًا عليهم أنْ يُخضِعوا الشّعوبَ الإفريقيّةَ للرِّقّ، لاستعمالها في استصلاح الكثير من الأراضي»[١]. من الواضح أنّ كلمة «مستعمِر مستوطِن» (colon) ترمز في الذّاكرة الجماعيّة للشّعوب الأوروبّيّة، وخاصّةً للشّعوب الأخرى، ترمز مباشرةً إلى صورة فلاّحٍ (زارعٍ / planteur بطّالٍ (oisif)، يراقب عملَ عبيده وهو ممتشِقٌ سوطَه[٢].

توجَد مُقارَبةٌ أخرى يرتكز عليها معنًى تحقيريٌّ آخَرُ لكلمة «استغلال». يُعرَّف «الاستغلال الاستعماريُّ» بأنّه استغلالُ موارد بلدٍ لأجل المصلحة الحصريّة لبلد آخَرَ. الاقتصاد من النّوع «الاستعماريّ» هو اقتصادٌ تابعٌ، على الرّغم من أنّ المبادئَ المعروفةَ والشّعاراتِ المرفوعةَ، من أهل الدّين والسّياسة والاقتصاد، مثل «المصير الإلهي لِـمُتعِ هذا العالَم» (destination providentielle des biens de ce monde) و «والحقّ الطّبيعي في المجتمع والتّواصل» (droit naturel de socit et de communication)، لم تكن تقتضي شيئًا آخَرَ غير حريّة التّجارة، لِـمصلحة الجميع. كان من الممكن أنْ تُنتِجَ تلك التّجارةُ خسارةً في آسيا، حيثُ كان الأوروبّيون يدفعون نقدًا أثمان مشترياتهم الفاخرة، وأنْ تُنتج أرباحًا في إفريقيا حيثُ كان الملوكُ الزّنوجُ يبيعون سجناءَهم/أسراهم لِقاءَ بضاعة تافهة (pacotille) بلا قيمة. لكنّ التّجّارَ الأوروبّيّين لم يكونوا يَنهجون نهجَ التّبادل الحرّ: كانوا يأتون مسلَّحين، وبروحٍ حربيّةٍ، لكيْ يفرضوا شروطَهم على مُزوِّديهم، ولكيْ يُقْصُوا كلَّ منافسيهم من الميدان. وهكذا، فقد كانوا يتمكّنون من فرض احتكارهم للتجارة، ومن تحديد أسعار الشّراء كما يتناسب مع مصالحهم، ومن أنْ يتسلّطوا على الإنتاج من خلال فرض أشكالٍ متعدّدة من التّبعيّة والاسترقاق (الاستعباد / servitude) على الفلاّحين البلديّين الأصليّين[٣]. يمثّل توطينُ العبيد

---

١. روحُ الشّرائع، ١٧٤٨، الكتاب ١٥، الفصل ٧.

De l’Esprit des lois, 1748, livre XV, chap. V. .22

٢. لاحظ مكسيم رودنسون، في مقاله «إسرائيل، هل هي حقيقةٌ استعماريّةٌ؟ لاحظ آثارَ «مقوْلَبات (stéréotypes) ذات قوة بسيكولوجيّة كبيرة. المستعمَرُ، هو الكائنُ السَّغبُ (المتضوِّر جوعًا)، المرتدي لأسمال باليةٍ، والذي يظهر الخوفُ واضحًا في عينيْه، والمطارَدُ والبائسُ، والذي يبحث بتلهّفٍ عن أيِّ قطعة طعام يسدّ بها جوعَه. أمّا المستعمِرُ، فهو الإنسانُ الفظُّ، العسكريُّ أو المدنيّ، الذي يلعب بغرورٍ بعصاه الخيزرانيّة، وهو يتطاوس راكبًا عربةً يجرُّها عمّالٌ مُنهَكون أو أيضًا، الذي يغتصب الفتياتِ السّوداواتِ الصّغيراتِ، وهو مخبولٌ ونصفُ ثَـمِلٍ». م. ن، ص. ٢٣.

٣. انظر ك. م. بانِيكّارْ، آسيا والهيمنةُ الغربيّةُ، باريس، لُو سُويْ، ١٩٥٦، ص. ٦٦.

Voir K. M. PANIKKAR: L’Asie et la domination occidentale, Paris, Le Seuil, 1956, p. 66.

واستغلالُهم الحالةَ القصوى في هذه السّيرورة. لقد أسّس استعمالُ القوّة المسلّحة لتأمين أعلى الأرباح لمنظِّمي التّجارة، «الميثاقَ الاستعماريَّ» (pacte colonial)، الذي ظلّ راسخًا في الذّاكرة الجمعيّة بعد القضاء الفعليّ عليه، واستمرّ مُضمَّنًا في المفهوم المتعارف للاستعمار:

«كان نظامُ الحكمِ الذي فرضتْه المراكزُ الاستعماريّة على مستعمَراتها، والذي عُرف باسم «الميثاق الاستعماريّ»، كان يرتكز عل خمسة مبادئَ أساسيّةٍ هي التّاليةُ:

١. احتكارُ الملاحة منحصرٌ بالأسطول الوطنيّ.

٢. أسواقُ المستعمَرات وقفٌ حصريٌّ للمنتوجات الـمُصنَّعة الخاصّةِ بالمركز الاستعماريّ.

٣. يجب على المستعمَرات تزويدُ المركز الاستعماريّ بالموادّ الأوّليّة وبالمنتوجات الزّراعيّة.

٤. يُمنَع على المستعمَرات التزوُّدُ بالمنتوجات المصنَّعة وحتّى بالمنتوجات الزّراعيّة التي يوجد ما يماثلها في المركز الاستعماريّ.

٥. تُفرَض رسومٌ ماليّةٌ على المنتوجات سواءً عند خروجها من موانئ المستعمرات أو عند دخولها إلى موانئ المركز الاستعماريّ»[١].

تشهد تلك الإجراءاتُ «المركنتيليّةُ» المَصوغةُ والمطبّقةُ من القرن السّادس عشر إلى القرن الثّامن عشر على وجود عقليّةٍ تعدّ المستعمرات مجرّد مواضيعَ للاستغلال، يحتكر مركزُها الاستعماريُّ فوائدَها بشكلٍ غَيورٍ. ليست المستعمراتُ مقاطَعاتٍ ولا ممالك لها ذواتٌ مساويةٌ لغيرها في دولة المركز الاستعماريّ االذي تتبعه، بل هي مجرّد مُلْحَقات اقتصاديّة لا وجودَ لها أبعدَ من القيام بوظيفةٍ اقتصاديّة في خدمة المركز الاستعماريّ. هذا هو رأيُ مونتسكيو:

«إنّ الغاية من وجود هذه المستعمرات هو القيام بالتّجارة مع أفضل الشّروط كما لا يتيسّر القيام به مع الشّعوب الجارة، التي تتمّ التجارة معها على أساس الامتيازات المتبادلة. لقد بنيْنا الأمر على أساس أنّ المركز الاستعماريَّ وحدَه هو الذي يملك حقَّ التّبادل التّجاريّ في المستعمَرة، وهذا يستند إلى حُجّةٍ متينةٍ؛ لأنّ الغرضَ من إنشائها هو توسيع التّجارة، لا تشييد مدينةٍ أو امبراطوريّةٍ

١. مقالُ «الاستعمار»، لـ جول دُوفالْ، في المعجمُ العامُّ للسّياسة، لـ موريسْ بلوكْ، باريس، ١٨٦٣، ص. ٤٠١-٤٠٥.

Article «Colonisation», par Jules DUVAL, dans le Dictionnaire général de la politique, de Maurice BLOCK, Paris, 1863, p. 401 - 405.

جديدةٍ[١].

هذا هو رأيُ الوزير شواسُولْ (CHOISEUL)، أيضًا، كما هو رأي محرِّر الموسوعة، الذي وقّع مقاله «المستعمرات» بحروف «م.ف.د.ف.» (MVDF): المستعمراتُ...

«لمْ تُنْشأْ إلّا لمنفعة المركز الاستعماريّ، ويترتّب على ذلك:

أوّلًا، أنّها يجب أن تكون تابعةً له مباشرةً، وبالتّالي أنْ تكون تحت حمايتها.

ثانيًا: أنْ تكونَ التّجارةُ معها حِكْرًا على المؤسِّسين.

ولا اعتبارَ لمصلحة المستعمَرة الاقتصاديّة:

تصبح المستعمراتُ بلا نفعٍ إذا ما تجاوزت المركزَ الاستعماريَّ واستغنت عنه: كما أنّه يوجدُ قانونٌ مأخوذٌ من طبيعة الأشياء يوجب علينا تحديد الفنون والثّقافة في المستعمرة في نطاق مواضيع محدَّدةٍ بما يتناسب مع مصلحة البلد المهيمِن [المستعمِر].

وفوق ذلك:

إذا زاولت المستعمرةُ تجارةً مع الأجانب أو إذا استهلكت سلعًا أجنبيّةً، يكون المالُ الناتجُ عن تلك التّجارة سرقةً بحق المركز الاستعماريّ».

وهكذا فإنّ المستعمَراتِ لم يكن لها وجودٌ لا بذاتها ولا لأجل ذاتها.

انهارتِ المنظومةُ المركنتيليّةُ، التي أعدمت كلّ فرص التّحرّر من غُلّ العبوديّة الاقتصاديّة للدّول الاستعماريّة، انهارتْ في منتصف القرن الثّامن عشر تحت ضربات المعاول النّظريّة لعلماء الاقتصاد الليبراليّين، أنصار التّحرير الكامل للإنتاج الاقتصاديّ وللتّبادل التّجاريّ. لكنّ الثّوراتِ المنتصرةَ في المستعمرات الأمريكيّة التّابعة لكلٍّ من أنكلترا وإسبانيا، أسهمت أكثر في تفكيك «الميثاق الاستعماريّ»، الذي تمّ التّخلّي عنه خلال القرن التّاسع عشر. لقد غفل مُتكلِّموه (apologistes) عنْ أنّ استغلال الأوروبّيّين لموارد الدّول الأجنبيّة (exotiques) كان بالإمكان القيامُ به بطريقتَيْن مختلفتيْن:

١. إمّا بإرجاع المنافع كلِّها إلى اقتصاد المركز الاستعماريّ، الذي هو البداية والنّهاية في

١. روحُ الشرائع، الباب ٢١، الفصل ٢١.

De l’Esprit des lois, XXI, 21 - 26.

الاقتصاد «الاستعماريّ».

٢. وإمّا باستقرار قسْمٍ من سكّان المركز الاستعماريّ على الموارد الـمُستغَلّة. وبهذا كان بالإمكان بل من الواجبِ الانتقال من الاقتصاد ذي المحوريّة الخارجيّة (économie hétéro-centrée) إلى الاقتصاد ذي المحوريّة الذّاتيّة/الدّاخليّة (économie auto-centrée).

لقد نتج عن الجهل بهذه الحالة أنْ دفعتِ الحكومةُ البريطانيّةُ ثمّ الحكومةُ الإسبانيّةُ مستعمِريهما المستوطِنين (colons) الخاصّين إلى الثورة وإلى الانشقاق عن الدّولة الاستعماريّة.

في القرن التّاسع عشر، أنهى انتصارُ النّظريّات اللّيبراليّة الميثاقَ الاستعماريَّ، والاحتكاراتِ والدّوْلانيّةَ (نظريّة هيمنة الدّولة على الاقتصاد /étatisme) . أعطت أنكلترا، القويّةُ بتفوّقها الاستعماريّ، المثلَ لسياسةٍ جديدة، قائمةٍ على التّبادل الحرّ. لكنْ شهدنا إذنْ، أنّ قوانين السّوق بإمكانها أنْ تكون قمعيّةً واستغلاليّةً بقدر ما كانت عليه إجراءاتُ الميثاق الاستعماريّ. لقد تراجعت صناعةُ النّسيج الهنديّةُ بعد إلغاء الاحتكار التّجاريّ لشركة الهند سنة ١٨١٣، أمامَ منافسة صناعة النسيج في مدينة مانشستر. وأفلستْ متاجرُ الملابس في البيرو (Obrajes du PÉROU) بعد سنواتٍ من فتح الموانئ أمام البضائع الأجنبيّة. وأُجبِرتِ الصّين بالقوّة على فتح حدودها أمامَ الأفيون الأنكليزيّ...

بعد سنة ١٨٧١، تعمّمتِ الطُّرُقُ الجديدةُ للاستغلال[١]. إنّها تميّز عصر الإمبرياليّة. لم يتمّ إعادةُ تفعيل الميثاق الاستعماريّ على الرّغم من تنامي النّزعة الحمائيّة (protectionnisme). لم تَظلَّ ميادينُ الاستغلال ممتلكاتٍ حصريّةً. لكنّ الاقتصادَ الدُّوليَّ الذي كان يتشكّل كان، أكثر من أي وقتٍ سابق، خاضعًا للقوى الصّناعيّة والماليّة في أوروبا الغربيّة الشماليّة، التي كانت تستغلّ، في الآنِ نفسِه، وبالمِقدار نفسِه، الدّولَ المستقلّة قانونيًّا، وممتلكاتِها الاستعماريّةَ. يتمّ استغلال الدّول من خلال استثمار الرّساميل في القروض العامّة التي تُصدرها الدُّول (السّندات الحكوميّة)، أو التي تُصدرها البلديّاتُ التي تسعى إلى تحديث نفسها. لقد كانت تؤدّي إلى تحصيل فوائدَ أفضلَ من تلك الآتية

١. لقد كانت موجودةً منذ الحقبة اللّيبراليّة كما أثبت جانْ بُوفْيِي في دراسته: «إرساءُ شبكات المصالح المادّيّة الأوروبيّة في منطقة البحر الأبيض المتوسّط: في القرنيْن التّاسع عشر والعشرين»، المنشور ضمن كتاب الإمبرياليّة، ندوة الجزائر، الجزائر، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، ١٩٧٠، ص. ٢٩-٤٨.

Jean BOUVIER: «L'installation des réseaux des intérêts matériels européens en Méditerranée: xixè-xxè siècle», dans L'impérialisme, colloque d'Alger, Alger, SNED, 1970, p. 29 - 48.

من الاستثمارات المحليّة، كما كانت تؤدّي غالبًا إلى إفلاس الحكومات وإلى حصول الدّائنين على رهْنٍ: مراقبة الدَّين، وإدارة مصلحة الدّيوانة/الجمارك، والوكالة في استخلاص بعض أنواع الضّرائب.

تُقلِّص هذه التّبعيّةُ الاقتصاديّةُ سيادةَ الدّولة المدينة (المديونة) وتؤدّي في النّهاية إلى الاحتلال العسكريّ وفرض نظام الحماية (protectorat). وهكذا فإنّ استغلالَ الدُّول بهذه الطّريقة لا يبقى ممكنًا بعد الضّمّ. يتمّ الاستغلالُ المباشر لموارد الدّولة، المستقلّة أو المضمومة، من خلال استثمارت الرّساميل الماليّة في الشركات المنجميّة، وشركات سكك الحديد، وشركات الموانئ، وشركات المياه، وشركات الغاز أو الكهرباء. لقد كانت تلك الاستثماراتُ، وهي ذاتُ فؤائدَ قابلةٍ للتّحصيل والنّقل إلى وطن المستثمِرين، تمكّن أيْضًا من تزويد الاقتصاد المهيمِن بالموادّ الأوّليّة ، وتوفّر، في الوقت نفسه، الفرصةَ لطلبيّات استيراد معدّاتٍ وتجهيزاتٍ تقنيّةٍ من المركز الاستعماريّ [وطن المستثمِرين]، لأنّ البحث عن أسواقٍ مضمونةٍ في الخارجِ كان هَوَسًا في تلك الحقبة المتّصفة بفائض الإنتاج وبتفشّي الحمائيّة. ومن هنا كانت منفعةُ الضمّ، والحلم بـ«ماركنتيليّةٍ جديدةٍ» "néo-mercantilisme".

سوف يرتكز مبدأُ التّكامل، في ما بعد على الحاجات الاقتصاديّة للمراكز الاقتصاديّة التي كانت في قمّة التّطوّر: لقد تصاعدتْ أهميّةُ الموادِّ الأوّليّةِ، الخاصّةِ بالصّناعة، وأصبحت لها مكانةٌ أكبرُ في عمليّات الإنتاج «الاستعماريّة». في الواقع، لقد استمرّ وجود التّكامل، لكن لا بشكل مباشِرٍ، وبعضُ المستعمَرات كانت تُحاكي منتوجات المركز الاستعماريّ: تخصّصتِ «البلدانُ الجديدةُ»، التي تمّت تنميتُها من خلال الهجرة الأوروبّيّة، في المنتوجات الـمُكمِّلة (التّكميليّة(complémentaitres / ، بالتّأكيد، لكنّها كان يمكن أن تُعدّ منافِسةً في القرن السّابق. لقد كانت الحبوبُ الكنديّةُ واللّحومُ الأرجنتينيّةُ المجمَّدةُ تغذّي أنكلترا الصّناعيّةَ التي تخلّت عن سياسة حماية قطاعها الفلاحيّ. إنّه التّقسيمُ العالميّ للعمل الذي نظّر له علماءُ الاقتصاد اللّيبراليّون، وأملوا في تطبيقه: التخصُّص في إنتاج السّلع الأقلّ كلفةً مقارنةً مع بقيّة الدّول بما يخفّض أسعارَها ويرفع، بالتّالي، قدرتَها التّنافسيّةَ في السّوق العالميّة. إنّه «الاقتصادُ الاستعماريُّ»، إذا أردتُم، لكنّه الاقتصادُ القابلُ للتطوُّر حسب العرض والطّلب. لقد كانت الولاياتُ المتّحدةُ الأمريكيّةُ زراعيّةً في البداية، لكنّها أصبحت قوّةً صناعيّةً كبيرةً تجاوزت قوّةَ أنكلترا قبل سنة ١٩٠٠، كما أنّ كندا قد تصنّعت خلال الحرب الكبرى. لا «استغلالَ» بعدُ للدّول الجديدة من الدُّول الصّناعيّة التي أرسلت إليها المهاجرين والرّساميلَ اللاّزمةَ لتنمية الموارد المحليّة على عين المكان. استغلالُ البلد يعني، بكلّ بساطةٍ، أنّ إنتاج معيشته الماديّة يقوم به المجتمعُ الذي أسّسه المستعمِرون المستوطنون (colons)،

إنّه اقتصادٌ عاديٌّ، ذو محوريّة ذاتيّة/داخليّة (auto-centrée).

وهكذا نصل في بياننا إلى مستوًى حيثُ يتيسّر، ويصبح من الضّروريّ في النّهاية، أنْ نُقدّمَ تعريفًا لـ «الاستعمار» (colonisation) بحصر المعنى. لا نقصَ في التّعريفات، لكنْ يجب أنْ نُزيحَ الفاسدةَ منها حتّى لا تبقى إلّا الصحيحةُ.

الاستعمارُ (colonisation) ليس هو الهيمنةَ، كما يفكّر الإنسانُ العاميُّ. ضمُّ أرضٍ، وإعلانُها «مستعمَرةً» (colonie)، لا يعني استعمارَها (le coloniser): الأرضُ المضمومةُ هي «قابلةٌ للاستعمار» (colonisable)، ولهذا فإنّها لم يتمّ استعمارُها (n'est pas colonisée). لكنّ الاستعمارَ (colonisation) يمكن أنْ يكون وسيلةً في خدمة الهيمنة: لقد أقام الرّومانُ، ومن قَبْلهم الملوكُ الذين خلفوا الإسكندر، مستعمراتٍ في المقاطعات التي أخضعوها لكيْ تكون نقاطَ إسنادٍ موثوقةٍ في حالة الثّورة ضدّهم. هذا الحسابُ (التّقديرُ / calcul ذاتهُ هو الذي ألهم الحكوماتِ الفرنسيّةَ فكرةَ أنْ تستعمر (coloniser) الجزائر بعد غزْتِها.

وعلاوةً على ذلك، ليس الاستعمارُ (colonisation) هو الاستغلالَ، أو بالأحرى، ليس هو أيًّا كان من أشكال الاستغلال، بل هو شكلٌ خاصٌّ منه. تحديدًا، ليس الاستعمارُ (colonisation) هو الاستغلال الموصوف بصفة «الاستعماريّ» الذي يمارسه بلدٌ ما على بلدٍ آخَرَ. الاستعمارُ (colonisation) يتوافق مع المرحلةِ الأولى من مراحل التّنمية (mise en valeur) التي تَطال أرضًا، مرحلةِ الاقتصاد «الابتدائيّ» (primaire)، أيْ المرحلة الزّراعيّة والمنجميّة بشكلٍ أساسيٍّ. هكذا كان جول هارْمنْدْ (Jules HARMAND) قد عرّفه:

«يجب أن نُحصّصَ اسمَ «استعمار» (colonisation) لانتزاع الأراضي (appropriation)، واستخدامها واستغلالها، وكذلك، إلى حدٍّ ما، لباطن الأرض القابل للاستعمال مباشرةً. «استعمر» (coloniser) -من الأصل اللاّتيني colere، أيْ زرع، حرث (cultiver)- يعني، أساسًا، «استغلّ» (exploiter) أرضًا، أو إقليمًا، كانت إلى ذلك الحين إمّا برّيّةً بَوْرًا مهجورةً (sauvage) وإمّا في حالتها الطبيعيّة الخام (à l'état de nature)، وإمّا مُهيّأةً جزئيًّا، لكنّها في وضعٍ اقتصاديٍّ رديءٍ جدًّا لا يمكّنها من توفير إنتاجٍ مُربحٍ بانتظامٍ[١].

ويلي الاستعمارَ، عادةً، تطويرُ جميع الفروع لبناء اقتصادٍ يماثل اقتصاد المركز الاستعماريّ

١. جول هارْمنْدْ، السّيطرةُ (الهيمنةُ) و الاستعمارُ ، باريس، فلاّماريُنْ، ١٩١٠، ص. ١٠٢.

Jules HARMAND, Domination et colonisation, Paris, Flammarion, 1910, p. 102.

ويضاهيه.

إنّ التّعريفَ الاقتصاديَّ، الذي قدّمه جول هارْمنْدْ، جيّدٌ، لكنّه لا يَذكر عنصرًا أساسيًّا، لا استعمارَ من دونه: إنّه الإسكانُ (peuplement)، الذي هو، في الآن نفسه، الوسيلةَ والغايةَ في التّنمية: «استعمارُ الإسكان» (colonisation de peuplement) هو أمرٌ بديهيٌّ (تحصيل حاصلٍ / truisme)، لغوٌ (pléonasme) أو إطنابٌ في الكلام (redondance). يُدمج جول دُوفالْ (Jules DUVAL) هذا المفهومَ الأساسيَّ:

«الاستعمارُ (colonisation): نطلق هذا الاسمَ، المشتقَّ من الفعل اللاّتينيّ «colere, colonus» (زرع، زارعٌ، مستعمِرٌ / cultiver, cultivateur, colon)، على أيّ عمليّة شَغْلٍ (احتلالٍ / استيلاءٍ على / occupation) وإسكانٍ وزراعةٍ تتمّ في أجزاء الكرة الأرضية التي كانت شاغرةً (غيرَ مشغولةٍ / inoccupée)، وغيرَ مأهولةٍ بالسّكّان، وبوْرًا (غير مزروعةٍ)»[١].

في الحقيقة، إنّ الفعل اللاّتينيّ «colere»، الذي يعني زَرَع أرْضًا، وسكَن محلاًّ، وقدّسَ الآلهةَ الموجودةَ فيه، قد اُشْتُقّ منه اسمان هما «colonus» و «incola»:

- «colonus»: يعني «فلاّح»، «مزارع» (paysan)، وتحديدًا «مؤاكِر/مزارع كراء» (métayer) أو قِنّ (serf) مرتبط بالأرض،
- «incola»: يعني ساكنٌ (habitant).

أمّا «المستعمَرةُ» (colonie, colonia) فهي:

- إمّا: أرْضٌ مزروعةٌ، أيْ مَزْرعةٌ،
- وإمّا إقليمٌ (قطعةٌ من الأرض / territoire ممنوحٌ لجنودٍ كتعويضٍ على خدماتهم، أو لمواطنين لا يملكون أراضيَ.
- وهذه الكلمة، نفْسها، تعني مدينةً جديدةً تُتّخذ مركزًا إداريًّا مدنيًّا (civique) وتجاريًّا لذلك الإقليم، ومجموع الرّجال الذين يأتون للتوطّن والسُّكنى في المؤسَّسة الجديدة.

في اللّغة الفرنسيّة، كانت كلمةُ «مستعمِر مستوطِن» (colon) تعني، في القرن الرّابع عشر،

---

١. جول دوفالْ، م. ن، ص. ٤٠١.

Jules Duval, op. cit., p. 401.

«مؤاكِر/مزارع كراء» (métayer)؛ ثمّ أُطلِق على «السّكّان» (habitants) الذين ينطلقون للاستقرار في «مستعمَرات» ما وراء البحار. إذنْ، المعنى الأوّلُ للمصطلح واضحٌ ومتناغم جدًّا.

«الاستعمارُ» هو فعل تنمية لإقليمٍ غيرِ مُستغَلٍّ، أو هو مُعتبَرٌ كذلك، من خلال إعماره بإسكان مجموعةٍ من النّاس فيه. لكنْ، هل كلُّ إسكان/سُكنى (peuplement) هو استعمارٌ (colonisation)؟ الجواب: كلاّ.

يستلزمُ الاستعمارُ (colonisation) وجودَ علاقةٍ وثيقةٍ ودائمةٍ للإسكان بالأرض التي يَشغلها/يحتلّها، وانتزاعًا للأراضي وإجراءَ تغييرٍ في إقليمِ الأرضِ المستعمَر. الاستعمارُ ساكنٌ مُقيمٌ (sédentaire) وثقيلٌ مُركَّزٌ (dense)، من أجْل ذلك، فإنّ شعوبَ الصّيادين والجامِعين (ramasseurs) لا تستعمرُ (ne colonisent pas)، لأنّها تلاحق أسبابَ معيشتها من دون أنْ تستقرّ في محلٍّ بشكل دائمٍ، ولا تعمل على تغيير الطبيعة التي يندمج فيها نوعُ حياتهم القنّاصُ (prédateur). ومن أجْل ذلك أيْضًا، فإنّ القطّافين (cultivateurs)، المتنقِّلين على الوقيد (brûlis)، لا يستعمِرون، لأنّ إقاماتِهم ليست سوى مؤقَّتة. أمّا مُربُّو الماشية الرُّحّلُ، فإن تَجوالَهم المستمرَّ وهجراتِهم الدّائمةَ يمنعان، كذلك، من الكلام عن «استعمار» (colonisation) بخصوصهم. لكنّ أعمالَ تربية الماشية المستقرةَ في المكان، وحتّى تلك المنتجعةَ (transhumant) في نقاطٍ ثابتة، مثل مزارع تربية الماشية الكبرى (ranches) في أمريكا الشّماليّة، والإقامات (estancias) في الأرجنتين، بالإمكان أن تدخل [هذه] تحت اسم «استعمار» (colonisation)، في ما لو أردنا أنْ نغضّ الطّرفَ عن الكثافة السّكّانيّة المسموحِ بها في أعمال تربية الماشية الـمُمتدَّة (الكبرى / extensive).

هل الإسكانُ الحضَريُّ هو استعمارٌ؟

الجوابُ: أجلْ[١]، لكنْ...

الجوابُ هو «أجلْ» إذا ما راعيْنا بُعْدَي الكثافة ودوام الاستقرار. تركيبُ «Colere urbem» يعني السُكنى في المدينة، والمعنى الأكثر استعمالاً لكلمة «مُستعمَرة» (colonie) كان يشير إلى «مركز حَضَريّ». لا ينفكّ «الاستعمارُ الرّومانيُّ» عن الإنشاءات الحَضَريّة التي كانت أقطابًا لأقاليم من الأراضي الزّراعيّة، كانت تُسمّى، أيْضًا، «مستَعمَراتٍ». تعمّمت في زمننا هذا ظاهرة التّحضّ

١. في الجزائر، كان القانونُ [الاستعماريّ الفرنسيُّ] يميّز، في انتخاب المفوّضيّات الماليّة، بين «المستعمِرين المستوطنين» (colons) و«غير المستعمِرين المستوطِنين» (non colons)، أيْ بين المُلّاك العقّاريّين (مالكي الأراضي) وبين أصحاب المهن غير الفلاحية/الزراعيّة، من بين ممثّلي السّكان المهاجرين [إلى الجزائر]. هذا معنًى ضيّقٌ.

(التّحضير / urbanisation) في البلدان الصّناعيّة، وتتصاعد بخطوات كبيرة في البلدان الأخرى: هذا لا يمنع من بقاء الفلاحة/الزّراعة، في كلّ مكان، قاعدةَ الاقتصاد طالمًا بقي الإنسان عاجزًا عن مضغ الحديد وشرب النّفط؛ تحتاج «المستعمرةُ»، إذنْ إلى قاعدة فلاحيّة/زراعيّة لتموين المدن بالغذاء، وعمليّة التّنمية لاقتصاد تامٍّ انطلاقًا من نقطة الصّفر، من الطبيعيّ أنْ تبدأ من الحاجة الأولى، إذنْ لا بدّ من الفلاحة/الزّراعة قبل كل شيءٍ آخَر. وبالتّالي، فإنّ كلّ مستعمرة حضَريّة محْضٍ سوف تكون ناقصةً وهشّةً، بسبب كونها تابعةً في تلبية حاجاتها الأساسيّة إلى جهةٍ خارجيّة. كمثالٍ على ذلك، نذكر «المستعمرات» الأجنبيّة التي أُقيمتْ في المدن بغاية التّجارة، والمجتمعة في بعض الأحياء حيثُ كانت أحيانًا تتمتّع بامتيازات «الأراضي الخارجية» (exterritorialité) وبالاستقلاليّة (الفونْداسي الإيطاليّة "fondaci"، ومصارف الهانْس "comptoirs de la Hance" في القرون الوسطى، ومعازل اليهود "ghettos" في أوروبا الشرقية، والامتيازات الاحتكاريّة في الموانئ الصّينيّة زمن المعاهدات غير المتكافئة...). لكنْ، تلك «المستعمراتُ» الحَضريّةُ كانت تحت رحمة الحكومة [صاحبة الأرض] التي تَغضّ الطّرْفَ عنها مكرَهةً، بسبب فقدانها القدرة على مراقبة أوضاعها الدّاخليّة. في زمننا، تمّ إلغاءُ كلِّ امتيازاتها: لم يبقَ منها سوى تعبير «مستعمَرات أجنبيّة» ولقب «قنصل» الذي يحمله بعض الدّيبلوماسيّين. كذلك لا ينطبق تمامًا اسم «مستعمرات» على المصارف التّجاريّة الـمُحصّنة (fortifiées)، التي لم يكن لها سكّانٌ دائمون. وأخيرًا لا يستأهلُ اسمَ «استعمار» (colonisation) أيُّ إسكان محدودٍ بجسمٍ إداريٍّ يُقيم في العواصم والمدن الكبرى، حتى ولو كان غزير العدد (pléthorique).

وهكذا، فإنّ «الاستعمار» (colonisation) يستلزم إذن، وجودَ عمليّة استغلالٍ لجميع موارد البلد يقوم بها سُكّانٌ جُدُدٌ يستقرّون فيه ويشكلّون مجتمعًا تامًّا كاملاً.

هذا التّعريفُ الذي نقترحه لمصطلح «الاستعمار» (colonisation)، مطابقٌ لعلم الاشتقاق (étymologie) وللمنطق، لكنّه لا ينسجم مع المعنى المقبول بشكلٍ عامٍّ في أيامنا هذه، الذي يرى أنّ الاستعمار (colonisation) يستلزم السيطرةَ/الهيمنةَ والاستغلالَ، أيْ إنّه يعني السيطرةَ/الهيمنةَ بغاية الاستغلال. لكيْ نفسّر هذا التّنافر (discordance) يجب أنْ نُحلّلَ (traiter) العلاقات بين المستعمرات والمركز الاستعماريّ.

تاريخيًّا، كانت تلك العلاقاتُ ترجع إلى نوعيْن من التّناقضات: الاستقلاليّة (autonomie) والتّبعيّة (dépendance). الحالة الأُولى تُمثّلها حالةُ المستعمرات اليونانيّة في عصر المدن. في وقتٍ متأخّرٍ جدًّا، تُمثّل الولاياتُ المتّحدةُ الأمريكيّةُ، ثمّ من بَعدها الولاياتُ اللاّمتحدةُ الأمريكيّةُ اللاّتينيّة، وأخيرًا الدّومينيوناتُ البريطانيّة (دولٌ كانت مرتبطةً بالتّاج البريطانيّ / Dominions

britanniques، تُمثّل مستعمَرات مستقلّةً عن مراكزها الاستعماريّة. يُفسِّر ذلك الاستقلالُ، الذي كان قد أُنتُزع بالقوّة في الحالتين الأُولَيَيْن، المسايَرةَ النسبيّةَ التي كانت الحكومةُ البريطانيّةُ قد تعاملت بها، منذ سنة ١٨٤٠، إذْ تركت مستعمَراتها تسير نحو حكمٍ ذاتيٍّ (self government) صار مُطلقًا بشكلٍ تدريجيٍّ تصاعديٍّ. يرى أغلبُ الكُتّاب السّياسيّين البريطانيّين في القرن التّاسع، وبعضُ الكتّاب الفرنسيّين، أنّ ذلك التّطوُّرَ كان هو المصيرَ الحتميَّ لتلك المستعمرات، ويذكرون السّابقةَ اليونانيّة لتأييد رؤيتهم. في ذلك يقول جول دُوفالْ:

«لقد كانت المبادئُ والمشاعرُ التي كانت تحكم الاستعمارَ (colonisation) اليونانيَّ هي الأفضلَ الّتي لم تطبّقِ البشريّةُ مثلها البتّةَ، وأيُّ حضارةٍ مهما بلغت من التفوّق لا يمكنها أنْ تتصوّر أرفعَ من تلك الممارسات؛ لقد كانت تتلخّص في اسم «الاستعماريّ» (métropole)، المدينة الأمّ، المدينة الوطن. لقد كانت علاقاتُ المستعمَرة، مع المدينة الأمّ التي أنشأتْها، مصوغةً على نمط الرّوابط العائليّة... وهكذا فإنّ المستعمراتِ اليونانيّةَ، التي كانتْ قائمةً على عرفان الجميل (réconnaissane)، وعلى المحبّة، وعلى التّضامن والتّعاون في المصالح، بمقدار اعتمادها على قواها الذاتيّة، لم تكن محرومةً من الحقّ في التّنمية الحرّة والتّامّة لإمكانيّاتها الإنتاجيّة... لقد كانت تَحكم نفسَها بنفسها، وكانت تسكّ عملتها باسمها هي...، في كلمة، لقد كانت تتصرّف كسيّدةٍ على مصيرها الخاصّ، ولم تكن هي أيْضًا، تتخلّف عن إنشاء مستعمَراتٍ جديدةٍ من خلال تفرّعاتٍ (عمليّات إفراق / essaims) متتالية... لقد كانت تنمو، منذ نشأتها إلى اشتداد عودها، في عمليّاتٍ تقدُّمٍ سريعة، وكانتْ هذه السّيرورةُ، تتّسم باستقلالٍ تامٍّ، وكان هذا الاستقلالُ يعظّم مصيرَها ونصيبَها من دون أنْ يفسخَ الذّكريات، والمودّات والولاءات»[١].

لقد تجدّد هذا المثالُ في عالَمنا المعاصر مع تطوّر الإمبراطوريّة البريطانيّة إلى كومنويلث مكوَّنٍ من أممٍ متساويةٍ وذاتِ سيادة من خلال ولاءٍ عامٍّ للتّاج. كان گلادْسْتُوْنْ (GLADSTONE) يقول، وهو يتحدّث عن المستعمَرات البريطانيّةَ، أنّ:

«المبدأ الكبير لأنگلترا، هو تكثير العِرْق الأنگليزيّ من خلال تعميم مؤسَّساتها (...) تتمثّل العمليّةُ في أنْ تَجمع عددًا معيّنًا من الرّجال الأحرار الذين يُوجَّهون لتأسيس دولةٍ مستقلّةٍ في جزءٍ آخَرَ من الكرة الأرضيّة بمساعدة مؤسّساتٍ مماثلة لمؤسّساتك. وتتطوّرُ تلك الدّولةُ الناشئةُ من خلال مبدإ النموّ الذي يحميه النّظامُ الحاكمُ في المركز الاستعماريّ (الوطن الأمّ) ضدّ كل عدوانٍ

١. م. ن، ص. ٤٠١.

أجنبيٍّ، وهكذا تنتشر، مع الزمن، لغتُك، ودينُك إلى تخوم كوكب الأرض»[١].

لا وجود لسيطرةٍ/هيمنةٍ هنا، بل تُوجَدُ وصايةٌ مُؤقَّتةٌ فقط، كما لا وجود لاستغلالٍ من المركز الاستعماريّ.

في الحالة الأخرى، الوحيدة المطابقة للفكرة السّائدة، الاستعمارُ (colonisation) هو وسيلةٌ للسّيطرة/الهيمنة وللاستغلال. تعطي الإمبراطوريّةُ الرّومانيّةُ المثال الأفضلَ لاستعمارٍ (colonisation) تابعٍ لضرورات (nécessités) الغزو وضرورات التّحكُّم في المقاطعات الـمَغْزُوَّة. لقد كان جُولْ دُوفالْ أقلَّ حماسةً لهذا الشّكل من الاستعمار (colonisation):

«الاستعمارُ (colonisation) الذي يُفتتَح بالغزو يُقوَّم بالفلاحة/الزّراعة. لكنّ الحضانةَ الرّومانيّةَ لم تكن أبدًا، تُفسِح في الحريّة وتتصرّف بكرمٍ إلاّ بشكلٍ جزئيٍّ. لقد كانت تدبّر حكم المستعمرات بالشّكل الأكثر نفعًا وربحيّةً لسيطرتها/هيمنتها»[٢].

لقد كانت شبكةُ المستعمراتِ الرّومانيّةِ كالعمود الفقريّ للإمبراطوريّة؛ لقد كانتْ تُؤمِّن التّحكّم في المقاطعات، بدْءًا، ثمّ رَوْمنتُها (romanisation) بعد ذلك. هذا المثالُ كان له سِنْخٌ في ما قام به الغُزاةُ ((Conquistadors الإسبانيّون في أمريكا، الذين حاكتْ عمليّاتُهم في تأسيس المستعمراتِ التّخطيطَ الحضَريَّ الهيبّودَمينيَّ (hippodamien) للمستعمرات الرّومانيّةِ. في وقتٍ لاحقٍ، تقمّص الغُزاةُ الفرنسيّون للجزائر الفرنسيّة دورَ الوَرَثة لبُناة مدينة تيمگادْ (TIMGAD) (مدينة رومانيّة أثريّة في ولاية باتنة الجزائريّة، بُنيتْ سنة ١٠٠ م في عهد تراجان، كانت تلعب في البداية دورًا دفاعيًّا، لتصبح في ما بعد مركزًا حضاريًّا كانت تُسمّى تاموگادي / (TAMOUGADI: يُذكَر أنّ جنودَ [الماريشال] بيجو (BUGEAUD)، [العسكريّ الفرنسيّ، وحاكم الجزائر في بدايات احتلالها]، كان شعارُهم «السّيف والعربة».

لقد كان الاستعمارُ (colonisation) قبل عصر الإمبرياليّة تابعًا تمامًا للاستغلال، على الرّغم من وجود عددٍ ضئيلٍ من الاستثناءات. لم تكن السّيطرةُ/الهيمنةُ، نفسُها، سوى وسيلةٍ ضروريّةٍ

١. جولْ هارْمَنْدْ، م. ن. ص. ١١١-١١٢.

Jules HARMAND, op. cit., p. 111 - 112.

٢. جُولْ دُوفالْ/ م. ن، ص. ٤٠٢.

Jules Duval, op. cit., p. 402

بلا شكٍّ، في خدمة الاستغلال. ولم يكنِ الاستعمارُ (colonisation) سوى نتيجةٍ اضطراريّةٍ غيرِ مُتعمَّدةٍ للاستغلال. لقد كانت نقطةُ الانطلاق، دائمًا، مشروعًا لغايةِ الرّبح، سواءً من فعل الدّولة (البعثات البرتغاليّة) أم أشخاصٍ (كولومب COLOMB، وكُرْتازْ CORTÈS، وبيزارُّو PIZARRO وألْماگْرو (ALMAGRO، أو شركات مساهمة. لقد كان دورُ الدّولةِ التّرخيصَ والحراسةَ من أجل استرجاعها وفق روحٍ مركنتيليّةٍ. لم تكن الحكوماتُ الأوروبّيةُ أجمعَ، تعدّ المستعمراتِ أجزاءً من أراضي الدّولة. لقد كان يُطلَق على المستعمرات أسماء ساحرةً للمغامرين الذين تمّ إرسالهم: إسبانيا الجديدة، أنگلترا الجديدة، فرنسا الجديدة، لكنّ الحكومات لم تكن تؤمن بها.

في البداية، كانت إدارةُ تلك المستعمرات تُوكَل دائمًا، إلى أشخاصٍ أو إلى شركاتٍ إقطاعًا أو ملكيّةً. لقد كانت إسبانيا هي الأولى التي أرستْ صيغة الحكم المباشر من المركز الاستعماريّ. وهكذا أصبحتْ مناطقُ النّفوذِ الاستعماريِّ ملكيّةً لدولةِ المركزِ، التي تنتظر منها مدخولاً؛ فالمستعمراتُ لا وجودَ لها، لا بذاتها ولِذاتها.

وبالنتيجة، فإنّ الإسكان الـمُميِّزَ الأساسيَّ للاستعمار (colonisation)، لم يكن مَلْحوظًا كغايةٍ للمستعمرة[1]. جُملةُ مونتسْكيو، سالفةُ الذّكر، كاشفةٌ عن هذا العمى[2]. لم يكنِ المستعمِرون المستوطِنون (colons) موجودين إلّا بوصفهم أيْديًا عاملةً ضروريّةً لاستغلال الموارد المحليّة لفائدة المركز الاستعماريّ. كانوا يُعتَبرون منتدَبين في مهمةٍ لخدمة المركز، أو بعبارةٍ أخرى، في إقامةٍ مؤقّتةٍ للإثراء قبل العودة إلى الوطن. وهكذا، فقد تمّ تجاهُلُ مسألة تجذير السّكان الذين تمّ إرسالُهم في وسطٍ جديدٍ يوفّر لهم إمكانيّاتِ ترقٍّ مجهولةٍ في الوطن الأمّ. لقد كان ذلك الإنكارُ لمسألة الإسكان في المستعمرات عامًّا، مع استثناء الإسبانيّين، الذين أقرّوا، منذ البداية، بالإسكانَ كغايةٍ من غايات الاستعمار (colonisation). لقد ثار المستعمِرون المستوطِنون الأوائلُ في جزر

---

١. «الميثاقُ الاستعماريُّ، أو نظامُ الحقِّ الحصريِّ (régime exclusif)، يُثبت بوضوحٍ أنّ المراكزَ الاستعماريّةَ كانتْ تبحث عن إضافةٍ لنشاطها الاقتصاديّ، ولثروتها ولقدرتها: لم يكن السّكّانُ يدخلون، البتّةَ، في الحسبان، إلّا في شكل أيْدٍ عاملةٍ ضروريّةٍ». ورد هذا الكلام في:

م. رايْنْهارْدْ و أ. أرْمَنْگُو و ج. دُوباكْيِي: التّاريخُ العامُّ لسكّان العالَم، باريس، مونْكريتْيَنْ، ١٩٦٨، ص. ٢٧٢.

M. REINHARD, A. ARMENGAUD et J. DUPAQUIER: Histoire générale de la population mondiale. Paris, Monchrestien, 1968, p. 272

٢. يتّهم مونْتسكيو المستعمراتِ بأنّها تُفرغ المراكزَ الاستعماريّةَ من السّكّان. ورد ذلك في:

الرّسائلُ الفارسيّةُ، CXXI (١٢١)، نصٌّ موجودٌ في مارسالْ مارْلْ، مرجعٌ سابقٌ، ص. ١٢١-١٢٣.

Lettres persanes, CXXI, texte dans Marcel MERLE, op. cit., p. 121 - 123.zx

الأنتيل (ANTILLES) ضدّ الإخوان الكولومب (COLOMB)، معتبرين إيّاهم مجرّدَ أيْدٍ عاملة تابعة لهم لخدمتهم. لقد افتكّوا من التّاج الإسبانيّ الإقرارَ بحقوقهم، التي هي حقوقٌ لكلّ مواطنٍ إسبانيٍّ:

- حيازة ممتلكاتٍ.
- تشييد مدنٍ تتوفّر على امتيازاتٍ بلديّةٍ (franchises municipals).
- تنظيم بعثات استكشاف.

لقد استفاد كورتازْ من جميع تلك الحقوق، مثل جميع المغامرين الغُزاة الذين استقرّوا في أماكنهم في المستعمرات بلا نية رجوعٍ إلى الوطن. لكنّ الشعوبَ الاستعماريّةَ الأخرى أثبتتْ عدمَ اهتمامٍ بعامل الإسكان، مع وجْدانهما الحلَّ بالالتجاء، بشكلٍ واسعٍ جدًّا، إلى الأيْدي العاملة الإفريقيّة. لقد كانت النّتيجة جليّةً جدًّا في جزر الأنتيل: الجزُرُ الإسبانيّةُ أغلب سُكّانها من البيض، بشكلٍ واضحٍ، ممّا عليه الأمرُ في الجزُر التي «استعمرتها» الشعوبُ الأخرى. هذه الأخيرةُ، لكونها قد تمّ إسكانُ أغلبيّةٍ كبيرةٍ من السّود فيها، فقد استعمرها الأفارقةُ، في النهاية، بتمام معنى الكلمة. في سانْتْ-دُومِنگُو (SAINT-DOMINGUE)، طَرد العبيدُ الأوائلُ أسيادَهم منذ سنة ١٧٩١م، ووجدوا أنفسَهم الأسيادَ الوحيدين لبلد الهاييتي (HAÏTI).

لقد أدّى ذلك الإنكارُ لعامل الإسكان إلى نزاعِ مصالحَ خطيرٍ بين «المستعمرات الحقيقية» (colonies varies)، أيْ تلك التي أُسكن عددٌ كبيرٌ من المستعمِرين فيها، وبين المراكز الاستعماريّة. لقد أدّت منظومةُ الاستغلالِ المتمحورةُ حول المركز الاستعماريّ إلى الإضرار بالمصالح وبالطموحات الخاصّة بالمستعمِرين المستوطِنين، الذين كانوا يمارسون استغلالاً ذاتيًّا داخليًّا (auto-centrée)، أيْ تنميةً «عاديّةً». لقد كان المستعمِرون المستوطِنون في حاجةٍ ماسّةٍ إلى حماية المركز الاستعماريّ طالما كانوا في حالة ضعفٍ يُعجزهم عن التّصدّي لهجمات السّكّان البلديّين الأصليّين (indigènes)، والقوى المعاديةِ. لكنّ المستعمَرةَ لمّا تكبُر تقوى وتصبح قادرةً على الدّفاع عن نفسها بقواها الذّاتيّة. اقتصادُ المستعمرة هو طبيعيًّا امتدادٌ تكامليٌّ لاقتصاد المركز الاستعمار للدّولة الأمّ في مرحلةٍ أُولى. تبدأ تنميةُ أيُّ دولةٍ بالاستعمال «الأوّليّ» لموارد الأرض ظاهرها وباطنها، والتي تكون عادةً مختلفةً عن الموارد الموجودة في المركز الاستعماريّ. يتمّ تطويرُ الحرف التّراثيّة والصّناعة بشكلٍ تصاعُديٍّ في مرحلةٍ ثانيةٍ، ويؤدّي ذلك إلى منافسةٍ مع

مصانع المركز الاستعماريّ. ينتقل الاقتصادُ الاستعماريُّ من الطّفولة إلى النُّضج. لكنّ الميثاق الاستعماريَّ يمنع هذا النّموَّ الطبيعيَّ. وهكذا يظهر أنّ الميثاقَ الاستعماريَّ لا يتوافق البتّةَ، كما نسمع كثيرًا، مع طبيعة الاستعمار (colonisation). لقد فُرض على المستعمَرة، عكسَ نُمُوِّها الطبيعيّ. الميثاقُ الاستعماريُّ هو غُلُّ المستعمرة، هو (سريرُ بروكيست / lit de Procuste). لقد أدان العديدُ من العقول «الميثاقَ الاستعماريَّ»، بما لم نلحظه عند الـمُعادين للاستعمار بالمقدار نفسه. لقد كان المركيزُ دو ميرابُو (de MIRABEAU)، بلا شكٍّ، هو الأكثرَ تبصّرًا بالأمر، فقد أثبت في كتابه صديق النّاس (L'Ami des Hommes) عدمَ انسجام (incohérence) المفهوم المركنتيليّ للاستعمار (colonisation)، في عباراتٍ لو تمّتْ مراعاةُ محتواها لكان هذا المقالُ عديمَ النّفع:

« تكوّنت من هذه الأشياءِ الثلاثةِ ذاتِ القابليّة الضّعيفة للائتلاف في تركيبٍ منسجمٍ، أقصد روحَ السّيطرة/الهيمنة (esprit de domination)، و «روحَ التّجارة» (esprit de commerce) و «روح السّكّان» (الإسكان / esprit population)، تكوّنت منظومةٌ جديدةٌ تمامًا، وأتجرّأ فأقول إنّها منظومةٌ مِسخٌ وحشيّةٌ (monstrueux)، تمثّل السّياسةَ الحاضرةَ لأوروبا في ما يتعلّق بأمريكا.

- روحُ السّيطرة/الهيمنة يرغبُ في الاستيلاء على مساحات أكبرَ من أراضي هذا البلد، الذي لا يمكن لكلّ سكّانه الحاليّين أنْ يملأوا مساحاته الشّاسعةَ، حتّى وإنْ تمّت موْضَعتُهم متباعدين واحدًا فواحدًا بحيثُ لا يتسامعون إلّا بأَصواتٍ مرتفعةٍ. وهو يرغبُ علاوةً على ذلك في أنْ يحكمَ مواطنيه الأمريكيّين بشكلٍ استبداديٍّ بمقدار ما كان يفعل مع الرّازحين على أبواب العاصمة أو أكثرَ.

- روحُ التجارة، الذي دافعُه في الأساس هو إرادةُ كلّ شيءٍ لنفسه ولا شيءَ للآخَرين، ينظر إلى المستعمرات بوصفها مزارعَ تجاريّةً، ويريد إطعامَها، وكِسْوَتَها، وتأثيثَها، وتزيينَها على نفقته ووفق هواه هو، ويريد الحصولَ على موادِّها الغذائيّة بالشروط نفسها، والإذْنَ لها ومنْعَها حسب مصالحه هو، ويعامل في النّهاية المستعمرين المستوطنين بلطفٍ، تمامًا كما تُعامل القِططُ الصّيادةُ (chats-huants) الفئرانَ، تزوّدها بمؤونة الشّتاء، تجلبُ لها الحبوب، لكنْ تكسر سيقانَها لتمنعها من الذّهاب للبحث عن مكانٍ تراه أصلحَ لمعيشتها.

- روحُ السّكّان (الإسكان)، أخيرًا، يدرك جيّدًا الحاجة الماسّة لتعزيز المستعمرات وتنميتها، لكنّه لـمّا يجد نفسه مُزْعَجًا في حرّيّته من إخوانه في الأوّل (روح السّيطرة)، وفي صناعته في الثّاني (روح التّجارة)، لا يتّخذ سوى إجراءاتٍ خاطئةٍ، والتي تكون نتائجُها مناقضةً تمامًا

للغرض من اتخاذها... أقول في عبارة موجَزة: كلُّ التّدابيرُ المتعلقةُ بهذه المجتمعات متنافرةٌ ومناقضةٌ بعضها للبعض الآخر...»

لقد كُتب هذا التّحليلُ الرّائعُ قبل ثورة المستعمِرين المستوطِنين الأمريكيّين بعشرين سنةً[١].

وهكذا نصل إلى قلب المشكلة الذي يطرحها أمامنا تأويل الاستعمار (interprétation de la colonisation). مثّلتْ ثورةُ المتمرّدين الأمريكيّين ضدّ التّاج البريطانيّ الحدثَ المفتاحَ لتاريخ الاستعمار (colonisation). إنّ الجهلَ بالمعنى الحقيقيّ لتلك الثّورة هو منشأُ جميع الأخطاء وكلّ حالات اللَّبْس اللاّحقة حول طبيعة الحدث/الفعل الاستعماريّ (fait colonial). لقد عُرِضتْ خطأً، بوصفها «أوّل حركةٍ تحرُّريّةٍ من الاستعمار» (décolonisation)، وبوصفها «ثورةً ضدّ الاستعمار (colonisation) قام بها المستعمِرون المستوطنون». هذ التّفسيراتُ هي حرْفيًا مُبْهمةٌ غيرُ قابلة للفهم. كيف يمكن للمستعمِرين المستوطِنين أنْ يُدمّروا إنجازَهم، وأنْ يثوروا ضدّ أنفسهم؟ إنّ ثورة المستعمِرين المستوطِنين الأمريكيّين هي ثورةٌ لصالح الاستعمار (colonisation) الذي يمنعهم الميثاق الاستعماريُّ من تطويره. لقد كانت ثورةً سياسيّةً بلا شكٍّ، ضدّ السّيطرة/الهيمنة: لقد كان المستعمِرون المستوطِنون يمتنعون عن دفع الضّرائب التّي لم يُصوّتْ عليها مُمثّلوهم. لم يكونوا يفعلون أكثرَ من المطالبة بالحقوق المُعترَف بها للمواطنين البريطانيّين: «لا ضرائبَ بلا تمثيل» (no taxation without representation)، وإنشاء برلمانٍ امبراطوريّ كان من الممكن أنْ يمنحهم رضًا باجتناب التّوريث (succession). لذلك نجد أنّ الأمريكيّين أنْفسَهم يقدّمون حرب الاستقلال التي خاضوها بوصفها ثورةً سياسيّةً. لكنّ الذي كان يفرض التّوريثَ هو جهلُ المركز الاستعماريّ للدّيناميّة (dynamisme) الخاصّة بالواقع الاستعماريّ. لقد كان الميثاقُ الاستعماريُّ يسعى إلى منع التّصنيع في أمريكا لإبقائها سُوقًا للمنتوجات البريطانيّة. لقد كان يُعيق تطوّرَ التّجارة البحريّة الأمريكيّة بمنع العلاقات المباشرة مع الدّول الأجنبيّة. وخاصّةً، وكان يُعارض التوّسّعَ نحو الغرب بضمّ الأرضي، التي كان المستعمِرون المستوطِنون يحاربون لأجلها الفرنسيّين. لقد كان البلاغُ الملكيُّ لسنة ١٧٦٣م، قد أغلق على الاستعمار (colonisation) الأراضيَ المـغزُوّةَ بين جبال الأبالاش (Appalaches) ونهر الميسيسيبي (Mississipi). من الواضح أنّ قضيّةَ الاستعمار (colonisation) كان يدافع عنها المستعمِرون المستوطِنون لا الملكُ جورج الثّالث. ولقد فهم السّكّانُ البلديّون الأصليّون تلك الحقيقةَ، ولم ينخدعوا بريش أنصار حزب الشّاي في بوسطن

١. مارْسالْ مارْلْ، م. ن، ص. ١٢٣-١٢٧.

(BOSTON): لقد اصطفّوا بوضوحٍ خلف الملك!

لقد أدّى التقنُّعُ الرمزيُّ (déguisement) لمتمرِّدي بوسطن، للأسف، إلى نتائجَ مزعجةٍ جدًّا في ما يتعلّق بالفهم اللاّحق للاستقلال الأمريكيّ وللظّاهرة الاستعماريّة عمومًا. لقد اختار الأمريكيّون، بدلاً من أنْ يبرزوا، في، ثورتهم، بصفتهم الحقيقيّة كمستعمِرين مستوطِنين، اختاروا أن يُقدّموا أنفسَهم كـ«سكّان بلديّين أصليّين» (indgènes)، ضحايا للاستغلال الإمبرياليّ البريطانيّ[1] . لقد كانَ السّكّانُ البلديّون الأصليّون الحقيقيّون [الهنود الحُمْر] يُمثّلون الحالةَ الوحيدةَ، ربّما، في عدمَ الانخداع بشعارات «نزعة معاداة الاستعمار الأمريكيّة» (anticolonialisme américain). من المُرعب التّفكيرُ بأنّ السّياسةَ الخارجيّةَ لقوةٍ عظمى قد تمّ تعريفُها وتحديدُها (déterminée)، في قسمٍ كبيرٍ منها، بتفسيرٍ لامنطقيٍّ موغلٍ في الخطأ بهذا القدر الفاحش. لقد ظهرتْ بعضُ التّعليقاتُ الشاذّةُ في الصّحف الأمريكيّة خلال حروب التّحرُّر من الاستعمار في شمال إفريقيا: مثلاً، أنّ ثورة المغاربة (سكّان المغرب الأقصى/ مرّاكش سابقًا / (Marocains ضدّ الفرنسيّين تشبه تمامًا ثورةَ الأمريكيّين ضدّ الأنكليز! إنّ الأمريكيّين، الذين كانوا في القرن التّاسع عشر أكبرَ الممارسين للاستعمار (colonisation)، كان لزامًا عليهم قطعًا في مهمتّهم النّظريّة: أنْ يفرضوا مصطلحيّةً للاستعمار (terminologie de la colonisation) تعكس وجهةَ نظر المستعمِرين المستوطِنين لا وجهة نظر ممثّلي المركز الاستعماريّ؛ وذلك لأنّ الاستعمارَ (colonisation) يبقى منظورًا إليه من وجهة نظرٍ مركزيّةٍ أوروبيّةٍ (européo-centriste) تُشوّه تقويمَ الظّاهرة. أيُّ مستعمرةٍ تتخلّص من وصاية المركز الاستعماريّ ينتهي وضْعُها كـ«مستعمَرةٍ»، وأيُّ أرضٍ كانتْ قد غزتْها قوّةٌ أوروبيّةٌ يعدّ فوْرًا مستعمَرةً. إنّ ما يعرِّفُ المستعمَرةَ هو تبعيّتُها لمركزٍ استعماريٍّ، لا سيرورةُ الاستعمار (processus de colonisation) التي تحصل فيها، أيْ لا العمليّةُ الاستعماريّةُ في حدّ ذاتها. لقد تجرّدتِ الولاياتُ المتّحدةُ الأمريكيّة من صفة «مستعمرة»، بعد استقلالها عن أنكلترا، مع أنّ المستعمِرين المستوطِنين يمارسون فيها عمليّةً استعماريّةً أنشطَ من أيّ وقتٍ مضى؛ والهندُ مستعمرةٌ على الرّغم من أنّ المستعمِرين المستوطِنين غائبون فيها! لقد تطوّر الإسكانُ الأوروبّيُّ، خلال القرن التّاسع عشر، في الدّول المستقلّة: الولايات المتحدة الأمريكيّة، والأرجنتين، والبرازيل،

Marcel MERLE, op. cit., p. 123 - 127.

١. لقد قدّمتِ المستعمرةُ الصّهيونيّةُ في فلسطين، بدعمٍ من السّياسة البريطانيّة إلى سنة ١٩٣٩، قدّمتْ نفسَها كضحيّةٍ للإمبرياليّة البريطانيّة، وذلك لمّا حدّدت هذه الأخيرةُ الهجرة [اليهودية إلى فلسطين] وبيع الأراضي [لليهود]، فحدّتْ منهما، وذلك من أجل استمالة العرب.

أو في الدُّول التي كانت في طوْر الانتقال من الاستقلاليّة إلى الاستقلال: كندا، وأستراليا، وزيلندا الجديدة، وإفريقيا الجنوبيّة. لقد تمّ استغلال التَّبَعيّاتِ الإمبراطوريّة من دون إسكانٍ ذي شأنٍ. يوجدُ تنافرٌ تامٌّ بين مجالات فعل الاستعمار (colonisation) وبين مجالات فعل السّيطرة/الهيمنة. وعلى الرّغم من ذلك تبقى كلمةُ «استعمار» (colonisation) مرادفةً لكلمة «سيطرة/هيمنة» ولكلمة «استغلال»، من خلال بقاء العقليّة المركنتليّة القديمة. وهكذا فقد حدث «انقلابٌ حقيقيٌّ في المعنى»: لقد تمّ الخلطُ بين «الاستعمار» (colonisation) و «نقيضه».

هذه الثّورةُ الدّلاليّةُ هي أوْلى بأنْ تبعث على الأسف لا سيّما وأنّه، في الوقت نفسه، قد انتشر المفهومُ الصحيحُ لـ«الاستعمار» (colonisation). بينما كان الأمريكيّون يُحجمون عن المعارضة النّظريّة لما يحاربون لأجله في الممارسة العمليّة، نرى أنّ الأنكليز، بشكلٍ مفارقٍ، يفهمون المعنى الحقيقيَّ لثورة المستعمِرين المستوطِنين [الأمريكيّين]. وفي الوقت نفسه الذي فيه يستخلصون النتائجَ العمليّةَ، كانوا يعبّرون بوضوحٍ عن الدّرس النظريّ بتعريفهم الصّائب للحدث/الفعل الاستعماريّ (fait colonial). وهكذا نرى أنّ الموسوعة البريطانيّةَ، في طبعتها لسنة ١٨٧٧، قد أعطتْ، كأفضل مثالٍ على الاستعمار (colonisation)، إسكانَ الولايات المتحدة الأمريكيّة لأمريكا الشّماليّة، وعرضتْ تكوينَ هذه الأمة الجديدة كنجاحٍ للاستعمار (colonisation) البريطانيّ[١]. يوكّد المقالُ نفسُه [في الموسوعة] بوضوحٍ أنّ الهندَ البريطانيّةَ ليستْ مستعمَرةً، بلْ أنّها إمبراطوريّةٌ [جزءٌ من الإمبراطوريّة]. في فرنسا، يمكن عدُّ جُولْ دُوفالْ و جُولْ هارْمنْدْ تابعَيْن، في أفكارهما بهذا الخصوص، للنظريّات البريطانيّة.

أحدُ المزايا العديدة لمقال «مستعمرة» (colony) [في الموسوعة البريطانيّة] هو، بالتّحديد، إقرارُه بأنّ الاعتبارات القانونيّةَ تقلّ أهميّةً عن الأحداث العمليّة في الواقع. لم يكْفِ الهندَ منحُها وضع «مستعمرة ملكيّة» (مستعمرة تاجيّة / Crown Colony، سنة ١٨٥٨، لكي يتمّ استعمارُها [لكي تصبح مستعمرةً فعلاً]. لقد استعمل الأنكليزُ عبارة «مستعمرة حقيقيّة» (colonie vraie) لمنع اللّبْس مع «المستعمرات الاسميّة» (colonies nominales): المستعمرةُ الحقيقيّةُ هي مستعمَرةٌ قد استعمرها (واستوطنها بالإسكان) مجموعةٌ سكّانيّةٌ كبيرةٌ من المستعمِرين المستوطِنين. لقد نجحتْ عمليّةُ إقناع الفرنسيّين بأنّهم في المرتبة الثّانية من حيثُ مساحة الأراضي المستعمَرة، في حين أنّهم

١. «لا يمكن أن تتكوّن مستعمرةٌ، بتمام معنى الكلمة، إلّا عندما يعدّ المستعمِرُ المستوطِنُ الأوروبيُّ أنّ موطنَه الجديدَ هو وطنُه الدّائمُ، حيثُ يمكنه تأسيس أسرةٍ وتربية أطفاله في صحّةٍ جيّدةٍ، وحيثُ ترتبطُ وطنيّتُه بمصالحه الشخصيّة، وكذلك بالمصالح العامّة لأفراد المجتمع الذين يتقاسم معهم الوطنَ الجديدَ».

لم يكونوا يملكون، فعلاً، إلاّ مستعمرةً واحدةً هي كاليدونيا الجديدة (Nouvelle-Calédonie)![١]. لكنّ العقلَ الفرنسيّ يتميّز بالضّعف في الاعتقاد بسحر الأعمال القانونيّة، التي تُحوّل، فوْرًا، كوتشينشينيا (الكوتشيصين / COCHICHINE) إلى مستعمرةٍ والجزائرَ إلى ثلاثِ محافظاتٍ تابعةٍ للمركز الاستعماريّ [فرنسا]...

لقد أُعتُرِض على هذا النّقد بأنّ القانون ليس عديمَ الفاعليّة من جهة النتائج، وبأنّ إعلان «وضع المستعمرة» (statut de colonie) يفتح أراضيَها أمام هجرة سكّان المركز الاستعماريّ الذين يرغبون في الاستقرار فيها، وهذه الإمكانيّةُ غيرُ مضمونةٍ في دولةٍ مستقلّة عن دولتهم. لقد كان روني مُونْيِي (René MAUNIER) يعدّ أنّه «لا يمكن الكلامُ عن استعمارٍ إلاّ في حالة وجود احتلالٍ مع سيطرةٍ/هيمنة؛ وكذلك إلاّ مع وجود هجرةٍ مع تشريعٍ قانونيٍّ»[٢]. لكنّ هذا التّشريعَ القانونيَّ يمكن أنْ يكون تشريعَ المستعمِرين المستوطِنين. لا مصلحةَ لدولةٍ مستقلّة، مؤسَّسةٍ على الاستعمار (colonisation) ويحكمها المستعمِرون المستوطِنون، في أنْ تكبح الاستعمار (colonisation) بمنع الهجرة إليها. لقد أرسلتْ أنكلترا مزيدًا من المهاجرين نحو الولايات المتحدة الأمريكيّة، المتحرّرة عنها، أكثرَ ممّا أرسلتْ نحو دول الدُّمينيون (الدّول المرتبطة بالتّاج البريطانيّ / dominions). وكما لاحظْنا، فإنّ الهجرة الأوروبيّة في القرن التّاسع عشر قد اتّجهتْ بشكلٍ كاملٍ تقريبًا نحو دُولٍ مستقلّة (indépendants) أو ذات استقلاليّة (autonomes). صحيحٌ أنّ الهجرة إلى دولةٍ ذات سيادةٍ مشروطةٌ بتصريحٍ من تلك الدّولة؛ لأنّ مراقبة الهجرة هي خاصّيّةٌ أساسيّةٌ من خاصّيّات السّيادة. وحقُّ التّواصل (droit de communication)، الذي يبرّر الاستعمار (colonisation) في عقيدة الكنيسة، لا يمكن أنْ يكونَ مُطلَقًا. كيف يمكن أنْ تُصبحَ سيادةُ أيِّ دولةٍ لو مُنِح الأجانبُ حقَّ الاستقرار فيه، بلا تحديد لسقف العدد، إلى حدّ أن يصبحوا يمثّلون الأغلبيّة

١. جُول هارْمَنْد، م. ن، ص. ١٠٨، تعريفٌ رائعٌ للجزائر الفرنسيّة، ص. ١٠٩.

Jules HARMAND, op. cit., p. 108, Excellente définition de l'Algérie française, p. 109.

٢. روني مُونْيِي، السوسيولوجيا الاستعماريّةُ، مقدمةٌ لدراسة تماسِّ الأعراق، باريس، ١٩٣٢، ص. ٣٧.

René MAUNIER, Sociologie coloniale. Introduction à l'étude du contact des races, Paris, 1932, p. 37.

يُصرّ الكاتب على الطّابع المؤقّت لـ «المستعمرات بلا عَلَم» (colonies sans Drapeau) تمامًا كما يشهد، في زمننا هذا، مصيرُ الهنود في إفريقيا الغربيّة. لكنّ الاستعمارَ (colonisation) بلا عَلَم يمكن أنْ يؤدّي في بعض الحالات إلى تسلُّم المستعمِرين المستوطِنين للسّلطة (الأمريكيّون في ولاية تكساس، والصّهاينة في فلسطين).

السّكانيّة فيه؟ سوف يفقد سُكّانُه الأوائلُ استقلالَهم مع تحوُّلهم إلى أقليّةٍ. يعرفُ الأمريكيّون خطر ذلك من تجاربهم الخاصّة: ألمْ يستحوذوا على تكساس، ثمّ على جزر الهاواي، من خلال تسرُّبهم ثمّ قيامهم بثورة؟ في القرن العشرين، عبّرت القوانينُ المتعلقّةُ بحصصِ الهجرة عن إرادةٍ سياسيّةٍ للحفاظ على التركيبة الأصليّة (التّقليديّة / (traditionnelle للشّعب الأمريكيّ من خلال استبعاد العناصر التي كانتْ تُعدّ غيرَ مُستمثَلةٍ، وغيرَ قابلةٍ للاستيعاب والإدماج (inassimilables).

مع استثناء حالة النّزاع السّياسيّ مع المركز الاستعماريّ السّابق، لا تملك المستعمراتُ أيَّ حُجّةٍ تبرّر لها الامتناع عن استقبال مواطنيها السّابقين، سكّانِ الوطن الأمّ نفسِه [سكّان المركز الاستعماريّ]، الشبيهين بالأصل للمستعمِرين المستوطِنين في العرق. سوف يتوافد أجانبُ، تجذبهم الثّرواتُ الموعودةُ في بلد قيْدَ التّأسيس. من الأساس، كانت المراكزُ الاستعماريّة تستقبل الأجانبَ في مستعمراتها لمّا لا تجد مستعمِرين مستوطِنين من بين مواطنيها: لقد كانت المستعمراتُ الأمريكيّةُ الوسطى (نيويورك، ونيوجرسي، ودلوار، وبنسلفانيا) قلعةَ بابل (tour de Babel) حقيقيّةً قبل الاستقلال، وكانت الجزائرُ منذ ١٨٣٠ مستعمرةَ أوروبا قاطبةً، لا فرنسا فحسب. كانت حكوماتُ المستعمرات المستقلّة تستقبل الأجانب بطيب خاطرٍ وفق حاجاتها، طالما يقبل هؤلاءُ المهاجرون بالانصهار في البلد البُوتقة (melting pot) للأُمّة قيدَ التّكوُّن:

«يتكوّن العُنصرُ الـمُدْمَجُ، بالأغلبيّة، من مواطنين من المركز الاستعماريّ نفسِه (الوطن الأمّ). يقبل المستعمِرون المستوطِنون، مع ذلك، بطيب خاطرٍ، تحت ضغط الحاجات الماسّة ولاتّساع مساحة الأرض، بإمداداتٍ من المهاجرين الآخَرين، بشرط أنْ يكونوا من العِرْق الأوروبّيّ نفسه، وفوق ذلك أنْ يطمحوا إلى الإندماج الكامل في مجتمعهم، من خلال اعتناق أخلاقهم وتبنّي لغتهم، وأنْ يصبحوا مواطنين (شركاء في الوطن / (compatriotes بالمعنى الحقيقيّ للكلمة»[١].

الآسيويّون غيرُ مُرحّبٍ بهم في المستعمرات التي أسّستْها الشّعوبُ الأوروبّيّةُ، إلّا في البرازيل. كما أنّ اختلافاتٍ أقلَّ بروزًا يمكن أنْ تؤدّيَ إلى تجميعٍ غيرِ عادلٍ لأُمّتَيْن في البلد نفسِه: كندا وجنوب إفريقيا مثالان على ذلك.

لكنْ، يجب ألّا تُنسيَنا الرّوابطُ بين موجات الهجرة المتتالية أنّ الهجرةَ ليستْ هي الاستعمارَ (colonisation). باستثناء القادمين الأوائل، الآباء المؤسِّسين (Founding fathers)، يحلّ

١. جُول هارْمَنْدْ، م. ن، ص. ١١٠.

Jules HARMAND, op. cit., p. 110.

المهاجرون في بلد كان، في جزءٍ من، قد تمّتْ تنميتُه (mis en valeur). منذ ١٨٣١، لاحظ ألكْسيس دُو توكْفيلْ هذا الأمرَ:

«الأوروبيُّ الذي يطأ شواطئَ الولايات المتّحدة، يصلها بلا أصدقاءَ وغالبًا بلا مواردَ؛ لقد كان مُضطرًّا لكي يعيش إلى أنْ يستأجر الخدمات التي يحتاجها، ونادرًا ما كان يتجاوز في حركته المنطقةَ الصّناعيّةَ الكبرى التي كانت تمتدّ على طول المحيط [الأطلسيّ]. لا يمكن استصلاحُ الصّحراء بلا رأسمالٍ أو بلا قرضٍ؛ قبل المخاطرة بالدّخول في قلب الغابة يجب تعويدُ الجسمِ على قسوةِ مناخٍ جديدٍ. إذنْ، الأمريكيّون [المستعمِرون المستوطِنون الأوائلُ] هم الذين، يتركون كلَ يومٍ موْطنَهم (مكان ولادتهم)، ليتوغّلوا أبعدَ في مساحات الأراضي البعيدة، لاستغلالها. وهكذا فإنّ الأوروبيَّ [المهاجرَ الجديدَ] يغادر كوخَهُ (chaumèire) لكي يذهب لسُكنى السّواحل الأطلسيّة، بينما نجد أنّ الأمريكيَّ، المولودَ على السّواحل نفسِها، يتوغّل بدوره في أجواء العزلة والوحشة في أمريكا الوسطى»[١].

لقد كان استعمارُ (colonisation) الغرب [الأمريكيّ] قد بدأ فعلاً قبل موجات الهجرة الأوروبيّة الكبرى التي تدفّقت خلال مدّةٍ طويلةٍ بعد عمليّات التّسابق الأخيرة على الأراضي، والانتهاء من الرسم النّهائيّ للحدود. لكنّ الاستعمارَ (colonisation) لم يكن مُمكنًا من دون تحقُّقِ هجرةٍ أُولى، بينما استوطنتِ الموجاتُ المتأخّرةُ عنها الأراضيَ التي كان التُخُومِيّوُن (سُكّانُ الحدود / frontiersmen) قد غزَوْها ثم تركوها خاليةً. بالمقارنة مع السّكّان البلديّين الأصليّين (indigènes)، المستوطِنين الأوائل للبلد، يمكننا التّصريحُ بأنّ الحقيقةَ هي، بشكلٍ عامٍّ، أنّ كلَّ المستعمِرين المستوطِنين، وبغضّ النظر عن أقدميّة موجة الهجرة التي ينتمون إليها، هم مُهاجرون... وأنّ كلّ المهاجرين هم مستعمِرون مستوطِنون.

إنّ الاستعمار لكونه يتمثّل في تملُّك مجتمعٍ جديدٍ لأراضي الغير من خلال الانتزاع الجبريّ بالقوّة، فإنّه يطرح مشكلةَ علاقاته بالمجتمعِ البلديِّ الأصليِّ، الشّاغلِ الأوّلِ للبلد. في الحقيقة، هذه المشلكةُ لا تُطرحُ بالضّرورة دائمًا؛ لأنّ المستعمِرين المستوطِنين يمكن أنْ يكونوا أحيانًا أوّل الشّاغلين. لقد وُجِدتْ بعضُ الأراضي خاليةً من السّكّان مثل: إيسلندا، وأرخبيل الآسور (Açores)، والمادار (Madère)، وجزر الرّأس الأخضر، وأرخبيل الماسكاراني (Mascareignes). يَطرح

١. ألكسيسْ دُو تُوكْفيلْ، الدّيموقراطيّة في أمريكا، الكتاب الأوّل (١٩٣٥)، الفصل التّاسع.

Alexis de TOCQUEVILLE, De la démocratie en Amérique, livre I (1835), chapitre 9.

الاستعمارُ (colonisation) هذه الأراضي مشلكةً وحيدةً هي المشكلة البيئيّة. لكن حالة الأراضي الشّاغرة هذه تمثّل استثناءً، فلا وجودَ بعدُ لأراضٍ خاليةٍ (inoccupée) على وجه الأرض مهما كانتْ مساحتُها. وعلى الرّغم من ذلك، كان لزامًا علينا ذكـرُ هذا الاحتمال الأوّل لكيْ نُبيّن بوضوحٍ أنْ تستعمرَ (coloniser)، لا يعني أنّك تستغلُّ (exploiter) عملَ السّكّان البلديّين الأصليّين: يمكن للاستعمار (colonisation) أنْ يستغنيَ عن السّكان البلديّين الأصليّين، فحاجتُه المُطلَقةُ تنحصرُ بالمستعمِرين المستوطِنين!

عندما يُوجَد سُكّانٌ بلديّون أصليّون، يُمكن للمستعمَرة أنْ تتعامل معهم بطُرُقٍ مختلفةٍ، لكنْ لا يُمكنها تجاهلُهم. إنّ خطأ جُول دُوفالْ، متكلِّم الاستعمار الكبير (grand apologiste de la colonisation)، هو التّقليلُ من شأن هذه المشكلة. يُلخّص راوُول جيراردي (Raoul GIRARDET) فكرَ جُول دوفال بهذا الخصوص كما يلي:

«ينبغي ألاّ نُركّزَ بشكلٍ مبالَغٍ فيه على النّزاعات بين الشّعوب، وعلى الصدّامات بين الحضارات التي تبقى غيرَ مفصولةٍ عن كلّ عمليةِ توسُّعٍ استعماريٍّ: هي ليستْ حوادثَ عرَضيّةً، ليست مظاهرَ مُزعجةً، بل هي مظاهرُ ثانويّةٌ لعملٍ عظيمٍ، جوهرُه هو "الصّراعُ ضدّ الطبيعة"، هذه الطبيعةُ التي يُباشرها المستعمِرون وهي "مهجورةٌ وجَموحٌ" (sauvage et indomptée)، فيعملون على "ترويضها وإخضاعها لقواعد الإنتاج المنظَّم". يكتب جُولْ دُوفالْ أيْضًا: «قريبًا، حيثُ كانت الوحشةُ سائدةً، سوف تزدهر مجموعةٌ سُكّانيّةٌ بشريّةٌ؛ وحيثُ كانت الأشواكُ تُزهر، سوف تنضج المحاصيلُ؛ وحيثُ كانتِ الحيواناتُ الوحشيّةُ تحفر جحورَها وأوكارَها سوف ترتفع منازلُ شعبٍ متحضِّرٍ»[١].

إذا ما صدّقنا كلامَ كلِّ المستعمِرين المستوطِنين في العالَم، فإنّهم يؤكّدون أنّهم لم ينتزعوا سوى أراضيَ بَوْرٍ بِكْرٍ لم تُحرَثْ مِنْ قبلُ، وأنّهم لم يُحاربوا سوى العناصرَ الـمُعيقةِ لحركتهم. لم يَكنِ المستعمرون المستوطِنين يعدّون السّكّانَ البلديّين الأصليّين، الشّاغلين الأوائلَ للأرض، بشرًا يسكنون أرضَهم، بل كانوا يعدّونهم جزءًا من الطّبيعة التي كانوا مندمجين معها من خلال نمط معيشتهم «البدائيّ»، بدرجاتٍ متفاوتةٍ من شعبٍ إلى آخَرَ. لكنّ الحقيقةَ هي أنّ الأرضَ المستغَلّةَ جزئيًّا، بدرجةٍ أدنى من الحدّ المعقول، ليستْ أرْضًا بَوْرًا غيرَ مُنتِجةٍ بالكامل. والبلدُ المأهولُ قليلاً،

١. راوُول جيراردي، م. ن، ص. ١٩-٢٠.

Raoul GIRARDET, op. cit., p. 19 - 20.

تحت الحدّ المعقول، ليس صحراءَ خاليةً. يُمكن للمرء أنْ يفكّر أنّه كلّما كان الشعبُ البلديُّ الأصليُّ مُبعثَرًا مُفرَّقًا (clairsemé) أكثرَ، كلّما خفّتْ حِدّةُ المشكلة. هذا خطأٌ، العكسُ هو الذي يُمكن أنْ يكون صحيحًا بالأحرى. نمطُ المعيشة الذي لا يسمحُ إلّا بكثافةٍ سكّانيّةٍ ضعيفةٍ، مثل نمط الصّيّادين الجامعين (chasseurs ramasseurs)، يتطلّب من أجل تأمين حاجات المجموعة السّكّانيّة مساحاتٍ شاسعةً جدًّا من الأرض. هذا صحيحٌ أيْضًا، بدرجةٍ أقلَّ، بالنّسبة للفلاّحين/الزّارعين الموسميّين المتجوّلين الذين يعملون في الوقيد (itinérants sur brûlis)، وبالنّسبة للرُّعاة الرُّحَّل، وحتّى بالنّسبة لفلاّحي ما قبل الثّورة الزّراعيّة في القرن الثّامن عشر الذين يطبّقون نظام المناوبة في الزّراعة بإراحة الأرض (jachère). المستعمِرُ المستوطِنُ الـمُسلَّحُ بالتّقنيَات الأكثر تطوّرًا، والمعتادُ على مردوداتٍ مرتفعةٍ في المحاصيل، سوف يَحكُم بأنّ السّاكن البلديَّ الأصليَّ يملك مساحةً فرْطَ شاسعةٍ من الأرض. «يجب عليه أن يفعل مثل المستعمِر»، وأنْ يعيشَ على مساحةٍ «عاديّةٍ» من الأرض. هذا منطقٌ جميلٌ، لكنّه يتجاهل حقيقةَ أنّ السّاكنَ البلديَّ الأصليَّ ليس مُجهَّزًا ماديًّا وعقليًّا إلاّ بمستوى أنْ يمارسَ نمط المعيشة الأسلافيّ (ancestral)، وأنّه لا يستطيع أنْ يستوعب مباشرةً ومن دون عوْنٍ، الزّراعة بالتّقنيات الحديثة التي يتمتّع ببها المستعمِرُ المستوطِنُ. وهكذا فإنّ التّضييق على السّاكنِ البلديِّ الأصليِّ وحصْرَه من دون تعليمه كيفيةَ الاستغلال الفعّال للمساحة التي تُركتْ له يعني واقعًا، تجريدَه من وسائل معيشته من دون تعويضه بأخرى. وبشكلٍ عامٍّ، نجد أنّه يُخيَّر أنْ يرتقيَ شهيدًا حُرًّا في حرب الدّفاع عن حقّه على أنْ يموت جائعًا ذليلاً.

يُمكن للاستعمار (colonisation) أنْ يتبنّى ثلاثةَ مواقفَ تجاه السّكّان البلديّين الأصليّين:

١. يُمكنه إشراكُهم في مشروعه بأنْ يُزوّدَهم بتقنياته المتطوّرة بعد تدريبهم على استعمالها، وبأنْ يترُكَ لهم قسمًا من الأرض يستطيعون بذلك تنميتُه. هذا الإشراكُ (الشّراكةُ / association) يُمكنُ أنْ يؤدّي إلى الاستيعاب (assimilation).

٢. ويُمكنه أنْ يُقْصيَهم بطرْدهم أوْ بحصْرهم في أراضٍ وَعْرةٍ بلا قيمة (terres de rebut)، حيثُ يُحتملُ أنْ تنكسرَ سكّةُ المحراث. هذا الإقصاءُ يُسبِّبُ الحربَ، ويؤدّي غالبًا إلى حدوث عمليّة إبادةٍ جماعيّةٍ (génocide).

٣. يُمكنه أيْضًا استغلالَهم كأيْدٍ عاملة. يحقّق هذا الاستغلالُ إدْماجًا (integration)) ضمن التّبعيّة والخضوع (subordination) ولا يُمكّن من تحقيق الانصهار (fusion) بين الشّعبيْن.

الشّراكةُ ليْستْ فَرَضيّةً نظريّةً بقدر ما يُمكن أنْ تَبدوَ عليه. لقد كانتِ العلاقاتُ الأولى بين السّكّان

البلديّين الأصليّين وبين المستعمِرين المستوطِنين غالبًا علاقاتِ حسنِ استقبالٍ وضيافةٍ. لقد كان الجانبان يتبادلان تعليَم التّقنيات الخاصّة، لكنْ غالبًا ما كان ذلك يتمّ في مصلحة المستعمِرين، الذين كان من المستحيل عليهم البقاءُ على قيد الحياة من دون زراعة النّباتات المحليّة. لقد كانت الأراضي تُشترى بالتّراضي: لكنْ سرعان ما حلّت العداوةُ محلَّ حُسن الضّيافة بعد أنْ أدرك «المتوحّشون الطّيّبون» أنّ الأراضيَ التي بيعتْ قد تمّ تملُّكها (سلْبُها / aliéneés) بشكلٍ نهائيٍّ، وأنّ الوافدين الجُدُدَ الكثيرين جدًّا عددًا كانوا جَشعين. عندما يكون اختلال النّسبة العدديّة بين الشّعبيْن قويًّا جدًّا، فإنّ طبيعة الأمور تقود إلى إقصاء الطّرفِ الأقلِّ الأضعفِ.

الإقصاءُ هو، في نظرنا، النّمطُ الأساسيُّ للعلاقات بين الاستعمار (colonisation) والسّكّان البلديّين الأصليّين؛ لأنّ المستعمراتِ الكبرى، المستعمراتِ الحقيقيّةَ الأشدَّ كثافةً سُكّانيّةً، كانت قد أُسِّستْ على هذا المبدإ. الولاياتُ المتّحدةُ الأمريكيّةُ، وأستراليا، والأرجنتين، وإسرائيل، أمثلةٌ لهذه الحقيقة. في هذه المنظومة، لا يحتاج الاستعمارُ (colonisation) إلى السّكّان البلديّين الأصليّين، الذين يمثّلون أقليّةً ضئيلةً. نظريًّا يُمكن ألّا يكونَ لهم وجودٌ. والأرضُ يعدّها المستعمِرُ المستوطِنُ شاغرةً، غيرَ مشغولةٍ. عينُ المستعمِرِ المستوطِنِ لا ترى في أرضٍ للصّيد أو للسّباق، وفي بستانٍ مؤقّتٍ أو في أرضٍ مستريحةٍ (jachère)، المميّزاتِ الخاصّةَ لوجهٍ بشريٍّ. المستعمِرُ المستوطِنُ، المُعضَّدُ بقانونه الإلهيّ، لكوْنه قد قرأ وأعاد قراءة الإنجيل، يعقد علاقةً رمزيّةً (mystique) مباشرةً مع الأرض الموعودة التي يبحث عنها، من دون أنْ يتوقّف لكيْ يُراعيَ المتوحّشين المحتلّين للأرض بغير حقٍّ (squatters) الذين يُمكن أنْ يعترضوا طريقَه. المستعمِرون المستوطِنون ينطلقون في ممارساتهم من قناعةٍ بأنّهم الشّعبُ المختارُ، الـمُكلَّفُ برسالةٍ إلهيّةٍ: هي تكثيرُ النّسل ومضاعفةُ التّكثير لتكوين شعبٍ كثيرِ العدد مِثْل حبّات رمل البحر. في هذا المشروع لا مكانَ البتّةَ للسّكّان البلديّين الأصليّين، الذين هم، وِفق هذه القناعة، مجرّدُ ظاهراتٍ عارضةٍ طارئةٍ (épiphénomènes fortuits).

ما الذي يستطيع السّكّانُ البلديّون الأصليّون فعلَه، بعد أنْ طردهم المستعمِرون المستوطِنون من أراضيهم، وجرّدوهم من مجالهم الحَيَويّ؟ لم تنجح جهود الحدْثنة (التّحديث / modernisation) الأكثر جدارةً بالثّناء في إنقاذ «القبائل الـمُحَضْرنة الخمسة» (les cinq tributs civilisées) من المنفى القسريّ أوّلًا، ثمّ من الإلحاق (annexion) ثانيًا[1]. على الأرجح أنّ الهنود، الذين بقوْا «مُتوحّشين»، والذين جُرِّدوا من مواردهم من خلال المجازر التي طالت الجواميس البرّيّة (bisons)، لم يكن لهم

١. أُولِيفْيِي لا فارْجْ، تاريخ الهنود، گراوْنْ بيبلايْشِرْ، ١٩٥٦، نادي كتاب الشهر، بلا تاريخ.

Oliver LA FARGE, Histoire des Indiens, Grown Publishers, 1956, Club du Livre du Mois, s.d.

ملاذٌ غير الثّورة. في العالَم أجمعَ، في كلّ مكانٍ حيثُ يجد مستعمِرون مستوطِنون أنفسَهم وجهًا لوجهٍ مع «متوحّشين» أو «برابرة» (barbares)، عازمين على الدّفاع بالأسلحة عن نمطِ معيشتهم، الوحيدِ الذي كانوا يعرفونه، نرى أنّ حروبَ الإبادة نفسَها تحدُث. الحربُ بين المستعمِرين المستوطنين و«المتوحشين» هي حربٌ بلا قانونٍ؛ هي حرْبٌ لا وجود معها لضميرٍ إنسانيٍّ يفرضُ ضوابطَ [أخلاقيّةً إنسانيّةً] على المتحاربين: في هذا الصّراع من أجل البقاء على قيد الحياة القاعدةُ هي شيطنةُ (diabolisation) العدوّ وتجريدُه من صفة الإنسانيّة (déshumanisation). «المستعمِرون المستوطِنون هم شياطينُ»، «المتوحّشون هم حيواناتٌ ضاريةٌ يجب تطهير الأرض الموعودة منهم كما طهّر هرقلُ بلادَ اليونان». لقد كان الجنرالُ شارْمانْ يقول:

«يجب أنْ نردّ على شعب السّيوويّين (شعب السّيو / Sioux) بحدّةٍ عدوانيّةٍ، حتّى وإنْ اضطرّنا الأمرُ إلى إبادتهم، رجالاً، ونساءً، وأطفالاً. لا حلَّ آخرَ، إذا ما أردْنا أنْ نعالِج المشكلةَ من جذورها»[1].

في القرن الثّامن عشر، ذكر سائحٌ هولنْديٌّ أنّه قد شاهد المستعمِرين المستوطنين، في مستعمرة الرّأس (الكيب Cap / Kaapkoolonie /)، يتعلّمون إطلاق النّار، بلا تبكيت ضميرٍ، على بشرٍ مثلهم، وكأنّهم يُطلقون النّار على أرانبَ. في تاسْمانيا (Tasmanie)، كان يتّم اصطيادُ السّكّانِ البلديين الأصليّين إلى حدّ الانقراض. المتكلّمون المدافعون عن مشروع «الجزائر الفرنسيّة» يذكرون مثل هذه الأحداث ليمجّدوا إنسانيّة الاستعمار (colonisation) الفرنسيّ الذي، بدل أنْ يُبيدَ السّكّانَ البلديّين الأصليّين، ضاعف عددَهم عشرةَ أضعافٍ![2]. من الـمُرجّح جدًّا أنّ المستعمِرين المستوطِنين لو كان عددُهم أكثر مائةَ ضِعفٍ، لكانوا قد تصرّفوا مثل نُظرائهم الأمريكيّين. من دون الغوص في تفاصيل الصّراعات واحدًا واحدًا، نحن على يقينٍ من أنّ «المتوحّشين» كانوا قد وجدوا أنفسَهم في وضْع دفاعٍ شرعيٍّ عن النّفس، وأنّ الفظاعاتِ التي كانوا قد ارتكبوها كانتْ «عاديّةً» أكثر من تلك التي كان قد ارتكبها أبطالُ الحضارة الـمَزْعومون. لقدْ وُجد دائمًا رجالٌ واعون وصُرَحاءُ جدًّا بحيثُ يُقرّون بذلك. لقد كان بُوفّالُو بِلْ (Buffalo BILL) يتفهّم المجهودَ اليائسَ للهنود في

١. ذكر ذلك فريديريكْ و. تورْنَرْ، مقدمة لمُذكّرات جيرونيمو، باريس، ماسْبيرو، ١٩٧٢، ص. ٩.

Cité par Frederick W. TURNER, Introduction aux Mémoires de Geronimo, Paris, Maspéro, 1972, p. 9.

٢. في الحقيقة، لقد كان عددُ سُكّان الجزائر يُقارب، سنة ١٨٣٠، ثلاثةَ ملايين إنسان، ونقص منه ثلثٌ خلال الأربعين السنة التي تلت بداية الغزو الاستعماريّ الفرنسيّ. انظر لُوساتْ فالانْسِي، المغرب الكبير قبل احتلال الجزائر العاصمة، باريس، فلامّارْيُنْ، ١٩٦٩.

Lucette VALENSI. Le Maghreb avant la prise d'Alger, Paris, Flammarion, 1969.

الدّفاع عن أرْضهم وعن نمط معيشتهم، وكان مُعْجَبًا بذلك؛ لكنّه كان يعتقد مثلما يعتقد جميعُ المستعمِرين المستوطِنين أنّ قضيّةَ الغُزاة يجب أنْ تنتصر لأنّ تنميةَ البلاد كانت متطابقةً مع إرادة الله[١].

وعلى العكس من ذلك، في المنظومة [الاستعماريّة] الاستغلاليّة، حيث إنّ وجودَ السّكّان البلديّين الأصليّين ضروريٌّ للمستعمِر المستوطِن، الذي لا مصلحةَ له في تدميرهم إذا لم يكن يرغب في العمل بيديه. هذا الأمرُ صحيحٌ جدًّا، والدّليل على ذلك ما حدث في المستعمرات الأُولى في العالَم الجديد [أمريكا]، حيثُ اضطُرَّ المستعمرين (colonisateurs)، بعد الانهيار الدّيموغرافيّ الذي سبّبه العملُ الشّاقُّ في المناجم وفي المزارع، والأوئبةُ المستوردةُ من أوروبا، اضطرّوا إلى استيراد أيدٍ عاملةٍ أقوى بنيةً جسديّةً وأكثرَ تحمُّلًا للأعمال الشاقّة، من إفريقيا. لم تكن العلاقاتُ بين المستعمِرين المستوطِنين وبين عبيدهم الأفارقة علاقاتٍ بين مستعمِرين مستوطِنين وسكّان بلديّين أصليّين، بأتمّ معنى الكلمة، لأنّ الأوروبّين كانوا قد سبقوا الأفارقةَ في القدوم إلى أمريكا. لكنّ وظيفةَ العبيد السّود كانت تعويضَ السّكّان البلديّين الأصليّين، الذي كانوا على درجةٍ من الهشاشة الجسديّة لا تُمكّنهم من القيام بالأشغال التي كانت قدْ فُرضتْ عليهم. لقد نتج عن تلك المنظومة الاقتصادية شعبٌ متنافرُ التّركيبة (hétérogène)، وإنْ كان هو كلُّه مستَورَدًا، تُسيطر/تهيمن (domine) في نطاقه طبقةٌ أقليّةٌ صغيرةٌ جدًّا من المستعمِرين المستوطِنين البيض على أغلبيّةٍ كبيرةٍ من السُّود العبيد.

بعد إلغاء الرِّقّ، تكوّنتْ مجتمعاتٌ متنافِرةٌ من النّوعِ نفسِه، سواءً من خلال استيراد عمّالٍ آسيويّين بالعقود (هنودٍ إلى جزر موريس وإلى جزر الأنتيلْ، وصينيّين ويابانيّين إلى هاواي)، أو من خلال توطين مستعمِرين مستوطنين أوروبّيّين وسط مجموعةٍ سكّانيّةٍ بلديّةٍ أصليّةٍ كبيرةِ العدد، حيثُ ينتدبون عمّالًا زراعيّين (كما في جنوب إفريقيا، وشمال إفريقيا). يوجدُ في جميع المجتمعات تناقُضٌ كبيرٌ: الأقليّة العدديّةُ تُمسك بأغلبيّة السّلطة الاقتصاديّة والسّياسيّة. في الجزائر، في دائرة عين تموشنت، كان الأوروبيّون، الذين يمثّلون ١٥٪ من السّكان، يملكون أكثرَ من ٩٠٪ من الأراضي[٢].

---

١. كما أن دافيد بن غوريون كان يُقرّ، صراحةً وعلنًا، بأنّه منذ مجيئه إلى فلسطين كان يشعر ببغضِ العرب للصّهيونيّة، ويتفهّم ذلك، ويعتبره حالةً عاديّةً جدًّا وطبيعيّةً: لو كان مكانهم لما كان موقفُه مُغايِرًا لذلك. لكنّه لم يكن مكانَهم.

٢. ميشالْ لونايْ، الفلّاحون الجزائريّون، باريس، لُوسُويْ، ١٩٦٢، ص. ٦٣.

Michel LAUNAY, Paysans algériens, Paris, Le Seuil, 1962, p. 63.

في جنوب إفريقيا، نجد أنّ البانْتون (Bantons)، الذين يمثّلون أغلبيّة السّكان، لم يكونوا يملكون سوى ٣،٥٪ من الأراضي في منطقة ترانْسْفالْ (Transvaal)، و٠،٥٪ في منطقة أورانج (البرتقال / Orange[١]). تتطابق الطبقيّةُ (stratification) الاجتماعيّة كثيرًا مع التراكُب (superposition) العِرقيّ. تطفو المستعمرةُ الأوروبيّةُ فوق كتلةٍ بشريّةٍ أجنبيّةٍ تابعةٍ لها، تسيطر عليها. مستقبلُ هذه المستعمراتُ إذن مُتزعزِعٌ ومشكوكٌ فيه: لقد قُضي على مستعمرات فرنسا في شمال إفريقيا، كما حدث من قبلُ في سانتْ-دُومينگ. آمالٌ ووعودٌ ذهبتْ أدراج الرّياح... (Autant en emporte le vent...). تلك المستعمراتُ غير النّاقصة (imparfaites)، والأقلّيّة (minoritaires)، جديرةٌ بأنْ تُسمّى الواحدة منها «نصف - مستعمرة» (semi-colonie)، لو لم يسبقْ أن استُعملَ هذا الاسمُ، خلافًا للأصول، للإشارة إلى دُوَلٍ خاضعةٍ للهيمنة الاقتصاديّة والماليّة للإمبرياليّة.

يُوجَد، إذنْ، نوعان نموذجيّان (types idéaux) للمستعمَرات:

- مستعمَرات الطّرد (colonies d'exclusion)،
- ومستعمرات الاستغلال (colonies d'sxploitation).

هذا النّوعُ الأخير هو وحده الذي يتطابق مع الصّورة الشّعبيّة للمستعمَرة. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّه أقلُّ أهميّةً من النّوع الأوّل، من ناحية عدد المستعمِرين المستوطِنين فيه. مجموعُ المستعمرات الأغلبيّة (ذات الأغلبيّة (majoritaires / له وزْنٌ أكبرُ من وزْن مجموعِ المستعمرات الأقلّيّة (minoritaires). لكنْ وُجِدتْ حالاتٌ تجمّعتْ فيها مميِّزاتُ النوعيْن في مستعمَرة واحدة. ويُمكن لأيّ مستعمَرةٍ أنْ تتطوّر مع الزّمن بالابتعاد عن هذا النّوع والاقتراب من الثّاني. مثلاً، بدأ الاستعمارُ (colonisation) الصّهيونيُّ، في زمن البارون إدْمونْدْ دو روتْشيلدْ (Edmond de ROTSHSCHILD) (١٨٨٢-١٨٩٩)، على نمط استغلال الأيْدي العاملة البلديّة الأصليّة. لاحقًا، أدّتِ الحملةُ التي قامت بها الحركةُ النّقابيّةُ اليهوديّةُ من أجل«عملٍ يهوديّ» (tavail

١. إيفْ لاكُوسْتْ، جغرافيا التّخلّف، باريس، بُوفْ، ١٩٦٨، ص. ٧٦.

Yves LACOSTE, Géographie du sous-développement, Paris, PUF, 1968, p. 76.

juif) إلى الانتقال إلى نمط استعمار (colonisation) الطّرد[١]. وعلى العكس منه، بدأ استعمارُ (colonisation) «الجزائر الفرنسيّة» (الاستعمارُ الفرنسيُّ للجزائر) بطرد السّكّان البلديّين الأصليّين، الذين تمّ إبعادُهم من كلّ ساحل الجزائر العاصمة (ALGER) [يظهر من السّياق أنّ المقصود: ساحل بلاد الجزائر AÉLGRIE /]، ثمّ تطوّر الأمرُ بحصْرهم في معسكراتٍ؛ ما أجْبرهم على بيع عملهم للمستعمِر المستوطِن المجاور لهم[٢]. في جميع الحالات، يُوجد مميِّزٌ مشتركٌ بين هذين النّوعيْن من الاستعمار (colonisation): غصْب الأملاك (usurpation): فالسّاكنُ البلديُّ الأهليُّ، سواءً أَطُرد من أرضه، أمْ تمّ الاحتفاظ به ليكون تابعًا مستغَلًّا، تُغصَب أملاكُه، ينتزعها منه المستعمِرُ المستوطِنُ، ويتملّكُها.

تُؤدّي حالةُ الغصب هذه، لدى المستعمِر المستوطِن ولدى السّاكن البلديّ الأصليّ، إلى ردودِ فعْلٍ بسيكولوجيّةٍ نموذجيّةٍ. قدّم السيّد ألْبار مِمِّي (M. Albert MEMMI) بخصوصها تحاليلَ لامعةً، ينبغي إتمامُها في نقاطٍ معيَّنةٍ. هو يُطلق اسم «عُقدة نيرون» (complexe de NÉRON) على عُقْدة المستعمِر (colonisateur)؛ وبعضُ العُقَد الأخرى تُصيب المستعمَر (colonisé)، وعُقَدُهما متواقفةٌ)تتوقّف عُقَد هذا على عُقد الآخر، وبالعكس / (interdépendantes. ينطلق تحليلُ السّيد مِمِّي من واقع الغصب، لقد كان نيرون غاصِبًا بامتيازٍ (usurpateur par excellence). يُطلق الكاتبُ لقبَ «استعماريّ» (colonialiste) على الاستعماريّ/المستعمِر (colonisateur) الذي يقبل بأنْ يكون كذلك. والذي يسعى، في ما بعد، ولأجل تبرير وضْعه، إلى شرْعنة الاستعمار (colonisation). ولكيْ يفعل ذلك،

«إجراءان مُحتمَلان:

---

١. موشي سميلانْسْكي، في الفيْفاء، تلْ أبيب، بلا تاريخ، الأعمال، المجلد الأوّل، ١٨٩١-١٨٩٣، ص. ٤٧. إيلي لوبالْ، اليهودُ وفلسطين، متبوعًا بـ صبري جيرياسْ، العربُ في إسرائيل، باريس، ماسْبيرو، ١٩٦٩، ص. ٢٦ و ٧٤. ناثانْ ويْنْستُوكْ، الصّهيونيّةُ ضدّ إسرائيل، باريس، ماسْبيرو، ١٩٦٩، ص. ٨٠.

Moshé SMILANSKY, Dans la steppe, Tel Aviv, s.d., Œuvres, tome I, 18911893-, p. 47. Eli LOBEL, Les juifs et la Palestine, suivi de Les Arabes en Israël par Sabri GERIES, Paris, Maspero, 1969, p. 26 et 74. Nathan WEINSTOCK, Le sionisme contre Israël, Paris, Maspero, 1969, p. 80

٢. هِلْدِبَرْتْ إسْنارْدْ، المغرب الكبير، باريس، بُوفْ، ١٩٧١، ص. ٥٦-٥٨ و ٦١.

Hildebert ISNARD, Le Maghreb, Paris, PUF, 1971, p. 56 - 58 et 61.

١. الأوّلُ: إثباتُ المزايا البارزة للـغاصِب، البارزة بحيثُ إنّها تستحقّ مُكافأةً كهذه.

٢. الثانية: أو التّركيز على إبراز عيوب المَغصوب، التي هي شنيعةٌ بحيثُ إنّها لا يمكن إلاّ تؤدّي إلى مثل تلك النّكبة.

وهذان المجهودان هما، في الواقع، غيرُ منفصلينْ أحدُهما عن الآخر. يدفع قلقُ الـغاصِبِ النفسيُّ وتعطُّشُه للتّبرير، في الآن نفسِه، إلى الإطناب في مدْح نفسِه، وإلى إلقاء الـمغصوب في حضيض درجات الإنسانيّة»[١].

يُمكن أنْ يوجد هذان الجانبان المتكاملان حتّى من دون وجود عمليّة الغصْب: فالمستعمِرُ المستوطِنُ (colon) فخورٌ دائمًا بإنجازاته، حتّى مع غياب كلّ ساكنٍ بلديٍّ أصليٍّ، فالنُّزوع إلى احتقار كلُّ من لا يُشبهه هي ميزةٌ عامّةٌ لجميع الشّعوب. لكنّ الغصْبَ يحوّل هذه المميّزاتِ الخاصّةَ بالعقليّة (traits de mentalité) بمنحها وظيفةً تبريريّةً. من خلال تعظيم المستعمِرِ المستوطِنِ لإنجازه، هو يُثبتُ حقَّه الخاصَّ. هو يفتخر بانتصاره على الطبيعة ليُصبحَ أوّلَ شاغلٍ لها. ومن خلال هذا الإقرار بكونه هو الشّاغلَ الأوّلَ للطّبيعة، يُنكر وجودَ أيِّ تنمية، سابقة لتنميته هو، جديرةٍ بالاحترام. الأرض مِلْكٌ لمن يحرثها/يفلحها ولمنْ يُنمّيها. استُعمِلتْ هذه الحُجّةُ كثيرًا خلال حرب الجزائر، وما زالُ مُتكلّمو الصّهيونيّة (apologistes du sionisme) يستعملونها ضدّ المطالب العربيّة. يُظهر المستعمِرون المستوطِنون أنفسَهم في صورةٍ رائعة بهيّة، صورة رجالِ الفعل، المِقْدامين، الذين لا يَهابوُن لا الجهْدَ ولا الخطرَ، ولا الحُمّى ولا السِّهامَ، الماهرين في استعمال المحراث كما البندقيّة، الذين يجمعون بين الحسّ التطبيقيّ للبُناة مع الحسّ الأخلاقيّ للرّجال الواعين بكونهم وُكلاءَ الرّعاية الإلهية (agents de la Providence)[٢].

وعلى العكس من ذلك، يبدو السّاكنُ البلديُّ الأصليُّ للمستعمِرِ المستوطِنِ بوصفه نسخةً سلبيّةً منه (son négatif)، أي النموذجَ لكلّ العيوب التي تُعلّل انحطاطَه. يتّخذ هذا الخفضُ/الإذلالُ للسّاكن البلديّ الأصليّ في عقل المستعمِرِ المستوطِنِ شكْلَيْن مختلفيْن جدًّا، وذلك

١. ألْبارْ مِمّي، صورةُ المستعمِرِ، مسبوقًا بـ صورة المستعمَر، باريس، ١٩٥٧، ص. ٦٣-٧٢-٧٣.

Albert MEMMI, Portrait du colonisé, précédé du portrait du colonisateur, Paris, 1957, p. 63 - 72 - 73.

٢. رجالُ المركزِ الاستعماريِّ (métropolitains) لهم صورةٌ أخرى: العُنفُ/الوحشيّةُ (brutalité)، والنّزعة الماديّة (matérialisme).

وفقًا لنوع ردّ الفعل الذي يقوم به السّاكنُ الأصليُّ على عمليّة إذلاله. واحدٌ من موقفيْن مُحتمَل الصّدور منه: إمّا الرّفضُ وإمّا الخضوعُ. يصطدم المستعمِرُ المستوطِنُ بنوعيْن من السّكّان البلديّين الأصليّين: «أرْمينيوسْ و فلافوس» (Arminius / Flavus)، «سيرونيمو و العمّ توم» (Ceronimo / l'oncle Tom)، «الذّئب و الكلب». بالنسبة للأوّلِ [الذئب غير الخاضع]، غيرِ القابلِ للتّدجين والدّمج، هو لا يملك في التّعامل معه سوى الحذر والقسوةِ. هي قسوةٌ تصل عند الحاجة إلى حدّ الإبادة الجماعيّة. أمّا بالنسبة للثّاني [الكلب الخاضع]، فيمكن أنْ يتعامل معه بمشاعرَ ألطفَ، ما دام مُرْتكِسًا في مقامه السُّفلي. إنّها «الأبويّةُ» (paternalisme).

يتطابق هذان النّوعان، تقريبًا، مع نوْعَيِ الاستعمار (colonisation)، «استعمار الطّرد» (colonisation d'exclusion) و «استعمار الاستغلال» (colonisation d'exploitation)، مع التّحفُّظ بأنّ المتوحِّشين المغلوبين يُمكن تصغيرُهم إلى مستوى الخضوع البائس، وأنّ العبيد بإمكانهم أنْ يقوموا بثورةٍ.

«لقد حصل أنّ هنديًّا [أمريكيًّا] اسمه تورْتيرالْ (TOURTERELLE) جاء إلى حصن كُوبْ (Fort COBB) ليُعلن بذلّةٍ أمامَ الجنرال شيريدان (SHRIDAN) أنّه "هنديٌّ جيّدٌ"».

«الهنودُ [الأمريكيّون] الجيّدون الوحيدون الذين أعرفهم، هم أولئك الهنودُ الأموات»[١].

في عقول المستعمِرين المستوطِنين، لم يكن للزّنوجُ «العبيدُ» (nègres marrons) قيمةٌ أفضلُ من الهنود الجيّدين (indiens bravos).

السّاكنُ البلديُّ الأصليُّ يُخيفُ، وهذا الخوف يدفع المستعمِرَ المستوطِنَ إلى الانتقام منه، بعد أنْ يتّهمه بكلّ العيوب والشّرور. ومن باب الحيطة والحذر، يُعمّم احتقارَه ليشملَ جميع السّكّان البلديّين الأصليّين، مع استثناء أولئك الذين يعرف كيف يعتمد عليهم. بعد ثلاثِ سنواتٍ من انتفاضة عَين تموشنت [في الجزائر] سنة ١٩٥٦، وعظ الكاهنُ الرّاعي لكنسيةِ ريو صالادُو (Rio Salado)، الواقعةِ في الولاية، بخطبةٍ غريبةٍ جدًّا، هذا بعضٌ مِمّا جاء فيها:

«لقد أصابنا الغيظُ يقينًا عدّة مرّاتٍ من جرّاء العيوب والشّرور التي ضخّها القرآنُ في دماء هؤلاء النّاس: الرّياء/المداهنة (duplicité)، والسّرقة، واحتقار الخير الصّادر من الآخرين، واحتقار

١. فريديريك ف. ترونَرْ، م. ن، ص. ٩.

Frédérich W. TRUNER, op. cit., p. 9. 54.

الحياة الإنسانيّة، والفجور/الفحش (impudicité)، والكسل، ونكران الجميل (ingratitude)، والوسخ... يُوجد كمٌّ من الحقائق لا يستطيع الفرنسيّون، الأسخياءُ لكنْ غيرُ العالِمين بالواقع [هنا]، أنْ يفهموها. لقد عانيْنا من كلّ هذا، أنتم وأنا. وسوف نعاني أكثر لـمّا يتقدّمون ويتصدّرون. وهذا سوف يأتي، وعلى الرّغم من ذلك! وعلى الرّغم من ذلك، يجب أنْ نُحبَّهمْ!».

رُعاةُ اللاّنوس (رعاة سكّان السّهول العشبية في أمريكا الجنوبيّة / llanos الكولومبيوّن، الذين حُوكِموا في فيلاّفيَنْسُو (Villavicencio)، بجُرم قَتْل مجموعةٍ من الهنود [الأمريكيّين]، لم يكونوا قد سمعوا عظةً بمثل قوّة هذه العظة. لقد دافعوا عن أنفسهم كما يلي:

ـ «نحن كاثوليكيّون صادقون، لكنْ لم يُعلِّمْنا أيُّ إنسانٍ أبدًا أنّ قتْل «هنديٍّ» هو فعلُ شرٍّ.

ـ لكنْ، هم بشرٌ مثلكم.

ـ نعم، لا شكّ في ذلك، بما أنّكم تقولون ذلك، لكنّنا لا نعتقد بذلك. هم ليسوا مثلنا. هم ليسوا عقلانيّين. ليس بالإمكان أبدًا التّنبُّؤُ بردود أفعالهم. معهم، يجب توقّع الأسوأ دائمًا».

هذا على الرّغم من أنّ بعض أجداد هؤلاء اللاّنوس هم من الهنود. وبالأحرى، كيف يمكن للمستعمِرين المستوطِنين أنْ يتعاطفوا مع «المتوحّشين»؟ تاريخ الاستعمار مليءٌ بالمجازر، مكتوبٌ بالدّماء.

وعلى العكس من هذا فإنّ معاملةَ السّاكنِ البلديِّ الأصليِّ الخاضعِ، النّافعِ، تكون بشكلٍ لطيف جدًّا، نوْعًا ما كما هي معاملة كلب المنزل الأليف، طالما هو راضٍ بوضْعه وقانعٌ بمصيره ومُقِرٌّ بالفضل لأسياده. لقد كان الجنوبيُّون، البُوريُّون (Boers) يعهدون بأطفالهم إلى مُرضعاتٍ مُلوَّنات [سوْداوات]. لكنّ الأُلْفةَ الاجتماعيّةَ لا تُنتج المساواةَ. «إنّهم ليسوا أُناسًا مثلنا»: هذه الجملة تُقالُ بحقّ كل السّكّان البلديّين الأصليّين، سواءً «المتوحشين» (sauvages) أو «الأليفين» («الـمُدجَّنين» / domestiques). شهادةُ جُولْ روَا (Jules ROY) تشكّك في عائلتِه هو نفسِها، التي هي ضمانةٌ للأصالة.

«إنّهم أُناسٌ لا يعيشون مثلنا... كانت هذه الجملةُ تُلقي حجابًا لَعِبيًّا (ludique) على فقرهم. ما كان يبدو كأنّه بؤسٌ كبيرٌ وعميقٌ لم يكن سوى امتناعٍ عن النّوم على الأسِرّة، وعن الأكل مثلنا، أو عن سُكنى بيوتٍ مَبنيّة من موادَّ قويّة، تحت أسقُف. نعم، لقدْ كانتْ سعادتُهم شبيهةً بعضَ الشَّبَه، أعتذر عن العبارة، بسعادة حيوانات المزرعة، وأعتقد أنّي قد رأيت دائمًا أنهم يُعدّون، عندنا في

وسطنا، مثل الأبقار التي نُعاملها جيّدًا لكنْ لا يُمكننا أنْ نشعر بأيّ رحمةٍ تجاهها. «حاجاتُهم ليست مثل حاجاتنا»... هكذا قيل لي. أؤمن بذلك طوعًا وبطيب خاطر، ولوهلةٍ، حالتُهم لا تُثير عاطفتَنا. هل نتألّم لرؤية الأبقار تنام على القشّ أوْ تأكل العُشْبَ؟ يستطيع العربُ أنْ يمشوا بلا عناءٍ حُفاةَ الأقدام وأنْ يسيروا على أقدامهم أيّامًا عديدةً بما أنّهم لا يحتاجون إلى ركوب السّيّارات وإلى انتعال الأحذية. إنّهم لا يعبأون بالحرارة، وبالبرد، وبالجوع. آه! إنّهم نـوْعٌ سعيدٌ من النّاس![1].

كانت تلك هي الجوانبَ المتناقضةَ والمتكاملةَ للعقليّة «الاستعماريّة» (colonialiste): تمجيد الذّات، والقسوة تجاه «السّيئين» من السّكّان البلديّين الأصليّين، والتّسامح مع الخادم الجيّد والمستقيم. يمكن اختصار هذين الموقفيْن تجاة السّاكن البلدي الأصليّ في كلمةِ «عنصريّة» (عِرْقيّة / (racisme، إذا ما فهمنا من ذلك شعورًا بالتّفوّق الوراثيّ الطّبيعيّ (supériorité congénitale). للعرْقيّة ذكـرٌ سيِّـئٌ: الكثير من «العُنصريّين» (racistes) يرفضون هذا الاسم ويدّعون أنّهم «واقعيّون» (réalistes). هذا تدليسٌ وتحريفٌ للقضيّة. تُذكّرنا العُنصريّة بـ هتلرْ وبمحارق الجثث (fours crématoires)؛ الكثيرُ من العنصريّين لا يطلبون أكثرَ من هذا. في الواقع، إنّ العنصريّةَ، كما عرّفْناها، ليست بالضّرورة موقفًا عنيفًا وقاتلاً. يُمكن أنْ تكون العنصريّةُ لطيفةً حليمةً (bénin). والأبويّةُ ((paternalisme هي أحدُ أنواع العنصريّةِ:

«الأبويُّ (paternaliste) هو الذي يسعى من وراء ذلك، وحين يستحكمُ أمرُه ويُصبحُ مقبولاً، إلى العنصريّة (العِرْقيّة)، وإلى الحيْف (عدم المساواة / (inégalité. إنّها- إذا أردتم - عُنصريّةٌ (عِرْقيّةٌ) رحيمةٌ خيريّةٌ (charitable) - ليست هي الأقلَّ مهارةً (moins habile) ولا الأقلَّ مردوديّةً (الأقلَّ رِبْحيّةً / (moins rentable... لأنّ الأبويَّ الأكثرَ سخاءً يغتاظ ويحتدّ (se cabre) بمجرّد أنْ يُطالِب المستعمَرُ بحقوقه، النقابيّة كمثال. لـمّا يوزّع الأجورَ، لـمّا تُعالج زوجتُه مستعمَرًا، فإنّ ذلك يُعدّ هبَاتٍ منه، لا واجباتٍ عليه. فهو لو كان يُقِرّ فعلاً بأنّ عليه واجبات، ينبغي عليه أنْ يقبل بأنّ للمستعمَرِ حقوقًا. بينما هو طبعًا، ولكُلّ ما ذكرنا آنفًا، ليس عليه واجباتٌ، والمستعمَر ليْس له حقوقٌ»[2].

ينبغي أنْ نُضيفَ إلى مفهومِ «الأبويّة» (النّزعة الأبويّة / (paternalisme، الذي عرّفه ألْبارْ مِمّي

١. جُولْ روَا، حربُ الجزائر، باريس، ١٩٦٠، ص. ٢١-٢٢. التأكيدُ منّا نحن (الكاتب).

Jules ROY, La guerre d'Algérie, Paris, Julliard, I960, p. 21 - 22. C'est nous qui soulignons.

٢. ألْبارْ مِمّي، م. ن، ص. ١٠١. A. MEMMI, op. cit., p. ٥٦. ١٠١.

جيّدًا، مفهومَ «الأخويّةَ» (النّزعة الأخويّة / fraternalisme: أُخُوَّةٌ في ظِلِّ الحَيْف! (fraternité dans l'inégalité!). لقد أعطت عمليّاتُ المؤاخاة (fraternisations)، التي تمّت في الجزائر في شهر ماي/أيار ١٩٥٨، الانطباعَ بحصول معجزةٍ جماعيّةٍ حوّلتِ المعطياتِ الجوهريّةَ للمشكلة الجزائرية. لكنّ بعضَ الشهادات الدّقيقة تسبّبت في الشّك في عمق ذلك التّحوّل. تدلّ الخطبةُ العِظةُ التي ذكرناها آنفًا أنّ رعايا كنيسة ريو صالادو (في عين تموشنتْ في الجزائر) كانوا عُنصريّين تمامًا، وكان ذلك بعد شهر ماي/أيار ١٩٥٨ بسنةٍ واحدة. ولقد كانت عمليّةُ استدلال كاهنهم، كلُّها، تسعى إلى إقناعهم بأنّ الأُخُوّةَ تنسجم مع العنصريّة. كما نرى أن قارئةً للمجلّة النِّسوية «هي» (Elle) تُبرّر/تُعلّل (justifie) الوضعيّةَ السّفلى للمرأة المسلمة، التي كانت، على الرّغم من ذلك، تسعى إلى تحريرها:

«نظرًا لِكوني قد وُلِدْتُ في الجزائر (وعشتُ فيها خمسين سنةً)، ولكوْني كنتُ أُدير مؤسَّسةً للنّهوض بالمرأة المسلمة خلال الاضطرابات التي أدّت إلى الاستقلال، فأنا أعرف جيّدًا عقولَهنّ النّازعةَ نحو الخِفّة بدافعٍ من «طَبْعٍ محدّد» (certain tempérament) يميّز نساء هذا البلد. أعتقد (ولستُ أنا الوحيدةَ في اعتقادي هذا) أنّ التّعاليمَ الدّينيّةَ - التي هي السّببُ في وضْع النّساء المسلمات - تُلائم طبيعتَهنّ[1]. لقد كانت الغايةُ الوحيدةُ من وضْع العقبات أمام حريّتَهنّ هي منعُهنّ من تكوين علاقاتٍ مع العنصر الذّكري، وهي علاقاتٌ لو حصلتْ ستكون، بلا شكٍّ، منشأً لفساد الأخلاق في هذا البلد»[2].

تُمكّننا هذه الأمثلةُ من الإضاءة على الطّابع الخاصِّ بالعنصريّة. العُنصريّةُ هي نوعٌ مُحدَّدٌ من الإحساسٌ بالتفوُّق، لا مطلق التفوّق؛ إنّها تدّعي تفوُّقًا وفق الطبيعة، فهي ترتكز إذنْ على ادّعاء تفوّقٍ أبديٍّ. يختصر ألْبار مِمِّي سيرورةَ العُنصريّة كما يلي:

١. « اكتشاف الاختلافات بين المستعمِرين (colonisateurs) والمستعمَرين (colonisés)، وتوضحُيها وإبرازُها (mettre en évidence).

٢. الإعلاء من قيمة (valoriser) تلك الاختلافات لصالح المستعمِر، وعلى حساب المستعمَر.

١. التّأكيد (بالخطّ المائل منّا نحن (الكاتب).

٢. مجلة هي، العدد ١٣٧٠، ٢٠ مارس/آذار ١٩٧٢.

Elle, no 1370, 20 mars 1972.

٣. رفعُ تلك الاختلافات إلى درجة الـمُطلَق، بالتّصريح بكوْنها نهائيّةً، وبالعمل لجعلها كذلك[١].

لكنْ يُوجد نوعٌ غيرُ عُنصريٍّ من الإحساس بالتفوُّق، هو الإحساس بالتّفوّق الثّقافيّ: نحنُ هنا أمامَ توجُّهٍ معروفٍ جدًّا للعقل الفرنسيّ، وللعقل الأوروبيّ، وفي الحقيقة، لعقول جميع الشّعوب. هذه العقليّة مُبْهمةٌ: إنّها تزدري الوضْعَ الحاليَّ لجميع الأجانب، «المتوحشين»، «البرابرة»، أو «بليدو الذّهن» (botiens) حسب الحالة، لكنّها تُقرُّ بأنّ فيهم حضارةً كامنةً (حضارة بالقوّة / virtualité de civilisation)، يُمكن التعجيل بتحقيقها وجعلها حضارةً بالفعل[٢]. إذنْ، إنّ تركيبةَ الزّمنَ والتّطوُّر والتّعليم (التّربية / éducation) هي التي تصنع الفارقَ بين هذا المنظور الاستيعابيّ (perspective assimilationniste)، النشيط (الدّيناميكيّ)، وبين الرُّؤية العُنصريّة التي تُجمّد الوضْع الحاليَّ إلى الأبد. عمليًّا، يصعب التّمييزُ بين العقليّتيْن؛ لأنّ صيغة الحاضر (صيغة المضارع / indicatif present)، كما تُعبّر عن ملاحظة حادثٍ طارئٍ، هي تعبّر عن حقيقة خالدة. لقد واتى الحظُّ العنصريّين إذنْ في ادّعائهم بأنّهم «واقعيّون». يتراكم نوْعَا الإحساس بالتفوُّق غالبًا، لكنْ بتنافرٍ (بغير انسجامٍ / incoherence). إنّ واجبَ حضْرنة (civilser) الأعراق الدّنيا التي تذرّع بها جُولْ فيرِّي هو قوْلٌ جِزافٌ، بما أنّ الدُونيّةَ العِرْقيّةَ غيرُ قابلة للتّصحيح بتوسُّل الثّقافة، ولو كانت هذه الثّقافة مجّانيّةً، ولائكيّةً وواجبةً. لقد أمّن كاهنُ كنيسة ريو صالادُو الوساطة بين الطّبيعة والثّقافة من خلال الاستعمال السّحريّ للمزايا الإصلاحيّة للتّعميد والقوّات الإفساديّة (التّحريفيّة / pouvoirs corrupteurs) للقرآن. لكنْ توجد كلماتٌ واضحةُ الدّلالة، تنفي الانخداع: «النّوع» و «الطّبيعة»، هما دليلان على وجود العنصريّة.

وهكذا، فإنّ العُقدةَ الاستعماريّةَ، سواء أدّتْ إلى العنصريّةَ أم إلى شعورٍ بالتّفوُّق أقلَّ إطلاقًا، هي إفرازٌ لحالة الغصْب التي يقوم بها المستعمِرُ المستوطِن. وذلك يعني أنّه يجب علينا أنْ نؤوّل النزعةَ الاستعماريّةَ (الاستعمارويّةَ / colonialisme) لدى المستعمِر المستوطِن (colon) بنوعٍ من العُنصريّة بالمقلوب (racisme à rebours)، بوصفها ميزةً خاصّةً بأوروبّيي ما وراء البحار. يقول

---

١. ألْبار مِمِّي، م. ن، ص. ٩٦.

A. MEMMI, op. cit., p. 96.

٢. صرّح الرّئيسُ [البرتغاليّ الديكتاتوريّ أنطونيو] سالازار (SALAZAR): «نحن نعتقد بأنّه تُوجد أعراقٌ مُنحطّةٌ، أو متخلّفةٌ، كما تريدون التّعبير، يجب علينا أن نحمل تجاهها رسالةَ دعوتها إلى الحضارة، وهذا عملٌ للتّكوين (التأهيل) البشريّ، يجب أن يُنجَز بإنسانيّةٍ». ذُكِر ذلك في كتاب: فِنْسنْتْ مُنْتايْ، جنديُّ الثّروة، باريس، گراسِّي، ١٩٦٦، ص. ٣٥٧.

Vincent MONTEIL, Soldat de fortune, Paris, Grasset, 1966, p. 357.

المَثَل: «الفرصةُ تصنع السّارقَ» (L'occasion fait le larron)، ويؤكّد ألْبارْ مِمّي هذا التّفسير تمامًا: «الإواليّةُ شبهُ محتومةٍ (Le mécanisme est quasi fatal): تصنع الحالةُ الاستعماريّةُ استعماريّين (استعمارويّين / colonialistes) كما تصنع مستعمَرين (colonisés)[١]».

لكنْ، هل من الواجب علينا أنْ نستخلص أنّ الاستعمار (colonisation) غيرُ ممكنٍ من دون حصول غصْبٍ للممتلكات، وأنّ الاستعمارَ البريءَ الوحيدَ هو الذي يتمّ على أرْضٍ خاليةٍ من السّكّان فعلًا؟ يمكن أنْ يُوحيَ إصرارُ المستعمِرين المستوطِنين على الادّعاء بأنّهم أوّلُ الشّاغلين للأراضي التي احتلّوها، بافتراض ذلك. وعلى الرّغم من ذلك، فإن السّلطات في المراكز الاستعماريّة قد أظهرت اهتمامها بشعوب ما وراء البحار منذ بداية التّوسُّع الأوروبّيّ إلى نهايته. كانت الأختامُ البابويّة، التي كانت تعهد بالأراضي المكتشَفة [الـمَغْزُوَّة] إلى الملك البرتغالي أو الملك الإسبانيّ، تشترط تنصيرَ ساكنيها؛ وكانت عقيدةُ الكنيسة، التي صاغها فرنْسيسكُو دو فيتُوريا[٢] (Francisco de VITORIA)، تُبرّرحضورَ الإسبانّيين في العالَم الجديد [أمريكا] بواجب التّنصير وواجب الدّفاع عن المتحوّلين إلى الدين المسيحيّ. لقدْ أدان المتحوّلون المعنيّون بهذا التّنصير النّفاقَ والمداهنة لدى أولئك الدُّعاة المبشِّرين بعبارتٍ شهيرةٍ: «في ما مضى، كانتْ عندنا الأرضُ، وكان عندهم الإنجيلُ؛ الآن أصبح الوضْعُ على العكس من ذلك!» لكنّ عقيدةَ الكنيسة لا تُبرّر الاستغلالَ؛ فالسّيطرةُ/الهيمنةُ نفسُها ليستْ قائمةً سوى على عنوانٍ قابلٍ للمناقشة والاعتراض (discutable)، وحقِّ الوصايةِ، الذي يجب عدمُ ممارسته، في كلّ الحالات، إلّا في مصلحة السّكّان البلديّين الأصليّين لا في مصلحة الـغُزاة. لقد جمع الـمُبشِّرون الهنودَ [الأمريكيّين] في أدْيِرتهم (تخفيضاتهم / أماكن إقامة البعثات التبشيريّة الإسبانيّة خاصّةً (réductions لحمياتهم من جشع المستعمِرين المستوطِنين، ولتعليمهم التّقنيات الأوروبيّة: نحن نتكلّم هنا عن «استعمارٍ بلديٍّ أصليّ» (colonisation indigène). لقد نصّتِ «القوانينُ الجديدةُ» التي استحصلها بارْتُولُومِي دُو لاسْ كازاسْ (Bartolomé de LAS CASAS) من التّاج [الإسبانيّ]، نصّت بوضوحٍ على أنّ الهنود هم مواطنون إسبانيّون تمامًا مثل المستعمِرين المستوطِنين، ولا يمكن بأيّ شكلٍ من الأشكال أنْ

١. ألْبارْ مِمّي، م. ن، ص. ٧٦.

Albert MEMMI, op. cit., p. 76

٢. مارْسالْ مارْلِي، م. ن، ص. ٥٦-٦٠.

Marcel MERLE, op. cit., p. 56 - 60.

يُسمحَ لهؤلاء بخفْضهم إلى مرتبة العبيد. يجب أنْ يستفيدوا بشكلٍ كاملٍ من خيْرات الحضارة المسيحيّة. في وقتٍ لاحق، صارت رسالةُ الحضْرنة (mission civilisatrice) تُذكَر بسهولةٍ لتبرير التوسُّع الأوروبّيّ في القرنيْن التّاسع عشر والعشرين. كان الأنگليزُ يدّعون أنّهم قد ساقوا السّكّان البلديّين الأصليّين إلى الحكم الذّاتيّ (self-gvernment)، وكان الفرنسيّون يدّعون أنّهم قد وسّعوا أمّتهم بأنْ قبلوا فيها، بلا تمييزٍ عرقيٍّ، مواطنيهم في ما وراء البحار. «الغزو الأخلاقيُّ» لا يستقيم مع غصْب ممتلكات الآخرين. أيُّ شيءٍ أكثرُ درجةً في عدم الاكتراث من أنْ يُفشيَ الإنسانُ أسرارَه الخاصّة؟

لكنّ السلطاتِ في المراكز الاستعماريّة ووكلاءَها لا يمثّلون الاستعمار (colonisation) التي يجري على أرض الواقع. ليس المستعمِرُ المستوطِنُ مبشِّرًا بالحضارة (missionnaire de la civilisation) كما أُدُّعِيّ كثيرًا. هو ليْس غيرَ مكترثٍ (désintéressé): غايتُه هي أنْ يهيّئَ لنفسه مكانًا تحت الشّمس. لقد كانت سياسةُ السّكّان البلديّين الأصليّين تُثير المستعمِرين المستوطِنين، دائمًا، ضدّ المراكز الاستعماريّة، منذ ثورة گُنْزالُو پيزارُّو (Gonzalo PIZARRO) ضدّ القوانين الجديدة [التي أصدرها ملك إسبانيا سنة ١٥٤٢] (Leyes Nuevas)، إلى ثورة المتمرِّدين الأمريكيّين ضدّ إعلان ١٧٦٣، وصولاً إلى ثورة جماعة ييشوف الصّهيونيّة [الاستيطانيّة] (YICHOUV)، سنة ١٩٣٩، ضدّ الكتاب الأبيض [البريطانيّ] (Livre blanc / White paper)، يزعم المستعمِرُ المستوطِنُ أنّه يُقرُّ، أكثر من حكومات المركز الاستعماريّ، بالحاجاتِ الحقيقيّةَ للسّكّان البلديّين الأصليّين. هو يؤكّد أنّه «تُوجد أماكنُ للجميع»، وهذا لا يصحّ إلّا بشرْطيْن

*) الأوّل، هو أنْ يكون السّكّانُ الأصليّون قادرين وراغبين في تحقيق ثورةٍ تقنيّةٍ، تصبح ضروريّةً بعد نقصان مساحات أراضيهم [بفعل عمليّات غصبْ أراضيهم]

*) والثّاني، هو أنْ يقبلوا بالتّفريط في استقلالهم؛ ليندمجوا في المجتمع الجديد الذي أسّسه المستعمِرون المستوطِنون.

لا يتمّ هذا التّكيُّفُ بيُسْر؛ إذ يجب، فوْق ذلك، أنْ يقبل الشّعبان بإمكانيّة هذا التّحوُّل، وأنْ يَرغبَا في تحقيقه. تتقاسم الشّعوبُ كلُّها نزوعًا نحو ازدراء أعراف الأجانب وعاداتهم، ونحو أَمْثَلة عاداتها الخاصّة (جعلها مثاليّةً / idéaliser). لقد تعمّقت الرِّيبةُ في التّجديد بسبب المحوريّة العِرْقيّة (ethnocentrisme). لقد كان السّاكنُ البلديُّ الأصليُّ يُدافع، بدافع المبدأ، عن نمط معيشته الأصيل (التّقليديّ / traditionnel)؛ المستعمِرُ المستوطِنُ، إمّا يريد أنْ يفرضَ عليه نمطَ معيشته

الخاصّ وإمّا يُقنع نفسَه بأريحيّةٍ عند الإخفاق في تحقيق ذلك بأنّ «المتوحِّش» غيرُ قابلٍ للتّربية والتعليم. يُدرك هذا الأخيرُ، ممّا يراه من ظاهر هذه «الحضارة» المزعومة، العيوبَ التي تُخفيها العادةُ، من دون أنْ يتفاعل مع المزايا والمنافع الواضحة بالنسبة لنا:

«تكمن تعاسةُ الهنود في دخولهم في تماسٍّ مع شعبٍ هو الأكثرُ تحضُّرًا، والأشدُّ نَهَمًا أيضًا، على كوكب الأرض، بينما هم أنفسُهم نصفُ برابرةٍ: تعاستُهم في أنْ يجدوا أنّ مُعلِّميهم سادةٌ [لهم كعبيدٍ]، وفي أنْ يتلقّوْا في الوقت نفسِه الاضمحلالَ والتّنويرَ. لقد كان هنديُّ أمريكا الشّماليّة بائسًا، وهو يعيش حريّته بين أشجار الغابات، لكنّه لم يكن يشعر بالدُّونيّة أمام أيٍّ كان من البشر الآخرين؛ ومن السّاعة التي يريد فيها أنْ يدخل في التّرتيب الاجتماعيّ، الخاصِّ بالبيض، لا يُمكنه إلّا أنْ يَشغل الرتبة الأخيرة؛ لأنّه يدخل، وهو جاهلٌ وفقيرٌ، في مجتمع يسود فيه العلمُ والثّروةُ. بعد أنْ كان قد عاش حياةً مضطربةً، مليئةً بالشّرور والأخطار، لكنْ، في الوقت نفسِه، مليئةً بالعاطفة والعزّة، يجد نفسَه مُجبرًا على الخضوع لحياةٍ رتيبةٍ مُملّةٍ، ومُظلمة، ومُنحطّةٍ ذليلةٍ. اللّهاثُ، من خلال أعمالٍ مُضنيةٍ وفي ظروفٍ مُخزيةٍ، لكسب الخبز الذي يسدّ جوعه... هذه هي الصّورةُ الوحيدةُ المرتسمةُ في عقله عن الحضارة التي يَمدحونها له»[١].

لقد أقنعَ هذا الرّفضُ للحضارة والإعراضُ عنها، الذي ظهر في المقاومة الشّرسة في منطقة الكاراييبي، كما الانقراض اليائس لشعب أَراواك [الهندي الأمريكيّ] ((ARAWAK، أقنع الأوروبّيّين بأنّ تلك الشعوب الملعونة يجب أنْ تختفيَ من الوجود لتترك المكان لهم. وفّرت «الدّاروينيّةُ الاجتماعيّةُ» النّظريّةَ لفكرةٍ موجودةٍ سلفًا: في الصّراع من أجل الحياة [البقاء]، الذي يجعل الأعراقَ والأنواعَ متقابلةً متصارعةً، يُقصي الانتخابُ الطبيعيُّ الأضعفَ منها، بلا رحمةٍ. لقد كان ألكْسيسْ دُو تُوكْفيلْ على يقينٍ بذلك، منذ سنة ١٨٣١:

«أعتقد أنّ عِرق هنود أمريكا الشّماليّة محكومٌ عليه بالانقراضْ، ولا أستطيع أنْ أمنع نفسي من التّفكير في أنّه لمّا تطأ أقدامُ الأوروبّيّين شواطئ المحيط الهنديّ سيكون هذا العِرْق قد انتهى وجودُه. لا يملك هنودُ أمريكا الشماليّة سوى طريقتيْن للنّجاة والخلاص: إمّا الحربُ وإمّا الحضارة، بعبارةٍ أخرى، يجب عليهم إمّا أنْ يُدمّروا الأوروبّيّين وإمّا أن يصبحوا مُعادلين أندّاء لهم... والمقاومةُ قد أخفقت وتوقّفت. ومن اليسير علينا أن نستشرف ممّا حصل أنّ الهنود لن يريدوا أبدًا أنْ يتحضّروا

١. ألكسيس دُو تُوكْفِلْ، الدّيموقراطيّة في أمريكا، الكتاب الأوّل، ص. ١٠.

Alexis de Tocqueville, De la démocratie en Amérique, livre I, chap. 10.

(se civiliser)، أو أنّهم سيحاولون ذلك في وقتٍ متأخّرٍ جدًّا، لما يصل بهم الأمرُ إلى أنْ يريدوا ذلك»[١].

حتّى مع غياب العنف والقسوة، فإنّ توطُّنَ المستعمِرين واستقرارَهم واستحواذَهم على موارد المعيشة يُجبر الهنودَ الصّيّادين على الفرار وإلّا يتعرّضون للمجاعة. انقراضُ «المتوحّشين» هو ظاهرةٌ طبيعيّة يُسبّبُها الاستعمارُ (colonisation). ينتج عن هذة النّظريّة تجريدُ المستعمِر المستوطِن من كلّ إحساسٍ بالمسؤوليّة عن الكارثة التي تُصيب السّكّان البلديّين الأصليّين: لا تستطيع النيّةُ الحسنةُ الفُضلى، ولا أعلى درجات التّسامُح والبرّ أنْ تمنع الأمرَ المحتوم[٢]. ومن نتائج هذه النّظريّة نزوع المستعمِر المستوطِن إلى حرمان السّاكن البلديّ الأصليّ من أسباب المعيشة إلّا بكمّيّاتٍ قليلةٍ كافيةٍ لشعبٍ يعيش حالة الاحتضار فحسبُ، لكنْ قليلةٍ جدًّا لشعبٍ يتكاثر بسرعةٍ. في الجزائر، كان المتنبِّئون يستشرفون تدهور وضع الشعب البلديّ الأصليّ، وبقوْا مُنْكرين جاحدين أمام العلامات الأولى للتّقدّم (progression)، قبْل أنْ يعمدوا إلى تمجيد دور الاستعمار الفرنسيّ في حدوث ذلك! في كينيا، قام شعب الكيكويّين (Kikuyus) بثورةٍ، نظّمتها جماعةُ مُو- مُو (Mau-Mau) السّريّة، أُرْجعتْ أسبابُها إلى نقْصٍ في الأراضي[٣].

لكنّ الرّفضَ لم يكن هو ردَّ الفعلِ الوحيدَ. فإرادةُ السّكّان البلديّين الأصليّين حفظَ استقلالهم، ضدّ غزو المستعمِرين المستوطِنين، دفعهم إلى تبنّي التّقنيات [الغربيّة الجديدة]، التي أقرّوا بألمٍ بفعّاليّتها، بادئين بالتقنيَات العسكريّة. استعار الأُوراكيوُّن (شعبُ الأوراكان / Auracans) في الشيلي، والشّيشماكـيّون (شعبُ الشّيشيماكْ / Chichimèques) في المكسيك، [استعمالَ] الحصان والأسلحة النّاريّة من أعدائهم الإسبانيّين. ودفع البعضُ بإرادة التّوافق إلى حدّ المحاكاة المنهجيّة لتقنيَات المستعمِرين المستوطِنين جميعِها. لقد استنسختِ القبائلُ المتحضِّرةُ الخمس، المستقرّةُ في جنوب شرق أمريكا، المحاريثَ، والطّواحينَ، والزّراعاتِ وتربيةَ الماشية من جيرانهم البيض، كما استعاروا منهم تأسيس الرّقّ، لسوء الحظّ. حتّى أنّ الشّيروكيَّ سيكُوياهْ (SEQUOYAH) قد

١. المرجعُ السابقُ نفسُه.

٢. المرجعُ السابقُ نفسُه.: «لا يمكن إبادةُ النّاس مع احترام قوانين/مبادئ الإنسانيّة جيّدًا».

“On ne saurait détruire les hommes en respectant mieux les lois de l’humanité”.

٣. ناثان واشْتالْ، رؤيةُ المغلوبين، باريس، گالّيمار، ١٩٧١، ص. ٢٨٨-٢٩٩.

Nathan WACHTEL; La vision des vaincus, Paris, Gallimard, 1971, p. 288 - 299.

ابتدع أبجديّةً أصيلةً لكتابة لغة شعبه «الشّيروكي» (CHEROKEE)[١]. لكنّ تلك المحاكاةَ الطّوعيّةَ تبقى مناقضةً للاستعمار (colonisation) لكونها ترمي إلى حفظ الاستقلال، لكنّ نجاحَ المسعى يتوقّف على موازين القوى.

يستلزم الاستيعابُ ((assimilation وجودَ إرادةٍ لدى الشّعبين، الأصليِّ والمهاجرِ، للانصهار في شعبٍ واحدٍ؛ الاستيعابُ، لدى السّاكن البلديّ الأصليّ، هو سيلةٌ للتخلُّص من شعوره بالدُّونيّة بتماهيه بالوافدين الجُدُد، المتوّجين بهيبة الغُزاة والبُناة المؤسِّسين. إنّ أوّلَ ردِّ فعلٍ من المستعمَر (colonisé)، حسب ألْبارْ مِمِّي، هو «حبُّ المستعمِر (colonisateur) وكُرْه ذاته»[٢]. يمثّل «الشبّانُ الجزائريّون» الـمُعلَّمون في المدرسة الفرنسيّة أفضل مثالٍ على ردّ الفعل هذا[٣]. لكنْ، أللمستعمِر المستوطِن (colon) مصلحةٌ في الدّفع نحو الاستيعاب؟ تباينتِ المواقفُ بين الشّعوبِ المستعمِرة المختلفة حسب عاداتها وأعرافها الوطنيّة وحسب أديانها: لقد بان بوضوحٍ أنّ البروتستانت، الـمُشْبَعين بالعقليّة التشبّثيّة (exclusiviste) المأخوذة من العهد القديم، هم أكثرُ عُنصريّةً من الكاثوليك، الخلاصيّين عقائديًّا ((universalistes. لكنّ المائزَ الأهمّ عدديٌّ. عندما يكون المستعمِرون المستوطِنون أكثرَ عددًا، بشكلٍ واضحٍ، من السّكّان البلديّين الأصليّين، فهم لا يكترثون بمصير هؤلاء الأخيرين: لا يعنيهم أمرُهم، سواءً أَتمّ استيعابُهم، أمْ ساء وضْعُهم، أم انقرضوا. وعلى العكس من ذلك، وعندما يكون المستعمِرون المستوطِنون أقليّةً، يتوقّف مستقبلُهم على ازدياد عدد الكتلة السّكانيّة البلديّة الأصليّة. إذا ما بقيت هذه الكتلةُ أجنبيّةً عن المستعمَرة (colonie)، يمكننا تشبيه هذه الأخيرة بقصرٍ مَشيدٍ على ظهر تنّينٍ: إذا ما ظلّ نائمًا كما حدث في

---

١. أُولِيفِيي لا فارْجْ، تاريخُ الهنود [الأمريكيّين].

Oliver La Farge, Histoire des Indiens..67

٢. ألْبارْ مِمِّي، صورة المستعمِر، ص ١٥٧.

A. Memmi, Portrait du colonisé, p. 157

٣. شارْل-روبارْ آجيرُنْ، «حركةُ الشّابّ الجزائريّ» من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٢٣ في دراسات مغاربيّة، باريس، بُوفْ، ١٩٦٤، ص. ٢١٧-٢٤٣. انظر أيْضًا دراستنا حول «الحسّ الوطنيّ لدى الطّلبة الجزائريّين ذوي الثّقافة الفرنسيّة من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٦٢»، في مجلة العلاقات الدّولية، العدد الثّاني.

Charles-Robert AGERON, «Le mouvement Jeune Algérien» de 1900 à 1923 dans Etudes Maghrébines, Paris, PUF, 1964, p. 217 - 243. Voir aussi notre étude sur «Le sentiment national des étudiants algériens de culture française de 1912 à 1962», dans Relations Internationales, n° 2.

البيرو، تدوم المستعمَرةُ، أمّا إذا ما صحا كما حدث في الجزائر، فإنّها تضيع ويزول وجودُها. لكنْ، أيُّ مستعمَرةٍ أقلّيّةٍ يُمكنها تأمينُ مستقبلها، وبالتّالي الدّوام، إذا ما نجحتْ في استيعاب السّكّان البلديّين الأصليّين.

نجمع تحت مصطلح «الاستيعاب» (assimilation) مجموعةَ الإجراءات التي تُمكِّن من محو، أو إخفاء الاختلافات بين المستعمِرين المستوطِنين والسّكّان البلديّين الأصليّين، والتّقليل بذلك من مخاطر المواجهات العنيفة بين الفريقين. يمكن أن يتمّ تحقيقُ الاستيعاب:

- قانونيًّا، وذلك بتشريع قوانين تضمن المساواة في الحقوق والواجبات، ولكي يكون هذا فعّالاً يجب أن يتجاوز إلى الأفعال.
- اجتماعيًّا، من خلال تأمين المساواة في حظوظ التّقدّم والتّرقّي، وإلغاء التّناسب بين الرّتبة الطّبقيّة الاجتماعيّة والتّصنيف الهرمي للأعراق.
- دينيًّا، بإرساء وعيٍ جمْعيٍّ يُمكّن من التّعالي على التّناقضات الثّقافيّة القديمة.
- لغويًّا، يُمكن التّفاهمُ والاتّفاقُ، من خلال إلغاء واحدٍ من أقوى الحواجز بين النّاس.
- وأخيرًا، ماديًّا، من خلال التّهجين [الزّواج المختلط] الذي يُخفي العلامات، الأشدّ بروزًا، للانتماء إلى هذا الشّعب أو ذاك.

يفرض الإدخالُ (inclusion) بالتّهجين مصطلحَ «الاستيعاب» (assimilation)، الأعمَّ من مصطلح «التّثاقف» (acculturation).

أمريكا اللاّتينيّة هي المسرحُ الذي تمّ فيه تطبيقُ كلِّ وسائل الاستيعاب التي ذكرناها، بأعلى مستوى. تفسّر أدواتُ الاستيعاب التي تحقّقت هناك، إضافةً إلى الأزمة الدّيموغرافيّة التي شهدتها تلك المنطقةُ في القرنيْن السّادس عشر والسّابع عشر، تفسِّرُ نجاحَ الاستعمار الأقلّي الإسبانيّ والبرتغاليّ هناك. لم يكنِ النّجاحُ تامًّا بما أنّ التراتبيّة الطبقيّة الاجتماعيّة بقيتْ راسخةً في الأذهان على مستوى لون البَشَرة، وبما أنّ التّعصّب للّون الذي فرضه البيضُ ظلّ عقدةً طاغيةً في المجتمع متعدِّدِ الأعراق أجمعَ. بلْ لقد وصل الأمرُ إلى أنْ أصبحتْ من المسائل العاديّة في الإيديولوجيا الأوروبيّة والأمريكيّة اللاّتينيّة في القرن التّاسع عشر، مسألةُ تحميل التّهجين مسؤوليّة التّخلّف الاقتصاديّ والاجتماعيّ والسّياسيّ لأمريكا المختلطة (panachée) [اللاّتينيّة: الوسطى والجنوبيّة]

بالمقارنة مع أمريكا البيضاء [الشّماليّة][1]. لكنّ وضْع المستعمِرين المستوطِنين الأمريكيّين اللاّتينيّين أفضلُ من وضْع نُظرائهم في شمال إفريقيا، الذين تمّ طردهم من خلال عمليّة «التحرّر من الاستعمار» (décolonisation)، ومن وضْع نُظرائهم في جنوب إفريقيا، الذين يعيشون في حالة رُعْبٍ من «الخطر الأسْود» (péril noir)، نتيجة إخفاقهم في استيعاب أغلبيّة السّكان البلديّين الأصليّين. في بلدٍ تسكنه أغلبيّةٌ سُكانيّةٌ من الهُجناء (métis)، مثل المكسيك، لا يُمكن التّفكيرُ في عمليّة «تحرّرٍ من الاستعمار» (décolonisation).

في الجزائر، كانت أدواتُ الاستيعاب assimilation)) أقلَّ عددًا. لم تكن فرنسا اللاّئكيّةُ قادرةً على القيام بالتّبشير (prosélytisme) المسيحيّ، وكان العسكريّون يعلمون أنّ سياسةً كهذه، لو مُورِستْ، كان يُمكنُ أن تُسبّب ثورة عامّةً. وبما أنّ الإسلام كان يمثّل ظاهرةً روحيّةً وزمنيّة [الإسلام دين الآخرة والدنيا، العبادات والمعاملات]، كان الاستيعابُ القانونيُّ يبدو مستحيلاً، وفي تلك الظّروف كان من الممكن أنْ يؤدّيَ الاستيعابُ السّياسيُّ إلى نهاية التّفوّق الفرنسيّ في المستعمَرة، وإلى إخفاق عمليّة الاستيعاب. لقد كان الحلُّ الوحيدُ يكمن في استعمال وسيلة الاستيعاب اللّغويّ من خلال المدرسةِ الفرنسيّةِ، مطيّةِ «الأفكار الحديثة» التي بإمكانها التّقليل من سطوة التّعصبات الدّينيّة (التّيوقراطيّة /(théocratiques . لكنّ ضآلة عدد المثقّفين (intellectuels) البلديّين الأصليّين حشرتْهم في وضْع غير مريحٍ بالمقارنة مع جماهير شعبهم، المتعلّقة بقيمها الأصيلة (التّقليدية / (traditionnelles، والمعاديةِ لعملية الاستيعاب. ولهذا السّبب طلب قسمٌ منهم سنة ١٩٣٦ بتحقيق الإدماج (intégration) لا الاستيعاب (assimilation). استيعابُ فردٍ أو مجموعةٍ يعني قوْلبتَه بشكل تامٍّ وفق نموذجٍ يوفّره مجتمعٌ آخَرُ، بينما إدماجُه في ذلك المجتمع يعني منحَه فرصة المشاركة من دون تجريده من شخصيّته السّابقة. الفرْقُ بينهما واضحٌ نظريًّا، لكنْ هل الأمرُ كذلك في الممارسة؟

نادرًا ما يكون الاستيعابُ شاملاً. إنّه مُطْلَقٌ في حالة فردٍ يُكْفَل بُعيْدَ ميلاده. فيكون المتبنّي له منشأَ ثقافته كلِّها؛ ولا يبقى كاشفٌ لأصله سوى هيأته الجسمانيّة. لكنّ أيَّ فردٍ يتمُّ استيعابُه بعد تلقّيه مخزونًا ثقافيًّا أوّلَ يَظَلُّ حافظًا لذكرياتٍ تُميّزه عن مواطنيه الجُدُد. وأيُّ مجموعةٍ مهاجرةٍ أو متطوّرةٍ داخلَ بلدها المغزوّ تظلّ دائمًا حافظةً، في عاداتها الدّخليّة ثُقَيْفَةً (مُفردةً ثقافيّةً / (-sous culture تُميّزها، قد تكون قد تمّ اختزالُها في مُجرّد لهجةٍ محلّيّةٍ، أو لَكْنةٍ لغويّةٍ أو وصْفاتِ طهْوٍ.

١. ج. هارْمنْدْ، م. ن، ص. ١١١.

J. HARMAND, op. cit., p. 111.. 70

إنّ استيعابَ مجموعةٍ ما هو إدماجٌ لها أيضًا. وعلى العكس من ذلك، لا يتضمّن الإدماجُ سوى جزءٍ من الاستيعاب، بما أنّ المشاركة في مجتمعٍ يستلزم التّمكُّـنَ من لغتِهم، ومن القِيم الثّقافيّة التي يحملها. السّعيُ إلى عدم المسّ من شخصيّة مجموعةٍ ما يُراد إدماجُها هو الأمل في المستحيل: كيف يُمكن أنْ تتعايش الثّقافتان في الظّرْف (esprit) نفسِه من دون أن تختلطا؟ لقد كان الاستيعابيُّ (assimilationniste) رابح الزّناتي يرى أنّ الاستيعابَ لا يكون في اتّجاهٍ وحيدٍ:

«يجري ذكر فزّاعة الابتلاع (absorption) على ألسنة جميع الفتنويّين البلديين الأهليّين (trublions indigènes)، ويبدو ألاّ أحدَ يُسلّم بحقيقة أنّ الشّعبيْن المتواجهيْن/المتعايشيْن (en présence) يتبالعان (يتبادلان الابتلاع / يبتلع أحدُهما الآخَر / (s'absorbent mutuellement، وأنّ السّكان البلديين الأصليّين، في الجزائر، يتفرْنسون كلّ يومٍ، كما أنّ الفرنسيّين يتعرّبون، فيها، إلى حدٍّ ما. لا أحدَ بإمكانه التصرّف ضدّ قوانين الطّبيعة الحتميّة. بانتظار أنْ يتداخل الجانبان المتواجهان/المتعايشان بودٍّ مع مرور قرونٍ من الزّمن، يبقى التّقارُبُ، والتّعاونُ الصّادقُ، واتّحادُ القلوبِ والعقولِ، الصّيغةَ الأسلمَ والأكثرَ عقلانيّةً. تكمن المثاليّةُ (idéalisme)، أو بالأحرى المفارَقَةُ (paradoxe)، في التّأكيد على جعْل شعبيْن، أيْ حضارتيْن، يعيشان جنْبا إلى جنْبٍ، من خلال أنْ يتحقّق بينهما تنافذٌ (تأثيرٌ متبادَلٌ / (osmose، وامتصاصٌ متبادَلٌ (تنافُذٌ/تأثيرٌ متبادَلٌ / (endosmose. ساذج وبسيطٌ جدًّا هو ذاك الإنسانُ الذي يُمكن أنْ يعتقد في حصول مثل هذا الشّذوذ والاستثناء في القوانين الكونيّة»[١].

حسب تعبير إمِيلْ فيليكْسْ گُوتْيِي (Émile Félix GAUTIER)، لم يتحقّق في الجزائر «انصهارٌ بين الأعراق» (fusion de races)، بل إنّ ما تحقّق هو مجرّد تحوّليّةٍ في التّواصل والتّعاشر (métamorphisme de contact).

على الرّغم من ذلك، يعكس الاستيعابُ المتبادَلُ موازينَ القوى الماديّة والثّقافيّة بين المجتمعيْن: يُعطي المجتمعُ الأقوى، والأكثرُ تطوُّرًا، أكثرَ ممّا يأخذ. لقد رَوْمنتْ (romaniser) روما بلادَ الغال المغلوبةَ، لكنْ في النّهاية قال الغاليّون للرّومان: «أيّها السّادة، لقد انتهت إقامتُكم، عليكم بالرّحيل» (مثلٌ باللّغة اللاتينيّة: أيّا السّادة، إنّها السّاعة الخامسة، قد انتهى وقت الدّرس، [عليكم بالمغادرة]) (Graecia capta ferum victorem cepit). لكنّ الغُزاة الأوروبيّين، الـمَغرورين بتفوُّقهم بوصفهم

١. رابح الزّناتي، المشكلةُ الجزائريّةُ من منظورِ بلديٍّ أصليٍّ، باريس، ١٩٣٨، ص. ٦٨-٦٩.

Rabah ZENATI, Le problème algérien vu par un indigène, Paris, 1938, p. 68 - 69.

رُسُلَ الحضارة، لا يُقِرّون طوْعًا باستعاراتهم (emprunts) [من الآخرين]. لم تكن عمليّةُ الإدماج، التي كان يطالب بها أنصارُ «الجزائر الفرنسيّة»، تعني إدماجَ الأقليّة الأوروبيّة في الأكثريّة المسلمة، بلْ كانت تعني إدماجَ الجزائر في فرنسا. في الواقع، لم تكن فرنسا تفكّر في التّعرُّب من أجل الاحتفاظ بالجزائر. لقد كانت «الجزائرُ الفرنسيّةُ» تعني، في الحقيقة، استيعابَ الجزائر. منذ صدور مرسوم فيلّارْ كُوتِّيري (Villers COTTERETS) سنة ١٥٣٩، أصبحت «اللّغةُ العامّةُ الفرنسيّةُ» (commun langage françois) هي أساسَ وحدة الدّولة [الفرنسيّة]. تعليمُها شأنٌ مهمٌّ جدًّا من شؤون الدّولة (affaire d'État): الفرنسيّون كلُّهم مُلْزمُون بتعلُّم لغتهم الوطنيّة. لكنْ، إذا ما أراد البعضُ منهم تعلّم لغةٍ أخرى إضافةً إليها، له الحرّيّة في ذلك: هذا شأنٌ خاصٌّ. تصوّروا لو أنّ الدّولةَ الفرنسيّةَ كانت قد أخذت على عاتقها مسؤوليّة التّعليم باللّغة العربيّة أو باللّغة الأمازيغيّة (البربرية)؟ لم يكْن بإمكان التّعليم العموميّ أنْ يُؤدّيَ إلّا إلى جعل الأولويّة للّغة الفرنسيّة كما هي الحالُ في المركز الاستعماريّ [فرنسا]. أمّا في ما يخصّ الدّين الإسلاميّ، بالإمكان أن تعتمده الدّولةُ الفرنسيّة تمامًا بمستوى اعتماد أيِّ دينٍ آخَرَ وفق مبدأ الحياد الدّيني. أمّا على صعيد القانون، فقد كان أشدّ أنصار الإدماج حماسةً من المسلمين، قد اقترحوا أنْ تتمّ زيادةُ الإدراج التّصاعديّ التّدريجيّ للقانون الإسلامي [أحكام فقه المعاملات] في مدوّنة القانون المدنيّ [الفرنسيّ]. وبما أنّه قد تمّ، منذ سنة ١٩٥٥، استبعادُ أيِّ حلٍّ فدراليٍّ، فإنّ الفرقَ بين الإدماج والاستيعاب لم يكن واضحًا.

سوف نلاحظ أنّ المستعمراتِ المرتبطةَ بمركزٍ استعماريٍّ مثل «الجزائر الفرنسيّة» أو «المقاطعات البرتغاليّة في إفريقيا»، كانت تدعم سياسة الإدماجِ أو الاستيعاب، في حين أنّ المستعمرات التي لا تتبع مراكزَ استعماريّةً مثل «إسرائيل» أو «جنوب إفريقيا» كانت ترفض مثل هذه الحلول خشية ذوبان مستعمِريها وضياعهم في البحر الخضمّ للعدد الأكبر من السّكّان البلديّين الأصليّين. يُفسّر الثّقلُ العدديُّ للمركز الاستعماريّ التّناقض المبدئيّ بين هذين النّوعيْن من المستعمَرات، والذي لا يمنع وجود شيٍ من التّضامن[1] (التّكافل /(solidarité ضد الخطر المشترك، الذي يهددهما معًا، ألا وهو «التّحرُّر من الاستعمار» («تصفية الاستعمار» /(décolonisation.

لقد غضب لينينُ سنة ١٩٠٧ من كـوْن المؤتمر الاشتراكيّ المنعقد في مدينة شتوتگَارْتْ (في ألمانيا) قد ناقش في مداولاته، بشكلٍ جدّيٍّ، أطروحاتِ فانْ كُولْ (Van KOL) المؤيّدةَ لـ«سياسيةٍ

١. وهو تضامُنٌ ناقصٌ. اليمينُ الإسرائيلي، وحدَه، هو الذي يشعر بتوافقٍ مع جنوب إفريقيا.

استعماريّة اشتراكـيّة»[١]. لكنْ ألم يُطبِّقْ لينينُ نفْسُه هذه الصّيغة، على أرض الواقع، من خلال تحويله الإمبراطوريّةَ الرّوسيّةَ السّابقةَ إلى «اتّحاد الجمهوريّات الاشتراكـيّة السوفياتيّة» (الاتحاد السّوفياتيّ / U.R.S.S). [إشارة إلى الاستعمار الروسي للدول التي ضُمّت إلى الاتحاد السوفياتيّ]. لقد أثبتت السياسةُ التي تمّ تطبيقُها منذ سنة ١٩١٧ [تاريخ الثورة البلشيفيّة في روسيا] أنّ الإدماج بشكل مختلف عن الاستيعاب بالطريقة الفرنسيّة ليست رؤيةً ناتجةً عن العقل. كان ذلك النّوع من الإدماج ينطلق من مبدإ المساواة بين جميع القوميّات وضرورة جعلها تتطوّر لكيْ تصل جميعُها إلى المستوى نفسِه من التّقدُّم الاقتصاديّ والاجتماعيّ.

لكنْ، ما القوميّةُ؟ كلُّ لغةٍ تُحدّد قوميّةً، يُعتَرف بها كَـكيانٍ سياسيٍّ مُفدْرَل (fédéré) في «الاتحاد» وتتلقّى كلَّ الوسائل لتطوير ثقافتها الخاصّة، بشرط أنْ يكون المضمونُ تقدُّميًّا واشتراكـيًّا. لا يستطيع الدِّينُ، ولا العِرْقُ، أن يؤسّس قوميّةً، وهكذا، تمّتْ إزاحةُ خَطرَيِ الجامعة/الرّابطة الإسلامية (panislamisme) والجامعة/الرّبطة الطُّورانيّة (نسبةً إلى طوران: آسيا الوسطى / pantouranisme)؛ وذلك لأنّ الاتحاد قائمٌ على مبدأ تقرير المصير [لكلٍّ من أعضائه]، الذي يُمكن أنْ يصل إلى حدّ الانفصال، بينما ضروراتُ القضيّة الاشتراكـيّة تقتضي وجودَ دولةٍ مركزيّة. تُؤلّف السّياسةُ السّوفياتيّةُ، المؤسَّسةُ على الجدل (الدّيالكتيك) الماركسيِّ، ما بيْن منْح القوميّات أعلى درجات الاستقلاليّة الثّقافيّة واللّسانيّة (اللّغويّة / linguistique)، وصَهْرها في بوْتقة خلْق/صناعة الإنسان السّوفياتيّ (homo sovieticus)، بتوسُّل عمليّات مزْج الشّعوب والزِّيجات المختلطة، والتي تُبرّر التعليمَ العموميّ للغةٍ مشتركة: هي الرّوسيّة. على العكس من الدّولة الفرنسيّة، بذلت الدّولةُ السّوفياتيّةُ مجهودًا كبيرًا لتطوير الثّقافات القوميّة، مع أنّها قد نهجتْ مثلَها سياسةً استيعابيّةً. لقد استُؤنفت العمليّة الاستعماريّةُ أكثر من المألوف تحت شعار للتّورية «استصلاح الأراضي البَوْر» (défrichemet des terres vierges). وهكذا صار الكازاخيّون أقليّةً في جمهوريّتهم الخاصّة. لكنّ ذلك الاستعمارَ (colonisation) لم يكنْ قائمًا لا على طرْد شعب ولا على استغلاله من شعب آخَرَ، بلْ على توحُّد كلِّ الشّعوب في إنجاز عملٍ مشترَكٍ، يجب أيْضا أنْ يكون في مصلحة الجميع. أزالتْ هذه السّياسةُ السّوفياتيّةُ، الغريبةُ عن كلِّ داروينيّةٍ اجتماعيّة، الفوارقَ بين المستعمِرين (coolonisateurs) والمستعمَرين (colonisés)، من دون أنْ تُزيلَ الاستعمارَ (colonisation) نفسَه.

١. هيلينْ كارّارْ دُنْكاسّ و ستيوارتْ شارْمْ، الماركسيّةُ وآسيا، باريس، آرْمَنْدّ كُولّينْ، ١٩٦٥، ص. ٢٥-٢٦ و ١٥٦-١٧٢.

Hélène CARÈRRE D'ENCAUSSE et Stuart SCHARM, Le marxisme et l'Asie, Paris, Armand Colin, 1965, p. 25 - 26 et 156 - 172.

يُمكن لهذه الإلمامة أن تتّسع بالاستمرار في سرد أدلّة أخرى من العالَم أجمعَ. لقد درسْنا، بتروٍّ، حالةً أجنبيّةً عن توسُّع بلدان أوروبا الغربيّة وسلَفَيْها اليونان وروما. يبدو أنّ استدلالَنا [الشّائع] ظلّ، طويلاً، يقبل برؤيةٍ خاطئةٍ تُماثل الاستعمارَ (colonisation) بتوسُّع شعوب أوروبا الغربيّة في العالَم أجمعَ عبر الطّرُقِ البحريّةِ في الفترة ما بين نهاية القرن الخامس عشر ومنتصف القرن العشرين. لو قبلنا بالفكرة الشائعة، فسيكون الاستعمارُ (colonisation) حقبةً من تاريخ العالَم، افتُتحتْ بغزوٍ للعالَم عبر المحيطات، قامتْ به بعضُ الدُّول الأوروبيّة، وأُغلق بفعل ثلاثة أسبابٍ مجتمعةٍ:

١. حركة الشّيوعيّة العالميّة.

٢. والحركة الأمريكيّة الـمُعادية للاستعمار (anticolonialisme).

٣. وحركة الشّعوب الآسيويّة والإفريقيّة الذين اجتمعوا في باندونْگْ سنة ١٩٥٥[١].

بعضُ الحكوماتُ الرّجعيّةُ، فحسبُ، يُمكنها أن تُصِرَّ بعنادٍ على إنكار أنّ عهد الاستعمار (colonisation) قدْ ولّى بشكلٍ نهائيٍّ. في الحقيقة، لقد انتقلنا إلى عصر «التّحرّر من الاستعمار» («تصفية الاستعمار» / décolonisation). وهكذا، يبدو الاستعمارُ (colonisation) ظاهرةً انتقاليّةً، لا بلْ سريعةَ الزّوال على مستوى الأزْمنة التّاريخيّة.

نحن نظنّ أن هذا التّصوّرَ خاطئٌ؛ لأنّ الاستعمارَ (colonisation) ليس سوى جزءٍ من التوسُّع الأوروبّيّ، الذي لا يُـمثّل الاستغلالُ، والسّيطرةُ/الهيمنةُ، والاستيعابُ، سوى جوانبَ أقلَّ أهميّةً من جوانبه؛ ولأنّ التوسُّعَ الأوروبّيَّ، على العكس من ذلك، ليْس سوى جُزْءٍ من الاستعمار (colonisation) العالميّ.

- أوّلاً، إنّ الاستعمارَ عبر الطُّرق البرّيّة ليس أقلَّ استعماريّةً؛ لنتذكّر التوسُّعَ الرّوسيَّ في سيبيريا، و«الزّحفَ نحو الشّرْق» الذي قام به الألمانيّون، أوْ التّوسيعَ الطَّرَفيَّ لمساحة الأراضي الصّينيّة، والدّحْرَ الـممنهَج للشّعب الفيتناميّ نحو الجنوب.
- ثانيًا، إنّ الاستعمارَ البحريَّ أو البرّيَّ ليْس حِكْرًا على أوروبا. لقد عبَر الآريّون (Aryens) الهنودُ [سكّان الهند] البحرَ لكيْ يذهبوا للسُّكنى في سيلان، وكذلك فعل الصّينيّون مع فورْموزا (Formose) وهايْ-نانْ (Haï-Nan) وسنگفورة، وكذلك فعل اليابانيّون مع هُوكايْدُو

١. رايْموْنْدْ لُوراگِي، تاريخ الاستعمار، من الاكتشافات الكبرى إلى حركات الاستقلال، فارْفِيي، مارابُو، ١٩٦٧.

Raimondo LURAGHI, Histoire du colonialisme, des grandes découvertes aux mouvements d'idépendance, Verviers, Marabout, 1967.

(Hokaïdo)... وفي زمننا، استعمر الصّينيّون منشوريا عبر البرّ، وكذلك فعلوا بـمنغوليا الدّاخليّة، وبـسِنكْيانْگْ، وبـالتيبتْ، التي يمثّل الصّينيّون ثُلُثَيْ عدد سُكّانها. كما أنّ ما مهّد الطريق للفيتناميّين ليُغْرقوا شامْپا (Champa) بأعدادهم، ثمّ يبتلعوا ثلثَ كمبوديا هو تمدُّد أعدادٍ منهم على سواحلها وسكناهم فيها:

«خلال إنجاز ذلك المشروع الاستعماريّ النّاجح (لأنّه استعمارٌ فعلاً)، قرّرت الحكومةُ الفيتناميّةُ أن تمنحَ تلك السّيرورةَ المعتمدةَ وضْعَ موسّسةِ دولة، وبذلك أُنشئت [مستعمرةُ] الـدّونْ-ديانْ (don-diên) الاستيطانيّة، سنة ١٤٨١. تُشبه مستعمرةُ الـدُّون-ديان[1] الاستيطانيّةُ المستعمراتِ الاستيطانيّةَ الرّومانيّةَ التي سبقتها زمنيًّا بـ ١٥٥٠ سنة، ومستعمراتِ النّخّال (nakhal) الاستيطانيّة الإسرائيليّة التي تأخّرت عنها زمنيًّا بـ ٥٠٠ سنة، والمستعمراتِ الاستيطانيّة للـمزارعين الدّفاعيّين (wehrbauern) النمسانويّين-الألمانيّين، فقدْ كانت الـدُّونْ-ديانْ مستعمراتٍ استيطانيّةً زراعيّةً تمنحها الدّولةُ للمزارعين، الذين أغلبُهم جنودٌ سابقون يلتزمون، مقابل ذلك بالدّفاع عن الحدود الجديدة للدّولة. لقد كان أعضاءُ الـدُّونْ-ديانْ رجالاً أفظاظًا أجلافًا وشجعانَ مقدامين، مستعدّين لا للدّفاع عمّا يملكون، فحسب، بل لدفعْ الحدود أكثرَ نحو الغرب».

بالإضافة لما قلنا، نُذكّر بأنّ الاستعمارَ (colonisation) كان موجودًا قبل القرن الخامس عشر. في زمن المملكات المحاربة كانت يانْگْ تسِي كيانْگْ (Yang Tsé Kiang) حدودَ الصّين؛ وقد تمّ غزو الجنوب الهمجيّ المتوحّش (barbare) واستُعمِر بشكلٍ بطيءٍ بدايةً من عهد تسِنْ شِي هوَانْگْ تِي (Tsin Che Houang Ti.). في أوروبا، نذكّر بأنّ تمدّد المستعمِرين المستوطِنين الألمانيّين نحو الشّرق (Drang nach Osten)، ما وراء الألْبْ (Elbe)، قد حدث، في قسمه الأكبر، في القرنيْن الثّاني عشر والثّالث عشر. ومع ذلك فقد كانت تلك العمليذةُ إحدى أكبر المشاريع الاستعماريّة في التّاريخ، مقارنةً بأمثلةٍ أخرى تُذكَر أكثرَ منها غالبًا. وأخيرًا، في زمننا هذا يستمرّ وجود الاستعمار (colonisation) في البرازيل، وفي أستراليا، وفي الصّين، وفي الاتّحاد السّوفياتيّ، وفي إسرائيل...

تنشر الصُّحُف إعلاناتٍ جذّابةً تحاول من خلالها حكوماتُ كندا، وجنوب إفريقيا، وأستراليا، أو غيرها من البلدان، إغراءَ مهاجرين لكيْ يأتوا لتعزيز شعبٍ قليلِ العدد جدًّا بغاية تنمية مواردَ ضخمةٍ

١. «الدُّون (القويّ) والدّيانْ (مَرَزّة، حقل الرزّ). كان الصّينيّون، أيضًا، قد استعملوا هذا الأسلوبَ، قبل ذلك، خلال اندفاعتهم نحو الجنوب، وقد كان النهجُ الفيتنامي استنساخًا للنّموذج الصّينيّ السّابق. الملاحظة والتّنويه لـ برْنارْ فالِي، الفيتنامان، باريس، پايُو، ١٩٦٧، ص. ٢٣-٢٤.

Bernard FALL, Les deux Vietnam, Paris, Payot, 1967, p. 23 - 24.

جدًّا. إنشاءُ طريق يشقّ غابة الأمازون، والمجازرُ بحقّ الهنود [الأمريكيّين] تُلهم الصّحُفيّين. كيف يُمكننا الاعتقادُ بأنّ الاستعمار (colonisation) قد زال؟ طالما ظلّ توزيعُ السّكّان على مساحة الأرض غيرَ متساوٍ بالقدر الذي نشهده في زمننا هذا، حسب كثافة مُثْلى، تتغيّر مع تغيُّر الظّروف الجهويّة، ستستمرّ المناطقُ ذاتُ الضّغط المتدنّي [ذات الكثافة السّكّانيّة المنخفضة] تجلب موجات الهجرة السّكانيّة القادمة من مناطق التكدّس السّكانيّ [ذات الكثافة السّكّانيّة العالية]. صحيحٌ أنّ الحدودَ تقاوم حريّة هجرة النّاس. لا يحقّ لبلد غاصٍّ بالسّكّان مثل اليابان أنْ يُرسل مستعمِرين مستوطِنين (colons) نحو أرضٍ أجنبيةٍ من دون موافقة مالكها [دولة استعماريّة أوروبيّة]، ونحن نعلم جيّدًا أنّ الشّعوبَ الأوروبيّةَ كانت قد وضعتْ أياديَها على نصف العالَم واستبعدت الآسيويّين من المشاركة في [الاستعمار والاستيطان][1]. وفي ظلّ النّظام العالمي بما هو عليه الآن، تخضع الهجرةُ كلّيًّا لحاجات بلد الاستقبال. والاستعمارُ (colonisation) الوحيدُ الذي ظلّ ممكن الحدوث، من دون تغيير الوضع الحاليّ لحيازة الأراضي هو الاستعمار (colonisation) الدّاخلي[2].

إذا كان وجود الاستعمارُ (colonisation) لا يزال مستمرًّا، لا يُمكننا أنْ ندّعِيَ «التّحرّر من الاستعمار»، وأنّ («تصفية الاستعمار») قدْ تلتْه. لقد لاحظنا حالاتٍ من «التّحرّر من الاستعمار»: حالة الجزائر هي الأوضح. لكنْ من الخطأ أنْ نعرضَ «التّحرّر من الاستعمار» بوصفه ظاهرةً، عامّةً (universel) وقدرًا غيرَ قابلٍ للتجنُّب وللمقاومة (irrésistible). عددُ المستعمِرين المستوطِنين الذين تمّ طرْدُهم بفعل عمليّة «التّحرّر من الاستعمار» قليلٌ جدًّا مقارنةً بعدد أولئك الآمنين المستقرّين في مستعمراتهم، ولا شيءَ يهدّد وجودَهم. وأولئك الذين أُجبروا على المغادرة يمكن تعويضُ خسارتهم من خلال تقدّم الاستعمار (colonisation) في بلدانٍ أخرى. على أقصى تقديرٍ، يُمكننا الكلام عن حدوث تراجعٍ للاستعمار (colonisation) الأوروبّي في بعض المناطق من العالَم.

يُمكننا أنْ نتحدّث عن تعمُّم «التّحرّر من الاستعمار» (universalité de la décolonisation)

١. لقد أفادتِ الهجرةُ نحو العالَم الجديد الأوروبّيّن كمنفسٍ خلال الطّفرة الدّيموغرافية التي شهدتها أوروبا في القرن التّاسع عشر. لا تملك الشّعوب المتخلّفَةُ الحاليّةُ مثل ذلك المنفس، لتحلّ به مشكلة الانفجار الدّيموغرافيّ الذي تعاني منه أكثر ممّا عانت أوروبا وقتها.

٢. الاستعمارُ الدّاخليّ: هو نوعٌ من الاستعمار تنظّمه الدّولةُ من خلال مواطنيها أو مهاجرين أجانب مُرخَّصٍ لهم وغالبًا ما تتدبهم الدّولةُ نفسُها. هكذا قام ملوكُ بروسيا والنّمسا وروسيا باستعمار (إعمار / (colonizer مقاطعات بلدانهم قليلة السّكّان في القرن الثّامن عشر.

يومَ نرى جيشَ تحريرٍ هنديٍّ أمريكيٍّ يقوم باستعراضٍ عسكريٍّ احتفالاً بالنّصر في شوارع نيويورك، بعد أنْ يكون سكّانُها قد هربوا منها. .... !

خلاصةُ الكلام: إنّ «التّحرّرمن الاستعمار» (تصفية الاستعمار)، بعيدًا عن كونه ظاهرةً عامّةً وغيرَ قابلةٍ للمقاومة، هو أمرٌ عارضٌ طارئٌ، ومحدودٌ. إنّه لا يحدث إلّا في المناطق التي يتبيّن أنّ موازين القوى فيها لم تكن، من الأساس، في صالح الاستعمار (colonisation)[1]، الذي كان من المستحيل له أنْ يصمد من دون دعم المركز الاستعماريّ. والحالة أنّ البرْجزة (embourgeoisement) العامّة للدّول الأوروبيّة، من خلال إزاحتها لكلّ العوامل الدّافعة إلى الهجرة، تنزع عنها كلَّ علّةٍ تُبرّر بها القيام بالاستعمار (colonisation). والاستثناء البارز يثبت صحةَ هذه القاعدة: البرتغال هو البلدُ الأفقرُ في أوروبا الغربيّة؛ لذا فالصّحيح هو أنّ الدّاعيَ الأشدَّ دفْعًا نحو الاستعمار (colonisation) الأوروبّيّ قد تمّ تجاوُزُه.

الاستعمارُ (colonisation) ليْس ظاهرةً وقتيّةً آيلةً للزّوال (éphémère). يستوطن المستعمِر المستوطِنُ في منزله [المغصوب] للأبد، و«لا يرفع يده عن الاستعمار» (décolonise) إلّا مضطرًّ أو مغلوبًا بالقوّة. إنّ نهايةَ الاستعمار (colonisation) لا تعني «التحرّر من الاستعمار» («تصفية الاستعمار»)، بل نهاية الاستعمار تعني الوصولَ إلى التّسوية (normalisation)، أيْ وصول البلد إلى درجة النّضج والبلوغ (maturation) مثل البلدان الأخرى. في غضون بعض الأجيال، يصبح المستعمِرون المستوطِنون (colons) سكّانًا بلديّين أصليّين، قد وُلدوا في بلدهم. ونحن، جميعُنا، بدرجاتٍ متفاوتةٍ في البُعدِ التّاريخيّ، أخلافُ مستعمِرين مستوطِنين، كما كتب مكسيم رودنْسون:

«ليس المستعمِرون المستوطِنون (colons) والمستعمِرون (colonisateurs) وُحُوشًا بوجوهٍ بشريّةٍ، ذوي سلوكٍ مُدهشٍ، كما يريد منّا مثقّفُو اليسار أنْ نعتقد. أنا مُعادٍ للاستعمار (anti-colonialiste) ومُعادٍ للعنصريّة (anti-raciste)، لكنْ لا أستطيع، لأجل ذلك، أنْ أتخلّى عن تفسير الاستعمارويّة (colonialisme) والعنصريّة من خلال عواملَ اجتماعيّة ونفسانيّة (بسيكولوجيّة)، لأفسّرها بتلك الأكثر شُيوعًا والأشدّ تفاهةً وابتذالاً، والتي لا أحدَ بإمكانه أنْ يدّعيَ وأنْ يُقْسِمَ على أنّه حريزٌ (inaccessible) منها. كونُ المرْء ينتمي إلى مجموعةٍ مستعمِرةٍ (colonisateur) ليس جريمةً لا تُغتفر (irrémissible K) ويُعابُ الكلامُ عنها (indicile)، كما يتخيّل النّاسُ في مقاهي شارعَيْ سان-

١. بشكلٍ عامٍّ، إنّ المستعمراتِ الاسميّةَ، والأراضيَ المستعمرةَ بالكاد، وبالأحرى تلك غيرَ المستعمرةِ بالمرّة مثل الهند، وشمالَ إفريقيا وبشكل خاصٍّ الجزائر، كانت مستعمرةً جدًّا بما لا يسمح بأنْ يتمّ «التّحرّر من الاستعمار» فيها بشكلٍ سلميٍّ، لكنْ لا بالقدر الكافي الذي يُمكّن من تجنّب حدوثه. المستعمراتُ الأقلّيّةُ مثل جنوب إفريقيا تبقى معرّضةً لهذا المصير. بينما المستعمراتُ الأغلبيّةُ لا تخشى شيئًا، إلّا إسرائيل، الأغلبيّة داخل حدودها، لكنِ الأقلّيّةُ في محيطها المعادي لها.

جارْمانْ وسانْ-ميشالْ. من منّا البريءُ من الاستعمار (colonisation)؟ وحدَه الزمن هو الذي يمرُّ، الغصْبُ يختلف»[١].

يوحِي الاستعمارُ (colonisation) بأحكامٍ متباينةٍ لمن يضعهم في جبهتيْن متقابلتيْن متباينتيْن، وتجعل منه ديناميّتُه، وردودُ الفعل التي يثيرها، سببًا رهيبًا للنّزاعات. وللحدّ من ذلك، لا تنقصنا المشاعر النّبيلةُ، بلْ ما ينقص هو العقلُ السّليمُ، وما يغيب هو الرّشادُ. كيف تُقام العدالةُ بين الأمم من دون أنْ يتمّ أوّلاً بناء الحكمة في العقول؟ هذا المقالُ، الطويلُ جدًّا والـمُجْمَلُ جدًّا، لا يحتاج إلى تعليلٍ آخَر.

گَايْ بَارْفِيِّي (أستاذ مُبرَّز في التّاريخ)

Guy PERVILLÉ (Agrge d'Histoire)

١. «إسرائيل، هل هي حقيقةٌ استعماريّةٌ؟»، مقالٌ مذكورٌ سابقًا، م. ن، ص ٨٥.

"Israël fait colonial ?", art. cité, op.cit., p. 85

نصوص مستعادة

يتناول هذا الباب إعادة نشر البحوث والدراسات الاستعمارية الجادة او فصول من بعض الكتب التي تناولت الاستعمار بالنقد والتحليل وذلك لتعميم الفائدة.

أهمية العراق الاستراتيجية للسياسة البريطانية
قراءة في دوافع وتطوّرات العلاقات البريطانيّة – العراقيّة حتَّى عهد الانتداب ١٩٢٢م

د. صباح كريم رياح الفتلاوي

أهمية العراق الإستراتيجية للسياسة البريطانية

قراءة في دوافع وتطوّرات العلاقات

البريطانيّة - العراقيّة حتَّى عهد الانتداب ١٩٢٢م

د. صباح كريم رياح الفتلاوي[١]

الملخص

إنَّ التنافس الاستعماري من أجل الحصول على مناطق نفوذٍ جديدةٍ بدأ من القرن السابع عشر، وقد عَرَّض المنطقة العربية للسيطرة الأجنبيّة، فالتنافس الفرنسي ـ الإنكليزي أدّى إلى احتلال مصر ١٨٨٢م، إلاَّ أنَّ هذا التنافس قد تلاشى ظاهريًا بعد أنْ وجدت هاتان الدولتان ما يُهدد مصالحها بظهور ألمانيا دولةً قويةً منافسةً لهما، إذ توطَّد الوفاق بين الدولتين الذي ظهرت آثاره خلال الحرب الأولى في توزيعات سايكس ـ بيكو.

وبعد الحرب الأولى وفي الوقت الذي ثبّتت بريطانيا نفسها في مصر بإعلان الحماية عليها، لاسيّما قناة السويس بوصفها القاعدة البريطانيّة البحريّة في منطقة الشرق الأوسط، كانت تحاول في الوقت نفسه إيجاد مناطق أخرى للدفاع الجوي، فاتّجهت نحو العراق بوصفه موقعًا وسطًا بين مصر والهند. وهكذا تجسَّدت المواقف البريطانيّة بناءً على إستراتيجيةٍ واضحة، بدفعٍ من الرأسمال البريطاني التجاري في محاولةٍ لإيجاد أسواقٍ وموارد، كالمواد الأولية مع تصاعد أهميّة المنطقة من الناحية الدفاعيّة والإستراتيجيّة.

وتضمَّنت الدراسة مقدمةً ومبحثين، تناول المبحث الأول بإيجاز علاقة بريطانيا بالعراق وعوامل الاهتمام البريطاني بهِ، وتطرّق المبحث الثاني إلى أثر الأوضاع الدوليّة في علاقات بريطانيا بالعراق، وجاءت خاتمة الدراسة بأهمِّ الاستنتاجات والخلاصة في تحديد عوامل وتطوّرات علاقة بريطانيا بالعراق.

الكلمات المفتاحيّة: المسألة الشرقيّة، سايكس بيكو، احتلال العراق، درَّة التاج البريطاني، ويلسون.

١. متخصص في قسم التاريخ – جامعة الكوفة / العراق.

المبحث الأول: أثر الأوضاع الدولية في علاقات بريطانيا بالعراق وعوامل الاهتمام البريطاني بهِ

ارتبط مفهوم العلاقة بين بريطانيا والعراق منذ البدء بالمصالح والأطماع والاستعمار، وكان ذلك مع أوائل القرن السابع عشر، حين كان العراق ثلاثَ ولاياتٍ تابعة للدولة العثمانية (The Ottoman Empire) المُترامية الأطراف، ومع مرور الأيام توسَّعت وترسَّخت هذهِ العلاقة، حتَّى أخذت شكلها الاستعماري بقيام بريطانيا بغزو وادي الرافدين واحتلالهِ أثناء الحربِ العالمية الأولى، ومع النتائج المعروفة التي آلت إليها تلك الحرب، أُسِّست دولة العراق المعاصر كدولةٍ واقعةٍ تحت الانتداب البريطاني، بيد أنَّ ذلك لم يكن شيئًا عابرًا، فقد ترسَّخ في العقل الجَمعي العراقي، مفهوم الاستعمار المُرتبط ببريطانيا، فهي التي احتلّت العراق في الحرب العالمية الأولى بعد حربٍ داميةٍ مُكلفة استغرقت أربعة أعوامٍ بحجَّة التحرير، وهي التي فرضت عليه الاحتلال، وهي التي أسَّست الجيش العراقي، ثمَّ قامت (بإنشاء) الدولة المعاصرة من الولايات العثمانية السابقة (بغداد، البصرة، الموصل)، وفرضت عليه الانتداب ونصَّبت عليهِ ملكًا من الحجاز، ثمَّ كبَّلته بالمُعاهدات الاستعمارية، وأنشأت فيه القواعد العسكرية[١].

لقد تركت هذهِ العلاقة المعقَّدة بصماتها الواضحة بعُمق على الدولة والمجتمع العراقي، فكان بناء العراق المعاصر، والانتقال بهِ من المجتمع المتخلّف، يحمل بصمات وطبائع وأهداف بريطانيّة، فبريطانيا كانت وراء إنشاء كلّ مؤسَّسات الدولة الجديدة، وأصبحت اللغة الإنكليزية هي اللغة الثانية في العراق، وكانت هي اللغة الأولى والسائدة في مؤسَّساتٍ كثيرةٍ كالتعليم العالي والسكك والموانئ والطيران، وهذا يعني انعكاس الأنظمة البريطانيّة على مناحٍ كثيرةٍ من الحياة في العراق ممّا يتطلَّب وجود جاليةٍ بريطانيّةٍ كبيرةٍ فيه، لا سيَّما أنَّ كثيرًا من مؤسَّساتهِ كانت تُدار بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة من الإنكليز كشركات النفط والمصافي، وأنَّ الأمر يتطلّب وجود المستشارين كما في كلِّ الوزارات والجيش والدوائر المهمة الأخرى، الأمر الذي أوجد دورًا مهمًا وخطيرًا للسفارة البريطانية في بغداد، إذ جعلها تتحكَّم في أمور الحياة كلّها[٢].

ولسعة وتشعّب هذهِ العلاقة، سنقف على أهمِّ المحطَّات التي تخدم الغرض من هذهِ الدراسة وبحدود ما يسمح بهِ البحث.

---

١. العطية، غسان، العراق.. نشأة الدولة (١٩٠٨-١٩٢١م)، ترجمة: عبد الوهاب الأمين، (لندن، دار اللام، ١٩٨٨م)، ص١٣٠.

٢. م. ن، ص ص١٣٣-١٣٤.

العراق والسيطرة العثمانية:

بعد سلسلةِ حروبٍ متصلةٍ بين الدولتين العثمانية والصفوية، أصبح العراق جزءًا من الدولة العثمانية وذلك منذ القرن السادس عشر الميلادي، عندما احتل السلطان سليم الأول[١] مدينة بغداد في العام ١٥٣٤م، ومن المعروف أنَّ الدولة العثمانية استمرت تبسط سلطانها على المنطقة العربية في قلب الشرق الأوسط ما يقرب من أربعة قرون، لحين زوال تلك السلطة نهائيًا من هذهِ المنطقة في القرن العشرين عند انتهاء الحرب العالمية الأولى، وعلى هذا فإنَّ مصير (العراق) ومستقبله كان قد تقرّر استنادًا إلى علاقات الدولة العثمانية مع الدول الأوربية، لا سيَّما أنَّ التوجهات العثمانية نحو الشرق قد اصطدمت بجدار دولة فارس الصفوية[٢].

كانت ملامح الضعف والتراجع في الدولة العثمانية قد بدأت في الظهور أواخر القرن الثامن عشر، وقد شغل أذهان الساسة في أوروبا التفكير في مصير هذهِ الدولة ووراثة أملاكها، ومنذ ذلك الوقت المُبكِّر وأثناء القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا وروسيا وفرنسا هي الدول الأكثر اهتمامًا بمصير الدولة العثمانية ومصير أملاكها، فبريطانيا رغبت في تأمين طُرق مواصلاتها إلى الشرق الأقصى والهند خصوصًا، سواء عن طريق قناة السويس والبحر الأحمر أم عن طريق الخليج العربي ونهري دجلة والفرات. أمَّا روسيا فقد أرادت أنْ تجد لها منفذًا من البحر الأسود إلى البحر المتوسط بالاستيلاء على القسطنطينية ومضايق البسفور والدردنيل، فضلاً عن أحلامها في الوصول إلى المياه الدافئة في الخليج العربي[٣]، بينما أخذت فرنسا على عاتقها منذ زمنٍ مبكِّرٍ حماية مصالح رعايا

١. السلطان سليم الأول: سليم الأول بن بايزيد الثاني، تاسع سلاطين الدولة العثمانية. ولد في مدينة أماسية بالأناضول في ١٤٧٠م، اتّصف بالشجاعة والإقدام، وتولىَّ مناصب عدَّة في عهد والدهِ، وبعد وفاة والده في مايس ١٥١٢م تولىَّ عرش السلطنة. هزم الجيش الصفوي بقيادة الشاه إسماعيل في معركة جالديران ١٥١٤م وأنهى احتلالهم للعراق، دخل في حروبٍ مع المماليك والبرتغاليين. توفيِّ في ٢٢/أيلول/١٥٢٠م، للمزيد، يُنظر: المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العليَّة العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، (القاهرة، دار النفائس، ٢٠٠٦م)، ص١٨٦.

٢. م. ن، ص١٤٤.

٣. أوصى بطرس الأكبر Peter the Great (١٦٨٢-١٧٢٥م) قيصر روسيا القياصرة الذين جاءوا من بعدهِ بالوصول إلى مياه المُحيط الهندي الدافئة، بعد أن استطاع بموجب معاهدة ١٧٢٣م، مع الدولة العثمانية، السيطرة على الأقاليم الفارسية المُجاورة لبحر قزوين. ينظر: نورس، علاء موسى كاظم، العراق في العهد العثماني.. دراسة في العلاقات السياسية (١٧٠٠-١٨٠٠م)، (بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٧٩م)، ص٩٦؛ ويذكر كرزن أنَّ إنشاء ميناء روسي على الخليج العربي هو حلم الوطنيين المتحمسين من أهل الفولكا (نهر مشهور يمر في موسكو)، لكن هذا الحلم سيكون عنصر اضطراب في الخليج العربي حتَّى في وقت السلم، وسيضر بتوازن القوى الذي فرضته بريطانيا بعد مجهودٍ شاق. للمزيد عن الموضوع، يُنظر: Gurson. G. N., Persia and the Persian, London: question ,١٨٩٢ ,٢.Vol ,٤٩.p.

الدولة (المسيحيين في شرق المتوسط). إنَّ هذهِ الدول الثلاث كما سنرى فيما بعد هي الدول التي شاركت في رسم قسمة أملاك العثمانيين، «رجلِ أوروبا المريض»[١] أثناء الحرب فيما عُرف باتفاقية (سايكس ـ بيكو)[٢].

المسألة الشرقية[٣]:

ركَّزت الدول الأوروبية عند النظر في مصير الدولة العثمانية، على ضرورة المُحافظة على توازن القوى، وعدم الإخلال بالتوازن الدولي في أوروبا. ولقد ترتَّب على محاولة الوصول إلى حلٍّ لمشكلة مصير الدولة العثمانية وأملاكها في القرن التاسع عشر، وحتَّى أوائل القرن العشرين، أنْ برز ما صار يُعرف باسم «المسألة الشرقية». وانبرى كثيرون لتعريف هذا المصطلح في ضوء المُحاولات التي هدفت للتوفيق بين مصالح الدول المُتضاربة على حساب الدولة العثمانية[٤]، وكان واضحًا أنَّ أكثر اهتمام الدول الأوربية كان موجَّهًا لتقرير الكيفية التي يمكن بها ملء الفراغ الذي ينجم من تقلّص الحكم العثماني في أوروبا (البلقان)[٥]، بيد أنَّ الدول الأوروبية تمكَّنت من

---

١. الرجل المريض: أسم أطلقه قيصر روسيا نيقولاي الأول Nicholas I (١٨٢٥-١٨٥٥م) على الدولة العثمانية سنة ١٨٥٣م بسبب ضعفها، ودعا بريطانيا إلى أنْ تشترك معه في اقتسام أملاك الدولة، ثمَّ شاع هذا الاسم بعد ذلك واستعملته الدول الأوربية الأخرى. للمزيد، يُنظر: الصلابي، محمد علي، الدولة العثمانية.. عوامل النهوض وأسباب السقوط، (القاهرة، ١٩٧٩م)، ص ص٢٢-٢٤.

٢. اتفاقية سايكس ـ بيكو((sykes-Picot Agreement): هي الاتفاقية التي وقعت في ١٦/أيار/١٩١٦م، بين بريطانيا وفرنسا وانضمت إليها روسيا، وبموجبها حصلت بريطانيا على العراق وفلسطين وحصلت فرنسا على سوريا، أمَّا روسيا فحصلت على ولايات أرضروم وطرابزون وبتليس وجزء كبير من شمالي كردستان يمتد إلى الحدود الفارسية. للمزيد، يُنظر: مصطفى، أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، (بيروت، ١٩٨٣م)، ص ص١٩٠-١٩٢.

٣. المسألة الشرقية: المقصود بها النزاع بين الدول الأوربية الكبرى في المدّة من أواخر القرن الثامن عشر حتَّى انتهاء الدولة العثمانية في ١٩٢٣م، وتمحور هذا النزاع حول الدولة العثمانية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها، وبعبارة أخرى هي مسألة وجود الدولة العثمانية نفسها في أوربا، وقد استخدم مصطلح المسألة الشرقية لأول مرة في مؤتمر فيرونا الذي عقده المحفل الأوربي سنة ١٨٢٢م. للمزيد، يُنظر: التكريتي، هاشم صالح، المسألة الشرقية.. المرحلة الأولى (١٧٧٤-١٨٥٦م)، (بغداد، بيت الحكمة، ١٩٩٠م)، ص٢١؛ حسين، فاضل وآخرون، التاريخ الأوربي الحديث (١٨١٥-١٨٣٩م)، (بغداد، ١٩٨٢م)، ص ص٥٢-٥٨.

٤. أنيس، محمد والسيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، (القاهرة، دار النهضة العربية، د.ت.)، ص١٩٩.

٥. حرب البلقان: في تشرين الأول من عام ١٩١٢م اشتعلت الحرب بين دول البلقان المتحالفة (بلغاريا والصرب واليونان) والدولة العثمانية، تمكَّنت خلالها دول البلقان من تحقيق انتصارات سريعة على الدولة العثمانية، واستطاعت الدول الكبرى من خلال مؤتمر لندن أنْ تضع حدًا لهذهِ الحرب في أيار من عام ١٩١٣م، وتحقيق السلام الذي اضطرت الدولة العثمانية بموجبهِ إلى التخلي عن جزيرة (غاليبولي) التي كانت تحت سيطرتها منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي. للتفاصيل، يُنظر: هـ. أ. ل. فِشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠م)، تعريب: أحمد نجيب هاشم وديع الضبع، ط٨، (القاهرة، ١٩٨٤م)، ص ص٤٥٣-٤٥٤.

إيجاد حلٍّ للمسألة الشرقية عن طريق مؤتمر برلين (١٨٧٨م)، إذ استطاعت تصفية القسم الأكبر من هذهِ المسألة باستقلال دول البلقان[١]، وهكذا يصح القول إنَّه أمكن تسوية المسألة الشرقية قبل قيام الحرب العالمية الأولى.

من الواضح أنَّ التسوية التي تمَّ الاتفاق عليها قد تركَّزت في أملاك تركيا في البلقان؛ ولذلك لم تفقد تركيا من أملاكها العربية سوى ليبيا، إذ بقيت الدولة العثمانية محتفظةً بسلطانها الفعلي أو بحقوق سيادتها أو بنفوذها الاسميّ على المنطقة العربية في الشرق الأوسط، حتَّى قيام الحرب العالمية الأولى[٢].

تجدّد البحث في مصير الدولة العثمانية وأملاكها التي بقيت لها بعد الحروب السابقة، منذ أنْ بدأت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م؛ وذلك لانضمام تركيا إلى جانب ألمانيا والنمسا ضدَّ دول الوفاق الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وروسيا) في هذهِ الحرب. ولذا فإنَّ كسب الحرب وهزيمة الدولة العثمانية كانا أمرين ضروريين لتحقيق هدف تجريد الدولة العثمانية من أملاكها وإنهاء نفوذها في الشرق الأوسط، قبل معالجة موضوع ملء الفراغ الذي نشأ في تلك المنطقة، ويبدو أنَّه على خلاف ما حدث عند تسوية المسألة الشرقية، لم تشأ دول الوفاق أنْ يملأ الفراغ المنتظر حدوثه وحدات سياسية ذات كيانٍ مستقل، كالدول التي أُسِّست في البلقان، بل أرادت إخضاع المنطقة إمَّا لسلطانها الفعلي، وإمَّا لنفوذها غير المباشر[٣].

وكانت مسألة التعجيل في هزيمة الأتراك وإخراجهم من الشرق الأوسط هي الشغل الشاغل لدول الوفاق ـ لا سيَّما بريطانيا ـ إذ رأت تلك الدول أنَّ الحلَّ يكمن في تحريض العرب في تلك المنطقة على الأتراك؛ لذلك حرّك الإنكليز بوساطة جواسيسهم ورجالهم في المنطقة ومنهم (لورانس)[٤]، القبائل العربية في الحجاز لإعلان الثورة، وسعوا لاستمالة الشريف حسين بن علي

١.م. ن، ص٢٠٠.

٢. مجموعة من الأساتذة العراقيين، العراق في التاريخ، (بغداد، مطبعة الثورة، ١٩٨٣م)، ص٦٣٣.

٣. م. ن، ص٦٣٤.

٤. توماس إدوارد لورنس Thomas Edward Laurence (١٨٨٨-١٩٣٥م): مغامر سياسي بريطاني، عَمِل في المخابرات التابعة للجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الأولى في مصر، ثمَّ انضم سنة ١٩١٦م إلى القوات العربية المُحاربة ضدَّ الدولة العثمانية بقيادة فيصل الأول، ألَّف كتبًا كثيرة، أهمها: أعمدة الحكمة السبعة. يُنظر: الكيالي، عبد الوهاب وكامل زهيري، الموسوعة السياسية، (بيروت، المؤسَّسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤م)، ص٤٦٣.

شريف مكّة[١] إلى جانبهم، ومساعدته في إعلان الثورة، بيد أنَّ مطامح الإنكليز كانت ترنو بشغفٍ ورغبةٍ كبيرين إلى منطقة وادي الرافدين[٢].

أكَّد السير مكماهون[٣] في رسائل عدَّة بعث بها إلى الشريف حسين، ضرورة قيام العرب بالثورة ضدَّ الأتراك، ووعد بمُساعدتهم في نيل الاستقلال، وجاء في بعضٍ من تلك الرسائل ما يلي: «أمَّا في خصوص ولايتي بغداد والبصرة، فإنَّ العرب تعترف أنَّ مركز بريطانيا العظمى الموطَّدة ومصالحها هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية، لا سيَّما لوقايةِ هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي، وزيادة خير سكَّانها، وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة»[٤]، وأكَّد السير مكماهون للشريف حسين: «أنَّ حكومة بريطانيا العظمى ـ كما سبقت فأخبرتكم ـ مستعدّةٌ لأنْ تعطي كلَّ الضمانات والمساعدات إلى المملكة العربية، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلَّب إدارةً وديةً ثابتةً كما رسمتم، على أنَّ صيانة هذهِ المصالح كما يجب تستلزم نظرًا أدق وأتم ممّا تسمح بهِ الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذهِ المفاوضات»[٥].

---

١. الشريف حسين بن علي (شريف مكَّة): هو الحسين بن علي بن مُحمَّد بن عبد المعين من آل عون، ولد في إستانبول عام ١٨٥٣م، ثمَّ انتقل مع أسرتهِ إلى مكَّة عام ١٨٥٥م عند إسناد منصب الشرافة لجدِّه، وفي عام ١٨٩٣م عيِّن عضوًا في مجلس شورى الدولة، وفي تشرين الثاني ١٩٠٨م عيِّن أميرًا لمكَّة وبقي على شرافتها إلى أنْ أُجبر على التنازل عن الملكية لابنه الكبير الشريف علي في أيلول ١٩٢٤م، ونُفي إلى جزيرة قبرص في حزيران ١٩٢٥م. توفي في ٤/حزيران/١٩٣١م. للمزيد، يُنظر: جار شلي، إسماعيل حقي أوزون، أمراء مكَّة المكرمة في العهد العثماني، ترجمة: خليل علي مراد، (البصرة، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٥م)، ص ص١٨٢-١٨٥.

2. P. Graves, The life of sir Persy Cox, London: 1941, p.182.

٣. سير هنري مكماهون Sir Henry McMahon: ولد في ٢٨/نوفمبر/١٨٦٢م في الهند. الممثل الأعلى لملك بريطانيا في الهند. عَمِل مديرًا في الهند، اشتهر بمراسلاتهِ مع شريف مكَّة الحسين بن علي بين عامي (١٩١٥-١٩١٦م) خلال الحرب العالمية الأولى. توفي في كانون الثاني من عام ١٩٤٩م في لندن. للمزيد، يُنظر:

The New Britannic Encyclopedia, London: 1973, vol.3, p.993.

٤. مذكرة السير مكماهون الثانية إلى الشريف حسين بن علي، القاهرة، ٢٤/تشرين أول/١٩١٥م: مقتبس من: العطية، م. ن، ص١٨٢.

٥. مذكرة السير مكماهون الثالثة إلى الشريف حسين بن علي، القاهرة، ١٣/كانون أول/١٩١٥. مقتبس من: العطية، م. ن، ص١٩١.

بريطانيا والاهتمام بالعراق:

يرجع تفكير بريطانيا في العراق إلى عهودٍ سابقةٍ طويلةٍ سبقت الحرب العالمية الأولى، فنظرًا لموقعهِ الجغرافي، ومركزه السوقي، وعلاقته الوثيقة بجنوب إيران وخليج البصرة، فإنَّه من غير الطبيعي أنْ تغفل عنه دولةٌ استعماريةٌ وتجاريةٌ كبرى كبريطانيا العظمى[١]، ولم يكن الاهتمام بسلامة المواصلات الإمبراطورية والمحافظة على طريق الهند (درَّة التاج البريطاني) الحافز الوحيد للتفكير والاهتمام بأرض ما بين النهرين[٢]، إذ كانت هناك أسبابٌ مهمةٌ أخرى لاهتمام بريطانيا بالعراق، منها:

١. إنَّ موقع العراق الإستراتيجي بين الشرق والغرب، كان عاملاً جوهريًا وأساسيًا في توجيه انتباه البريطانيين وتحديد مسارات تغلغلهم ونفوذهم فيه، وإنَّه قلب الشرق الأوسط، وخطورة موقعهِ هذا تُفسِّر جوانب من صراعهِ الطويل مع قوىً أجنبيةٍ عديدة[٣].

إنَّ لكلِّ دولةٍ من عالمنا هذا موقعٌ جغرافيّ له ميزاته الخاصّة، ولكن هناك دول لَعِبَ موقعها الجغرافي أخطر دورٍ في تاريخها، ومن هذهِ الدول (العراق)، فهو معبرٌ عالميّ بين الشرق والغرب، كما أنَّه قلب العالم الإسلامي، وفي الوقت نفسهِ يقع على الطرف القصي الشرقي للوطن العربي[٤]. ويقع العراق في موضعٍ يجعله طريقًا عالميًا، وفي الوقت نفسهِ مُلتقى لطرق العالم كلِّها، ولقد كانت هذهِ القطعة من الأرض تبدو بالنسبة إلى القطعان البشرية الجائعة خلال العصور، كنزاً للكثير من أولئك الذين كان يحرّكهم الشعر القائل «وطن الإنسان هو المكان الذي يجد رفاهه فيه»، فأين يمكن العثور على منطقةٍ مثل هذهِ، كبيرةً كانت أم صغيرةً، قد منحت العالم، أو أخذ منها العالم هذا الشيء الوفير»؟[٥].

وفي ظلِّ اشتداد التنافس الاستعماري الذي شَهِدته المنطقة في القرن التاسع عشر، تمكَّنت بريطانيا من تحقيق الأرجحية في العراق، حتَّى غدا يشغل حيزاً كبيرًا في تفكيرها الإستراتيجي.

إنَّ ثلاثة عقودٍ من القرن التاسع عشر (١٨٣٠-١٨٦٠م) كانت خطيرةً جدًا في تاريخ العراق،

---

١. البزّاز، عبد الرحمن، العراق من الاحتلال حتَّى الاستقلال، ط٣، (بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٧م)، ص٤٢.

٢. م. ن، ص٤٣.

٣. ويلسون، آرنولد تي.، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ترجمة: فؤاد جميل، ط٢، (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩١م)، (المقدمة)، ج١، ص(أ).

٤. نوار، عبد العزيز سلمان، المصالح البريطانية في أنهار العراق، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م)، ص٣.

٥. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، ترجمة: سليم طه التكريتي، (بغداد، المكتبة العالمية، ١٩٨٩م)، ج١، ص٧.

إذ تميَّزت بتضخم مصالح بريطانيا، وتعدّد مشاريعها واستقرار نفوذها في ربوعهِ، فقد كان الهدف الإستراتيجي البريطاني في تأمين السيطرة على خطوط المواصلات الدولية المؤدية إلى الهند، يعني الدفاع عن وجود الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس، والعراق عظيم الأهمية من وجهة نظر الدفاع عن هذهِ الإمبراطورية وحفظ مواصلاتها[١].

٢. كان الموقف السياسي في العراق أثناء القرن الثامن عشر، يساعد على تغلغل النفوذ البريطاني، فقد كان المماليك يحكمون العراق منذ العام ١٧٠٤م، وكان هؤلاء رغم تبعيتهم الاسميّة للسلطان العثماني، ينفردون بالحكم في العراق؛ ولذلك هم في حاجة إلى المُساعدة وتأييد دولةٍ كبرى ضدَّ أيَّ محاولةٍ من جانب السلطة العثمانية لإرجاع نفوذها المباشر في العراق، وفي الوقت نفسهِ ضدَّ محاولات فارس في بسط نفوذها على العراق، وقد نتج عن ذلك تقاربٌ بين ولاية بغداد والسلطات البريطانية في بومباي، فقد وافق ولاة بغداد على تطبيق قاعدة الامتيازات التي كانت تمنحها الدولة العثمانية للأوروبيين، كما أنَّ بغداد كانت في أشدِّ الحاجة إلى مساعدة بريطانيا لمواجهة الخطر الوهابي الذي ظهر في نجد، جنوب العراق[٢].

٣. الصراع الدولي، فقد شَهِدت منطقة الخليج العربي منذ بداية القرن السابع عشر صراعاتٍ دامية بين الدول المتنافسة، فكان الصراع البريطاني البرتغالي، ثمَّ الصِدام البريطاني الهولندي، وانتهت الأمور أخيرًا لصالح السيادة البريطانية في الخليج، ففي أواخر القرن الثامن عشر أصبحت لبريطانيا العظمى الأرجحية تجاريًا وسياسيًا[٣].

لكن التطوّر الخطير في سياسة بريطانيا وموقفها ليس تجاه الخليج العربي فحسب، بل تجاه وادي الرافدين ومنطقة الشرق الأوسط حدث مع بداية القرن التاسع عشر، وعند ذلك لم يعد إحراز الأرجحية في نظر بريطانيا مجرد أمرٍ مُحبَّذٍ أو مرغوبًا فيه، بل لا بدَّ منه لصيانة مصالحها، وهيبتها في هذهِ البقعة من العالم، ولقد كانَ العامل الأكبر في حدوث هذا التطوّر الخطير، ظهور منافسٍ

١. م. ن، ص٧.

٢. أنيس، م. ن، ص ص١٠٠-١٠٣.

٣. غازي، علي عفيفي علي، الصراع الأجنبي على العراق والجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، (بيروت، دار الرافدين، ٢٠١٥م)، ص ص١١-١٦.

عتيدٍ على مسرح الشرق، ذلك هو نابليون بونابرت[١] بقيامهِ بغزو مصر، واتضاح خطرهِ على الهند، فكان عصر نابليون هو العصر الذي أسَّس فيه النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط بصورةٍ جدية[٢].

وكان على العراق أنْ يتحمّل المزيد من عبء الصراع الدولي الذي أخذ أبعادًا أكثر تعقيدًا وخطورة، لا سيَّما مع التقارب التركي الألماني والأطماع الروسية في فارس والخليج العربي، ومعها دخلت المصالح الاستراتيجية البريطانية في العراق مرحلةً جديدة شَهِدت أوجهًا أخرى من التغلغل البريطاني، من خلال العديد من المنافذ والوسائل ومنها: خطوط السكَّك الحديد، والمواصلات التلغرافية، ومشاريع التنقيب الآثاري، ومؤسَّسات التبشير، والجاليات البريطانية، وتعدّد القنصليات، فضلاً عن زيادة عدد الشركات التجارية والمِلاحية البريطانية. وهذا يعني أنَّ أهمية العراق الاستراتيجية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم تزد إلاَّ قوةً وتأكيدًا، بل إنَّ العراق أصبح منطقة نفوذٍ بريطانيّةٍ فعلاً، لذلك عبَّر أحد الإنكليز المهتمين بالسياسة والتاريخ، قائلاً: «لم يكن ليغيب عن بال الجميع في العراق، أنَّ مستقبل بريطانيا العظمى في العراق سائرٌ إلى الأهمية لا محالة، وربما ليصبح شيئًا أعظم»[٣].

٤. العامل الاقتصادي، فقد كان العراق مصدرًا مهمًّا للموارد الاقتصادية والمواد الأولية التي تغذي الصناعة البريطانية، كما يُعدّ سوقًا مهمًّا لصناعتها وبضاعتها التي تحتاج إلى أسواق لتصريفها[٤].

ولقد قامت بعثات الخبراء البريطانيون وفي المقدمة منهم مهندسو الري بإرسال بعثةٍ فنيةٍ للقيام بمسح مشاريع الري القديمة في العراق، وتحديث التصاميم اللازمة لإحيائها، وإنَّ مهمة بعثة الري الفنية هذهِ التي استمرت زهاء سنتين، تمكَّنت من دراسة مختلف نواحي العراق وطبيعة أرضهِ وتضاريسهِ، وهي

١. نابليون الأول Napoleon Bonaparte: هو قائد عسكري وحاكم فرنسا وملك إيطاليا وإمبراطور الفرنسيين (١٧٦٩-١٨٢١م)، خاض معارك عديدة احتل بها نصف أوربا، وفي النهاية خرج مهزومًا على أيدي بريطانيا وحلفائها، للمزيد، يُنظر: سليمان، علي حيدر، تاريخ الحضارة الأوربية الحديثة، (بغداد، دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠م)، ص ص١٩٩-٢١٦.

٢. صالح، زكي، بريطانيا والعراق حتَّى عام ١٩١٤م، (بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٨م)، ص٥٧.

٣. لونكريك، ستيفنسن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط، ط٦، (بغداد، مكتبة اليقظة العربية، ١٩٨٥م)، ص٣٣٦.

4. Mohammed A. Tarbush, The Role of the military in politics,.. a case study of Iraq to 1941, Isted, London: 1983, p.31.

خطوةٌ مهمةٌ عززت فيها بريطانيا من نفوذها في العراق قبل نشوب الحرب العالمية الأولى[١].

وفضلاً عن النفوذ التجاري والاقتصادي المُتزايد فقد سعى البريطانيون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الكشف عن سُبُلٍ جديدة للتوغل في أرض ما بين النهرين، فأنشأوا مثلاً دوائر بريد بريطانيّة هنديّة في بغداد والبصرة، وكذلك كانت طريقًا لأسلاك البرق التي تصل الهند بإنكلترا، التي تربط الأسلاك البرية للخطّ التركي بأسلاك بحريةٍ تتصل عبرَ مدينة الفاو، كما وضعوا الخطط اللازمة لإنشاء خط سكَّة حديدية يمتد من بغداد إلى البصرة؛ لاستخدامها في المواصلات العسكرية والاقتصادية التي تخدم مصالح بريطانيا الحيوية داخل العراق وخارجهِ من خلال ربطهِ بالخليج العربي[٢].

إنَّ المصالح الاقتصادية كما هي الحال عَبرَ التاريخ، تجلب معها النفوذ السياسي والتدخّل الأجنبي، فقد تحول خليج البصرة إلى بحيرةٍ بريطانيةٍ هنديةٍ، الأمر الذي دفع بـ «اللورد كرزون» نائب الملك في الهند[٣] إلى القول بأنّ: «العلاقة بين بريطانيا والخليج قد انفصلت عن دفاتر التجارة إلى حقائب السَّاسة»[٤].

٥. الحرب العالمية الأولى، فهناك عوامل عدَّة ربطت دخول بريطانيا الحرب العالمية الأولى، بالعراق. ومن أبرز تلك العوامل ما يأتي:

أ. إنَّ العراق جزءٌ من الدولة العثمانية التي انضمّت إلى جانب ألمانيا والنمسا ضدَّ دول الوفاق

---

١. نظمي، وميض جمال عمر، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤م)، ص ص٤٠٠-٤٠١؛ البزاز، م. ن، ص٥٩.

٢. إبراهيم، عبد الفتاح، على طريق الهند، (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٤م)، ص٧٢؛

Zaki saleh, Mesopotamia (Iraq) (1900- 1914), Baghdad: 1957, Pp.153- 154.

٣. اللورد كيرزن Lord George Curzon (١٨٥٩-١٩٢٥م): سياسي بريطاني معروف، تولَّى مناصب إدارية وسياسية عديدة في حكومة الهند البريطانية حتَّى أصبح نائبًا للملك في الهند بين (١٨٩٩-١٩٠٥م)، ثمَّ أصبح عضوًا في مجلس اللوردات عام ١٩٠٨م، وظلَّ في هذا المنصب حتَّى وفاته. للتفاصيل، يُنظر:

The New Encyclopedia Britannic، vol.3, London: 1973, p.807.

٤. آيرلاند، فيليب، العراق.. دراسة في تطورهِ السياسي، ترجمة: جعفر الخياط، (بيروت، دار الكشَّاف للطباعة، ١٩٤٩م)، ص٣٧.

(بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية)، فمن الطبيعي أنْ تهاجم بريطانيا (العراق) بوصفهِ من أملاك الدولة العثمانية، فضلاً عن ميراث الموقع والثروات والخصائص الأخرى التي يمتلكها.

ب. النفط: حصلت بريطانيا بوساطة المهندس البريطاني (وليام دارسي)[١] في سنة ١٩٠١م، من مظفَّر الدين شاه[٢]على امتياز التنقيب عن النفط، واستخراجه في منطقة جنوب إيران لمدة ستين سنة، فتشكَّلت (شركة النفط الإنكليزية الفارسية)، لتتولَّى القيام باستثمار ينابيع النفط في الأراضي الإيرانية[٣]، ولمَّا نشبت الحرب العالمية الأولى، تبيَّن للجميع بأنَّ لا سبيل إلى النصر إلاَّ بتأمين إمدادات النفط، إذ أصبح النفط المحرّك الرئيس لماكنة الحرب، بيد أنَّ هناك من كان يعتقد أنَّ الدفاع عن مصالح شركة النفط البريطانية في إيران، هو الباعث إلى حملة العراق، مع أنَّ الحكومة البريطانية كانت تعتقد أنَّ النفط وحده لا يدعو إلى إرسال حملةٍ كحملة العراق، فثمَّة مصالح أخرى ذات أهمية بالغة وذات جذور تاريخية دعت إلى تلك الحملة، ولكن سرعان ما ازداد الأمر أهميةً بعد أنْ أصبح النفط المُجهَّز من حقول عبَّادان، العامل الأول في تحقيق أهداف الحرب، الأمر الذي جعل الشركة تُضاعف جهودها، فقد زاد إنتاج شركة النفط الإنكليزية الفارسية من (٢٧٠) ألف طن في عام ١٩١٤م، إلى (٩٠٠) ألف طن في نهاية الحرب[٤].

كانت بريطانيا تنظر إلى ولاية البصرة أثناء تلك الحِقبة، بوصفها جزءًا وثيق الصِلة بالقسم الجنوبي من إيران والخليج، فكثَّفت جهودها لتثبيت مركزها العسكري والسياسي والاقتصادي في البصرة وإيران والخليج، ولقد كانت البصرة وما يُحيط بها ذات أهميةٍ حيويةٍ للإنكليز، أمَّا القسم

١. وليم نوكس دارسي William N. Darcy (١٨٤٩-١٩١٧م): مهندس بريطاني هاجر إلى أستراليا، وعَمِل في مناجم الذهب فجمع ثروةً كبيرة، ثمَّ عاد إلى بريطانيا، وفي عام ١٩٠١م حصل على امتياز النفط على سواحل الخليج العربي في إيران، وبعد سنتين على منح الامتياز قام دارسي بتأسيس شركة لاستثمار النفط برأسمال مقداره (٦٠٠) ألف جنيه إسترليني، وحصل دارسي على أرباح كبيرة خلال أعماله في حقول النفط الإيرانية، وقدَّم بعدها طلبًا إلى الحكومة العثمانية للحصول على امتياز النفط العراقي. للتفاصيل، يُنظر: ميكائيل بروكس، النفط والسياسة الخارجية، ترجمة: غضبان السعد، (بغداد، ١٩٥١م)، ص٤٢؛

S. H. Longrrigg, Oil in the Middle East, London: Groom Hel, Mltd., 1968, Pp.17- 36.

٢. مظفَّر الدين شاه (١٨٥٣-١٩٠٧م): خامس ملوك أسرة آل قاجار، اختاره والده ناصر الدين شاه وليًا للعهد وهو في سنِّ الخامسة من عمرهِ، اتصف بالثقافة والتحدث بأكثر من لغة، كان ضعيف الشخصية ممّا أدّى إلى سيطرة حاشيته على مقاليد الحكم. للتفاصيل، يُنظر: المالكي، لازم لفته ذياب، إيران في عهد مظفَّر الدين شاه (١٨٩٦-١٩٠٧م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة البصرة، كلية الآداب، ١٩٧٩م، ص ص٣٩-٤٣.

٣. إبراهيم، م. ن، ص١٧٤.

٤. بولارد، ريد، بريطانيا والشرق الأوسط، ترجمة: حسن أحمد السلمان، (بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٦م)، ص٩٧.

الشمالي (بغداد والموصل) فلم يكن يمثّل الأهمية الاستراتيجية للإمبراطورية البريطانية، وكان هذا التقسيم واضحًا في أذهان البريطانيين منذ العام ١٨٩٨م، إذ إنَّ النصف الجنوبي من العراق يؤلِّف جزءًا من الخليج، وهو المنطقة «التي خلقت فيها الدبلوماسية البريطانية لمدة قرنين وضعًا فريدًا، تتداخل فيه المصالح الإنكليزية والمِلاحة البحرية، والطريق الإستراتيجي إلى الهند جميعًا»[١].

كتب لويد جورج[٢] رئيس وزراء بريطانيا في أواخر أيلول ١٩١٤م: «أصبح واضحًا أنَّ تركيا ستنضم إلى الدول العدو على الأرجح، وهذا الأمر جعل من المهم على الفور اتخاذ خطواتٍ للمحافظة على تجهيز النفط في الخليج والتي كانت مملوكةً لشركة النفط الإنكلو ـ فارسية، كوسيلةٍ لتأمين تجهيزات الوقود النفطي للبحرية»[٣].

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، تحرّكت قوةٌ عسكريةٌ بريطانيةٌ نحو جنوب البصرة، وفي ٦/ تشرين الثاني نزلت في الفاو، ثمَّ تقدّمت إلى البصرة فاحتلتها. ويمكن الاستنتاج بأنَّ الهدف البريطاني الأساس لم يكن احتلال كل العراق، بقدر ما كان ضمان المصالح البريطانية في الخليج وجنوب إيران، ولكن فيما بعد وللسهولة التي أحرزتها القوات البريطانية الهندية في احتلال البصرة وانسحاب القوات التركية شمالاً، واستثمارًا للفوز الذي حصل، ومع الواقع السياسي الجديد والتحالفات الناشئة، فقد اندفعت القوات البريطانية شمالاً حتَّى أكملت احتلال العراق مع نهاية الحرب[٤].

وكان من الواضح قبل الحرب العالمية الأولى أنَّ العراق قد أصبح من مناطق النفوذ البريطانية المهمة، فتعمَّقت مصالح بريطانيا في هذا الجزء من الدولة العثمانية وتشعَّبت، وكان منها وضع العراق الزراعي وأهميته كمجالٍ حيويّ لاستيطان عددٍ كبيرٍ من السكَّان الذين يفيضون عن قابلية

1. (40) Stephan H. Longrigg, Iraq 1900 to 1950: Apolitical, Social and Economic History, London: Oxford University Press, 1953, p.3

٢. ديفيد لويد جورج David Lioyd-George (١٧/كانون الثاني/١٨٦٣-٢٦/آذار/١٩٤٥م): سياسي بريطاني، عضو في مجلس العموم للمدة من (١٨٩٠-١٩٤٥م)، تولىَّ لأول مرة منصب وزير التجارة سنة ١٩٠٥م، ثمَّ وزيرًا للخزانة للمدة (١٩٠٨-١٩١٥م)، عُيِّن وزيرًا للحربية لبضعة أشهر سنة ١٩١٦م، حتَّى أصبح رئيسًا للوزارة، استقال من رئاسة الوزارة سنة ١٩٢٢م للاختلاف حول الميزانية. للمزيد، يُنظر:

The New Encyclopedia Britannica, op. ct.,Vol, V١., p.٢٨.

٣. نظمي، وميض جمال عمر، م. ن، ص٤٠١.

٤. حميدي، جعفر عباس، تاريخ العراق المعاصر (١٩١٤-١٩٦٨م)، (بغداد، دار عدنان للطباعة والنشر، ٢٠١٥م)، ص ص١٦-٢١.

الهند، وأيضًا أطماع بريطانيا الإقليمية في العراق ورغبتها في احتلال القسم الجنوبي منه على وجه الخصوص وربطهِ بالهند؛ ولذلك قامت بريطانيا بعد احتلال البصرة باتخاذ إجراءاتٍ على الأرض، لربط الجزء الجنوبي من العراق بنظام حكومة الهند البريطانية، وذلك باعتماد النُّظُم والقوانين الإدارية الهندية؛ لغرض ضمِّ جنوب العراق للهند تحقيقًا للسياسة التي أنتجتها المدرسة الهندية البريطانية من رجال الاستعمار البريطاني، التي كانت تُهيمن على دائرة نائب الملك في بومباي[1]؛ لذلك فإنَّ تلك السياسة قد تمَّ تثبيتها تمامًا مع بداية الحرب، ففي ٢٨/تشرين ثاني/١٩١٤م كتب ويلسون (الذي أصبح وكيل الحاكم البريطاني العام في العراق)[2]: «أود أن أُعلن أنَّه من الضروري ضم ما بين النهرين إلى الهند كمُستعمرةٍ للهند والهنود، بحيث تقوم حكومة الهند بإدارتها وزراعة سهولها الواسعة بالتدريج، وتوطين أجناس البنجاب المُحاربة فيها»[3].

لقد كانت سياسة ويلسون ومشروع ربط العراق بالهند، من أخطر المشاريع الاستعمارية البريطانية التي لو حالفها النجاح لغيرت مستقبل العراق والمنطقة بالكامل، ومن المعروف والمُسلَّم بهِ أنَّ ثورة ١٩٢٠م، في العراق كانت هي العامل الحاسم الذي أطاح بتلك السياسة وذلك المشروع.

المبحث الثاني: مشاريع بريطانيا في الاهتمام بولادة العراق المعاصر

اهتمت بريطانيا بتعزيز طموحاتها في بسطِ سيطرتها على بلاد وادي الرافدين، من خلال العديد من المشاريع والوسائل، منها:

مشروع سكَّة حديد بغداد:

يُعد مشروع سكَّة حديد بغداد، أحد أهم أسباب اهتمام بريطانيا بالعراق، فضلاً عن كونهِ أحد أهم الدوافع التي أدت إلى خوض غِمار الحرب العالمية الأولى.

كانت بريطانيا تنشد منذ أوائل القرن التاسع عشر طريقًا سهلاً قصيرًا إلى جوهرة إمبراطوريتها يومذاك (الهند)، وفي سنة ١٨٣٧م، أنفقت مالاً كثيرًا على مسح وادي الفرات لهذهِ الغاية، وحصلت

1. Gurson, Op., cit., p.49.

٢. آرنولد ويلسونArnold Talbot Wilson (١٨٨٤-١٩٤٠م): عسكري بريطاني، خدم في الهند ثمَّ في الأحواز، وقَدِمَ مع الحملة البريطانية على العراق عام ١٩١٤م، وعُيِّنَ وكيل الحاكم المدني في العراق منذ عام (١٩١٨-١٩٢٠م)، غادر العراق نهائيًا على إثر قيام انتفاضة ١٩٢٠م والنتائج التي ترتبت عليها. قُتل في معركةٍ جوية خلال الحرب العالمية الثانية في الأول من حزيران عام ١٩٤٠م. للمزيد، يُنظر:

Encyclopedia Britannica, Vol.15, p.312.

٣. نظمي، م. ن، ص٣٩٩.

من تركيا على امتياز مدِّ خط سكَّة حديدٍ تصل الإسكندرية على البحر المتوسط بالخليج العربي وكان ذلك سنة ١٨٥١م، إلاَّ أنَّ بريطانيا نبذت مشروع المِلاحة في الفرات سنة ١٨٧٦م، عندما استطاعت شراء ما قيمته (٤) أربعة ملايين باون من أسهم قناة السويس، ورأت أنَّ الإفادة من القناة أفضل من الاستفادة من مشروع مِلاحة وسكَّة حديد عَبرَ الفرات ووادِيه[١]، وقبل الحرب العالمية الأولى أخذت ألمانيا تفكر في مشروع سكَّة حديد تمتد من برلين فاستانبول فبغداد فالبصرة، وهذا شيءٍ أقلق مضاجع الساسة البريطانيين، وهم الذين كانوا يسعون جاهدين إلى الحفاظ على حياد تركيا وإبعاد النفوذ الألماني عنها، فلقد أراد الألمان من وراء سكَّة حديد برلين البصرة، التقرب من الهند وخلق المتاعب وإثارة القلاقل في أرجاء العالم الإسلامي، لخلخلةِ كيان الإمبراطورية البريطانية من جهة، وتهديد استثمار النفط، إذ تعمل شركة النفط الإنكليزية الفارسية منذ سنة ١٩٠٦م، في جنوب إيران وتمتد أنابيبها ومصافيها إلى عبَّادان على شطِّ العرب[٢]، هذا فضلاً عن الامتيازات الاقتصادية المُتحققة من مدِّ خط السكَّة، عن طريق الاستثمار (ومنها النفط) على جانبي امتداد الخط في منطقة بين النهرين.

لقد كان مشروع سكَّة حديد بغداد من أشدِّ مشكلات الاستعمار التي جابهتها الدول الأوربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تعقيدًا، ومن أقوى العوامل في سوق هذهِ الدول للانغمار في أتون الحرب الأولى، وكان أيضًا من أهمِّ الدوافع التي جعلت بريطانيا تقرر استعمار العراق، والسيطرة على المنطقة العربية لضمان سلامة أقصر طُرق المواصلات إلى الهند، وإبعاد التهديد الأوروبي عنها، فقد شكَّل هذا المشروع تنافسًا استعماريًا، وصراع قوى بين أهم الدول الفاعلة آنذاك على الساحة الأوروبية: بريطانيا وألمانيا وفرنسا وروسيا[٣].

لقد أثيرت في بريطانيا قضية إنشاء الطريق البري للوصول إلى الهند أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، بعد أن شرع الفرنسيون في فتح قناة السويس، فقد شعرت بريطانيا أنَّ إيجاد طريقٍ مختصرة كلِّيًا لفرنسا للوصول إلى الهند هو أمرٌ في غاية الخطورة بالنسبة لوجودها ومصالحها في تلك المنطقة من العالم، وهكذا أُثيرت في بريطانيا مسألة إنشاء الطريق البري نحو الهند، على أساس إقامتهِ كمنافس وبديل بريطاني لقناة السويس، بمدِّ سكَّة حديد من السويداء على خليج الإسكندرية

١. حافظ، طالب حسين، النفط والسياسة في العراق، (بغداد، دار الكتب العلمية، ٢٠١٧م)، ص٤٧.

٢. ويلسون، م. ن، ص١١.

٣. حافظ، م. ن، ص٤٧.

حتَّى قلعة جابر في أعالي الفرات، وكان الأمر معقودًا أن تكون هذهِ السكَّة حلقة وصل بين البحر المتوسط والطُّرُق النهرية في الفرات، وفي الوقت نفسهِ إمكانية مد السكَّة المذكورة نحو بغداد ومنها إلى البصرة[١].

وضمن تقرير اللجنة التي شكَّلتها الحكومة البريطانية في مجلس العموم البريطاني برئاسة السير نورثكوت لدراسة المشروع، وردت النقاط المهمة الآتية[٢]:

أولاً: إنَّ قضية موضوع بناء سكَّة حديد وادي الرافدين كما سمّتها اللجنة (TRANS MESOPOTMIAN RAIL WAY) هو أمرٌ في غاية الضرورة لبريطانيا ومصالحها الحيوية في المنطقة، وهو من الناحية الأخرى يؤمّن سرعة نقل البريد نحو الهند والخليج العربي، وله مزايا وفوائد اقتصادية مهمة لبريطانيا.

ثانيًا: إنَّ من الممكن استعمال السكَّة للأغراض الحربية الخاصّة بنقل القطعات والأسلحة والمؤن نحو الهند، ويمكن عدَّها حاجزًا لإيقاف أيّ توسّعٍ روسيّ تجاه الخليج العربي[٣].

وبما أنَّ المشروع كان موضوعًا للمنافسة والصراع الاستعماري، فقد تقدّمت روسيا القيصرية بعرضٍ لمدِّ سكَّة حديد من طرابلس على البحر المتوسط إلى الكويت على الخليج العربي عَبرَ الصحراء، على أن يُربط بالعراق بوساطة طريق فرعي يمتد نحو كربلاء[٤]. كما أنَّ فرنسا تبنَّت أيضًا إنشاء مشروع سكَّة حديد بغداد، الأمر الذي رأت فيه بريطانيا تهديدًا مباشرًا لمصالحها، فإنَّ ذلك إلى جانب حصَّة فرنسا الواسعة في قناة السويس يعني سيطرتها على الطريق البري نحو الهند، الأمر الذي يُشكِّل تهديدًا مباشرًا لمصالح وسياسة بريطانيا في الشرق الأوسط والهند[٥]. ولأسبابٍ عدَّة لم تلقَ كلَّ تلك المشاريع موافقة السلطان العثماني[٦].

---

١. بحري، لؤي، سكَّة حديد بغداد، (بغداد، شركة الطبع والنشر الأهلية، ١٩٦٧م)، ص ص١٠-١٢.

٢. حسين، علي ناصر، تاريخ السكك الحديدية في العراق (١٩١٤-١٩٤٥م)، (بغداد، ١٩٨٦م)، ص٢١؛

E. M. Earle, Turkey The Greet Power and The Baghdad Railway, A study in Imperialism, New York: 1966, p.135.

3. Zaki Saleh, Op. cit., p.154.

٤. حسين، م. ن، ص٢٢؛ Earle, Ibid., p ١٣٥.

٥. حسين، م. ن، ص٢٢.

٦-حري، م. ن، ص٢١.

وفي الجانب الألماني كان استلام القيصر وليام الثاني[١] الحكم عام ١٨٨٨م قد شكَّل تغييرًا جذريًا إزاء سياسة التحفظ الألمانية حيال الإمبراطورية العثمانية، تحت تأثير حاجة الاقتصاد الألماني لإيجاد أسواق جديدة في الشرق، ودخول ألمانيا مُعترك التنافس التجاري والسياسي مع الدول الرأسمالية الكبرى، إذ كان القيصر الألماني يُحبِّذ فكرة التوسع الألماني في الدولة العثمانية، ويرى في الأمر تقويةً للمراكز الألمانية في آسيا كلِّها[٢].

وفي سنة ١٨٩٨م، قام القيصر وليام الثاني برحلةٍ إلى بيت المقدس في فلسطين عَبرَ إستانبول، وكان لهذهِ الرحلة تأثيرٌ عميقٌ في نفس السلطان عبدِ الحميد[٣]، إذ كان الرأي العام الأوروبي ناقمًا عليه نقمةً شديدة من جراء مذابح الأرمن[٤] التي وقعت حوادثها قُبيل هذهِ الرحلة، على أنَّ المنافع الاقتصادية كانت هي الأصل في هذهِ الرحلة كما يتبيَّن من مذكرة الفون بولو وزير الخارجية الألماني، التي نوَّه فيها بالمنافع التي عادت بها الرحلة، فقال: «... وممّا يجب أنْ ننوه بهِ هنا ذكر تصميم إيصال سكَّة حديد الأناضول ببغداد، وهو ما نأمل أنْ نُحقِّق بهِ إكمال الفتح الاقتصادي في آسيا الصغرى»[٥].

---

١. ويليام الثاني William II (١٨٥٩-١٩٤١م): ملك بروسيا وإمبراطور ألمانيا، والدته ابنة الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا، سعى إلى تبنِّي سياسة النهج الجديد التي أكَّدت حق ألمانيا في زعامة العالم، تلك السياسة التي أثارت البريطانيين ضده، كان يُعاني من عقدة الشعور بالنقص بسبب عوق في يدهِ اليُسرى، وفي تشرين الثاني من عام ١٩١٨م تنازل عن العرش بعد أنْ انهزمت ألمانيا في الحرب، ونُفي خارج ألمانيا، وعاش في المنفى حتَّى وفاتهِ في عام ١٩٤١م. آلان بالمر، موسوعة التاريخ الحديث (١٧٨٩-١٩٤٥م)، (بغداد، دار المأمون للطباعة والترجمة والنشر، ١٩٩٢م)، ج٢، ص ص٣٩١-٣٩٢؛

Encyclopedia Americana, New York: 1968, Vol.28, p.779; Paul Kennedy Randon, The Rise and Fall of the Great Powers, U.S.A: 1987, p.25.

٢. بحري، م. ن، ص٢٢.

٣. السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨م): سلطان عثماني، حكم من (١٨٧٦-١٩٠٩م)، كان عهده طافحًا بالحروب، حكم البلاد حكمًا استبداديًا قاسيًا، أُكره على منح دستور للبلاد عام ١٩٠٨م، وفي عام ١٩٠٩م أجبرته حركة تركيا الفتاة على التنحي عن الحكم. وتوفي عام ١٩١٨م. يُنظر: علي، أورخان محمد، السلطان عبد الحميد الثاني وأحداث عصرهِ، (بغداد، مطبعة الخلود، ١٩٨٧م)، ص ص١-٣٧؛ والدي، عائشة عثمان أوغلي، السلطان عبد الحميد، ترجمة: صالح سعداوي صالح، (عمَّان، ١٩٩١م)، ص ص١١-٤٨.

٤. مرت القضية الأرمنية بثلاث مراحل تاريخية: حقبة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)، والاتحاديين الطورانيين (١٩٠٩-١٩١٩م)، وحقبة تركيا الكمالية (١٩١٩-١٩٢٣م). للمزيد عن القضية الأرمنية، يُنظر: اليافي، نعيم وخليل موسى، نضال العرب والأرمن ضدَّ الاستعمار العثماني، (اللاذقية، دار الحوار، ١٩٩٥م)، ص٢١.

٥. إبراهيم، م. ن، ص١٠٢.

ونتيجةً لهذا التقارب الألماني التركي، فاز الألمان في ٢٧/ تشرين الثاني/ ١٨٩٩م باستحصال موافقة السلطان العثماني المبدئية على منح البنك الألماني امتياز إنشاء سكَّة حديد تمتد من قونية إلى بغداد فالخليج، وبعد مرور ثلاث سنوات صدرت الإرادة السلطانية بمنح الامتياز نهائيًا إلى الألمان في العام ١٩٠٢م، وكانت الشركة الألمانية قد أكملت أثناء هذهِ المدة أعمال المسح ووضع الخرائط[١].

أعطي الامتياز النهائي لسكَّة حديد بغداد في ٥/آذار/١٩٠٢م، ونصّ الامتياز على موادّ عدَّة، يمكن إجمال أهمها في ما يأتي:

١. الحقّ لشركة سكَّة حديد الأناضول بتمديد الخط من قونية إلى بغداد والبصرة، عَبرَ أو عند أقرب نقطةٍ من قونية ونصيبين والموصل وتكريت وبغداد وكربلاء والنجف والزبير، مع إقامة فروع للخط إلى مناطق عدَّة، أهمها حلب وخانقين ونقطة على الخليج العربي يتفق بشأنها فيما بعد بين الحكومة التركية وأصحاب الامتياز. والمُلاحظ أنَّ نصّ الامتياز لم يُشر صراحةً إلى اسم الموقع الذي تمَّ الاتفاق عليه في الخليج العربي لتشييد فرع السكَّة إليه من الزبير، غير أنَّه من المعروف عمومًا أنَّ الكويت كانت هي تلك النقطة المُقترحة كي تكون نهاية سكَّة حديد بغداد.

٢. حدّدت مدة الامتياز بتسعة وتسعين عامًا.

٣. أعطيت الشركة الحق في استغلال كُلِّ المناجم التي يُعثر عليها لمسافة عشرين كيلو مترًا من جانبي الخط[٢].

لقد كانت إحدى النتائج المهمة التي أدّت إليها زيارة القيصر الألماني إلى تركيا والأراضي المقدسة، أنْ عجَّلت بريطانيا بالسعي للقيام بعددٍ من الإجراءات الهادفة إلى حماية خطوط مواصلاتها نحو الهند، إزاء تقدم ألماني مُحتمل في منطقة وادي الرافدين عن طريق تنفيذ سكَّة حديد بغداد، وقام اللورد كرزون نائب ملك بريطانيا في الهند باستمالة الشيخ مبارك شيخ الكويت[٣]،

١. م. ن، ص ص١١٣-١١٥.

٢. البحري، م. ن، ص ص٦٩-٧١.

٣. مبارك الصباح: الشيخ مبارك بن صباح الصباح، حاكم الكويت السابع والمؤسِّس الحقيقي لها، ولد عام ١٨٣٧م في الكويت، تولىَّ الحكم في ١٧/مايس/١٨٩٦م بعد أن قتل أخويه محمد وجراح، لُقِّب بمبارك الكبير، ازدهرت الكويت في عهدهِ تجاريًا، وشيَّد فيها أول المدارس النظامية والمستشفيات. توفي في ٢٨/نوفمبر/١٩١٥م. للمزيد، يُنظر: براي، ن.، مغامرات لجمن في العراق والجزيرة العربية، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، (بغداد، دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠م)، ص٤٢.

لعقد معاهدة حماية سرية بين بريطانيا والكويت في حزيران ١٨٩٩م، وفرضت المعاهدة المذكورة على شيخ الكويت عدم قبول أيّ ممثّلٍ لدولةٍ أجنبية في إمارتهِ دون الحصول على موافقةٍ مُسبقة من الحكومة البريطانية، كما منعته من رهن أيّ جزءٍ من أراضيه أو بيعه أو إيجاره دون الحصول على تلك الموافقة نفسها[١].

امتازت الحِقبة التي أعقبت إعطاء امتياز سكَّة حديد بغداد عام ١٩٠٢م وحتَّى إعلان الحرب العالمية الأولى بكونها حقبة المفاوضات والمناورات السياسية العنيفة بين الدول الأوروبية الكبرى لأجل التوصل إلى المُساهمة أو منع مساهمة الآخرين في مشروع السكَّة. لقد كادت تلك المفاوضات والمناورات التي كانت تسير صعودًا ونزولاً أنْ تعطي نتائج قائمةً على أساس تفاهم الأطراف المعنية لولا قيام الحرب العالمية الأولى. ولقد عدَّت المشكلات الدولية المتعلقة بسكَّة حديد بغداد من العناصر الرئيسة للخلافات الأوروبية التي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى[٢].

على أنَّ كلاًّ من بريطانيا وفرنسا وروسيا التي لها أطماعها ومصالحها في تلك المناطق، لم تنظر إلى المشروع بعين الرضا والقبول عندما شرع الألمان في مدِّ السكَّة، فبريطانيا مثلاً اشترطت وفق اتفاقية ١٥/حزيران/١٩١٤م مع ألمانيا، على أنْ تكون البصرة نهايةً للسكَّة مهما كانت الظروف، وكذلك عدم القيام ببناء ميناء أو محطَّة للسكك الحديد على الخليج العربي، على أنَّ الدبلوماسية الألمانية لم تألُ جهدًا في محاولةِ إنهاء معارضة الدول الكبرى لمشروع السكَّة ووضع حدٍّ لتلك المعارضة، ولكنها لم تتمتع بمتَّسع من الوقت لجني ثمار جهدها الدبلوماسي وتحقيق حلمها بربط برلين ببغداد، ينقل الوجود الألماني إلى أبواب الهند والشرق، فما أنْ كادت تصل إلى الاتفاق مع أكبر منافسيها وهي بريطانيا حتَّى اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى.

وبقيام الحرب العالمية الأولى انهار مشروع سكَّة حديد بغداد الذي تمَّت المباشرة بهِ توًا، وتحولت الأنظار الأوروبية واهتمامها نحو الصراع الحربي الدائر[٣].

---

١. البحري، م. ن، ص ص٥١-٥٢.

٢. م. ن، ص٥٢.

٣. فوستر، هنري، م. ن، ج١، ص ص٥٩-٦٥.

المِلاحة النهرية في العراق:

كان القرن السادس عشر قرن الانطلاق عَبرَ المُحيطات للاستكشافات والاستعمار، وتزعمت هذه الحركة الكبرى كلٌّ من إسبانيا والبرتغال، فكانت الضربة التي وجَّهتها البرتغال للتجارة العربية في مياه المُحيط الهندي والخليج العربي حاسمةً ومروعة، وفشلت مجهودات مماليك مصر ثمَّ سلاطين الدولة العثمانية في إعادة السيطرة الإسلامية على المياه الجنوبية.

وكانت إنكلترا في القرن السادس عشر تسعى إلى الحصول على شيءٍ من ثروات التجارة البحرية، فقد كان الأسطول الإسباني البرتغالي حتَّى الثلث الثاني من القرن السادس عشر هو المتحكم في البحار والمُحيطات، لكن البحرية البريطانية استطاعت أنْ تكسر قوة ذلك الأسطول في عام ١٥٨٨م، عندما انتصرت على الأرمادا الإسبانية (The Spanish Armada)، وبذلك أصبحت الطُّرق البحرية إلى المُحيط الهندي مفتوحةً أمام السفن البريطانية، إذ أسَّست شركة الهند الشرقية البريطانية[١] في عام ١٦٠٠م، وبعد أنْ تمَّ طرد البرتغاليين من هرمز في العام ١٦٢٢م، انفتح الخليج العربي أمام السفن الإنكليزية الذاهبة إلى البصرة، وبذلك أصبحت البصرة واحدةً من أهمِّ مراكز التبادل التجاري مع شركة الهند الشرقية[٢].

ونظرًا لاتساع نطاق العلاقات السياسية والاقتصادية بين بريطانيا والدولة العثمانية، فقد دارت مفاوضاتٌ بين الدولتين، انتهت بعقد معاهدة ١٦٧٥م التي وضعت أُسس امتيازات المصالح البريطانية في العراق وتوطيدها بصفةٍ عامة وفي نهري دجلة والفرات بصفةٍ خاصة، فقد تضمَّنت معاهدة عام ١٦٧٥م امتيازاتٍ عدَّة فيما يخص المِلاحة النهرية[٣].

---

١. شركة الهند الشرقية الإنكليزيةThe English East India Company: شركة تجارية أُسِّست للمتاجرة مع الشرق في ٣١/ كانون الأول/١٦٠٠م، وكان هدفها استيراد البضائع الشرقية مقابل تصدير البضائع الإنكليزية. للاستزادة عن شركة الهند الشرقية، يُنظر: محمد أمين، عبد الأمير، «التنافس بين الشركات التجارية الإنكليزية في منطقة الخليج العربي والأقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر»، مجلَّة كلية الآداب، (مجلَّة)، بغداد، ع٤٨، ١٩٦٣م؛

Bennett, Thomas Jewell, «the past and Present Connection of England with the PERSIAN Gulf», Journal of the Society of Arts, London: June, 13, 1902, Pp.634- 652.

٢. نوار، م. ن، صص٢٣-٢٤.

٣. تضمَّنت المعاهدة ما يلي: حق مجيء الإنكليز إلى أراضي السلطان العثماني للتجارة بسفنهم الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، وأنْ يقوموا بالشراء والبيع. أنْ تُعامل إنكلترا معاملة الدولة الأكثر رعاية. للمزيد، يُنظر:

J. Hurewit, Diplomacy in the Near and Middle East, London: 1958, Vol.I. Pp.25- 32.

لقد تضافرت عوامل عدَّة وراء اهتمام بريطانيا بالمِلاحة النهرية في العراق، ومن بين أهم تلك العوامل:

١. كان أمر حماية الهند وتقريب المسافة بينها وبين لندن، من أهمِّ الدوافع في اهتمام إنكلترا بوادي الرافدين؛ فقد قام الإنكليز بمحاولاتٍ كثيرة لتمهيد طرق المِلاحة في الفرات ومدِّ السكك الحديد بين البحر المتوسط وسواحل الخليج.

٢. قيام نابليون بونابرت بغزو مصر.

٣. الخوف من نشوء دولةٍ قويةٍ في مصر تقف في وجه الأطماع البريطانية، ولذلك فقد قاومت بريطانيا مُحمَّد علي باشا[١] لمَّا أرادَ أنْ يوحِّد سورية ومصر ويؤسِّس دولةً حديثةً قد تمتَّد إلى العراق وتوحّد منطقة الشرق العربي.

٤. المباشرة بإنشاء قناة السويس تحت رعايةٍ فرنسية.

٥. مقاومة توسّع النفوذ الروسي في الدولة العثمانية وأطماعها في الخليج، فإذا قبضت روسيا على الفرات سهل اجتياح سوريا والساحل الشرقي للبحر المتوسط وآسيا الصغرى[٢].

لقد تداخلت أهمية المِلاحة في وادي الفرات مع سكَّة الحديد، إذ إنَّه مهما يكن لقناة السويس من الأهمية لأوروبا، فإنَّه يمكن غلقها بسهولة، وإنَّها بمنزلةٍ ثانويةٍ لسكَّة حديد وادي الفرات التي يمكن أنْ توفّر الميزات الآتية:

١. تهيئة السبيل لمنع روسيا من التقدّم في آسيا الصغرى.

٢. ربط البحر المتوسط بالخليج، ولذلك أهميّةٌ كبرى من الوجهتين السياسية والتجارية.

٣. تقصير المسافة بين الهند وإنكلترا ألف ميل، وتقليل المدَّة اللازمة لقطعها من عشرين يومًا إلى عشرة أيام.

---

١. محمد علي باشا (١٧٦٩-١٨٤٩م): ضابط عثماني ألباني الأصل، ولد في مدينة قولة الألبانية، جاء مع الفرقة الألبانية التي أرسلتها الحكومة العثمانية بهدف إخراج الغزاة الفرنسيين الذين سيطروا على مصر عام ١٧٩٨م، وبسبب ذكاء هذا الضابط وبمساعدة الظروف له استطاع أنْ يكون واليًا على مصر وأنْ يُثبِّت مركزه، وكان الشخصية الأكثر شهرةً في تاريخ مصر، إلَّا أنَّ الدول الأوربية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا أوقفت طموحاته في معاهدة لندن عام ١٨٤٠م. توفيِّ عام ١٨٤٩. للمزيد، يُنظر: شبارو، عصام محمد، المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني، (بيروت، دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٢م)، ص ص١٠٠-١٠٢.

٢. حافظ، م. ن، ص٥٣.

٤. مضاعفة قوة إنكلترا الحربية، وجعل آسيا الصغرى وسوريا والعراق وإيران مناطق نفوذ لها، كما أنَّ سيطرة إنكلترا عليه أمرٌ متيسّرٌ إذ يسيطر أسطولها على طرفيه في البحر المتوسط والخليج[١].

وابتداءً من سنة ١٧٢٨م أصبح للإنكليز قوارب في نهر دجلة تُبحر بين بغداد والبصرة، وتطور النشاط البريطاني خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فقد بدأ الإنكليز باستخدام قوتهم البحرية ضدَّ هجمات العشائر، وضدَّ حكَّام العراق إذا ما اتخذوا موقفًا معاديًا للأطماع البريطانية، وضدَّ إيران إذا تعرّضت المصالح البريطانية في البصرة للخطر[٢]، وفي أعقاب نزول الحملة الفرنسية إلى السواحل المصرية في العام ١٧٩٨م، تمَّ إرسال سفينةٍ حربيةٍ بريطانيةٍ لحماية المُقيمية البريطانية في بغداد، واستمرّت هذهِ السفينة مع جنودها مُرابطةً في بغداد رغم فشل الحملة الفرنسية وانسحابها من مصر، وقد كانت المدة التي حكم فيها علي رضا[٣] قائدًا للجيش العثماني الذي بعثه السلطان محمود الثاني[٤]، ليضع نهايةً لحكم المماليك في العراق والتي امتدّت من (١٨٣١-١٨٤١م)، هي الحقبة التي وضع فيها الإنكليز أُسس حقوقهم في المياه العراقية، بعد أنْ قام خبراؤهم وابتداءً من سنة ١٨٣٠م بدراسة نهري دجلة والفرات ومسحهما[٥].

لقد تكلَّلت أعمال المسح النهري بتأسيس شركة مِلاحة غالبًا ما تُعرف بشركة «بيت لنج»[٦] وتُعرف رسميًا بـ «شركة المِلاحة البخارية في دجلة والفرات» التي أُسِّست في سنة ١٨٦٠م، والتي

1-Sir A. T. Wilson, Loyalties, Mesopotamia (1914- 1917), London: 1930, p.102.

٢. صالح، م. ن، ص٢٨.

٣. علي رضا اللاظ: ولد في طرابزون الواقعة على البحر الأسود عام ١٧٧٩م، اتصف بالشدة ضدَّ المماليك حيث ذبح منهم نحو مائتي مملوك ومن بينهم ابن داوود باشا، إلاَّ أنَّه أحسن معاملة داوود باشا، إذ حافظ على حياتهِ وجعله يرحل إلى أسطنبول بسلام. كما اتصف بميلهِ إلى الطرق الصوفية، ومنها البكتاشية. توفيِّ في إسطنبول عام ١٨٤٦م. للمزيد، يُنظر: العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، (بغداد، ١٩٥٥م)، ج٧، ص١٩؛ همسلي، م. ن، ص٣٢٢.

٤. محمود الثاني (١٧٨٤-١٨٩٣م): سلطان عثماني من (١٨٠٨-١٨٣٩م)، أُجلس على العرش بعد خلع أخيه مصطفى، تابع ما بدأه السلطان سليم الثالث من إصلاحات، استمرت في عهدهِ الحرب البروسية ـ العثمانية (١٨٠٦-١٨١٢م) والتي فقدت فيها السلطنة بساربيا، وعوضتها باسترجاع صربيا سنة ١٨١٣م، قضى على ثورة اليونان بمساعدة مُحمَّد علي باشا، وقد غزا في عهدهِ محمد علي فلسطين وسوريا والأناضول (١٨٣٣-١٨٣٩م). للمزيد، يُنظر: غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، (بيروت، دار الفكر، ١٩٧٤م)، ص١٦٣٣.

٥. م. ن، ص٣٣.

٦. تحولت مؤسَّسة (لينش) إلى شركةٍ للمِلاحة البخارية في أنهار العراق عام ١٨٦١م، تحت مُسمَّى (شركة السادة لينش للمِلاحة البخارية في نهري دجلة والفرات)Messrs Lynch of the Euphrates and Tigris steam Navigation Company«، وظلَّت قائمةً حتَّى تمَّت تصفيتها عام ١٩٥١م. للمزيد، يُنظر: نوار، م. ن، ص٣٩٨.

كانت تُسيِّر باخرتين تجاريتين في دجلة، لقد اتَّسع نطاق أعمال الشركة وتعاظمت أهميتها أثناء الربع الأخير من القرن التاسع عشر؛ نظرًا لزيادة النفوذ البريطاني، إذ إنَّ الشركة اعتمدت أثناء الحِقبة التي سبقت الحرب العالمية الأولى على حماية الحكومة البريطانية.

حظيت أعمال شركة لنج بأعلى اهتمام من قبل الحكومة البريطانية؛ لأنَّ المصالح السياسية تتطلَّب توطيد المصالح التجارية، فهذا لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني يكتب في ١٨/كانون أول/١٩٠٦م، قائلاً: «إنَّ من الحكمة، جراء كون نهر دجلة هو أحد خطوط المواصلات المهمة إلى الخليج الفارسي والهند، أن نحذر لئلاّ يخرج النهر من قبضتنا، ثمَّ إنَّ مركزنا الممتاز في النهر يغدو الآن أكثر قيمةً جراء اقتراب سكَّة حديد بغداد، وجراء احتمال أنْ تكون المِلاحة هي وسيلة النقل الوحيدة ورأس السكَّة في بغداد والبصرة[١]، وقد منحت الحكومة التركية، تحت الضغط البريطاني المُستمر، الإذن المطلوب لشركة لنج في العام ١٩٠٧م لتشغيل باخرة ثالثة في دجلة[٢].

ولادة العراق المعاصر

رأينا من خلال ما سبق أنَّ السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، قد اهتدت تقليديًا بالضرورة السياسية والنزعة النفعية، وكانت كُلٌّ من فرنسا وروسيا القيصرية وألمانيا تُحيط بالمصالح البريطانية، لاسيَّما منذ مغامرة نابليون في مصر. لقد حثَّ الوهن السياسي والاجتماعي والاقتصادي للرجل المريض (الدولة العثمانية) على التنافس بين القوى العظمى، كما مهَّد ذهاب تركيا إلى المعسكر الألماني، والحاجة إلى الإبقاء على روسيا حليفةً لبريطانيا في أي حربٍ أوروبية، مهَّد إلى ابتعاد السياسة البريطانية عن نهجها المُعلن في الحفاظ على إعلان وحدة تركيا، فقد ألزمت الحرب بريطانيا باتباع سياسة تفكيك النظام السياسي العثماني، وكان هذا التوجه قد حظي بترحاب أنصار «الإمبريالية الجديدة» (New Imperialism) التي بلغت ذروتها في حكومة لويد جورج (David Lloyd George) (١٨٦٣-١٩٤٥م)[٣].

لقد ظهرت المرحلة الأولى في نيل أهداف إمبريالية عزيزة على «الإمبرياليين الجُدد» عندما نزلت قوات الاستطلاع الهندي في الفاو على الخليج العربي في ٦/تشرين الثاني/ ١٩١٤م، فقبل ذلك لم تكن بريطانيا قادرةً على الانتفاع من كونها أقوى دولة في المنطقة، كما كان يتوجَّب على

١. العطية، العراق.. نشأة الدولة، ص١٠٥.

٢. م. ن، ص١٠٥.

٣. نعمة، كاظم، الملك فيصل الأول، (بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٨م)، ص١٠.

رجال السياسة البريطانيين والإستراتيجيين تعزيز الحلقات الواهنة في سلسلةِ الدفاع عن الهند، ولقد أطلق احتلال القوات البريطانية للبصرة البوابة الاستراتيجية للعراق، الطموحات الأسيرة لدُعاة الضم في الهند ودار الحكومة البريطانية، فلقد أبرق السير برسي كوكس بعد احتلال البصرة بأنَّه من الصعوبة بمكان «تغاضي أخذ بغداد»[١].

أثارت النجاحات المُبكِّرة في احتلال البصرة جدلاً سياسيًا عسكريًا بريطانيًا بشأن القضية الكبرى في ماهيَّة المصالح الأساسية البريطانية في العراق، وكيف يمكن بلوغها والذود عنها، فحاجج «الإمبرياليون الجُدد» بأنَّ على بريطانيا أنْ تبسط مجال نفوذها على العراق كافَّة، وإلاَّ فإنَّ القوى المنافسة الأخرى ستتحرك، فالعراق لا يمكن الدفاع عنه بالاحتفاظ بالمنطقة الجنوبية وحسب، لذا لا بدَّ من بلوغ الحدِّ الأقصى من الحدود الطبيعية[٢]، وقد كانت (وزارة الهند) من أولى الدوائر التي حاولت وضع سياسة خاصة بالعراق، فكتب السير آرثر هرتزل السكرتير السياسي في الوزارة المذكورة مذكرةً مفصّلةً بتاريخ ١٤/آذار/١٩١٥م عن مستقبل بلاد ما بين النهرين، فاستنادًا إلى نظرية الري في نشوء الدول ووحدتها، كتب يقول: «إنَّ الدولة التي تعتزم أنْ تطور ولاية البصرة يجب أنْ تكون هي الدولة التي تطور ولاية بغداد، وأنْ تكون كذلك هي الدولة التي تُسيطر على المجاري العليا للأنهار حتَّى الموصل والرقَّة». وهو يطمح من ذلك إلى أنَّ مشاريع الري ستُتيح فرصةً طيبة لهجرة الهنود إلى العراق لحاجتهِ إلى العمَّال من جهة، وكذلك لأسبابٍ أخرى أيضًا، منها إنشاء مستوطنة هندية في العراق[٣].

وفي خضمِّ هذا الجدل تقرّر التقدّم نحو بغداد واحتلالها؛ لأنَّ ذلك سيؤمن أهداف بريطانيا في العراق، بضمِّ البصرة وبغداد والجزء الأكبر من الموصل، وإنَّ احتلال بغداد سيرفع السُّمعة البريطانية في الشرق الأوسط، وسيقطع خطوط المواصلات الألمانية مع إيران، ويؤمِّن الدفاع عن حقول النفط، وأخيرًا وليس آخرًا فإنَّ بغداد «كوكب جذّاب» واسمٌ رومانسي قد يُثير مخيلة البريطانيين، إذ كانت بغداد هي الجائزة المتلألئة التي تتجه إليها جميع الأنظار[٤]. وهكذا ففي ١١/ آذار/١٩١٧م، احتلت القوات البريطانية بغداد، ثمَّ جرى احتلال مدينة الموصل بتاريخ ٨/تشرين

1. P. Graves, The Life of sir Persy Cox, London: 1941, p.182.

٢. نعمة، م. ن، ص١٢.

٣. العطية، م. ن، ص ص١٧٤-١٧٥.

٤. م. ن، ص٢٠٠.

الثاني/١٩١٨م وذلك بعد ثمانية أيام فقط من عقد الهدنة مع تركيا، وبذلك انتهت الحرب العالمية الأولى والولايات الثلاث جميعها، البصرة وبغداد والموصل تحت السيطرة البريطانية.

اتفاقية سايكس بيكو

لمَّا دخلت تركيا الحرب، بدأت الرغبات الاستعمارية الحبيسة تتحسَّس طريقها نحو التجسد، فأرادت روسيا أخذ القسطنطينية والمضايق، وطالبت فرنسا بسوريا، وبدأت إنكلترا تحس بحاجتها إلى طريق برية إلى الشرق، وتودّ أيّ شيءٍ آخر ضروري يمكن أنْ يشل أثر المطامح الفرنسية والروسية، كما أنَّ حكومة الهند كانت تصوب أطماعها بقوة نحو العراق، فافتتح باب المفاوضات في أوائل العام ١٩١٥م وأُبرمت بين تلك الدول سلسلةً من المُعاهدات السرية لاستقطاع أراضي الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب، فيما كانت بريطانيا في الوقت نفسهِ تعقد عهودًا جديدة تُناقض عهودها التي أعطتها للعرب بواسطة السير «مكماهون» في سنة ١٩١٦م، وكانت أولى تلك المعاهدات هي اتفاقية سايكس بيكو (Picot Agreement ـ The Sykes)، وقد عقدت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية في ربيع ١٩١٦م، فلم يكد السير مكماهون يُنجز صفقته مع الشريف حسين، حتَّى بدأت وزارة الخارجية البريطانية مباحثاتٍ في لندن مع الحكومة الفرنسية، هدفها الوصول إلى تدبيرٍ ما، بحيث يمكن التوفيق بين ما تدَّعيه فرنسا من حقٍّ في بلاد الشام وما تعهدت بهِ بريطانيا للعرب. ولأسبابٍ مختلفة آثرت وزارة الخارجية البريطانية أنْ تُخفي عن فرنسا شروط الاتفاق الذي عقدته مع الشريف حسين[1]. وكان المندوب الفرنسي هو المسيو جورج بيكو (François Marie Denis Georges-Picot) (١٨٧٠-١٩٥١م)، أمَّا زميله الإنكليزي فهو السير مارك سايكس (Sir Tatton Benvenuto Mark Sykes) (١٨٧٩-١٩١٩م)، ورسم المندوبان مشروعًا لاحتياز تلك الأجزاء التي ترغب كل من بريطانيا وفرنسا أخذها من الإمبراطورية العثمانية، ثمَّ توجها بعد ذلك إلى بطرسبرغ لبحث مقترحاتهما مع الحكومة الروسية، وابتدأت المفاوضات في آذار ١٩١٦م ونتج

١. أنطونيوس، جورج، يقظة العرب.. تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ط٦، (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٠م)، ص ص٣٤٨-٣٤٩. إنَّ من أهم الأسباب التي دعت وزارة الخارجية البريطانية إلى إخفاء شروط الاتفاق الذي عقدته مع الشريف حسين، يعود لخشيتها من تعارض الاتفاق مع ما تريده فرنسا، فضلاً عن عدم رغبتها في الإيفاء بتعهداتها للشريف حسين وخوفها من تحالف الأخير مع فرنسا فيما لو كشفت الأخيرة سر ما تُضمره بريطانيا، ناهيك عن إحساس بريطانيا بحاجتها إلى طريق برية إلى الشرق ورغبتها في عمل أي شيء ضروري يمكن أنْ يشل أثر المكاسب الفرنسية والروسية من اتفاقية سايكس ـ بيكو، إضافةً إلى أنَّ حكومة بريطانيا وعدت الشريف حسين بتنصيب ولده فيصل ملكًا على سوريا دون أن تُعلم حليفتها فرنسا بذلك، وكانت مخاوف حكومة بريطانيا في محلها، إذ أخرج الفرنسيون فيصلاً من سوريا بعد احتلالهم لها في معركة ميسلون آذار ١٩٢٠م.

عنها تفاهمٌ ثلاثيّ، تبلورت عنه مسودات التفاهم رسميًا في نيسان وأيار من تلك السنة[١].

وفيما يخص دراستنا فقد احتفظت فرنسا لنفسها بالقسم الأعظم من سوريا، وبحصَّةٍ غير صغيرة من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل، أمَّا حصَّة بريطانيا فكانت تتألَّف من شريطٍ يمتد من أقصى جنوب سوريا عِبرَ العراق ليشمل بغداد والبصرة وكلَّ المنطقة الواقعة بين الخليج العربي والمنطقة المُخصَّصة لفرنسا، وأيضًا مينائي حيفا وعكَّا في فلسطين مع قطعةٍ صغيرة من المنطقة الداخلية، وهناك مناطق أخرى تضمّ منطقةً من فلسطين لتكون تحت حُكمٍ دولي خاص[٢]. إلاَّ أنَّ انتصار الثورة البلشفية في روسيا نهاية العام ١٩١٧م، وقيام السلطة الجديدة فيها بنشر بعض الوثائق السرية الموضوعة في محفوظات وزارة الخارجية القيصرية ومن بينها نصوص اتفاقية سنة ١٩١٦م، أدى إلى فضح اتفاقية سايكس بيكو وانسحاب روسيا منها[٣].

وفي كانون الأول ١٩١٨م حاول كليمنصو[٤] رئيس وزراء فرنسا أنْ يُقنع لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا الاعتراف باتفاقية سايكس بيكو من جديد، ولكن لويد جورج طالب بتعديل الاتفاقية فيما يخص ولاية الموصل وفلسطين، ومن ثمَّ وافق كليمنصو على نقل ولاية الموصل إلى منطقة النفوذ البريطاني على شروط، منها أنْ تنال فرنسا حصَّةً من نفط الموصل[٥]. بيد أنَّ الحلفاء اتفقوا في أثناء مؤتمر الصُّلح في باريس، على توزيع الانتدابات، وقد أعطيت بريطانيا الانتداب على

---

١. وقعت الاتفاقية بين مندوب الحكومة البريطانية مارك سايكس Mark Sykes ومندوب الحكومة الفرنسية شارل فرانسو بيكو Charles Franceis Picot، سنة ١٩١٦م، لذا عُرفت بهذا الاسم ووضعت ولايتي البصرة وبغداد تحت الوصاية البريطانية، أمَّا ولاية الموصل فقد وضعت تحت الولاية الفرنسية. يُنظر: البراوي، راشد، البترول في الشرق الأوسط، (القاهرة، مطبعة دار العرب، ١٩٥٥م)، ج٤، ص ص١٢١-١٢٢.

٢. أنطونيوس، يقظة العرب، ص ص٣٤٨-٣٤٩.

٣. م. ن، ص٤٣٨.

٤. جورج كليمنصو George Clemencea (١٨٤١-١٩٢٩م): من أبرز السياسيين الفرنسيين، رأس الوزارة مرتين (١٩٠٦-١٩٠٩م) و (١٩١٧-١٩١٩م)، انتُخب عضوًا في مجلس النواب عام (١٨٧٦-١٨٩٣م)، وفي مجلس الشيوخ عام ١٩٠٢م، وفي عام ١٩٠٦م أصبح رئيسًا للوزارة ووزيرًا للداخلية، وفي تشرين الثاني ١٩١٧م أصبح رئيسًا للوزراء مرةً ثانية، وأقام حكومةً ائتلافية (حكومة الاتحاد المقدس)، واصلت الحرب حتَّى إحراز النصر، عدّ كليمنصو معاهدة فرساي غير كافية لضمان سلامة فرنسا. للمزيد، يُنظر: بالمر، آلان، م. ن، ج١، ص١٩٠.

٥. حافظ، م. ن، ص٦٠.

العراق وفلسطين، وأعلنت هذهِ القرارات في ٢٦/شباط/١٩٢٠م، إذ كان المفروض أنَّ الانتداب قد وجد كحلٍّ وسطٍ بين سياسة الاستعمار القديمة ووعود الحلفاء في أثناء الحرب، وذلك وفقًا للمادة الثانية والعشرين من ميثاق عُصبة الأمم[١].

لقد كانت الحرب العالمية الأولى نهاية قصَّة طال أمدها وتشعَّبت فصولها، وبداية مرحلة جديدة في تاريخ البلاد التي أصبحت تُعرف بالمملكة العراقية، ثمَّ استمرت العلاقات البريطانية العراقية تجري بواسطة أجهزة وأساليب جديدة وفي ظروفٍ تختلف جوهريًا عن كلِّ ما سبق، غير أنَّ الاستراتيجية بقيت على حالها من حيث الباعث والهدف وغموض المصير، وفي ظلِّ آمالٍ ووعودٍ وشكوك غدا العراق تحت الانتداب البريطاني، وبقيام ثورة العشرين انقلبت كلَّ الخططٍ وعصفت بها الثورة إلى حيث لا رجعة، فقد انتهت وإلى الأبد مشاريع ربط العراق بالهند وتقسيمه، فكان تشكيل أول حكومة عراقية برئاسة عبد الرحمن النقيب[٢] (٢٥/ تشرين أول/ ١٩٢٠م)، وتتويج فيصل ملكًا على العراق (٢٣/ آب/ ١٩٢١م)[٣]، واستعاضت بريطانيا عن صكِّ الانتداب بمعاهدة تحالفٍ مع العراق (١٩٢٢م)[٤].

وبرز في تلك المرحلة دور النفط في سياسة السيطرة البريطانية على العراق واستخدمه في دائرة

---

١. عُصبة الأمم League of Nations: هي إحدى المنظَّمات الدولية السابقة التي تأسَّست عَقِب مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩م، والذي أنهى الحرب العالمية الأولى التي دمرت أنحاء كثيرة من العالم وأوربا خصوصًا، وهي أول منظَّمة دولية هدفت إلى الحفاظ على السلام العالمي. للمزيد، يُنظر:

The New Encyclopedia Britannica, New York: Vol.VI, p.244.

٢. عبد الرحمن النقيب (١٨٥٤-١٩٢٧م): من رجال السياسة والحكم في العراق، ولد في بغداد وتعلَّم فيها، وتولىَّ نقابة الأشراف فيها، تولىَّ أول وزارة عراقية بعد ثورة العشرين، ثمَّ بعد تولِّي فيصل الأول عرش العراق تولىَّ رئاسة الوزارة مرتين، عُقدت في عهدهِ المعاهدة العراقية . البريطانية عام ١٩٢٢م. توفي في بغداد عام ١٩٢٧م ودفن فيها. للمزيد، يُنظر: كحالة، عمر رضا، معجم المؤلِّفين، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٧م)، ج٥، ص١٥٦.

٣. الملك فيصل الأول (١٨٨٣-١٩٣٣م) (١٩٢١-١٩٣٣م): ولد في مدينة الطائف في العشرين من أيار عام ١٨٨٣م. ودرس في أسطنبول، شارك في الثورة العربية الكبرى التي اندلعت في العاشر من حزيران عام ١٩١٦م، إلاَّ أنَّ الفرنسيين أزاحوا فيصلاً عن عرش سوريا بعد موقعة ميسلون في الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٢٠م، وفي آذار ١٩٢١م رشَّحت بريطانيا فيصلاً ملكًا على العراق في مؤتمر القاهرة، وفي الثالث والعشرين من آب ١٩٢١م اعتلى عرش العراق. توفي في ليلة السابع على الثامن من أيلول عام ١٩٣٣م. للتفاصيل، يُنظر: التكريتي، عبد المجيد كامل عبد اللطيف، فيصل الأول.. ودوره في تأسيس الدولة العراقية الحديثة (١٩٢١-١٩٣٣م)، (بغداد، ١٩٩١م)، ص ص١٠-١٥.

٤. حافظ، م. ن، ص٦١.

مساوماتها السياسية معه، وهو دور لا يقلّ عن الاعتبارات الاستراتيجية التي كانت تشغل أذهان المسؤولين البريطانيين تجاه العراق، وكان خبراء النفط البريطانيون قد درسوا إمكانيات العراق النفطية منذ السنوات الأولى من القرن العشرين، وبعد الحرب أتم أولئك الخبراء وضع تقارير شاملة لأغلب مناطق النفط في العراق[١]. وغَدَت قضية النفط وامتيازاته في الحِقب اللاحقة، أحد أبرز صور الوجود البريطاني في العراق ونفوذه واستغلاله.

الخاتمة

لقد كان الجانب المادي الاقتصادي السبب الكبير والواضح من وجهة النظر الاستعمارية في احتلال بريطانيا المناطق المختلفة من العالم، خاصةً المنطقة العربية ومنها العراق، وفق إستراتيجيةٍ بُنيت على أساس الأسواق الجديدة والمواد الأولية المعدنية منها، والزراعية إضافةً إلى أهمية الموقع الإستراتيجي والدفاعي الذي يدخل ضمن الحفاظ على هذهِ المصالح.

إنَّ اهتمام بريطانيا بالعراق قد سبق تدخلها العسكري المباشر فيه، ولكن بعد الحرب وبعد نزول القوات البريطانية في ولاية البصرة في شهر تشرين الثاني ١٩١٤م، وجدت السلطات البريطانية، وخصوصًا وزارتي الخارجية والهند واللجنة الوزارية للشؤون الشرقية، أنَّه لا بدَّ من التفكير في مستقبل الولايات العثمانية الثلاث: البصرة، بغداد، الموصل. وقد ازدادت الحاجة لبلورة سياسة مُحدَّدة على هذا الصعيد مع التطور في المعارك الحربية وتوسيع القوات البريطانية في احتلال أراضي ما بين النهرين (Mesopotamia)، وقد كانت هناك أسبابٌ مهمةٌ أخرى لاهتمام بريطانيا بالعراق، ومنها:

أولًا: إنَّ موقع العراق الإستراتيجي بين الشرق والغرب، كان عاملاً جوهريًا وأساسيًا في توجيه انتباه البريطانيين وتحديد مسارات تغلغلهم ونفوذهم فيه، أنَّه قلب الشرق الأوسط، وخطورة موقعهِ هذا تُفسِّر جوانب من صراعهِ الطويل مع قوىً أجنبية عديدة.

ثانيًا: كان الموقف السياسي في العراق أثناء القرن الثامن عشر يساعد على تغلغل النفوذ البريطاني، فقد كان المماليك يحكمون العراق منذ العام ١٧٠٤م، وكان هؤلاء رغم تبعيتهم الاسمية للسلطان العثماني ينفردون بالحكم في العراق؛ ولذلك هم بحاجة إلى المساعدة وتأييد دولة كبرى ضدَّ أيَّة محاولةٍ من جانب السلطة العثمانية لإرجاع نفوذها المباشر في العراق، وفي الوقت نفسهِ ضدَّ محاولاتٍ فارس في بسط نفوذها على العراق. وقد نَتَج عن ذلك تقارب بين ولاية بغداد والسلطات البريطانية في بومباي، فقد وافق ولاة بغداد على تطبيق قاعدة الامتيازات

١. م. ن، ص٦١.

التي كانت تمنحها الدولة العثمانية للأوروبيين، كما أنَّ بغداد كانت في أشدِّ الحاجة إلى مساعدة بريطانيا لمواجهة الخطر الوهابي الذي ظهر في نجد، جنوب العراق.

ثالثًا: الصراع الدولي: شَهِدت منطقة الخليج العربي منذ بداية القرن السابع عشر صراعاتٍ داميةً بين الدول المتنافسة، فكان الصراع البريطاني البرتغالي ثمَّ الصِّدام البريطاني الهولندي، وانتهت الأمور أخيرًا لصالح السيادة البريطانية في الخليج، ففي أواخر القرن الثامن عشر أصبحت لبريطانيا العظمى الأرجحية تجاريًا وسياسيًا.

رابعًا: العامل الاقتصادي: كان العراق مصدرًا مهمًا للموارد الاقتصادية والمواد الأولية التي تغذي الصناعة البريطانية، كما يُعد سوقًا مهمًا لصناعتها وبضاعتها التي تحتاج إلى أسواق لتصريفها.

خامسًا: الحرب العالمية الأولى: هناك عوامل عدَّة ربطت دخول بريطانيا الحرب العالمية الأولى، بالعراق. ومن أبرز تلك العوامل ما يأتي:

١. إنَّ العراق جزءٌ من الدولة العثمانية التي انضمت إلى جانب ألمانيا والنمسا ضدَّ دول الوفاق (بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية)، فمن الطبيعي أنْ تُهاجم بريطانيا (العراق) بوصفهِ من أملاك الدولة العثمانية، فضلاً عن ميراث الموقع والثروات والخصائص الأخرى التي يمتلكها.

٢. النفط: حصلت بريطانيا في سنة ١٩٠١م من مظفَّر الدين شاه على امتياز التنقيب عن النفط واستخراجهِ في منطقة جنوب إيران لمدَّة ستين سنة، فتشكَّلت شركة النفط الإنكليزية الفارسية، لتتولَّى القيام باستثمار ينابيع النفط في الأراضي الإيرانية، ولمَّا نشبت الحرب العالمية الأولى، تبيَّن للجميع بأنَّ لا سبيل إلى النصر إلاَّ بتأمين إمدادات النفط، إذ أصبح النفط المحرك الرئيس لماكنة الحرب.

سادسًا: كان من الواضح قبل الحرب العالمية الأولى أنَّ العراق قد أصبح من مناطق النفوذ البريطانية المهمة، فتعمَّقت مصالح بريطانيا في هذا الجزء من الدولة العثمانية وتشعَّبت، وكان منها وضع العراق الزراعي وأهميته كمجالٍ حيوي لاستيطان عددٍ كبير من السكَّان الذين يفيضون عن قابلية الهند، وأيضًا أطماع بريطانيا الإقليمية في العراق ورغبتها في احتلال القسم الجنوبي منه على وجه الخصوص وربطهِ بالهند.

لائحة المصادر والمراجع

١. إبراهيم، عبد الفتاح، على طريق الهند، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٤م.
٢. أنيس، محمد والسيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، دار النهضة العربية، د.ت.
٣. آيرلاند، فيليب، العراق.. دراسة في تطورهِ السياسي، ترجمة: جعفر الخياط، بيروت، دار الكشَّاف للطباعة، ١٩٤٩م.
٤. بحري، لؤي، سكَّة حديد بغداد، بغداد، شركة الطبع والنشر الأهلية، ١٩٦٧م.
٥. البزّاز، عبد الرحمن، العراق من الاحتلال حتَّى الاستقلال، ط٣، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٧م.
٦. بولارد، ريد، بريطانيا والشرق الأوسط، ترجمة: حسن أحمد السلمان، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٦م.
٧. حافظ، طالب حسين، النفط والسياسة في العراق، بغداد، دار الكتب العلمية، ٢٠١٧م.
٨. حسين، علي ناصر، تاريخ السكك الحديدية في العراق (١٩١٤-١٩٤٥م)، بغداد، ١٩٨٦م.
٩. حميدي، جعفر عباس، تاريخ العراق المعاصر (١٩١٤-١٩٦٨م)، بغداد، دار عدنان للطباعة والنشر، ٢٠١٥م.
١٠. صالح، زكي، بريطانيا والعراق حتَّى عام ١٩١٤م، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٨م.
١١. العطية، غسان، العراق.. نشأة الدولة (١٩٠٨-١٩٢١م)، ترجمة: عبد الوهاب الأمين، لندن، دار اللام، ١٩٨٨م.
١٢. غازي، علي عفيفي علي، الصراع الأجنبي على العراق والجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، بيروت، دار الرافدين، ٢٠١٥م.
١٣. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، ترجمة: سليم طه التكريتي، بغداد، المكتبة العالمية، ١٩٨٩م.
١٤. لونكريك، ستيفنسن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط، ط٦، بغداد، مكتبة اليقظة العربية، ١٩٨٥م.
١٥. مجموعة من الأساتذة العراقيين، العراق في التاريخ، بغداد، مطبعة الثورة، ١٩٨٣م.
١٦. نظمي، وميض جمال عمر، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤م.
١٧. نوار، عبد العزيز سلمان، المصالح البريطانية في أنهار العراق، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م.
١٨. ويلسون، آرنولد تي.، بلاد مابين النهرين بين ولائين، ترجمة: فؤاد جميل، ط٢، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩١م.
19. Graves, The life of sir Persy Cox, London: 1941.
20. The New Britannic Encyclopedia, London: 1973, vol.33 Mohammed A. Tarbush, The

Role of the military in politics,.. a case study of Iraq to 1941, Isted, London: 1983,.

21. Zaki saleh, Mesopotamia (Iraq) (1900- 1914), Baghdad: 1957.

22. S. H. Longrrigg, Oil in the Middle East, London: Groom Hel, Mltd. 1968,.

23. (40) Stephan H. Longrigg, Iraq 1900 to 1950: Apolitical, Social and Economic History, London: Oxford University Press, 1953,

24. E. M. Earle, Turkey The Greet Power and The Baghdad Railway, A study in Imperialism, New York: 1966,.

25. Encyclopedia Americana, New York: 1968, Vol.28, p.779; Paul Kennedy Randon, The Rise and Fall of the Great Powers, U.S.A: 1987,.

26. J. Hurewit, Diplomacy in the Near and Middle East, London: 1958,

27. -Sir A. T. Wilson, Loyalties, Mesopotamia (1914- 1917), London: 1930,.

factors and developments of Britain›s relationship with Iraq. The sources list includes several books and documents in both Arabic and English, as well as translated books.

Keywords: Eastern Question, Sykes-Picot, occupation of Iraq, British crown jewel, Wilson.

you will explore in detail within its folds.

Keywords: colonization, exploitation, domination, revolution, exclusion, racism.

The Strategic Importance of Iraq for British Policy A Study on the Motivations and Developments of British-Iraqi Relations until the Mandate Period of 1922

Dr. Sabah Kareem Riah Al-Fatlawi
Professor in the Department of History – University of Kufa - Iraq

Abstract:

The colonial competition for new spheres of influence began in the 17th century, subjecting the Arab region to foreign control. The Franco-British rivalry led to the occupation of Egypt in 1882. However, this rivalry appeared to fade when these two nations faced a common threat with the rise of Germany as a strong competitor. This alignment was evident in the Sykes-Picot Agreement during World War I.

While the competing colonial powers declared their apparent goals of liberating the region from Ottoman rule and developing it, their true intentions were to serve their colonial interests. After World War I, as Britain solidified its position in Egypt by declaring a protectorate, especially over the Suez Canal as its naval base in the Middle East, it simultaneously sought other regions for air defense, turning towards Iraq as a central location between Egypt and India.

Thus, British positions materialized based on a clear strategy, driven by British commercial capital, to find markets and resources, such as raw materials, as the region›s strategic and defensive importance grew. This study will shed light on the motivations and developments of British-Iraqi relations until the mandate period of 1922, from the British perspective on Iraq›s strategic importance at the time.

The study includes an introduction and two chapters. The first chapter briefly discusses Britain›s relationship with Iraq and the factors behind British interest in Iraq. The second chapter examines the impact of international conditions on British-Iraqi relations and the factors behind British interest. The study concludes with key findings, summarizing the

spiritual diplomacy, its origins, and its conceptual foundations; the second presents the concept of Abrahamic identity as an important cornerstone of spiritual diplomacy and new colonial projects, and the political projects it entails on the ground.

Keywords: Abrahamic Plan, New Colonialism, Battle of Armageddon, Spiritual Diplomacy, Abraham Path, United Abrahamic States.

What is Colonization?

Author: Guy Pervillé
Translated by Sheikh Jamal Ammar

Abstract:

This research aims, through an analytical approach, to uncover the true nature of colonization by stripping the term of its semantic associations with other related terms such as domination, exploitation, and assimilation. It differentiates between colonization and exploitation, concluding that colonization is a specific means of domination, a special form of exploitation. Colonization is the process of exploiting all the resources of a country by new inhabitants who settle there and form a complete, whole community. This research addresses several important and precise matters, the most significant being the attitude of colonizers towards the indigenous population, whether including them in their project, excluding and expelling them, or assimilating them as laborers. In the researcher›s view, exclusion is the basic pattern of relations between colonization and indigenous populations because major real colonies, which are the most densely populated, do not need the indigenous population, who represent a small minority and can theoretically, are nonexistent. The colonizer considers the land vacant and unoccupied, allowing them to exploit and colonize it as they wish. The research covers many other subjects, which

over Syria and the positive outcomes that widely reflected and achieved those noble goals. The research concludes with a summary of the key findings.

Keywords: Sayyid Mohsen Al-Amin, Syria, France, French Mandate.

Spiritual Diplomacy and the Abrahamic Plan: The New Colonial Project

Prof. Dr. Hiba Jamal Al-Din
Specialist in Political Science - Head of the Department of Future Studies at the National Planning Institute, Egypt

Abstract:

This paper discusses the issue of spiritual diplomacy and its use as an entry point for a new colonial plan in the region. It aims to employ spiritual diplomacy to alter the political view of religions as both a source of conflict and a solution, by merging common religious elements to form a new Abrahamic identity through religion, tourism, and culture that supports the concept of Abrahamic family and brotherhood. This is meant to achieve global religious peace with the true goal of creating an intellectual and psychological environment that accepts the colonizer under a religious guise within a political colonial project, ensuring domination, sovereignty, and central control by Zionist Judaism supported by global Christian Zionism.

In this context, the paper will try to explore the derivation of spiritual diplomacy and what is called Abrahamism as a colonial scheme using new religious tools. This will involve examining sub-questions such as: What is the concept of spiritual diplomacy and its foundational principles? Does Abrahamism, as a term describing the Abrahamic religions, relate to spiritual diplomacy? What is the proposed Abrahamic identity and how can it be translated? What is its primary purpose? Have there been political projects implemented or proposed on the ground that apply this concept? How can it be considered a colonial project with a religious guise?

The paper is divided into two parts: the first discusses the concept of

the primary carrier of the educational issue? What were the educational conditions at Al-Zaytuna University before and after independence? What methodologies were followed to ensure the continuity of the Arabic language? And what were the colonial roles towards the Arabic language?

Keywords: Arabization, Westernization, Al-Zaytuna University, linguistic colonization, French colonization.

The Role of Sayyid Mohsen Al-Amin in Confronting the French Colonization of Syria

Dr. Marah Rafea Al-Barghash
Specialist in Modern and Contemporary History - Faculty of Arts and Humanities - Damascus University - Syria

Abstract:

The Syrian lands witnessed pivotal developments and events in the political, economic, social, and intellectual-cultural fields, particularly with the onset of the French armed forces› incursion into these territories and the French authorities› adoption of varied colonial policies to implement their plans. They achieved a portion of their political and economic objectives, which faced substantial opposition and resistance. The struggle extended beyond Syrian military forces and revolutionary fighters to include all segments of society, including scholars, leading to confrontations, revolutions, battles, and both armed and peaceful resistance movements.

Therefore, this research aims to reveal and clarify the leading roles and significant contributions of one of the most prominent scholars of his time, the encyclopedic reformer Sayyid Mohsen Al-Amin, in opposing colonization throughout his life, striving for the rise and elevation of the Arab and Islamic nations. The research will briefly cover his birth, upbringing, writings, and impact, followed by a discussion of his roles (political, religious, cultural, and economic) during the French mandate

he Debate between Arabization and Westernization in Tunisia

How Did Al-Zaytuna University Face the French Colonial Linguistic Policies?

Dr. Naji Al-Hijlaoui
Lecturer at the Higher Institute of Islamic Civilization - Al-Zaytuna University - Tunisia

Abstract:

Understanding the historical roots behind the linguistic crisis caused by French colonization in Tunisia can help address the complexities of such a crucial issue. It was evident that Al-Zaytuna education during the colonial period, in particular, suffered from intense competition as the French language began to invade all academic curricula. When the colonizers attempted to take control of Al-Zaytuna education, the popular movement, especially the student movement, resisted strongly. After independence, the Zaytuna community continued their struggle to support the Arabic language and deepen the link between education and the Arab-Islamic identity. Despite the overall unification of the academic field by the national state, Al-Zaytuna education—primarily based on the Arabic language—continued to suffer from marginalization, weakness, and a lack of motivation. This can be attributed to two factors: an intrinsic factor due to tradition and conservatism, and an extrinsic factor represented by colonial oppression, marginalization, and processes of linguistic and cultural Westernization.

The hypothesis of this research revolves around revealing the conditions of the Arabic language in Tunisia before and after colonization. This is done by analyzing the components of the adopted educational issue and illustrating colonial plans aimed at erasing the features of the Arabic tongue and its associated civilization. Concurrently, the research sheds light on the role of Al-Zaytuna Mosque, which later became a university that upholds the values of Arab independence and authentic Islamic culture. It has been said about this distinguished academic institution: «Al-Zaytuna Mosque is the earliest educational institute of Arabism and the oldest in history.»

Therefore, this research will adopt an inductive and critical approach to achieve the aforementioned hypothesis. In this context, we will try to answer the following questions: What are the conditions of the Arabic language as

Political, Social, and Economic Conditions in Syria before the French Occupation

Prof. Hossam Jamil Al-Naif
Specialist in History - Faculty of Arts and Humanities - Syria

Abstract:

France›s interest in the Levant dates back to the 4th century AD, with convoys continuously moving back and forth, achieving substantial prosperity through French trade with the East. Aleppo became a significant center for a prominent French consulate. France extended its influence into Damascus through missionary expeditions (Jesuits) or Jesuits, which France sent to the region to spread specifically Catholic Christianity, thereby ensuring influence and interests. The influence of these missions increased in attempts to convert Muslims. French economic institutions also played a significant tangible role; they established commercial relations with the Ottoman Empire, contributing to the penetration of French capital into Ottoman projects. France thus secured a prestigious position in industry and trade, which impeded national laws and brought losses and misery to the state. Through various factors and conditions, France occupied Syria, monopolizing economic affairs and placing them in the hands of most French financiers. This led to weakened and stagnant trade, widespread unemployment, and widespread suffering from hunger and deprivation.

This study is divided into an introduction and several sections, the most important of which include: the conditions in Syria under the Arab government, French interest in the Levant before World War I, the French mandate policy in Syria, French plans regarding the Alexandretta region, resolving international disputes over mandate issues, among other important topics.

Keywords: French mandate, Ankara Agreement, Alexandretta, missionary expeditions, Winston Churchill.

The French Colonization of Egypt in Its Temporal and Spatial Contexts

(Backgrounds - Causes - Field Events - Effects and Results)

Dr. Ghaidan Al-Sayyid Ali
Specialist in Islamic Thought - Professor at Beni Suef University - Egypt

Abstract:

This research focuses on the French colonization of Egypt (1798-1801) within its temporal and spatial contexts, aiming to uncover the historical backgrounds and strategic objectives behind the French campaign in Egypt. It attempts to grasp the political, economic, social, and scientific conditions of Egypt at the time of the campaign›s arrival and compare them to the conditions in France. The study seeks to identify the real reasons behind the French campaign to occupy Egypt. Furthermore, it highlights the significant effects and consequences of the campaign›s presence in Egypt in general, emphasizing that the true nature of colonization is reflected in its goals and malicious intentions. These included the plundering of Egypt›s wealth and resources, exploiting its excellent geographic location to achieve France›s colonial ambitions, the West›s fervent desire to suppress the emerging Islamic awakening in Egypt and the Levant, and the theft of scientific treasures, which was the campaign›s greatest tangible gain, as Egypt was then the world›s richest country in books. Additionally, the study underscores the campaign›s aim to spread innovations, immorality, and debauchery among the nation›s people to obscure their Islamic identity, facilitating control over them.

Keywords: French campaign, colonial conflict, theft of scientific treasures, administrative councils, colonial ambitions.

The Role of the Hawza in Shaping History: Fatwas of Jihad Thwart Conspiracies against People and the Country

Mohammad Amin Al-Kurani
Specialist in Islamic History - Lebanon

Abstract

The Hawza has played a significant role in defending Islam and leading contemporary change movements. It has been pivotal in stirring social and political climates. This significant role is reflected in numerous stances, most notably mobilizing the masses and providing them with weapons against Wahhabism, issuing fatwas of jihad to expel the Italian invaders from Libya, resisting the Russian forces when they bombed the shrine of Imam Reza (A.S.), and issuing fatwas to resist the British occupation of Iraq, participating in the Najaf revolution of 1918, and the 1920 revolution, demanding the establishment of an Arab state and government, opposing communist expansion, and prohibiting the killing of Kurds. The research touches upon many issues related to this matter, most importantly the role of religious institutions at the end of Ottoman rule and the beginning of foreign occupation, shaping the landmarks of the great 1920 revolution in Iraq, and its role in contemporary times in supporting the resistance against Zionist occupation in Palestine.

Keywords: Hawza, Mohammad Kazem Al-Khorasani, Jihad, Tobacco, Resistance, Occupation, 1920 Revolution.

ترجمة ملخّصات المحتوى بالإنجليزيّة

Summaries of Researches and Articles

Publishing Guidelines

the title of the research, the author's name, and the author's institution, as well as the email address and contact information. An English abstract should also be provided.

7. Footnotes should be placed at the bottom of each page, and all references and sources must be listed at the end of the research.

8. As for the method of writing references and sources, it should follow the globally recognized Chicago citation style, which includes the following order: the author's last name, first name, the title of the book, translator or editor (if applicable), edition number (if available), publication place, publishing house, and year of publication. For articles, the author's name should appear first, followed by the title of the article, the name of the journal, issue number, date of publication, and the page number.

9. The research should include a separate list of references and sources, distinct from the footnotes. If there are sources in non-Arabic languages, they should be listed separately from Arabic sources, and arranged alphabetically by the authors' last names.

The researcher must attach a signed declaration in the following format:

To the editor of Colonialism Journal,

I, the undersigned…… (researcher's name)……., acknowledge that the content of my research, entitled…….. (research title), is original, complete, and has not been published previously. I grant your esteemed journal the right to publish, translate, and distribute this work in printed and electronic formats.

10. The researcher has no right to request the withdrawal of the research after it has been submitted to the editorial board for review.

11. Submitted research papers will be subjected to the Turnitin plagiarism detection software. If plagiarism is detected, the research will not be considered for publication, and the researcher will be notified.

12. Research papers recommended for publication by the reviewers should be revised according to their notes before being finalized for publication.

In the name of Allah, the most gracious, the most merciful.

Publishing Guidelines

Colonialism Journal welcomes the publication of original scientific research according to the following scientific and methodological standards:

1. The journal publishes original scientific research and peer-reviewed studies that align with the identity of the journal—research that addresses colonialism and its contemporary manifestations globally.
2. Research that critiques both old and new colonialism, including post-colonialism, and elucidates the distorted image of colonialism by providing clear analysis and description.
3. The research must not have been previously published in any other journal, or electronically. The researcher must pledge that the work is independent and not submitted elsewhere. If the research was previously presented at a conference or seminar, it must not have been published as part of its proceedings.
4. All submitted ideas reflect the author's opinions and do not necessarily represent the views of the journal. The order of published articles is not related to the merit or value of the research, and does not imply any preference for the authors.
5. Research must be written in Arabic and submitted electronically in both Word and PDF formats. The research must not exceed 7,000 words, in Simplified Arabic font. The pages should be numbered sequentially.
6. An abstract of the research in Arabic should be provided at the beginning, not exceeding 300 words. The abstract should include

Magazine letter

A study of the issues of old and new Western colonialism for countries and peoples, and the post-colonial period, strengthening that with documents, and clarifying the motives and colonial goals from political, economic, educational, cultural, and intellectual aspects.

Revealing the aggressive nature and the brutality of military colonial wars, and their destructive effects on colonized countries and the killing of their people, and the cultural invasion's effects on cultural, religious, and social identity, and the insistence on citizenship, and the complications of values, and the distortion of awareness, and the promotion of differences and the growth of divisions and sectarianism, and the deepening of internal conflicts and sectarian and religious strife, and the spread of crises and their effects until the present day, and the emergence of new forms of colonial policies, and their different forms and the use of soft power, which contributes to understanding the other, the reality, and the formation of a national awareness of the present and the future.

The magazine does not neglect the role of religious, intellectual, scientific, literary, civil, and political resistance in confronting the colonial project, and the history of the peoples' renaissance and their efforts in facing the Western colonial threat.

Colonialism

A journal specialized in analyzing and critiquing old and new colonialism and post-colonialism.

Issued by the Islamic Center for Strategic Studies.

ISSN: 2767-2024

Editor-in-Chief

Dr. Hashim Al-Milani

Managing Editor

Dr. Ammar Abdul-Razzaq Al-Sagheer

Editorial Secretary

Dr. Furqan Al-Husseini

Editorial Board

DR. Hassan Abdallah Hassan –Egypt

Dr. DR. Mahmoud Haidar Lebanon

DR. Sheikh Jamal Ammar -Researcher in Islamic thought and western thought.

A. Sheikh Hassan Al-Hadi. Researcher in Islamic thought and professor at the religious seminary in Lebanon

Dr. Yahya Abu Zakaria - Professor of Islamic Civilization, University of Tunis.

Dr. Yassine Shihab Al-Bajwani-University of Kufa , College of Arts, Iraq.

English Language Proofreading

AL. Fadhil Shihan

Arabic Language Proofreading

Dr. Fadhaa Thiab

Contact Information

Website : http://www.iicss.iq

Journal Website : colonialism.iicss.iq

Email : info@colonialism.iicss.iq

١

Colonialism

A journal specialized in analyzing and critiquing old and new colonialism and post-colonialism.

Issued by the Islamic Center for Strategic Studies.

ISSN: 2767-2024

The views expressed in this journal do not necessarily represent those of the center.

Colonialism

quarterly journal
dedicated to the analysis and critique of old and new forms of Colonialism,
as well as post-colonialism

Autumn – 2024 A.D.
rabie alakhar – 1446 A.H.

Issued by
The Islamic Center for Strategic Studies
Committed to Religious Strategy
Al-Najaf Al-Ashraf

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
يعنى بالاستراتيجية الدينية و المعرفية
http://www.iicss.iq

colonialism.iicss.iq
info@colonialism.iicss.iq
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2767 لسنة 2024م